
جائزة البوكر الروسية عام 2005
دينيس جوتسكو
دون طريق.. بلا أثر
ترجمة: أحمد صلاح الدين
المركز القومي للترجمة
3305
سلسلة الإبداع القصصي

# الإهــداء

**إلى خيري شلبي...**

غادرت عالمنا ولم تعرف أن مكتبتك كانت بوابتي التـــي رأيـــت من خلالها العالم الذي أحب وأريد، وتشكل منها الحلم. ما زالت عبارتك الأثيرة تتردد في روحي ولا تغادرهـــا: "أنـــت حيـــث تضع نفسك!".

**إلى ألسو أبدولوفنا...**

أستاذتي التي علمتني اللغة الروسية. أدين لـــك بـــالكثير، معـــك بدأت الرحلة، من الحروف حتى قرأت أعمالاً طالمـــا عـــشقتها للمرة الأولى في لغتها الأصلية، أتذكر دائمًا كيف كنـــا نقـــضي الساعات في قراءة "الحـــرب والـــسلام" لتالـــستوي، "الجريمـــة والعقاب" لداستيفسكي، "المفتش العام" لينيكالاي جوجـــول. لـــولا وجودك إلى جواري، لما هانت عليَّ الغربة، ولعجزت وحـــدي أن أتحمل الألم الذي اعتصر قلبي لفراق أمي وأبي. لك في قلبي عرش وفي عقلي تاج، وفي كل حرف مما أصنع نصيب.

**إلى أناتولي بتروفيتش...**

توليك، صديقي الحبيب، أول من استقبلني عندما وطأت قدماي موسكو للمرة الأولى، أذكر وقتها أننا تواصلنا من خلال بعض الكلمات الألمانية؛ لأني لم أكن أعرف الروسية بعد، وأنت لا تعرف الإنجليزية، أول كلمة كانت بيننا كلمة فرويند (صديق)، والتي صارت عنوانًا لما صار بيننا واستمر حتى يومنا هذا. درست معك تاريخ روسيا، وعلمتني كيف يكون الإنسان إنسانًا، وأن التاريخ الحقيقي تكتبه القلوب.

**إلى برنارد شو...**

كنت بعد صغيرًا حينما قرأت كلامك للمرة الأولى، لكني لم أنسه. أحاول أن أحافظ على نفسي نقيًّا حتى أستطيع أن أرى العالم، أبذل قصارى جهدي حتى لا أستسلم للظروف، وتهزمني الحجج، ربما أقبلها إلى حين، حتى أخلق ظروفًا تسعني، لأبدع نفسي من جديد كل يوم.

أحمد صلاح الدين



# مأساة الإنسان العادي

تأتي ذكرى تأسيس الاتحاد السوفيتي يوم ٣٠ ديسمبر من كل عام، حيث تأسس في ذلك اليوم من عام ١٩٢٢. الاتحاد السوفيتي، تلك اليوتوبيا التي ذهبت مع الريح. ورغم مرور كل هذه السنوات، فإنَّ سقوط الاتحاد السوفيتي لا يزال سؤالاً محيرًا، لم يجد إجابة شافية حتى الآن. وربما هنا يكمن سر إعجابي برواية دينيس جوتسكو "دون طريق.. بلا أثر"، منذ أن قرأتها للمرة الأولى منذ عدة أعوام؛ فهي تتأمل التجربة من منظور إنساني مختلف، وتلقي الضوء على مأساة الإنسان العادي في عالم يتشكل وينهار دون أن يلقي له بالاً. ميتيا (ديمتري) استيقظ ذات يوم ليجد أن وطنه لم يعد له وجود، اختفى من الخريطة في لحظات. صار مواطنًا أجنبيًا في بلد ولد وتربى فيه، يتحدث لغته، ولا يعرف له وطنًا غيره. إنه يقف عالقًا بين عالمين، عالم تشكل فيه ومنه وجدانه، كبر فيه وكبرت روحه، وعالم يراه بعينيه لكنه بعيد. رواية دينيس هي محاولتي الثانية أن أجيب عن هذا السؤال المحير- الاتحاد السوفيتي- بعد عمل الحائزة على جائزة نوبل سفيتلانا ألكسييفيتش "صلاة تشرنوبل". الإنسان العادي يقف مجددًا أمام عالم لا يرحم، عاجزًا قبالة واقع فرض عليه، واقع لا يكترث به، وربما لا يراه من الأساس. أومن تمامًا بما قالته لي يومًا الدكتورة رضوى عاشور، إن الأدب لا يكذب، ولو كذب فكذبه صدق، كما أشعر بالامتنان لصديقي العزيز دينيس جوتسكو، كاتب العمل، لأنه منحني هذه الهدية القيمة، وأعطاني الفرصة

لمواصلة البحث عن إجابات للأسئلة المحيرة التيَ تمس الإنسان في هذا العالم الذي يبدو عبثيًا غامضًا لا يكترث بمصائر البشر. لم تكن ترجمة الرواية بالأمر السهل؛ فقد بدت لي مثل بوميرانج فني، يحلق في دوائر بلا نهاية، داخل وخارج الشخصيات، راصدًا أدق التفاصيل، بلغة غنية، تتنوع بين البساطة، والتعقيد، والرمزية، والإحالات اللانهائية.



# كلمة الكاتب إلى القارئ العربي

عزيزي القارئ! إنه لأمر غريب أن أتواصل معك باللغة العربية... أتساءل: هل كان لي وحدي، بلغة عمر الخيام وعبد الله الرودكي، دون عون من مترجم، أن ألقي التحية وأقول: "شكرًا". لكني فعلت من خلال مترجمي. شكرًا لك، عزيزي أحمد صلاح الدين، لأن بإمكاني الآن، من خلال صوتك، أن أقول الكثير باللغة العربية. من الصعب أن أنسى توجيه الشكر والتقدير لمعهد موسكو للترجمة والمركز القومي للترجمة في القاهرة، فبدون دعم مادي وتنظيمي، لم يكن للقائي بالقارئ العربي أن يحدث، شكرًا لكم! أتمنى أن توفقوا دائمًا في تقديم كتاب مميزين وترجمات رائعة.

إن الحكم على القيمة الفنية لهذا العمل أمر يرجع للقارئ، لكني أثق في شيء واحد: بالتأكيد سيعثر أي معاصر من العالم العربي هنا على صدى لأفكاره ومشاعره. إلى أي مدى تؤثر البيئة المحيطة، التي ننشأ فيها، في تشكيل هويتنا الشخصية؟! إن قراراتنا ومصائرنا هي طرح المجتمع الذي نحن فيه، كيف يمكن أن نصون المشاعر التي نسميها "الوطن"، حال اجتياح آلة الدولة الجهنمية العمياء سكينة المهد، حاضن الثقافة، بوحشية.

أشعر بسعادة للقائك، أيها القارئ العزيز. ولا يسعني سوى قول إن تجاوز حاجز اللغة الأم أمر عظيم الأهمية بالنسبة لأي كاتب يمنحه أجنحة تحلق به خارج حدود هذه اللغة. في هذا شيء طفولي إلى حد ما – كأن تطلق سراح طفل، وتتركه دون رقابة. كما أن هناك الكثير مما هو راشد

جدًا- مفعم بعزيمة تقتطع بطريقتها ذلك الفضاء، الذي قُضِيَ علينا أن نولد ونعيش في رحابه. ومهما بلغت مهابة التقاليد وعظمتها، حيث تمنحنا الدعم في المرحلة الأولية للفراغ الإنساني "هنا والآن" - فلا شيء يفوق أهمية الاندماج الذي يتجاوز اللوحات والحدود. ما من وسيلة نجاة أكثر من التوحد القائم على المجريات وتصاريف الأمور التي تبدو عابرة وغير ذات شأن، مثل خفقة جناحي فراشة - على مقدرة الإنسان أن يتعاطف مع آخر، يفكر، ويحب، ويكابد في واقع مغاير بلغة أخرى. نهايةً، مهما قمنا بمحاولات مضنية للتجذُّر والاستقرار سنبقى جميعًا غرباء زائرين في هذا الفندق غريب البناء، الذي يبدو سيده جافًا في أغلب الأحيان، لكن هناك احتمال في لقاء أرواح الرفاق، التي يحملها ريح مجنون.

**دينيس جوتسكو، يناير ٢٠١٩**



# أرواح ميتة هائمة

الأرواح الميتة ربما تكون حية، لكنّها حياة كالموت- إنها حولنا، لكن ببساطة لا أحد يراها، أو هكذا يفضلون. عندما اختفى الاتحاد السوفيتي من الوجود، ظهرت العديد من الأرواح الميتة، ألقي بها تحت رحمة القدر. بالأمس كانت جزءًا من دولة واحدة، صارت في اليوم التالي مشردة على اتساع أراضيه: ليس كجزء منه، إنما وحدات مستقلة، غير مرغوب فيها؛ لذا أصبحت أشبه بالأرواح الميتة. صاحب الحظ العاثر، روسي، يعيش على أراضي روسيا، لكنه يملك إقامة في جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق، صار في موقف لا يحسد عليه؛ فقد غدا بلا وطن. تحديدًا من خلال هذا الموقف، يمكن التعاطي مع بطل رواية دينيس جوتسكو "دون طريق.. بلا أثر".

دون امتلاك مدرج الإقامة[١] في جواز السفر، وهو ما يجسد تبعات المثل القائل: "دون أوراق رسمية، أنت مجرد ورقة"، يواصل بطل دينيس جوتسكو الرئيس العيش في روسيا، محاولاً على فترات الحصول على جواز سفر مواطن. هذا المدرج غباء صرف؛ فهو ملزم لجميع مواطني روسيا حتى لو تطلب منهم تغيير جواز السفر لاحقًا. روح ميتة حقًا، وجودها تؤكده وثيقة، تصارع من أجل نيل حقها، الذي لا يرغب أحد في منحه لها. ما برح خط السرد الأساسي يعود باستمرار إلى حل معضلة الحصول على الجنسية، وفي لحظات أخرى يتحول إلى حوارات في الغابة.

---

(١) ورقة تلصق في جواز السفر تفيد بتسجيل الإقامة.

يعيش البطل وسط مشاكل متباينة. أمنية الحصول على جواز السفر لا تفارقه. لكن من جهة أخرى، عليه عدم نسيان احتياجات أخرى. مثلاً، الحصول على لقمة العيش. كيف يمكن فعل ذلك؟ من خلال ممارسة أعمال تجارية أو من خلال حماية من يقومون بأعمال تجارية. في الإمكان إتمام المهام بنفسك، أو أن تقتسمها مع آخرين. هناك من المشاغل ما يكفي مواطن بلا جواز سفر، لو أراد ذلك لن يحرمه أحد من ممارسة الأعمال التجارية في السوق، خاصة لو عمل مع رب عمل، في حاجة إلى أياد إضافية تعينه.

ربما يبدو أن دينيس جوتسكو يستهدف وصف الفترة الانتقالية بين انهيار الاتحاد السوفيتي واستعادة الدولة. وقد انشغل خطاب الكاتب أغلب الوقت بفترة الانتقال إلى الألفية الجديدة، مع اهتمام خاص بانتخابات عام ١٩٩٩. وفي لحظات وعي خاطفة، تذكر جوتسكو الحياة اليومية، ورسم لوحة للماضي بتفاصيله، دون الغوص في حوار متواتر، ممتلئ بكلام فارغ من شأنه أن يشتت ذهن القارئ. ستتضح تفاصيل قصة حياة البطل قرب نهاية خط السرد، وحتى الوصول لتلك اللحظة، لا مفر من جمع النثرات التي ألقاها على صفحات النص.

تهبط الشخصية الرئيسة مرارًا وتكرارًا درجات السلم البيروقراطي لأجل الحصول على جواز السفر الذي لا غنى عنه بالنسبة لها. ومجددًا يتحرر القارئ من العرض السائل لحياة البطل اليومية، باستيعابه لماهية العقبة التالية. ربما عجز الجميع عن تقديم يد العون للبطل الرئيس. سيظل يطوف دون راحة جميع أنحاء روسيا، مدركًا، أن ما من أحد سينوب عنه في حل مشاكله، وأنه أيضًا لن يجد لها حلاً بمفرده نتيجة لكل الظروف المناوئة له. عليه أن يتقرب للناس، ممن يملكون علاقات مع السلطات. هل باستطاعة المسؤولين أن يساعدوه أم لا؟ هؤلاء الذي يصارعون من أجل الحصول على

أصوات الناخبين على صفحات الرواية، ثم ينسون وعودهم، ليعيشوا خارج نطاق مصالح الناخبين حتى موعد الانتخابات التالية.

الأرواح الميتة ربما تكون حية. إنها تظهر حال كان وجودها ضروريًا. عليها أن تتلاشى وتختفي عن الأنظار، عندما لا يصبح لوجودها فائدة. الأرواح الميتة حقيقة لا تموت، إنها تواصل صراعها لأجل إثبات أنها لا تزال على قيد الحياة. سيبقى القارئ في حيرة، هل سيتمكن البطل الرئيس لرواية "دون طريق.. بلا أثر" من الحصول على المدرج المطلوب، الذي بدونه لن يتمكن من الحصول على جواز السفر. يبدو أن السلم البيروقراطي لن يسمح له بالمرور ببساطة، ذلك لأنه، بدون الحصول على رضاه، ربما يكون من المستحيل الصعود من القاع. تكمن غرابة الموقف في أن قمة البيروقراطية مستقرة في القاع، وستستمر على أية حال أن تكون عقبة في طريق سكان القاع، ذلك لأنها أعلى من وجود ما تفضل تجاهله.

**يوليا شتوتينا، صحفية وناقدة روسية**

جاء زمن لم تكن هناك أية فكرة سياسية في القرن العشرين تقارن بالشيوعية (أو ثورة أكتوبر كرمز)، في وقت لم يكن هناك ما يجذب المفكرين الغربيين والناس في العالم أجمع بهذه القوة والعاطفة الجياشة. أطلق ريموند أرون على الثورة الروسية "أفيون المفكرين"، لكن فكرة الشيوعية بلغ عمرها على الأقل ألفي عام. نجدها في تعاليم أفلاطون دولة مثالية عادلة، وفي أحلام أريستوفانيس عن زمن "يملك فيه الجميع كل شيء."... وفي توماس مور وتوماسو كامبانيلا... وأخيرًا في سانت سيمون، فورير، وروبرت أوين.

**سفيتلانا أليكسييفيتش**

ليس بإمكان إنسان آخر أن يدرك أبدًا، إلى أي مدى أُعاني؛ لأنه غيري، وليس أنا.

فيودر داستيفسكي

# الفصل الأوَّل

قُرعت الطبول. قُرعتْ بتعاويذَ مرعبةٍ، ضاعَفَتْ مِنْ أثَرِ البَرْدِ الجبان الذي سيطر عليه مِنْ حنجرته حتى قدميه. اهتزّ الهواء الفاسد على إيقاع الطبول، وتدافعت ظلال سريعةً فوق جَفْنَيْهِ. آهٍ لو كان بإمكانه الفرار! طفا شيءٌ ذو فَرْوٍ، يُشْبِهُ أذناً كثيفة الشَّعْرِ، أمام ناظريه. حاول فتح عينيه عن آخرهما، كي يتمكن من الرؤية، على نحوٍ أفضلَ، ولكن دون جدوى. مرَّتْ من بين رموشه ذات الظلال؛ هاجت أمامه. ما نهاية كل هذا؟ اللعنة! لقد هلكَ. استبدَّ به العطش. اندلعتْ النار في كل مكان، لهب، لهب. في أكوام السواد، على حواف النور والظلام، ظهرت جثث حيوانات نافقة. وبأصابعَ معقودةٍ، انتفض الشامان[1]؛ وقرعت الطبول. مال نحوَهُ أحدُ الأشخاص، ثم سأل إذا ما كان يريد أن يشرب أم لا، لكنه، لم ينتظر إجابةً؛ اختفى. طافَتْ أمامه مجدداً تلك الأذنُ ذاتُ اللحية، ذلك الطَّوْطَمُ القبيح ذو الشعر الكثيف. تمكَّنَ منه الشعور بالخطر، كغبارٍ في يومٍ صيفيٍّ حارٍّ. نما الخوف في روحه وتعالى صداهُ من حيث لا يدري، يحمله هواءٌ حارقٌ؛ تجدّل وتشابك؛ تسللٌ للدم؛ نزع كل قوةٍ. دنَتْ، الظلال تراصت كتفاً بكتف. تلاحمت. فكَّرَ بالهَرَبِ؛

---

(١) سحرةٌ يمارسون طقوسًا لها علاقةٌ بالأرواح، علاج المرضى، التغلب على النار. وتعتبر سيبيريا هي الموطن الرئيس لسحرة الشامان، لكِنْ هناكَ الكثير منهم في أماكن مختلفةٍ من العالم، مثل اليابان، كوريا، والهند الصينية. بإمكان الشامان التواصل مع الموتى من خلال ما يسمى بسيد الشامانات. تحتوي طقوسهم على قرع الطبول وبعض التعاويذ والأغاني الشامانية.

لكنه بدا عاجزًا. قرعتِ الطبول بغضبٍ متزايدٍ. سيطرتْ عليه رغبةٌ في الصُّراخِ: "كفى، أشعُرُ بالرُّعب!.."؟ ضربَ ميتْيًا بكفِّهِ على الطاولة، لتنقلِبَ طفَّايَةُ السجائر وتتطاير سحب رمادية؛ استيقظ. رحل الوسواس، انقطع بفعل نشَّافة المدرسة، التي رسم عليها شياطين؛ فتح عينيه ثمّ اتَّجه نحو مطعمٍ مُعْتِمٍ صاخبٍ ذي أرضيّةٍ قذرةٍ.

- أتريد شرابًا؟

- نعم.

حاولت حمامةٌ- تغطيها القذارة- أن تتعلَّق بالزجاج الباكي.

رُبط فوق القضبان هيكل كامل لجهاز راديو كاسيت بشريطٍ أزرقَ اللون. تنبعِثُ من السماعات أصواتٌ عاليةٌ، تُحْدِثُ إيقاعًا صاخبًا.

سقطتْ قطعة قماشٍ متَّسخة أمام الكوب. يد سيدةٍ عجوزٍ. انغرس الخاتم في اللحمِ. تمكَّنَ بالكادِ أن يسحب يده حركتينِ، سريعتينِ، ومتباعدتينِ. البقعة التي خلَتْ مِن قطعة القماش، صارت كما بعد البكاء، تلمع من أثر ندًى شفافٍ، تسقط قطعة القماش على الطاولة التالية.

تضغط الحمامة على الزجاج مجددًا، لتخفي العين الزجاجية في الريش. غطى الغبار المشرَّب بالمطر فوق الزجاج الحمَامَ حتى بدا دون رقبةٍ، ليصيرَ أشبَهَ بجسد المنطاد. ربَّما أصابه المرض. ما من مشهدٍ أكثرَ إيلامًا من طائرٍ يئِنُّ.

في المقابل – الأذن ذات الشعر. الأذن ذات اللحية.

- اسمع، أيها الزعيم، الجو هنا خانقٌ. أين قوسك، جعبتك، سهامك؟

لم يَبْدُ هياواثا أي ردّ فعلٍ. بدا أن ميتيا لم يعد يُثيرُ الشفقة في نفسه. لم يكن لدى ميتيا أية رغبةٍ اليوم في التنازل. قرر أن يهرب. هوب! – هرب الرجل، طار. قرر أن يكون نفسه: افعل ما تشاء، ستدرك حينئذٍ، ماذا تريد. لكن الغريب – أنه لكي تصبح نفسك، يجب أن تملك صحبة ملائمة، وهو ما لم يكن متوافرًا: لم تُتحْ الفرصة أن يعرف، هل أصبح بالفعل نفسه أم لا؟

- صُبّ!

صبَّ هياواثا واستدار، لكن من باب الحيطة، لمس كأسه بأظافره السميكة المعقوفة. نظر ميتيا للمشهد الجانبي الأحمر للزعيم – وبشكلٍ أدقّ، في أذنه، بفضول سائحٍ شابٍّ، يحاول أن يسيطر على احتقاره للسكان المحليين. في الحقيقة، بسبب تلك الأذن المدهشة فقطْ أجلسه ميتيا على طاولته.

لم يستطع أن يفهم تمامًا، لماذا شذّبَ السوالف بهذا الحرص – مثل شجيرات حديقةٍ إنجليزيةٍ – طالما نمت في أذنيه تلك العناقيد، تلك النافورات الصوفية. كان الشَّعر رماديًا. وصل طوله خمسة سنتيمترات. أطلَّ الشعر من الأذنين في حزمٍ سميكةٍ، تجعد متجهًا لأسفل وانتفش برفق، راقدًا فوق السوالف. ربما، مشطه في الصباحات. ما إن وقعت عيناه على شكله الذي يُشْبِهُ الهنديَّ، المتوّجَ بالريشِ، ممسكًا بغليون السلام، وعبارة "الأمريكي الحقيقي" المكتوبة على قميصه الرياضي، الذي يرتديه تحت سترته، حتى ارتسمت الابتسامة على وجه ميتيا. فهم على الفور: هياواثا – ثم انتقل إلى الشعر الحر.

انفتح باب المدخل، محدثًا صريرًا. دخلتْ مجموعةٌ من حليقي الرأس.

- تمتم هياواثا : لقد عادوا.

- قال ميتيا: اعلم صديقي أحمر الشعر، – (محركًا سيجارته التي لم ينته

منها بعد، بحماس) - كل شيءٍ في هذا العالم رديءٌ. هجرنا الغراب الحكيم. طار اللعين ليلحق بأسلافِهِ. أنا وأنت موتى اليوم، إيبيه. ليت اللعنة تصيبك أيها الغراب الحكيم. هأنذا أوبخك بلغةٍ بذيئةٍ، أيها الغراب الحكيم، كر - كر - كر!

التفت حليقو الرؤوس إلى ميتيا إثْرَ قوله "كر - كر - كر".

-فودكا مغشوشة- قال هياواثا على الطاولة.- لن يشتريها أحدٌ. يتاجرون في الفودكا المغشوشة.

اقترب شابٌ هائجٌ، مرسومٌ على كلتا يديه صليبٌ معقوفٌ. نظر على نحوٍ بدا كأن بإمكانه أن يقلب عينيه ويرى نفسه. نزع كرسيًا من أمام طاولة ميتيا، وحمله إلى داخل البار.

-مغشوشةٌ. طبعًا - مغشوشةٌ.

-صُبَّ، أيها السيد، مغشوشةٌ! - قال ميتيا آمرًا. - فلنحترق أيتها الفئران.

-رزازٌ منعشٌ. اشرب، كأسٌ مملوءةٌ عن آخرها. - تمتم هياواثا محدثًا كأسه.

-ثم، - رفع ميتيا الكأس بوقارٍ- في صحة وجودك داخل الحدود حتى عام ١٤٩٢!

بالطبع، لاحظ ميتيا كيف ينظر هياواثا للمحيطين بحذرٍ، حيث يرى الجميع وجهه، وما كان هناك من شيءٍ يربطه بذلك التافه. لكنه دعاه للشراب، وعليه أن يتحلى بالصبر. شعر ميتيا بالإهانة، لكن كان عليه أن يصبر هو الآخر. ولدفع مقابل هذا الاحتقار السافر لم يبق سوى تلك الأذن المهيبة ذات الشعر الكثيف.

كان من الممكن تضفير الشعر. أو ربَّما لفه ببكرات الشعر طوال الليل. إنها لحًى استقرت في أذن الأقزام. أقزام هنودٍ، على قبعاتهم ريش نسرٍ، تعلو وجوههم ابتسامةٌ شرسةٌ، وأياديهم تحمل فؤوس التوماهوك. في وقت الخطر، عليك ببساطة أن تشدهم من لحاهم.

- نعم، سيدي، أعرف على وجه الدقة. أعرف تمامًا – لكني لا أذكر، ما أعرفه. هيا، لنشرب.

طرق هياواثا بأظافره على الزجاجة الفارغة.

- كلا. أتسمع؟ – دفعه بركبته. – عليك بأخرى.

أخرج ميتيا مائة روبل من جيبه الصدري.

وضع هياواثا المائة روبل في يده وذهب إلى طاولة العمل. تحولت أذناهُ ذات اللحى إلى ذيل حصانٍ رماديٍّ عجوزٍ. يغادر وقد تملَّكَهُ حزنٌ عميقٌ وسط ضبابٍ كدخان السجائر. "ربما لا أوافق روحه، – فكر ميتيا، – ربما اللهجة مجددًا."

لهجةٌ جورجيةٌ، يطرحها فمه تحت تأثير بخار الكحول، تخذل ميتيا دومًا في تواصله مع الغرباء. فضل عادةً ألا يشربَ في حضرة الغرباء: يرتعبون، ينظرون بريبة – ومع مظهره الذي يبدو شبيهًا بأهل ريزان، يشرع فجأةً في التحدث بلكنةٍ مكسورةٍ، وتخرج من لسانه كلماتٌ روسيةٌ عاديةٌ لترقص الليزجينكا[1].

فجأةً تملَّكته الرغبة في رؤية لوسيا. سرَّته هذه الأمنية. إذا ما حضرته هذه الذكرى، وهو في حالةٍ كهذه، يتذكر لوسيا، لم يخسر كل شيءٍ.

---

(١) رقصةٌ روسيةٌ شهيرةٌ.

في ركنٍ بعيدٍ، جاء صوت تحطم زجاج كأسٍ بصوتٍ عالٍ. قفز حليقو الرؤوس من على مقاعدهم صارخين. طارت الكراسي باتجاه البار. ارتطمت رشاشة الفلفل بالجدار، لتسقط خاليةً، وينفك القفل ببطء. اقترب شابٌ من ميتيا، على كلْتا يديه رَسَمَ صليبًا معقوفًا، وبعزمٍ شديدٍ صفعه في ذقنه.

تطايرت الكراسي فوقه، والأباجورات البلاستيكية، التي تناثر منها الحطام والشرر. كادت أصوات الارتطام تسبب الصمم. دقت الطبول في رأسه. صرخ شخصٌ ما بصوتٍ أجشَّ "الشرطة". كان ميتيا راقدًا قرب الجدار، مستندًا برأسه على الزهريةِ المقلوبةِ، شاخصًا ببصره إلى السقف عبر الأوراق الكبيرة الملفوفة. سادت رائحة السماد. استفاق بشكلٍ كاملٍ، نهائيٍّ. أخيرًا، صار في الإمكان إعادة النظر في كل شيءٍ. عندما يوجه لك غريبٌ لكمةً في الفك، ترقد لا تحرك ساكنا تحت الطاولة، من الحماقة أن تتخفى من أفكارك الخاصة. كان المدخلَ – مثل مسوَّدةٍ لإدوارد ليمونوف. الجمل الفنية تمامًا مثل "فلنبدأ الحياةَ من جديدٍ" امتزجت مع كلمة روسية كلاسيكية من ثلاثة أحرف. وتعلقت أجزاءٌ من بيوت العنكبوت، التي هجرها منذ بعيدٍ. أحد أبواب ثلاثةٍ، تؤدي إلى ردهة مسقوفة، – باب موظفي الجوازات. أوراقٌ مهترئةٌ لجداول أعمالٍ، أرقام حساباتٍ، توارت في الظلام على أية حالٍ، لتصعب رؤيتها. طابور انتظارٍ من الساعة الثالثة – الرابعة ليلاً، قائمةٌ من نسختين، الاستقبال يوم السبت، من التاسعة حتى الواحدة. تغيير جوازات السفر. وكما هو معتاد في مثل هذه الحالات، ولدت الإشاعات: قريبًا ستصبح الجوازات القديمة غير صالحةٍ، من يحملها سيتم تغريمه. كان من المفروض القيام بهذا منذ فترةٍ طويلةٍ، لكن للأسف نقضي أوقاتًا طويلة في العمل الشاق – يرسل الناس في مهمات عمل، دون إجازاتٍ. لكن كان لابد من القيام بتسجيل الإقامة. كان على أمي أن تنتقل مجددًا من نزل روضة الأطفال – طوارئ كاملة – إلى النزل الخاص بمصنع

الدعامات – طوارئ بنسبة خمسين بالمائة. عاش ميتيا مستقلاً منذ بعيدٍ، هنا، أو هناك – استأجر شقةً، لكن الأم هي من عانت التشرد. من المستحيل العيش دون تسجيل الإقامة. الحياة دون تصريح بالإقامة – شيءٌ تعيسٌ ومحبطٌ. جواز سفر دون تصريح بالإقامة – مواطنون بلا قيمةٍ: "فلنلعب الاستغمَّاية، أيها السادة رجال الشرطة". كان الأمر كذلك دومًا. في الحقيقة، تغير المسمى في عصر التغيير الديمقراطي من "الإقامة" إلى "التسجيل". دون التسجيل – مستحيل. الحياة دون تسجيل – شيء تعيس ومحبط.

وهكذا خرج ميتيا من نزل روضة الأطفال، ولم يلحق بأمه في نزل المصنع.

الأم أصابها الانكسار: تعال، احصل على جواز سفر. لا بد أن تتسلَّمُهُ شخصيًّا. لكنَّ الأمر لم يَبْدُ على هذه الدرجة من الأهمية. خاصةً أن وقت الفراغ – يومان في الشهر: هناك كثيرٌ من العمل، استقال اثنان من الموظفين، حصل آخر على إجازةٍ. أخيرًا، حملوا جوازات السفر. وقفوا لمدة أربع ساعاتٍ، اخترقوا الصفوف، سلموها.

الآن، يجب الوقوف لمدةٍ مماثلةٍ، حتى نتسلَّم الجوازات – القديمة، السوفيتية – مع الإقامة الجديدة، ثم، وَضْعُ كلِّ ما هو ضروريٌّ: الإيصالات، الصور، الاستمارات، تسليم الجوازات، السوفيتية القديمة مع الإقامة الجديدة، حتى نستبدلهم بالجوازات الروسية الجديدة، حينئذٍ، تدفع مجددًا الرسوم الحكومية في سبير بنك، ثم تملأ استمارة طلب الإقامة، تسليم هذه الجوازات الروسية الجديدة من أجل تسجيل الإقامة.

- أين دورك في الطابور؟

- السيدة التي ترتدي نظارات، أين ذهبت؟

- عليك بالبحث عن السيدة إذن.

هناك فتحة في ركن الغرفة عليها غطاءُ طردٍ بريديٍّ، ثبت في السقف بمسامير. من فتحةٍ أخرى، قريبة من منتصف الجدار، تتدلى ماسورة صرفٍ، بجوارها دولابٌ به بطاقاتٌ مفهرسةٌ، مال نحو الأرض. وضعت موظفة الجوازات جوازه السوفيتي على الطاولة، حيث برزت من بين صفحاته استمارةٌ مطويةٌ.

- لم يسجلوا إقامتك، – ثم خفضت عينها. عينها اليمنى مصابة بحول شديد؛ لذا فهي دائمًا تجلس ناظرةً لأسفل.

- كيف؟

- قالوا أيضًا، إنهم لن يغيروا جواز السفر.

ابتسم ابتسامةً مطاطيةً، أخذ الاستمارة ونظر فيها. "تسجيل إقامة"، – كتبت بالقلم الأحمر خطًّا فوقَها بقلمٍ رصاصٍ أحمرَ. المعدة، كالمعتاد، وكرد فعلٍ على الخبر المزعج، زمجرت غاضبةً. وضع ميتيا الاستمارة مكانها، ووضع جواز السفر في اليد الأخرى.

- ولماذا؟

كانت بالطبع تنتظر هذا السؤال. ردت بإجابة جاهزة:

- اذهب إلى المدير، سيشرح لك كل شيء.

صر الباب. أحس بأنفاس التالي له في الدور في ظهره.

- لا، قولي الحقيقة، لماذا؟

سمع صوتًا آتيًا من خلفه:

- ألم تقل لك: اذهب للمدير؟

استنشق ميتيا الهواء، وكأنه على وشك الانفجار، لكن فجأةً انتابه شعورٌ حادٌّ وجارفٌ بالحزن، واستطاع بالكاد أن يكرر السؤال:

- لماذا؟ تعلمين السبب، أخبريني.

- كفاك! – قال أحد المنتظرين في الطابور متذمرًا. – لست وحدك هنا.

- ننتظر هنا من ليلة البارحة. يا لك من أنانيٍّ!

قالت موظفة الجوازات:

- لا يوجد لديك أية مدرجاتٍ: الإقامة في عام ٩٢ – مؤقتةٌ.

- ما المشكلة أنها مؤقتة؟ في عام ٩٢ – ماذا يعني هذا؟...

وضعت يديها على الطاولة مثل المدرِّسة.

- صدر قانونٌ جديدٌ للجنسية.

- فعلاً؟

تعالت العبارات الساخرة من الردهة:

- ألم يسمع عن القانون!

- قالت: وفق هذا القانون، لست مواطنًا روسيًّا.

زادت حدة التوتر خلف ظهره.

- كيف؟ لست مواطناً؟

بسطت كفيها علامة على أن لا مزيد لديها لتقوله. امسكوا بميتيا من كتفيه.

- انصرف، هيا! قالت لك – إلى المدير!

- قالت الموظفة مؤيدة: حسنًا! أخرجوه!

فتح فمه ليطرح سؤالاً آخر. بينما تتعالى وتيرة الصخب في الردهة مع كل ثانيةٍ تمر. الفيلق الروماني الهائج انتظر صدور المرسوم. انتظر لثانيةٍ أخرى – وستخترق الحراب كتفيك. أخيرًا تذكر:

- ماذا عن جواز سفر أمي؟ هل سجلوا إقامة أمي؟ لديها مدرج.

- سؤال عن أمه هذه المرة! قالها شخصٌ، ينتظر في الطابور خلفه.

- سيقدمون استفسارًا عنها في القنصلية. فقد حصلت على الجنسية في القنصلية.

- آه؟ ربما، – تمتم ميتيا، دون أن يفهم شيئًا، لكنه لم يجرؤ على معاودة السؤال.

- استدار، سار نحو باب الخروج، لكنه دفع الرجل الذي حل محله في الطابور بشيء من التهور، وعاد ليقف أمام مكتب موظفة الجوازات.

- كيف لا أكون مواطنًا، ها؟! كيف؟! أنا أعيش في روسيا منذ عام ٨٧!

في هذا الوقت لم يكن لروسيا هذه أثرٌ على وجه الأرض – بطول وعرض الاتحاد السوفيتي! حسنًا إذن! من أكون الآن؟ من؟ أحمل أية جنسية؟ موزمبيق؟!

أمسكوه من أكمامه، زفروا دخان التبغ في مؤخرة رأسه.

- لماذا تصرخ في وجهها؟!

- يا لك من شخصٍ كريهٍ! تثير أعصابنا على مدار ساعةٍ، وعلينا أن نتحمل في انتظار دورنا!

سار ميتيا في الردهة المعتمة. مارًا بأناس متجمدين قساةً، وصل إلى المدخل، ومنه للبسطة. وجه كلب هجين راقدٍ فوق البسطة في الباحة، مغلق العينين، أنفه موجه نحوه. "حسنا، فكر، ختموه بالشمع الأحمر". حينئذٍ، مثل شاحن بموصلٍ بطيءٍ، انفجر رأسه - وأدرك ميتيا بالفعل، ما حدث للتو. رقد، مائلاً للخلف، بينما يقترب منه صوت هديرٍ آتٍ من وراء ظهره. ملايين من الحوافر تطرق الأرض بقوةٍ، تمزقها، تسحقها لتحولها إلى غبار، كيف حدث هذا، أن تصادف وجوده في مسار هذا الهروب المدمر؟؟ حبس أنفاسه، تحرك للأمام ساحبًا رأسه من خلف الزهرية. وقف رجال الشرطة خلفه. بينما يدخنون، طرحوا أسئلة على الموظفين دون ضجيجٍ. نظر الجميع لأسفل ناحية اليسار، خلف أحد الأعمدة. نظر ميتيا لذات الاتجاه، لكنه لم ير شيئًا، سوى زوجٍ من الأحذية البالية، تعلقت في كعبيه سمكة "جوبي". جلس أحد رجال الشرطة على كرسي البار العالي، فاردًا مرفقيه، وكتب شيئًا ما.

نظف ميتيا البقعة قبالته بحذرٍ من بقايا الزهرية، نهض وتحرك ناحية باب الخروج. حالفه الحظ، لم يلمس أي شيءٍ، كما لم يلتفت إليه أحدٌ.

صعق البرد القارس وجهه بقسوة. ما ورد بخاطره، أنه ربما دارت دردشة بين بعض الناس، وشعر بأنين ذقنه الثقيل. لمس ذقنه - الذي انتفخ قليلاً - ضحك.

تلألأ الليل بألوان إشارات المرور. لمعت أسفلها بقع غضة. مستديرة، منبسطة، ممدودة طولاً حتى منتصف الحي- حسب الزاوية. عند التقاطع، توقف ميتيا، متطلعًا، إلى إشارات المرور، وكيف تؤدي عملها الليلي. أحمر - أصفر - أخضر - أصفر. وكيف أصدرت عجلات السيارات صفيرًا على الأسفلت المبتل، وهي تتوقف متبرمةً مع الضوء الأحمر. ومثل خنفساء كبيرة

قوية داخل صندوق، قرعت بقوة، تراقصت أصوات الموسيقى. أحمر-أصفر-أخضر-أصفر. ارتدى الحراس ملابس تنكرية. في زاوية شوارع تشيخوف وبوشكين، وقفت سيارة شرطة مفتوحة الأبواب، بينما كان فريق الشرطة يشرب البيرة في علب، يناقشون بصوت مرتفع أمرًا مضحكًا. تسلل مسرعًا إلى الزقاق.

كان الوقت متأخرًا، لكن لم يكن لدى ميتيا أية رغبة في النظر إلى الساعة. ربما لو نظر في الساعة لاكتشف فجأةً أن الوقت متأخرٌ جدًا على الذهاب إلى لوسيا في "أبارات"[١] - وبالتالي لن تفتح الباب بعد موعد إغلاقه. أين عليَّ أن أذهب إذن؟ إلى البيت، بجدرانه التي غطتها الزهور الأورجوانية؟ ألقي بنفسي فوق الأريكة أمام التلفاز، أرقد، أغير القنوات حتى أشعر بالملل من تلك الصور الناطقة، ثم ينتهي الإرسال، فيصدر التلفاز صفيرًا، تمامًا مثل صفير إطارات السيارات فوق الأسفلت المبتل، لكن يختلف صوت الإطارات في أنه، مفعمٌ بالحيوية، مثير، يحاكي ضجيج الأمواج. أما صفير التلفاز الرتيب فهو يسبب الاختناق. ترقد وتشاهد بعيني أرنب تلك الشاشة الفارغة، التي تبدو كمستطيل كبير كريه المنظر.

خشي ميتيا قضاء تلك الليلة في الحنين إلى الماضي. والأسوأ من هذا - مشاهدة صور أبيض-أسود من الحياة الماضية.

أحب تصويرها.

مشهد جانبي لمارينا. مارينا بوجه كامل. مارينا، تتطلع خارج الخيمة، بوجه ناعس. لملمت شعرها في ضفيرتين، حقيبة نوم، تجمع مثل أكورديون.

---

(١) اسم الملهى الذي تعمل فيه لوسيا.

ابتسامة مارينا الهادئة، عند خروجها من القاعة بعد أن أنهت مناقشتها للحصول على الدبلوم. سيقان مارينا، التي تبدو كأنها تتهادى على الأرجوحة. جوارب بيضاء، حذاء تنس رياضي. هو ومارينا أمام مكتب الزواج. يوم أن قدموا طلب الزواج. في محاولة منهما أن تبدو وجوههما جدية: كادر للتاريخ. التقط الصورة عابر بشريط لاصق على يده. أخذ الكاميرا رغم أن ذراعه مكسورةٌ، عندما ضغط على الزر، انتفض من الألم. الصورة مغبشة. أشعر بالفضول، كيف صارت الحياة مع هذا العابر الغريب؟ بعد أن أرجع الكاميرا، وعلى بعد خطوتين فقط نسي أمر الشاب، والفتاة التي تقف على عتبة مكتب الزواج، بينما بقيت الصورة للأبد. والذي كان شابًا، وصار اليوم ناضجًا، يتطلع إلى الصورة، ويتذكر الشريط اللاصق، وارتجافه ألمًا، عندما ضغط على زر التصوير. وربما، الأمر ليس كذلك. ربما، تسبب الزوجان أمام مكتب الزواج في يقظة ذكرى ما عند العابر الغريب، لعلهما قد ذكراه بالجبس والتكشيرة. ولسبب ما ظل العابر يذكرهما طيلة حياته. ويجلس الآن في مكان ما، يربت على ألمه القديم الذي يعاوده متأثرًا بحالة الطقس، ويفكر: أتساءل، ماذا حل بهذين الزوجين، اللذين التقطت لهما صورة في ذاك اليوم، عندما خرجت من المستشفى؟ كيف حالهما يا ترى؟

كل شيءٍ، سيكون كالمعتاد. حتى وصل إلى الصور التي تحمل فيها مارينا في يدها الصغير فانيا، خفق قلب ميتيا بضراوةٍ. ذهب إلى الشرفة للتدخين وبعدها لملم روحه، قبل العودة للحجرة مجددًا، كأن ما ترك على الأريكة ليس مجموعةً من الصور، إنما بشَرٌ من لحمٍ ودمٍ.

كلا، لا يمكن. تجنب النظر إلى الصور بأية طريقة. في الصباح، بدت عيناه مسحوقتان كعيني كلب هجين، بينما في العمل بدت وجوه المحيطين –

مثل الأبواب التي أغلقت بقوة أمام الأنوف. عليه أن يجد طريقه إلى لوسيا. دائمًا ما يجد عندها الخلاص.

لو أمكنه الدخول إلى "أبارات" في تلك اللحظة، التي تغني فيها، لوقف عند المدخل. حتى لا يظهر، أو يرتبك – كذلك لأنه يحب أن يتأمل الجماهير، وهم يتجرعون الكوكتيلات، والفودكا على أصوات البلوز.

وبمجرد أن لمحته، بالكاد لوحت له بيدها التي غطاها قفاز رمادي طويل. أو قفاز موف طويل. أحيانًا تحييه فقط بأن ترفع إصبعها من على الميكروفون. بينما يلعب هاينريش شيئًا من ألحان جيرشوين، ستأتي لوسيا إليه في الردهة، تجلس قبالة الطاولة. تلمس ذقنه بذات الطريقة الدافئة التي تفعلها في البيت، تسأل: "أين أنت؟"، وبالطبع، يهز كتفيه – لا شيء، أمور الحياة التافهة. تهز لوسيا رأسها – مفهوم، لا شأن لأحد، ها؟ تملك القدرة دومًا على منح أي رجل فرصة أن يشعر بالجدارة. حتى لو صارت عشيقته، فإنها قادرةٌ على أن تظل صديقة.

لوسيا دائمًا قريبة منه. أو هكذا بدا له. وبعد مرور ست سنوات كاملة لم يتقابلا خلالها، لم يلتقيا ولو لمرة واحدة حتى على سبيل المصادفة، في الطريق، أو في المواصلات. ستة أعوام؟ ثلاثة زائد ثلاثة. ثلاث سنوات مع مارينا وفانيوشا[١]، ثلاث أخرى– مع فانيوشا دون مارينا.

توقف على مقربة من "أبارات" وأشعل سيجارة، بعد أن بحث في جيوبه عن لبان. اختفت الشرائط المطاطية – فقدها. انتابته رغبة شديدة في التدخين، قرر أن لا شيء – سيتآكل. كلا، لم يقلع عن التدخين، كما أخبر

(١) تدليل فانيا.

معارفه كافة. لم يتحمل ذلك لمدة أسبوع. لكنه لم يرد أن يعترف بذلك. دعهم يعتقدوا أنه قويٌّ. هدأ البيانو والجيتار، ليتبادلوا حديثًا جادًّا. انتهى حفل لوسيا. ابتعدت عن الميكروفون، أمسكت كأس الكوكتيل من فوق البيانو، وسحبت رشفة من الشفاط. وقف ميتيا، مستندًا بظهره على حلق الباب. كان الجمهور قليلاً. وفي ركن بعيد، حيث توجد سيدة جذابة، تتناول الآيس كريم، كان أرسين ثملاً. رقد أرسين، كالعادة، فوق الطاولة، عاجزًا عن السيطرة على رأسه. فكر ميتيا – " السيد يلهو".

رأته لوسيا. رفعت سبابتها: "مرحبًا". بعد أن استمع إلى النغمات تخبو، ذهب ميتيا إلى الطاولة، أومأ في طريقه للساقي. ميتيا قليل الحديث مع "فئة" الساقين، كأن الغطرسة معيارٌ لاختيارهم، غارقون في عالَمٍ خاصٍ مغلق، وكأن طاولة البار عزلتهم عن العالم من حولهم. فوق كل طاولة، الخالية منها والمشغولة، اشتعلت أضواء أباجورات متدليّة صغيرة. وضعت الأباجورات على نحوٍ يجعل دائرة ضوئها مسلطةً فقط على مساحة الطاولة. فكر: "لسوء حظه أنه لم يذهب مباشرة إلى "أبارات" لتناول الشراب في الدفء، على أنغام الموسيقى. هكذا – بعيدًا عن الناس، الجماهير. كان أفضل له: ما كان لينحشر، حيث لم يدعُهُ أحدٌ.

بعد أن سحبت رشفتين من خلال الشفاطة، أعادت لوسيا الكوكتيل إلى مكانه فوق البيانو ثم انحنت، همست بشيءٍ لهاينريش. عقد هاينريش حاجبيه، لوى شفتيه. خمن ميتيا: ستغني شيئًا ليس على هوى هاينريش. لكِنْ بينهما اتفاقٌ: أنها ستغني ما يحلو لها مرةً كل أسبوع.

سيسوقني التعجل دون طريق، بلا أثر إلى أغنيتي المفضلة "ميراني".

نادرًا ما أدت لوسيا "ميراني". حتى إن هاينريش يعتقد أن غناء البلوز بالروسية - تمامًا مثل صهيل الحصان. لكن لوسيا أصرت، فدوَّن هاينريش بعض النغمات ليلعبها على المفاتيح. فهو ينفذ ما تطلبه. هاينريش من أولئك، الذين لا يمنحون أو يأخذون شيئًا على سبيل الدَّيْنِ، إنما من هؤلاء الذين يمكنك أن تسأله أن يعطيك سيجارة بعد تمهيد طويل المدى. لكن عندما تقول لوسيا:" هاينريش، ألم يكن باستطاعتك أن تفعل؟" - يبدو، أن هاينريش بإمكانه أن يفعل أي شيء. حينما يكون ميتيا ثملاً ومسرورًا حدَّ الألم. لم يكن لديه من يلقي عليه مرحه، أتى إلى لوسيا. لكنَّ "أبارات" مغلق الآن للإصلاحات. في الحجرات الخلفية، سمع صوت المطارق، وارتطام شيءٍ مسطَّحٍ على الأرض، وتباينت فترات تردد الصدى الآتية من أغطية الأرض نتيجة للارتطام. في الصالة، باستثنائه هو ولوسيا، كان الجميع من الموسيقيين: هاينريش، ستاس، فيتيا - فارينيك. اجتمعوا لعمل بروفة، وسمحوا له بالجلوس لكن بهدوءٍ، على ألا يعطلهم. لم يلتزم. قاطع محاولته الطويلة المضنية أن يلعب توزيعه الخاص لـــ "أوان الصيف"، هدوء عصبي ونكات بلهاء متبادلة.

مر هاينريش بأصابعه على المفاتيح، وكأنه كان يريد العثور على شيء تحتها. انكسر اللحن وتغير حتى صار غريبًا. وقفت لوسيا ليس ببعيد، لتسوي شعرها بالمشط. عند حدوث أي موقف صعب، فإنها تلهي نفسها بشعرها على الفور. صعِدَ ميتيا إليهم على المنصة، سحب الميكروفون بهدوء، مستغلاً اللحظة، وشرع في الغناء:

- تأخذني العجلة دون طريق، بلا أثر إلى ميراني.

- التفت الجميع ناحيته. تبادل ستاس وهاينريش النظرات، وهز هاينريش كتفيه بلا مبالاة.

- سأل ستاس – ما هذا؟

- باراتاشفيلي.[١]

- من؟ آه، لا يهم. – رفع ستاس الهارمونيكا إلى فمه.– حسنًا! ربما لا يبدو الأمر سيئًا. هيا، استمر شفيلي، – ثم لوَّح بشكل معبر لهاينريش، قائلاً، لا شأن لك، اعزف.

رغم أن هاينريش بدا عابسًا، فإنه بدأ العزف، بينما ميتيا، لأول وآخر مرة في عمره، تحت أصوات المطارق خلف الجدار، وعلى أنغام البلوز، غنى قصيدة مألوفة من أشعار باراتاشفيلي. "أسرع، عزيزي ميراني، لن نوقف حريتك ولا عنادك. انثر النسيم على أفكاري السوداء".

---

(١) نيكالاي ميليتونوفيتش (١٨١٦ – ١٨٤٥) أحد أهم شعراء جورجيا، الممثل الأكثر موهبة للرومانسية في الأدب الجورجي.

# الفصل الثاني

أهبت نفسي، ضبطت النغمة. لكن رستوف بدت مذهولة مجددًا، كسقف منهار.

- هاي! اللعنة عليك، أنمت! هيا، هيا!

هاي! لا تتنفس، أو تفكر. ما من وقت للتفكير. عليك بالمواصلة.

- يا لك من أبلهٍ!

يمكن انتظار الأتوبيس التالي بعد ساعة، وإذا فات هذا الأتوبيس، لن تجد أحدًا في مكتب العميد. الجو حارٌّ. تعالى صوت ميكروفون محطة السكة الحديد محلقًا في الهواء، معلنًا عن مغادرة القطار. زغب خشب الحور – ثلج الصيف الوهاج – يطيران من أعلى ومن أسفل. " حان الوقت لاعتياد، أن تنظف نفسك. على أية حال، لم يُصَبْ شخصٌ آخر بهذه اللعنة المعوقة للتنفس. كل شيء يدس أنفه، كما يجب. لكنك، دون شك، تفعل كل شيء بالشكل الخاطئِ!"

لم يتغير شيءٌ: كما في البداية، قبل دخول الجيش، استجابةً للعنة السوق داخل "الأم – روسيا" التي تنهار مشتعلة! – وظن أنه عض شفتيه، كأنه قال ذلك على الملأ. لكنه خمن: الآن كل شيء سيكون مغايرًا، ويجب أن يكون. واستنتج الصيغة الآتية: "أنا روسي، في طريقي لروسيا. أنا إنسان، عائد للوطن".

ربما من الممكن البقاء لمدة أطول في تبليسي مع أمي وجدتي، فمن الصعب الآن الانطلاق إلى روستوف خلال أسبوع بعد الفحص الذي مر به صباح اليوم: ستبدأ الدراسة في كلية الجغرافيا بعد شهر من الآن. لقد أنهيت خدمتك العسكرية في الجيش كأنك في حالة إغماء، وللعودة إلى الحياة الطبيعية، دون العودة إلى وعيك، فهذا أمر يبدو عبثيًا. أو يبدو شبيهًا – بعض الشيء– بمشهد سينمائي، حيث يقفز البطل عاريًا إلى غرفة تعج ببشر يرتدون – على نحو صارمٍ– ملابس كاملةً. لكنه كان متعجلاً.

بقي بالمنزل، ربما لم يذهب إلى المدينة إلا نادرًا. قالت أمه: الأمر لا يستحق. لا أحد يعرف، قالت، ربما جن جنون تبليسي. لا يجب على شاب صغير أبدًا أن يستسلم للوحدة. أليس كذلك؟ خاصةً بعد التاسع من أبريل. داخل جدران البيت، بين الأشياء التي اعتادها طفلاً، الروائح، أحس ميتيا أن هناك شيئًا مفقودًا، لم يعد يشعر أنه في بيته. انتظر بلا طائل أن تنسال عواطفَ دافئة من داخله، نورًا مُبْهِجًا: ها هو يعود. عرف جيدًا، كيف يجب أن يكون الأمر. أن يفتح عينيه في الصباح ويبتسم – السبب، ها هو ذا بيتك – وهج الصباح الساخن يترك أثره على الجدران، هكذا هو الحال تماما منذ عشر سنواتٍ، لكنك، ماذا عنك؟ – صرت إنسانًا آخر، تغيرت، رأيت الكثير– وفي النهاية، تستيقظ لتجد نفسك في مكان ما، لم توجد فيه مصادفة، أو على نحو مؤقت، لكن هنا، أنت في بيتك، بين تلك الجدران التي لا تتغير. يرقد. ينظر إلى السقف، مألوف، تمامًا مثل راحة اليد. ينهض، يسير في الشقة. بينما كان يضحك ساخرًا من نفسه، ملَّس على الجدران. حاول لمسها – لكنه لم يشعر بأي شيء. لا يعرف لماذا بدا له الأمر كأن شخصًا غريبًا يفعل. فاحت رائحة محطة القطار. ها هو – ها هو، القطار يمر كسولاً،

ويدلف بالقرب من الدواليب، وسيسير هو على مقربة منه، ويلمح اللوحات المعدنية الهاربة التي كتب عليها أرقام العربات، - خلف الجدران، من بعيد، انفتحت الأبواب أمام الرصيف، لتظهر مؤخرات بشر، وحقائب. استعد ميتيا على عجل للمغادرة إلى روستوف.

ها هو - يخرج من محطة القطار إلى المدينة الملتهبة، مؤكِّدًا: لم يتغير شيء. القوة الخفية المنسوبة إلى مبدأ أرشميدس، دفعت بجسد غرق في الماء، لكنها لم تمنعه من الحركة.

التهم المساء الذي طال انتظاره السماء البيضاء المتوهجة، حيث يتلألأ الأزرق على قمتها، وأسفلها أشعة ذهبية براقة. دون رغبة في السؤال عن الطريق للمارة العابسين، جال ميتيا حول المجمع السكني لوقت طويل، باحثًا عن زقاق براتسكي. لو كان الوقت نهارًا، لعثر عليه بسهولة، لكنه الآن، جاء من الجهة الأخرى، وتاه. في النهاية، استدار عند طريق الترام للجانب الآخر، بجوار مجموعة من الأسقف المنهارة، وظلال الشرفات التي بدا حجمها مثل علب الكبريت، تعرَّفَ المكانَ. أضواء خافتة بدت كأنها محبرات مقلوبة. الرسومات الملصقة على الجدران صامتة على نحو معبر في أثره.

قرر ميتيا بحزم: سيعيش في روستوف. اللعنة عليه، على النزلِ. عذبه شيء واحد: عليه أن يتصل بالبيت يسألهم أن يرسلوا له مالاً. كل ما أحضره معه من مال، عليه أن ينفقه على السكن. ومن أين لهم بالمال - سيدتان - واحدة دون عمل، الأخرى على المعاش؟ كان عليهم أن يمنحوني مكانًا في النزل، كان على يقين أنه سيعثر على مكان! لكن حل محله آخرون في حجرته، ولا توجد أماكن خالية، ولا حتى مكانًا واحدًا، ولا حتى في الأماكن المتميزة ذات الأربعة أسرة.

- عليك أن تستأجر شقة، - قال العميد سيرجي سيرجيفييتش، الذي أطلق عليه لقب سي سي – حسنًا، لقد استأجرت وأنا في مثل عمرك زاوية خلف الستارة. سرير أطفال دون مسند أو قاعدة.

- نهض واقفًا، ليعطي انطباعًا، أن الحوار انتهى، نظر ميتيا إليه – لم يزد طوله أكثر من الضعف بعد وقوفه – من قدمه حتى رأسه، وفهم ميتيا، أن سي سي لن يسامح العالم على سرير الأطفال الذي كان بلا مسند، وإن تطلب منه أن يفعل أمرًا لا جدوى منه.

خلف محل الحلاقة، ظهرت ذات الأبواب الحديدية، أسرع ميتيا الخطى. وبعد ساعتين من المشي، شعر أخيرًا بالإرهاق، وانتابته رغبة في النوم.

فناء أخرس تشكل من بيوت ملونة. خلال أضواء المصابيح المتأرجحة، سقط شيئان على شكل مخروطي – رداءان كبيران لامعان. ارتجفا، تحركا للخلف، للأمام، في رقصة رتيبة. صرخت الخيوط. واحد – اثنان– صرخة، واحد– اثنان – صرخة. تراكمت أكوام الفحم المكسر في الباحة بعد امتلاء المخزن عن آخره. البيت باحية اليمين، ذكره ببيت المالاكان[1] في مسقط رأسه. أربعة أدوار عالية وسلم حديدي طويل – أمعاء معمارية بارزة، امتدت على نحو ما على الواجهة. عم الهدوء. رفعت القطط التي تقف فوق كومة الفحم رؤوسها لأعلى، ثم نحو الجانب، مثل الجنود المطيعين للأوامر "انتباه". النوافذ مظلمة صامتة. في الطابق الأول، تناثرت أسنان قطع زجاج مكسورة حادة.

---

(١) المالاكان عضو في طائفة روحية مسيحية ظهرت في المسيحية الشرقية في الأراضي السلافية الشرقية.

وقف رجلان في منتصف السلم الحديدي المرتفع عن الأرض. يتطلعان باتجاه ميتيا – أحدهما أحمق كثيف الشعر: يداه مثل نخلة، بطنه كثمرة جوز هند شعثاء. من زاوية أخرى – من أسفل إلى أعلى – تخيل ميتيا فجأةً أن من يقف فوق السلم هو العميد نفسه، وأنه يعيش في هذا البيت. امتدت السراويل "الداخلية" المشدودة فوق السرة، واستقرت الأقدام الحافية فوق الحديد البارد. الآخر، الواقف بجانبه، شخص صغير الحجم مفتول العضلات. برزت خيوط التريكو الزرقاء، من القميص المنقوش المربوط أسفل تفاحة آدم.

اكتست درجات السلم ذات الصدى بالدماء.

ما إن صار ميتيا قبالة الرجلين، حتى رأى أن رأس الرجل البدين كانت مصابة، شعره مخضب بالدماء التي سقطت على كتفيه، على معدته، على قدميه. كان محاصرًا داخل سحابة بخار كثيف. بدا على وجهه الوقح أن هناك فكرة سيطرت عليه. همس له صديقه الرزين بشيء ما لتهدئته، واقفًا على أطراف أصابعه، محافظًا على مسافة بينهما، حتى لا يلطخ بالدماء، مؤخرته التي تزن جرامين. بالقرب من أذن ميتيا تمامًا، حيث لم يكد يصبح أمامهما مباشرة، تردد صوت جهوري – كأن هناك من نفخ في بوق مركب:

- إيـــ – وو! إذن، أنت من مؤيدي النظام الأموي؟!!

ارتبك الرجل الذي يشبه الفأر بشدة، فرد قامته. أصدر صوتًا هامسًا مضطربًا.

- ما هذا؟

- ها!

وبينما بطنه المخضب بالدماء ملتصقًا بالفأر، همس الرجل البدين في أذنه بصوت خبيث، ثم انفجر فجأةً بالضحك.

عجز ميتيا عن الوصول إلى صاحبة المنزل. كانت نافذة المطبخ المواجهة للشرفة لا تزال مظلمة، بينما صوت الشخير الذي يشبه المارش العسكري ظل مسموعًا من خلف الباب. اختفى العملاق كثيف الشعر الذي لا يزال جريحًا، في جوف الممرات، ساحبًا في يده رفيقه، بينما يصب لعناته على السيدة، في حين اجتمعت القطط لممارسة أنشطة ما بعد منتصف الليل. تحول ميتيا من الطرق الخفيف على الباب بأظافره للطرق بقبضة يده بقوة. توقف صوت الشخير فجأةً، ضربت كعوب بقوة مكتومة على الأرض، ووصل مسامعه صوت خطوات مسرعة، كأنها لشخص ينزل عبر منحدر حاد.

- من بالباب؟ أي داهية حضرت؟!

- هذا أنا، أحد النزلاء،- قال ميتيا.

انفجرت شظية خلف الباب:

- أيها اللعين؟ نزيل؟! سأريك أيها النزيل؟ بالممسحة! اذهب من هنا يا ابن الساقطة؟ نزيل! نزيل! يحوم الأوغاد هنا، ليحرمونا من النوم! نزلاء؟!

ابتعدت الخطوات ثم توقفت. صرخت شبكة السرير بحدة، عند استقبالها للجسد المرتمي فوقها. تسمر ميتيا في مكانه في الشرفة المهجورة – تحت القمر رمادي الزرقة الحزين قبالة الأضواء الراقصة. أسوأ ما في الأمر أن الجدة زينا أنفقت ماله على الخمر. فقد كان شرطها الوحيد الذي وضعته عندما استأجر ميتيا الشقة،- أن يكون الإيجار يومًا بعد يوم: "يومًا بيوم فقط، مقدمًا، لا، لا. يوميًا – روبل. هذا أسهل، هل تتقن الحساب". روبل واحد. بالمساء. في يد الجدة زينا أو أن تضعه في سلة الخبز، مخدع الصراصير. أهناك سهولة أكثر من ذلك؟ لم يكن لديه روبلات. لم تكن الجدة زينا بالبيت

عندما غادر. كان يعلم أنه سيعود في وقت متأخر، وضع ثلاثة روبلات في سلة الخبز. ماذا يفعل، إنه ذنب هذا العالم الهش المتقلب. قالت: روبل – يعني روبل. لا تدس أنفك فيما لا يعنيك، كف عن إقحام نفسك، هكذا تدمر: ما هو ضروري. لولا ما حدث، لكان نائمًا الآن بهدوء في غرفته. متى تعود إلى وعيها، فكر ميتيا، وبالمناسبة، هل ستتذكر، عندما تعود إلى وعيها، أنها حصلت على ثلاثة روبلات بدلاً من واحد؟

أعطته عنوانها حارسة في الكلية. نعم، المكان بعيد، في وسط المدينة تمامًا. لكنه رخيص، لن تعثر على أرخص منه. لم يعر الأمر اهتمامًا. تعمل الجدة زينا في حجرة تنظيف الملابس. دعت إليها ساكنًا جديدًا، وانتقلت للعيش في المطبخ. الحجرة بها سرير حديدي، دولاب ملابس طويل. يفوح المكان برائحة الكلور.

- قالت الجدة زينا: "كل شيء سليم، نظيف، – تم نقله إلى هذه الغرفة بعناية، ثم نزعت الملاءة عن السرير.

برقت فوق السرير سحابة بيضاء غاضبة، ملاءة طارت نحو الباب، وفي نفس مكانها، برقت مجددًا سحابة غاضبة، ورقدت واحدة جديدة – ووفق الشعار المكتوب، فقد وصلت تلك الملاءة إلى الجدة زينا من وزارة الدفاع.

- ارقد، عزيزي، استرحْ.

تحتفظ في الدولاب بكل ثروتها، كومة من الملاءات المغسولة في الغسالة المنزلية. غسلتها بعناية ودون تهاون – بحماس، بشغف. انتشر الغبار بكثافة في كل مكان. بعد أن صار وحيدًا في الغرفة، أول ما خطر ببال ميتيا أن يفحص الدولاب. بدت الملاءات كمجموعة من المقتنيات المثيرة للاهتمام:

مقتنيات رسمية ملكٌ للدولة بالكامل. "ممتلكات وزارة الدفاع"، "مستشفى المدينة؟!"، "وزارة النقل".

ربما كان ميتيا الآن يرقد مستمتعًا فوق واحدة من ملاءات تلك المجموعة. يأتي إلى مسامعه صوت موسيقى وصيحات مريعة.

تعرف على صوت هذا الأشعث الأحمق من خلال تلك الضحكة الهادرة. يتبادل الكورس الثمل غناء اللازمة بشكل عشوائي: "الفودكا الروسية، العيش الأسمر، الرنجة". من الغريب أن كل هذه الضجة لم تقلق منام الجدة زينا. بقي صوت شخيرها على حاله موزونًا ثابتًا. عادةً يخطر ببال ميتيا هذا الخاطر: "هذا لا يحدث في بلدي". لكن فجأةً يشعر بالغضب من نفسه. بـــلـــد.ي! الآن، صار المكان، بمجرد وصولك إلى هنا، بلدك – هناك! لكن هذه الفكرة، المتطفلة، التي تسببت في ضيقه وصلت لنهايتها: "في بلدي، لا يصرخون في منتصف الليل، ولا يزعجون الجيران". مرض لا علاج له يعاني منه المهاجرون، يتعرفون إليه حتى من العام الأول من الحياة الروسية – "عقد المقارنات في كل شيء"، – عاوده مجددًا. تدفعه الحاجة إلى المقارنة والإثبات أحيانًا إلى حافة الهوس. تنهد، فكر في أنه لا يملك سلطة على هذا الوسواس، وهكذا تدور الرحى: هناك – هكذا، وهنا – هكذا، وعندهم – كذلك، بينما عندنا – مختلف تمامًا. تدور وتدور. لماذا عندهم هكذا، إذا كان عندنا على خلاف ذلك؟ يخضع كل جديد للمحاكمة والمراجعة الدقيقة: حسنًا، ما هذا الهراء؟ لا مهرب أبدًا من البارانويا، سيقاس ويوزن كل شيء، ولا يخلو أي شيء من الانقسام.

- فاسكا، يا ابن العاهرة! انزل.

هناك احتفال – كرنفال لإسعادي، استعراض لمزاياي ومزاياك. وهكذا يتكشف كل شيءٍ: ببطء، على نحو مسرحي، حتى لا يفوتني شيء. الاحتفال هنا يمثل خطرًا، فهو سريع، جامح. هجوم خاطف. بين الأول والثاني فاصل قصير. هجوووم! سريعًا، سريعًا! انطلقوا واختنقوا. نبحث عن الناجين. سقط شخص من إحدى فتحات برج الرماية، غدًا سيصير بطلاً.

- حكم المرأة؟ لا أسمح!

أضواء تتمايل على الأسلاك التي تُحْدِثُ صريرًا. أكوام الفحم. عيون قطط. ثقب في الزجاج، ملابس منشورة على الحبال المتدلية ليلاً. كرة. كرة زرقاء في إناء أبيض وسط فناء خالٍ. لمس مشهد الكرة الوحيدة قلبه بشكل ما. وليكن. بدا له العالم المفتوح أمامه من الشرفة مزعجًا. مثل شظايا الزجاج المكسور – احترس، ستجرح. كصياح طائر. يسافر الطير عبر نصف العالم، حياته هكذا، هجرة أبدية – وفي مكان ما، في نقطة غير معلومة تمامًا، فوق عجوز مجهول تمامًا، يمارس أمرًا غامضًا تمامًا، يصيح – هكذا بلا أي معنى، يتنفس مثل طائر. أما العجوز فيفرد قامته ليضرب الطائر بيديه، متتبعًا أثره ويبكي.

- فاسكا! لمن أتحدث، انزل!

يبدو، أن الحفل يزداد صخبًا. من غير المرجح أن يستطيع النوم وسط ضجيج كهذا، فمن الأفضل إذن أن يظل واقفًا هنا، في الهواء الطلق، بين القمر والفوانيس. أما الليل، فقد كسى الأرض بغطاء أزرق مرصع بالذهب، يا لها من ليلة بديعة. على اتساع الإكليل الأبيض فوق المدينة، لمع القمر. وجهه، يميل بإعياء لأسفل، وقليلاً على أحد الجوانب، وقد اكتسى بحزن زجاجي مهلك. رائحة أوراق أشجار. فكر ميتيا: " يبدو أن كل شيء دائمًا

يترتب من تلقاء نفسه.– في البداية، يكون الأمر صعبًا، ثم تعتاد ذلك. تتغير. تتغير بطريقة ما، ثم تعتاد".

لا مفر، لا مفر، لا مفر. فعلى كل حال، لن تعود إلى هناك.

تنهد ميتيا وقال للقمر:

– لا شيء، سنعبر.

– أجاب القمر: سنعبر – بصوت أنثوي– ما لم نتمزق.

قفز ميتيا على نحو مفاجئٍ من على الدرابزين، وطرق بكعبه بطريقة راقصة طرقة قصيرة. تعالى صوت الضحكات من الدور الأرضي:

– تيو، كم أنت خجول.

– قال ميتيا مؤيدًا: "لم أكن أتوقع ذلك".

– هذا خطئي، أنا أمشي دائمًا بهدوء.

كان الصوت نديًّا. يحدث حلاوة في الحنجرة، كما لو أنه لم يصل إليه من خلال الأذنين، ولكن كأنه تناوله. شراب حلو سميكٌ. عبر ميتيا الدرابزين ورأى صورة ظلية لفتاةٍ تحته. نظرت إليه وفي بادرة ترحيب فردت أصابعها، وقد استلقت على الدرابزين.

– مرحبًا. خاصمك النوم؟

– هل حقًا ستنام هنا؟

– حقًا. لو واصلوا الغناء لأكثر من هذا – توارت الفتاة عن النظر، سمع خطواتها تصعد السلالم. – ينتحبون كأن هناك من قرصهم.

امتزجت فيها كل الأجناس على نحو رائع. نظرت إلى ميتيا بوجه أوروبي تمامًا - شفاه رقيقة، أنف مستقيم، صنع من الشوكولاتة. الشعر، سابح في ضوء القمر، استقرت على جبهتها هالات فرائية.

- من أنت، مستأجر، أم ماذا؟

المولاتكا هنا، على هذا الدرج العبثي، بدت وكأنها انحراف عن الواقع. الآن ستسير في أعقابها على الدرج الحديدي أفريقيا بأسرها. أسود، زرافات، وفيلة. الماساي[1] برماح طويلة توشك أن تغادر العتمة وتنثر مقلاً سوداء براقة. لكن بدلاً من ذلك قالت:

- واو! أنت خجول سارح.

- قال ميتيا: استأجرت غرفة هنا.

- عند الجدة زينا؟

- نعم.

لا تستطيع إيقاظها، أليس كذلك؟

أيقظتها بطريقة ما.

توقع ميتيا أن تضحك المولاتكا، لكنها ظلت صامتة لبضع ثوانٍ بوجه جاد. قالت:

- حسنًا. تعال عندي.

- ماذا؟

---

(١) جماعة عرقية نيلية تسكن كينيا وشمال تنزانيا.

– هل أنت عنيد؟

نظرت إليه نظرة فاحصة.

– تعالَ عندي. لن تقضي ليلتك هنا واقفًا. وإذا ثملت زينا، لن تستيقظ قبل ثلاثة أيام.

بدأت الحمرة تكسو وجه ميتيا. فكر ميتيا: "من الجيد أن الظلام قد حل – لن يرانا أحد".

- قالت: حسنًا، لماذا احمرَّ وجهك الآن، من كلامي أو من أفكارك؟ أدعوك لقضاء الليلة عندي. هل ستأتي؟

استدارت وتحركت نحو الطابق السفلي. تبعها ميتيا.

- لديَّ سرير واحد. كبير، ليس لديَّ غيره. هكذا، إن لم تخنك رأسك.

- شكرًا، أجاب دون تركيز.

- انتبه، ولا تثرثر، بلا داعٍ. سأخصيك. اسمي ليودا.

عبرا بطول متاهة بجوار الدواليب، الصناديق، أكوام غامضة من المتعلقات، مغطاة بالخرق. بالقرب من الكراسي، أحواض، دلاء الغسيل، التي جاورت الدراجات التي تقف وراء الأبواب، حمالات أسفل أشجار السنة الجديدة. تفتح الغرف على ممرات. حدود المسكن غير متناسقة مع الجدران. تصرخ ألواح الأرضية بكآبة، وهستيريا. انعطفا، ثم صعدا ثلاث درجات، أوقع ميتيا دراجة، ثم استدارا مجددًا، ونزلا خمس درجات. اتضح أن غرفتها في أعماق هذا الرحم الحجري.

- قالت: ادخل، ودفعت الباب وراءها وهي تمشي في المقدمة.

على الباب علقت لافتة من عربة السكة الحديدية "أدلر – موسكو"، تحتها بشكل غير مباشر – شريط ضيق، كالذي يعلق على الزجاج الخلفي للسيارة: "إن لم تكن واثقًا – لا تلحق بي".

دخل ميتيا الغرفة، التي يبدو عليها أنها خرجت من مفرمة اللحم. الفوضى في كل مكان. على الجدران، على كل جزء خال، تراكمت لوحات معدنية لا تصدق: "جميع التذاكر مباعة"، "لوحة مفاتيح كهربائية"، "نظف مكانك، بعد أن تنتهي من الأكل"، "مغلق!"، "طبيب أنف، أذن، حنجرة"، "احذر، طلاء"، "لا توجد بيرة"، "توقف! أظهر تصريح الدخول!" وصورة لشخص جاد يدعى ستيبان سيميونوفيتش خفيسكا، يرتدي رابطة عنق، ذي شارب. ملأت الأشياء الغرفة عن آخرها عنوة، مثل جمع من الطيور يجلس لفترة راحة قصيرة.

– لم يكد يفحص كل شيء بعد – إذا بها تنزع حمالة صدر من فوق مصباح الطاولة، وتلقيها في الدولاب، ثم أغلقت الباب. برزت الحمالة من تحت باب الدولاب. – أرتب الغرفة أحيانًا. لكن لا زال الوقت مبكرًا على ذلك. كن على راحتك.

السرير كبير بالفعل. بيانو. ملابس معلقة على ظهور الكراسي، على مسامير مثبتة في الجدران، على الأرض. أكوام من النوت الموسيقية بين قطع الملابس.

– الآن سأعد لك الحمام لتغتسل – شرعت لوسيا في البحث عن شيء في كومة من الخرق.

– هل تعزفين الموسيقى؟ لم تجب عن سؤال ميتيا، على ما يبدو، اعتبرته سؤالاً منمّقًا– هل تعيشين بمفردك؟

- "أمي الآن في حالة سكر تام، تستمتع في مكان ما. البيانو هنا على الدوام، تخيل؟!

لا أحد يتذكر كيف جاء إلى هنا. إنه مثبت بمسامير. أترى، المسامير، ها هي. أعتقد كان هنا قبل الثورة. من الذى وضع المسامير؟

بينما يتطلع إلى الجدران، سأل ميتيا: أهذا كل ما في الأمر؟

لوحات ولافتات، صورة الرجل الغريب، من كل الأوجه، مع لوحات شرف من المصنع، لا يمكن حتى لقذيفة مدوية أن تمرق بشكل كامل عبر الغرفة حية. أحاطت لوسيا نفسها بأشباح الخزانات، الممرات، ومداخل العاملين، المطاعم. جسد هذا الوضع بشكل رائع مبدأ "إذا لم يكن لديك منزلٌ، فلا خوف من الحرائق،" يبدو أنها اعتقدت أن المشكلة وجدت حلاً. جلست، تهز قدميها على السرير وشدت كتفيها بحدة، ثم ألقت فوقه بمنشفة مفتوحة من نهايتها، بينما تنظر لميتيا بمرح.

- لماذا تحدق في أبي؟ - أومأت برأسها مشيرة إلى الصورة وابتسمت مع رؤية نظرته المرتبكة، ثم غمزت قائلة - أمزح. أبي في أحد الأماكن في أنجولا، لم أره ولو مرة واحدة. ثم قالت مفسرة: أحب جمع الأشياء، ثم هزت كتفيها، وكما يقولون، بإمكانك أن تظن ما تريد، لكني أحب جمع الأشياء - لوحات في الأساس. أحب التقاط هذا النوع، لأني أحببته. أترى، كم هو رائع، لا يشرب الكحول، معتز بنفسه. إنه أب رائع بكل ما تحمله الكلمة من معنى، أليس كذلك؟

- ألديك هنا كل ما يمكن جمعه؟

انتقلت للجلوس على الكرسي، أزالت أغلفة الحلوى من عليه بالمنشفة، ثم وضعت مرفقها على الطاولة، واستقرت واضعة راحة يدها منثنية إلى أعلى.

أجابت لوسيا: لا- ربما فوفا من الطابق الأول - يجمع سدادات البيرة، صوفيا إيلينتشنا- صابون مستورد. آه! يجمع ستيبان الزجاجات. من يوم الاثنين إلى السبت، يجمع، ثم يسلم ما جمعه. ماذا في هذا؟

- ماذا عن الجدة زينا؟

- ماذا؟ لا أعلم شيئًا.

- يبدو أنها تجمع الملاءات.

استفاقت لوسيا.

- كلاا! ما تلتقطته من مغسلتها. لا يمكن اعتباره مقتنيات.

- لماذا؟

- هذا منطقي! - بدا عليها أنها على وشك الانفجار بالغضب. - من الضروري أن تشعر بالفارق. إذا تدرب الهامستر على جمع الحبوب في الجحر، هل يمكن اعتبار أن هذه مجموعة مقتنيات؟ لا بالطبع. احتياطي غذائي. ماذا لو سحب أربعين حبة لامعة؟ هل يمكن حينئذٍ اعتبارها مجموعة، مثلا؟

وحتى لا يتوه ميتيا في أعماق الممر المظلمة، رافقته لوسيا حتى الحمام. بينما كان يغتسل وينظف أسنانه، وقفت هي عند المدخل، واضعة قدمًا عارية فوق صندوق. شعر ميتيا بالحرج من تنظيف أسنانه أمامها، كما أحس كذلك بالحرج من أن يعطي ظهره لها - ولذلك، اتخذ وضعًا معقدًا، وفي الوقت نفسه أخفى ظهره ووجهه عنها. وفي هذه الأثناء، كانت لوسيا تقص عليه حكاية الباستيل - وهو الاسم الذي أطلقته على منزلها - وأن

الرجل ذا الرأس المصاب - الأطيب بين الجيران، لكن حظه سيىء مع زوجته، فهي تضربه بعنف، وأنها تعيش مع والدتها، لكن نادرًا ما توجَد والدتها في المنزل، ثم عاد الاثنان أدراجهما مجددًا عبر الألواح المهترئة التي تحدث صريرًا، وبعد أن أغلقت الباب بالمفتاح وسلسلتين، قالت: "استدر، وبعد ثانية من صرير السرير - نم".

من الشراعة المفتوحة، تسربت طرقات قضبان السكك الحديدية، لتكسر كآبةَ الليل. استلقى، استمع. طرقت بقوة، كأن الطرق تحت رأسه مباشرة. تقع محطة القطار على مقربة من هنا. تمامًا كما هو الحال في تبليسي. في تلك الأيام، التي قضاها في المنزل، بعد أن أنهى الخدمة العسكرية في الجيش، كان غالبًا يرقد هكذا أثناء الليل، ليحدق في السقف الذي يعج بالأشباح ليلاً، يفرك إبهامه بعظمة الإصبع المصابة، التي تشبه جمجمة صغيرة جداً، بينما يستمع إلى صوت القضبان. إنهم يقطعون عهدًا ما. "إلى هناك - إلى هناك، - رددوا، - إلى هناك - إلى هناك ".

ربما كان من الأفضل أن يغير السكن، لكنه سيبقى على أية حال في الباستيل. لقد اتخذ هذا القرار لتوه. طقطقة الليل هنا، هي ذاتها تمامًا، كما في الوطن، عندما تكون النوافذ مفتوحة على مصراعيها بحثًا عن الخلاص من حرارة شهر يوليو، تنتظر أية نسمة هواء باردة بكل شبرٍ من جلدك المحترق من فرط الحر، صفير الصراصير يقاطع صوت الصلب المتطاير."إلى هناك - إلى هناك، تقول القضبان، - إلى هناك - إلى هناك ". هنا أيضًا يقولون نفس الشيء: " إلى هناك - إلى هناك ".

إلى جواره، ترقد لوسيا، وتغط باستمتاع. بداية، غطى شعرها المنفوش خدها الأسمر، ولكن، وبحركة واحدة واعية بشكل مدهش، أزالته عن وجهها،

لدرجة أن ميتيا اعتقد، أنها ليست نائمة. وحتى لا يلمسها ميتيا تحت البطانية، زحف إلى حافة السرير. كان عليه، على أية حال، أن يطلب النوم على الأرض. نظر إليها عدة مرات، ولعن نفسه لأنه لا يليق أن يتطلع إلى نائم. يتذكر حتى كيف، في الليلة الأولى أثناء فترة التدريب في الجيش، شعر بعدم ارتياح مخيف، وتحديدًا، لأن عليه أن ينام هكذا، دون خصوصية، على مرأى من الطالب العسكري المناوب. في وقت لاحق، وعندما صار عسكريًا مناوبًا، حاول أثناء مروره بالثكنات، ألا ينظر في اتجاه الوسائد، إلى الرؤوس الحليقة، ففي ظلام الثكنات، تتشابه الرؤوس كافة، المتساقطة حد دهشة فك متدلٍ. متعجلاً في التخلص من الذكريات غير المرغوبة: "أيها الأحمق! ترقد بجوار فتاة، وتفكر في الثكنات!" – ظل يستند على مرفقه وينظر إليها.

ما من شيء في لوسيا النائمة لا يخطف البصر – الفم الناعس، الشفاه الندية أسفل الأنف. تبدو كأنها أغلقت عينيها لثانية واحدة من الشمس. يراها غريبة. ظهورها في هذا المكان لم يكن أقل غرابة، من بيانو ما قبل الثورة المعلق.

إلى هناك – إلى هناك، إلى هناك – إلى هناك.

في مكان ما في الطابق السفلي يسقط شيء على أرضية خشبية جوفاء، يصل إليه صوت الضحكات وتذمر أحدهم الصاخب. في الباستيل، لا أحد ينام. البيت المجاور قريب جدًا من نافذة لوسيا، لدرجة أن جداره الرمادي القمري أخفى وراءه المشهد كاملاً، تاركًا فتحة ضيقة، ضمت ثمانية نجوم، وطرف كبل برز من الزاوية. تلألأ الكبل الممزق بذات اللون الأزرق الفضي، تمامًا كالنجوم، تصير الكتلة التي فرقت هذه القطرات الثمانية. هكذا سريعًا، سيتوقف ميتيا عن الشعور، أنه يرقد في وضع غير مريح على حافة السرير، فالدم يسري بسهولة عبر الجسم.

"إلى هناك – إلى هناك، تكرر القضبان مجددًا، –إلى هناك– إلى هناك".

حاول ميتيا أن يدلي برأيه، ولكن في الواقع صدمه تحول مفاجئ في الأحداث. بالأمس، في نفس هذا الموعد، كان في تبليسي، راقدًا في الصالة، يحدق خارج النافذة على الصور الظلية المتغيرة للأشجار على درب التبانة، وعلى الشقلبات التي تحدث وميضًا أبيض للخفافيش. اليوم، لم يكد يكمل يومًا واحدًا في روستوف، ها هو يستلقي في غرفة لا تحتمل، بها بيانو مثبت بالمسامير، على مقربة من فتاة مجهولة، لوسيا، المولاتكا[١]! في تبليسي، لم يكن يعرف مولاتكا واحدة. حالة الاستفاقة التي يعيشها بعد العودة للحياة من الجيش أصابت جسده بتوتر. هذا التوتر، الذي ليس له من مخرج آخر، ضرب رأسه، ونشطه على نحو ليس أسوأ من قهوة ساخنة قوية. من كعبه حتى رأسه، كان منتبهًا تمامًا على نحو حاد متواصل، لدرجة أنه لم يفته أي صوت، أو حتى رائحة تتجول في البيت الذي غط في النوم، ليلاً. كأن هناك شيئًا مهمًا لا يمكن تجاوزه، يجب أن يحدث. لازمته هذه الدرجة من التركيز بينما كان يتدرب، على الرماية، حيث تحدد الثقوب التي يحدثها على الأهداف الورقية، طبيعة الوحدة التي سيلتحق بها، أو العودة إلى الثكنات. ثم تنتهي حصة الرماية بطلقة، هادئة، سعيدة، أو حزينة. وفق القدرة على إصابة الهدف، وعلى السرعة. الآن خلق الشعور بالسكينة خالة، غير متوافقة مع نظام "الفرح – الحزن". كان هذا بمثابة ترقبٍ مجردٍ لشيء عظيم: الحقيقة، الموت، السعادة. ربما، لو دخل المسيح ذاته عبر الباب الآن، لألقى ميتيا عليه التحية، نهض هادئًا، حتى لا يزعج لوسيا، وخرج معه إلى الممر. فكر: "هذا هو الشعور الذي ينتابهم على الأرجح، عندما يقومون بعمل بطولي". ها

---

(١) أحد أبويها أبيض والآخر أسود.

أنا أستلقي هنا تحت لحاف واحدٍ مع المولاتكا لوسيا، راقدًا أطنطن. وملاءة متسخة". لم يستوعب ميتيا، لماذا الآن، هذا القيظ، في مثل هذا الوضع العصيب، والأهم من ذلك – كيف يمكن التصرف حياله. لم يفعل شيئًا، فقط استلقى وانتظر.

"إلى هناك – إلى هناك"، – رددت قضبان السكك الحديدية، يعلم، أن هذه النوستالجيا، للوطن – في تبليسي – ما عاد بوسعه التغلب عليها أبدًا. لكنه كان يعرف شيئًا آخر: أنه لن يعود أبدًا إلى الوطن. هذه المدينة، تبليسي، تلك التي ولد وعاش فيها، لم يعد لها وجود. ولن تعود للحياة مرة أخرى، مدينته تبليسي ماتت، وكل هذه الجماهير المحتشدة، الهائجة، التي تتدفق من روستافيلي، عبر الجسر الكائن فوق نهر كورو، إلى بليخانوفسكي وما وراءها، في خط ممتد من السوق حتى شاطئِ النهر، – ليست سوى جنازة.

– زفياد! زفياد! – ارتفعت مئات الأيدي.

– زفياد! زفياد! – زأرات الجماهير، بأعلى صوت، في نوبة غضب هستيرية.

تأرجح الوجه المستاء ذو الشارب على الصور الضخمة، الطافية فوق الرؤوس، في كل اتجاه، كأنه ينحني للحشود. تلمع العيون البارزة بين الحشود بالعزيمة – بالفرحة.

"جورجيا للجورجيين!" – يصرخ الخطباء بحماس بالغ، لدرجة ألهبت عواطف الجماهير بشكل غير مسبوق. تنطلق من بعضهم زفرات هياج عصبي، ومن البعض الآخر – تُذرف دموع ثورية مهيبة. "أيها الغزاة الروس، عودوا إلى روسيا!" كاهن شاب ذو لحية شعثاء شفافة، يعلن من

خلال مكبر صوت، نداء الكاثوليكوس[1]: "من قتل جورجيًا، فليتبوأ مقعده من الجحيم، إلى الأبد." يتدافع الكثيرون رغبةً في التعميد في الكنيسة. تشع الروح النورانية للفعل الصالح في كل نفس من أنفاس الجماهير المحتشدة، لتربك في ظل هواء الصيف الجاف إجراءات حكومة الدوما[2] البغيضة، بين أشجار الصنار الخضراء – الداكنة كثيفة الأغصان، التي تتدلى بحدة نحو أزقة متاتسميندا الحدباء.

هؤلاء الناس، الذي طُرِدوا لتوهم من هنا، من هذا المكان، ناقلات الجنود المدرعة، وأرتال من الجنود، الذين تنفسوا الهلع في الثغرة بين الخوذات ودروع الشرطة الجديدة – عادوا من أجل الانتقام. وقفوا أمام الدوما لعدة ساعات، يهتفون، ينددون، ويقسمون بأغلظ الأيمان. لم يعد بمقدور أحد أن يفرقهم بعد الآن. لكن المدعوم بأعمدة شاهقة، والذي يقف مزهوًا في الباحة الكبيرة، لا يزال غير قابل للسقوط، صامدًا، لذا من الضروري مواصلة الهتاف، إشارات التهديد في وجه الجدران الصفراء، ولكن هذا لم يعد كافيًا مع اقتراب المدرعات حاملة الجنود في الظلام. وحتى لا يفقد الناس كل هذا الحماس، تحركوا نحو الجمعية الموسيقية. تجمدت الحركة إلى روستافيلي، بينما يتدفق الحشد بين السيارات، كأنه يسير وسط صخور ملونة. تحلى سائقو السيارات بالصبر. تصرخ مكابح السيارات التي تسير في اتجاه صور زفياد، لتستدير فجأةً، حتى لا تغرق في الزقاق.

يقف شرطي مرور مرتبك قبالة "فادامي لاجيتزي". كما يبدو، فقد اضطره الحشد أن يبقى جالسًا في المقهى، لكن المقهى أغلق أبوابه على

---

(١) زعيم الكنيسة الشرقية.

(٢) الحكومة الروسية في موسكو.

عجل، فخرج الرواد إلى الشارع، فوجد نفسه وجهًا لوجه مع أنصار زافياد. أغلق الشارع الجانبي الصغير، الصاعد على نحو حادٍّ، بواسطة سيارة الخبز، فتكدست سيارات اللادا على نحو بائس. لم تتعدَّ المسافة بين الجدران والسيارات مسافة ذراع واحدة. مع هذا المشهد، لا يستحق الأمر عناء المحاولة. تمامًا، كالوقوف قبالة كلب ضخم غاضب، فإنه يخفض عينيه ببطء، دون أية حركات مفاجئة، يخرج سيجارة من العلبة. يندفع عشرة أشخاص نحو شرطي المرور. يحاصرونه في دائرة ضيقة، يطرحون سؤالاً ثم يصيحون، ويمسكونه من الحزام، ويطالبون بإجابة فورية. وفق إجاباته، سيتضح، أهم شيء - هل سيضربونه أم لا. تمزقت قبعته بالفعل، ألقوها في يده. وفجأةً يصير كل شيء مباحًا. أطلقوا هتافًا مضحكًا، قذفوا قبعته، هتفوا بشيء ساخر، ألقوها تحت مئات الأقدام السائرة على طول الطريق، تطؤها وتتقاذفها ككرة قدم - قبعة جديدة ذات تاج طويل، ربما صنعت بالطلب - تحرك شرطي المرور بإصرار إلى وسط الحشد. ربتوا على كتفه، استقبلوه بهتافات صاخبة، بينما يواصل نهر البشر السير دون توقف، تتابعت الصور الضخمة ذات الشارب القاتم، واحدة تلو الأخرى، يتطلعون إلى النوافذ، ويلقون التحية على أي شخص بقبضة مرفوعة، وبإيقاع منتظم، يومئون كالجِمال بينما يواصلون سيرهم..

بعد مرور بضع ساعات، كارينا بوجراتوفنا جالسة على الأريكة في غرفة المعيشة، عيناها تبدو وكأنها مصابة بالإنفلونزا، خدودها متوردة، احتضنا بين راحتيها من حين لآخر، وكأنها تحاول تهدئتهما. ساقتها المسيرة إلى نقطة النهاية، في بليخانوفا، حيث انضم إليها الفتيان من المنازل المجاورة، ليضخوا دمًا جديدًا وروحًا ثورية إلى الحشد. أطلقوا الصفافير، صرخوا، لم

يبخلوا بأصواتهم الشابة، وأشعلوا النار في صناديق الاقتراع، الأفيشات، وتسلقوا أعلى طابور حافلات الترولي، ورفعوا الأعلام الملونة. هرعت كارينا بوجراتوفنا إلى المنزل، المنزل بعيد، لكنها بحاجة شديدة أن تهدأ.

- دقيقة واحدة، أستعيد فيها روحي، قالت وهي واقفة على عتبة الباب، بينما تعلق الكاميرا بذهن شارد في دولاب الملابس، وكأنها تضع شالاً أو معطفًا – اسمعوا! لم أصدق. ما هذا؟

تجلس الجدة قبالتها، سارحة، على كرسي. من الأفضل تركها في حالها. دون شك، لا يرغب ميتيا، على الإطلاق، أن تتكلم الجدة. لكن يبدو، أنها لا تنوي أن تقول أي شيء، فهي على الأرجح لن تتغلب على هذا الصمت الحجري. عندما ينظر إليها ويتخيل، ترى ما هي الصور التي يمكن أن تطفو أمام عينها بعد مرور أربعين عامًا، وإلام سيقودها تفكيرها، وهي تستمع إلى قصص عن المسيرات، التي أعلنت فيها الحشود أنها من المحتلين، فيقشعر جلده. يشعر بعدم الارتياح. ربما كان من الأحرى به أن يُطَمْئِنَ النساء، لكنه لا يعرف كيف يمكنه فعل ذلك. ذهب، أحضر ماء، الآن هناك كوبان ممتلئانِ فوق طاولة القهوة.

ارتسم الاكتئاب على وجه كارينا بوجراتوفنا هي الأخرى. بدا الأمر بالنسبة لميتيا غير طبيعي، يتذكرها وهي في حال مختلف. عبارتان – ثلاث، تمامًا مثل ضرب السياط، هي التي كان بمقدورها ترويض فصل انتابته ثورة عصيان. تذهب إلى المدرسة سيرًا على الأقدام عابرة اثنين من الأحياء الصغيرة. أما في أيام الإجازات، فكانت تتجول في أرجاء المدينة القديمة، وتلتقط الصور للمنازل. أبدت –دائمًا– اهتمامًا كبيرًا بالتصوير الفوتوغرافي، واستأجرت –لعدة سنوات– بعض المنازل في المدينة القديمة. ترى كيف

ظهرت في ذهنها تلك الفكرة؟ أولئك الناس في تلك الصور، بغض النظر عن مكان تصويرها، وأيًا كان ما يفعلونه، ظلوا في حيز التفاصيل الثانوية، وربما التافهة، تمامًا مثل علامات الترقيم في الشعر الجميل؛ أو المهمة، مثل علامة التوكيد في كلمة غير مألوفة، ورغم هذا، حينها، كانت تلك هي الوسيلة الأنسب للفت الانتباه لقسمات الوجه البارزة. صحبها ميتيا ذات مرة في جولتها لالتقاط صور المنازل. برؤية تبليسي القديمة من خلال عيون كارينا بوجراتوفنا – الشمس، تشكيلات درابزينات الشرفات المقوسة، منحنيات الجسر في الشوارع المتعرجة، على غرار ذيل السمكة – أدرك ميتيا كم السحر الذي تملكه هذه المدينة والذي يأسر قلوب الناس فيقعون في حبها. لاحظ كيف تمنح المدينة هذه الممرات المتعرجة هذا الإكسير الماكر، الذي يحول سكان المدينة العاديين إلى مهاويس تبليسي؟ تجولوا ليقطعوا نصف المدينة، ثم قرروا العودة بمجرد انتهاء فيلم الكاميرا الثالث.

ربما، خرجت في هذا اليوم لالتقاط الصور.

والآن، ها هي كارينا بوجراتوفنا تبدو في حالة عجز.

- قالت: "يبدو هذا شبيهًا ببداية الفاشية، إنها البداية الطبيعية للفاشية.

بالتأمل إلى صورتها المنعكسة على زجاج المكتبة، بدا ميتيا واثقًا لسبب ما، أن الجدة ربما تتذكر الآن ذلك الألماني في المستشفى، الذي خرجت منه، وقت أن كان هناك اقتصاد في استخدام الأدوية لأجل جرحانا. خلال شهر، على نحو منتظم، كان الألماني يتمتم، بينما يخفي عينيه، مرتعدًا، بكلمة "شكرًا"، بعد كل مرة يغيرون على جرحه، وحتى عند تقلبه من جانب إلى آخر، يحاول ألا يحدث السرير صريرًا – وهكذا، عندما سمع أزيز "المسامير"، انتفض من على سريره، وكأن مسًّا أصابه، فبدا كجريح سقط

لتوه، صرخ وضحك، صدم يده المربوطة في السقف. لم يكن هذا قصفًا، أو شوربة شهية صنعت من قشر البطاطس، أو ثلاث ليالٍ متتالية بلا نوم – لقد ظل هذا الألماني الجريح أكثر مظالم الحرب همجية على الإطلاق، بالنسبة لها. "أيها الغزاة الروس، عودوا إلى روسيا! – كررها ميتيا لنفسه، متأمِّلاً صورتها المنعكسة على زجاج المكتبة الداكن- "عودوا إلى روسيا!".

حسنًا، ها هو في روسيا. لماذا لا يزال المنزل – في تبليسي، إذن؟ لا ينبغي أن يكون الحال هكذا، هذا مستحيل!

# الفصل الثالث

كان هناك شيء في كل ركن، يتعلق بهذا الفتى. على الأرض، ترقد صحيفة. (على الأرجح، من المخلفات، حتى لا يضطر الطفل إلى الجلوس على الأرض) بعض تفاحات في مزهرية. (سفيتلانا إيفانوفا، التي تعاني من قرحة في المعدة، لم تأكل أي شيء نيئ) برز الشريط المرجعي من كتاب حكايات. سيارة إطفاء ذات سلم مكسور. ربما، وضعته جانبًا في انتظار وصوله، لتطلب منه إصلاحه. تتبعها الصبي في كل مكان. ترقد دمى الجنود تحت الطاولة. باستمرار تتعثر فيها قدمه.

لم تسمح - قبل ثلاثين عامًا - له أبدًا أن يلقي دمى الجنود تحت الطاولة.

اسمه ساشا. يبلغ من العمر ثلاثة أعوام. لأب وأم سكيرين. لم يره ميتيا ولو مرة واحدة، لكنه سمع عنه كثيرًا. الأم وحدها تعرفه وتتحدث عنه. تحكي الكثير من الأشياء المتنوعة، لكنها جميعًا عنه - بشغف. بدأ ساشا نطق "آر"، احترق ساشا إثر التقاطه سيجارة من الأرض. (الخنازير، يلقونها في أي مكان، لقد فضحتهم فضيحة مدوية!) هوسها، "اللوتو الروسية"[١]، الذي صار مرتبطًا الآن بساشا. يعاني ساشا من حول قوي. (يتوجب إجراء عملية جراحية في عيني الفتى، كيف له أن يمشي هكذا!).

---

(١) لوتاري روسية.

تسرَّبت رائحة القهوة التركية في الحجرة ببطء. سحب ميتيا قدميه تحسبًا لأي شيء. طقطقت دمى الجنود تحت الطاولة. كانت مسألة نقل القهوة دائمًا عملية محفوفة بالمخاطر بالنسبة لها. تمسك سفيتلانا إيفانوفا القهوة التركية بكلتا يديها، لتضعها قبالتها. كما لو أنها أمسكت سحلية قوية من ذيلها. تحملق فيها دون انقطاع، عاقدة حاجبها على نحو درامي.

- أوغاد، مجرد أوغاد!

- حسنًا، هذا يكفي، يا أمي. هذا يكفي.

القهوة، مثل حيوان ليلي - كسرة رشيقة من الظل، - سقطت في فنجان. شفة ذهبية على حافة الخزف محاها الزمن منذ بعيد. الفنجان قديم. آخر الناجين من نفس الطاقم. وضعت سفيتلانا إيفانوفنا الفنجان على حافة النافذة، ورفعت سيجارة بإحدى يديها نحو وجهها، وأمسكت مرفقها بيدها الخالية. تقوَّس ظهرها وتحركت قليلاً للخلف لتستلقي.

- ومن هم إذن؟ أيهزءون، كما يريدون. أوغاد وقحون!

بعد بضع زفرات، أمسكت اليد الخزفية بأطراف أصابعها، لتنتهي من التدخين قبل الرشفة الأخيرة. كم من المرات رأى هذا: القهوة، الظهر المشدود، والأفعى التي تذوب، بعد أن رسمتها خيوط الدخان. فكر فجأةً، أنه، عندما تغادر، ويبقى وحده، تزوره في الحلم، يراها من الخلف، بينما تحمل سيجارة عند مغادرتها. فهم ميتيا أن من الضروري السماح لها بالحديث. أدرك أنه عجز عن التعامل مع الاستفزاز. أمر غريب، ربما كان على استعداد لسماع نفس الشيء من شخص آخر. لهز رأسه، وتلقف عبارة: "الأوغاد، الأوغاد".

- أحقًا سنلتقي بهم في العالم الآخر، ليعطونا بعض الاستبيانات لنملأها؟ ربما استقروا هناك. الشياطين!

قال: "كفى"، جفل كأنه قطع أصبعه. - هراء.

ما يزعجه في أمه، أنها تسامح الآخرين بسهولة. هذا لن يتغير أبدًا. أبدًا، لأنه أمر عصي على الشرح.

- قالت، لابد منَ تسليم جواز السفر، لابد من تسليمه... لوحت سفيتلانا إيفانوفا بالسيجارة، مبعثرة رمادها في أنحاء الحجرة. - قالت غير مرة! لو أنك سمعت كلامي، وذهبت إلى هذا السيرجي فيدوروفيتش. ربما قدم المساعدة. فإنه رئيس إدارة جوازات السفر والتأشيرات.

- في مقاطعة أخرى.

- وماذا في ذلك؟ إنهم كيان واحد. مجموعة.

- هذا يتكلف مبلغًا كبيرًا من المال؟ من أين لي به؟

- ربما يقدم المساعدة مجانًا. فهو ابن شقيق فالين. ربما يفعل هذا من أجل فالي.

أغضب هذا الحديث ميتيا. من فكرة واحدة، أن عليه الذهاب إلى المدعو سيرجي فيدوروفيتش، شعر بالغثيان. إنه في مثل عمره. لكن هو رئيس إدارة جوازات السفر والتأشيرات في المقاطعة، وبالتالي على ميتيا أن يخاطبه بـــ"حضرتك"، بينما هو سيخاطبه بـــ"أنت"، ويجب أن يبدو على وجهه الاحترام والتبجيل، مع مزاح لطيفى - ضحك من القلب، مبهج صاخب. كي يفعل هذا بوعي، وحرية. أن يقف ويشعر كيف تيبس ظهره

وتصبب عرقًا، وتحولت ذراعاه إلى راحتي يد، - ونهايةً يزحف للخارج ذليلاً وضيعًا، على نحو يمكنه من التسلل أسفل حافة الحائط والاختباء هناك إلى الأبد، حتى لا تطوله يد. ما يثير العجب حقًّا أن: ميتيا، بينما كان في العمل، فتح الباب فجأةً ليجد السيد ريزينكا أمامه، رئيس مجلس إدارة البنك، لا يعاني من مرض الكبر: العمل هو العمل - تمنى في طفولته أن يصبح رائد فضاء، لكنه لم يحقق حلمه.

لا يتبادل السيد ريزينكا الحديث مع حارس الأمن، مثل سيد مع عبد، أنه لا يهتم أن يحيط نفسه بالعدم، فهو يشعر بالرضى بالفعل عن الحياة. لكن في هذه المكاتب المزرية، المكسوة بطبقة سميكة من الغبار، والمزودة بأثاث متهالك، وحتى صور بوتين المعلقة بدت وكأنها على وشك الصراخ: "لمن ستصير عبدًا؟!" والآن يجب الذهاب إلى سيريوجا، ابن أخ فالين. الآن هو - وزير ودوق عظيم، وأمل ميتيا في الحصول على الجنسية الروسية. فاليا - صديقة أمي، خادمة، مثلها. لكن سيريوجا، سيرجي فيدوروفيتش - رئيس إدارة جوازات السفر والتأشيرات، ومن أجل السيدات علي أن أوافق على الاستماع إليه.

- هل تريدني أن أطلب من فاليا، أن تذهب معك؟

أوصل الأمر إلى هذا الحد! ما لها لا تفهم!

لم يرغب ميتيا أن يتشاجر اليوم. عرف مسبقًا، ماذا سيحدث. سيرحل. ستصرخ في أعقابه: "اذهب، اذهب! ياه، كم أنت سيئ الحظ مع أمك!" سيهدأ في غضون ساعة، ولكنه سوف يختفي لمدة شهر. ستتصل به في العمل، وتقول، "أها؟ فقط أريد سماع صوتك". ستشرع بعدها في حكاية كل أنواع الهراء - كيف أخذت الجارة موقدًا غازيًا من القمامة، وأرادت إرساله إلى الخردة، لكن تم

تثبيته في المطبخ، والآن صار لديهم موقد آخر. بعدها تشاجرت معه، لأنه لم ترد منه أية اشارة، عن ميعاد قدومه. سيقول بدوره: "لا أعرف، ليس لديَّ وقت الآن"، وعندما يضع السماعة، سيشعر أنه مجرد وغد. يذهب إلى زيارتها مباشرةً من العمل، يجلس على نفس الكرسي المتهالك، بينما ستجلس بدورها على سريرها. سيجربون التحدث عن هذا الأمر أو ذاك. من المرجح تمامًا، أنهما سيتشاجران مجددًا. سيرحل. ستصرخ في أعقابه: "اذهب، اذهب!" – وبعد مرور شهر واحد، ستتصل به في العمل، وتقول: "أها؟ فقط أريد سماع صوتك، اشتقت لصوتك" – وستنغلق الدائرة المؤلمة.

– لو استمعت إلى ما تقوله أمك – ولو مرة واحدة. ماذا، عم أتحدث! حتى لو مرة واحدة من بين عشر مرات.

انفتح الباب، ودخل ساشكا. ما إن دخل، نظر باهتمام إلى ميتيا بعيون زرقاء بها حوَل شديد. نظر إليه ميتيا بدوره، لكن كان الحول قويًا لدرجة، بدا معها كأنه يوجه نظره للمسافة بين شخصين مختلفين. تزيَّن القميص ببقع عليها بصمات راحة اليد الطازجة. تذكر ميتيا أنه محرم عليه الدخول بأيادٍ قذرة.

"مرحبا، ساشا،" دب النشاط في سفيتلانا إيفانوفنا، وغطَّت النافذة، حتى لا يتسرَّب الهواء. – أهلاً عزيزي.

مسح ساشكا يديه مرة أخرى في قميصه، قام بحركة، بدا كأنه ينثر شيئًا على شيء آخر.

– زبد وسكر؟

أومأ موافقًا.

- سنفعل.- أطفأت سفيتلانا إيفانوفنا سيجارتها في الطفاية. - الآن اغسل يديك. - وتناولت الصبانة من الثلاجة. - اذهب. هيا هيا اغسلها كما يجب.

هزّ ساشا رأسه - وقال، لا، أنا لن أفعل - وأظهر كفيه، مبتلّتين، متباعدتين قذرتين:

- أوه !

فضل عدم التحدث.

- "إذن لن تحصل على أي شيء".

عبس ساشا، وقف مشغول البال، ولكن في النهاية حمل الصبانة وانصرف.

- لا تمسح يديك في ملابسك!

أخرجت سفيتلانا إيفانوفنا الخبز والسكر من دولاب الحائط، فتحت الثلاجة لإخراج الزبد. لم يعلم ميتيا أن الأمر وصل إلى هذا الحد. أدرك فجأةً أن ساشا سيقضي كل أيامه هنا.

كبر، مثل الأعشاب الضارة، رغم كل شيء. كان يبلغ من العمر أربعة أشهر، عندما كانت فيكا، أمه، في حالة سكر ونسيته في الحافلة. طفل ملفوف عُثر عليه في المحطة النهائية، بعد أن اندفع حشد من البشر داخل الحافلة. تذكَّر السائق أنه رأى امرأة في حالة سكر تحمل طفلاً بين ذراعيها. تذكَّر، أنها نزلت بالقرب من النزل. حمل ساشكا إلى النزل ودار بين الحجرات: "أليس هذا طفلك؟" تعرفوا على ساشا - وجدير بالذكر، أنه كان ملفوفًا في بطانية يملكها شخص ما، سُرقت في اليوم السابق من غرفة الغسيل. في تلك

الليلة، نام ساشا عند الجيران. أخذوه إلى فيكا فقط في اليوم التالي، في الوقت الذي عادت فيه إلى وعيها نوعًا ما. منذ ذلك الحين، يعيش ساشا هكذا – يومًا هنا، أسبوعًا هناك. يطعمونه هنا، يكسونه هناك. كان من الممكن أن يأخذه شخص ما، إلى الأبد، ولكن فيديا والد ساشكا، عندما يعود في حالة سكر، ولا يجد له أثرًا في المنزل، يهرول في الأروقة ويصرخ بأعلى صوت عند كل باب: "ولدي! سأقاضيكم أيها القردة! سأقاضيكم! دمي!" ذات مرة، اختفى فيديا عن الأنظار في مكان ما وترك الباب مغلقًا. كان ساشا يبلغ من العمر عامين. ظل صامتًا على مدار يوم كامل. تبول في سلة المهملات. في اليوم الثاني، بدأ في الصراخ للمارة بالقرب من بابه: "سانيا هنا !سانيا هنا!"

عاد ساشكا، وضع الصبانة على الأرض، مباشرة على السجادة، واتجه نحو الطاولة. كان قميصه مبتلاً تمامًا.

- قالت سفيتلانا إيفانوفنا – كان علي الذهابُ معه، وهي تتطلع إلى قميصه المبتل.

أمسك ساشكا بساندويتش.

هذه هي ذكراها الخاصة. من بين تلك الذكريات الخاصة، التي، تبدو مثل العوامة الحمراء بين الأمواج، دائمًا ما تكون طافية: عندما تشعر بالتعب، خذ واحدًا. كانت ماما تصنع له في طفولتها مثل هذه السندويتشات. سندويتشات ما بعد الحرب بالزبد والسكر. الحصول على الطعام، كان، مثل صيد فريسة برية، صعبًا ويتطلب الكثير من المهارة، وحال كان شهيًا فهذا بمثابة عيد. "ستعدو أسفل النافذة، ثم تصرخ: "أمي! اصنعي لي زبدًا مع السكر! "ستصنعها وتحضرها إلى الباحة. يا إلهي، ما زلت أتذكر الطعم". اعتاد ميتيا على أكل هذه السندويتشات في أيامه. "حسنًا، ميتيا، كل. إنها

شهية بالفعل." – "لا أريد، يا أمي، كم مرة عليّ تكرار هذا. كلي أنت". – "شاركنا؟"

– ماذا أصابك؟ – ثم استندت سفيتلانا إيفانوفنا إلى ساشا. – لم هذه العصبية؟

– أجاب: آااه، – ثم أدار رأسه في اتجاه الحمام. – سأقتلكم.

– آآه؟ هل أغضبك أطفال آخرون، ها؟

أومأ برأسه، ولم يترك الساندويتش من فمه. انسكب السكر على الطاولة. مسحت سفيتلانا إيفانوفنا على رأسه.

– لا شيء، لا تشغلي بالك. أعرف جيدًا، كم أنت صارمة.

التقت عينا ميتيا بعيني أمه بالمصادفة – فسحب عينيه على الفور.

"عم سيثمر هذا؟" ماذا عساها أن تفعل مع هذا الطفل الغريب المروّض؟"

بدأت سفيتلانا إيفانوفنا في شرب ما تبقى من القهوة الباردة. ميتيا – يجول بنظره في الغرفة. السقف، الجدران، دواليب المطبخ. على أي حال، من المؤكد، أن بإمكانه رؤية غرفة النوم في النزل مجددًا. حتى لو رآها من قبل مئات المرات. حتى غرفته الخاصة. لا يمكن أبدًا أن تصير غرفة في النزل مألوفة تمامًا، مهما طالت معيشتك فيها.

سحبت سفيتلانا إيفانوفنا من تحت سريرها أكبر حقيبة لديها، وأخرجت بحرص كومة أنيقة من الملابس. بدأت في وضع الملابس على السرير، بينما تابع ميتيا عن غير قصد ما كانت تفعله. تعرّف على الفور على كل قطعة

من الملابس. سراويل فانيوشكا، القبعات، وحتى بعض أردية من الطفولة. هل نحتفظ بها؟ فكر ميتيا: "حسناً، نعم، كل الأشياء التي كبر فيها فانيا، أحضرتها إلى بيتها. تعرَّف ميتيا على القميص الذي ارتداه ساشا، - فقد اشتراه من بين الملابس "المستعملة". كانت المرة الأولى التي يشتري فيها "المستعمل". كان يشعر بالحرج. خصوصًا وهو يشتريه لطفل.

- ها هو. - أخذ القميص الذي أهداه إياه. - عليك بتغيير قميصك.

ابتسم ميتيا خفية. بدا الأمر مألوفًا. هذه الكلمة المطاطة "فـــــ - ووت!" - ليست كلمة، إنما قفزة واسعة لسيف القائد من الغمد. ودون أن يلقي نظرة على الملابس التي سيرتديها، رفع ساشا يديه. فكر ميتيا: "لم يكن فانيا ليوافق على مثل هذا أبدًا، دون أن يعرف ماذا سيرتدي." - كان دائمًا يفحص، يقيم - هل يستحق أم لا، بما يليق." تنضغط عظام كتف الأطفال بفعل الملابس الضيقة ذات الرقبة المثلثة. بينما تظهر تحت القماش المشدود حبات العمود الفقري. نهض ميتيا وانصرف.

- إلى أين؟

- إلى الحمام.

- علق ساشا شارحًا، "بيسا[١]".

وصل ميتيا إلى نهاية الممر ووقف عند النافذة. ملعب كرة القدم، المحاط بأشجار غطاها الثلج، فبدت مثل لوحة فارغة من القماش، حولها إطار باهظ الثمن. كان شهر نوفمبر هذا العام جليديًّا بشكل غير معتاد: حضر فصل الشتاء قبل موعده. رأى في الماضي، كيف تجمدت أوراق الأشجار.

---

(١) أي إنه سيذهب للتبول.

بعد صقيع الليلة الأولى، اكتست الأوراق بالجليد الأبيض، وصارت جميلة بشكل لا يوصف، لتزوّج حيًا بميت، أصفر خريفي دافئٍ بثلج. الشتاء ضيف عند الخريف. هذا ما قاله فانيا.

- انظر يا بني، كم هذا رائع.

جلس فانيا على المقعد، حيث تناثرت أوراق شجر متجمدة، وقال:

- أبي، الأمر يبدو كما لو أن فصل الشتاء ضيفٌ على الخريف.

في الرسالة الأخيرة، كتب فانيا أنهم يرغبون في دعوته للزيارة. ألا تريد القدوم إلى أوسلو، والبقاء معنا؟ في عيد الميلاد سنسافر، وفي فبراير، سيجري تجديد الطابق الأرضي، عليك الحضور في مارس لأننا سنغادر إلى برلين في أبريل. دعوة جليدية، كما هو الحال دائمًا. دون حماس، مثل جدول القطار الكهربائي. لا شيء من قبيل، "تعال، من فضلك"، أو "سأنتظرك على أحرٍ من الجمر". كل ما دون ذلك أيضًا جليدي مجمد - هل سيتحملون النفقات كافة، أو حتى إرسالها مقدمًا. سيشعر كريستوف بسعادة مفرطة، ويحلم بعلاقات دافئة. وإذا وافق ميتيا، عليه أن يرد فورًا، حتى يقومون بإعداد الفيزا وغيره. لديهم خطط في فصل الصيف، وسوف ينتقلون للعيش في برلين لمدة ستة أشهر - وربما لفترة أطول، وهم لا يملكون منزلاً خاصًا في برلين؛ لذا سيكون من الأفضل عدم التأخير.

في مارس! كأنه استحال عليهم الكتابة سابقًا!

كانت الرسالة شبه رسمية، وبدا كأنهم نسوا ببساطة وضع الختم. ربما، خضعت لتحرير دقيق من مارينا. وعلى أية حال، فإن جميع رسائل فانيا، على الأرجح، تخضع لمثل هذه المراجعة. يمكن فهمها، فقد كتبها فانيا جميعًا

باللغة الروسية. يعطونه الرسائل بعد المراجعة. أحيانًا، كان فانيا يضيف شيئًا إلى الرسائل المحررة والمعدلة بالفعل، ويستبعد عددًا من العبارات الخرقاء من بين جمل صحيحة ولا تشوبها شائبة. كان ميتيا يقرأ تلك السطور الأولى قبل غيرها. كانت الأكثر حيوية. لكنها كانت مؤلمة بشكل فاق البقية. أكثر القصص إيلامًا، كانت الرحلة مع كريستوف في أستراليا، حول الغوص بين الأسماك الملونة. (الآن، إذا رأى هذه الأسماك الكرنفالية على شاشة التلفزيون، فإن حالته المزاجية تسوء على مدار اليوم).

يمر ميتيا بإصبعه على السطور، كما لو كان يبحث عن ردة فعل بلمسة في المقابل. تعرَّفْتُ على فتاةً جميلة، واسمها جين. بدأتُ في تعلم اللغة الألمانية. غدًا، سأخضع لاختبار في مادة الرياضيات، أنا ضعيف في هذه المادة. كان فانيا صادقًا على الدوام. في سن الخامسة، عندما كانوا لا يزالون يعيشون في المدينة الجامعية في الغرب، ألقى كوبًا من النافذة، وسقط الكوب على سيارة رئيس الحرم الجامعي. لم يرَ أحد شيئًا، لكنه ذهب واعترف بخطئه. وظل هكذا على شرفه. إذا ما كان مستواه في الرياضيات ضعيفًا، هكذا يكتب: أنا ضعيف. من المحتمل، أنه يقول للمعلم: أنا ضعيف في مادتك، سيدي المدرس.

عجز ميتيا عن تصور لقائه بهم، وكيف سيتطّلع إلى عيني مارينا. بعد سنوات عديدة. ربما، صارت، مختلفةً تمامًا، لذا رؤيتها – كامرأة غريبة، تحمل بين جنبيها ماضيهما المشترك – سيكون أمرًا غريبًا. سيكون هناك أيضًا كريستوف، الذي، من حيث المبدأ، يمكن التماس العذر له: هذا منزله. هذا مستحيل – زيارة شخص، سرق زوجتك، ابنك، أوقف حياتك! تنام في بيته، ربما، قبالة غرفة نومهما – والاستماع لما يحدث طيلة الليل. وفي

الصباح، تلاقيه على الطاولة، يلقى كلٌّ منكما الآخر، بابتسامة أوروبية ودودة. ترى ماذا يأكل هؤلاء الدببة على الإفطار؟

احمرَّ وجهه خجلاً من أثر تلك الفكرة، أن من الممكن أن يوافق على هذه الرحلة. وكان يعلم، رغم أنه لم ينتهِ بعد من قراءة تلك الرسالة، أنه سيوافق، سيذهب - سيكتب ردًا، وسيطلب إرسال نقود، وسيعيش مجددًا في انتظار مكالمة، رسالة جديدة، إعداد الأوراق، جواز السفر الدولي، وجميع أنواع المشاكل البيروقراطية الورقية، ثم الأشياء التي سيحملها لابنه، خيالات عن مشهد لقائه بفانيا في فوضى المطار الصاخبة - بالتأكيد سيحضر فانيا إلى المطار.

بعد تلك الرسالة، ذهب إلى إدارة جوازات السفر والتأشيرة لتسجيل تصريح الإقامة وتغيير جواز السفر.

عندما عاد ميتيا، كانت سفيتلانا إيفانوفنا بمفردها. كانت الغرفة غارقة في دخان السجائر. كانت تدخن تحت شراعة النافذة، ممسكة مرفق يدها اليمنى بيسراها.

- سألت: ألم تعد تدخن؟ دون أن تلتفت، بصوت بدا مغايرًا تمامًا، بطيئًا وباردًا.

- كلا. أقلعت عنه.

- أحسنت.

تحدثتْ بهذا الصوت عندما أرادت إظهار أنها مستاءة. في طفولته، كان عادة يفزع ويشرع في طلب المغفرة.

- أخذت القميص، سأغسله. أخذته أمه إلى المستشفى. لديه متاعب في الكبد.

- أجل، بالطبع.

- سأعطيه ملابس فانيوشكا. - ثمّ واصلت كأنها تهمس: - على أي حال، لسنا بحاجة إلى ملابس.

- نعم، بالطبع. كيف حال اللوتارية؟

لم تكن مشغولة بها.

انفجرت قائلة: "أحرقها بلهب أزرق، مجرد لوتارية." - توقفت عن اللعب.

فهم ميتيا: لو لعبت، ستخسر حتمًا. وبناءً على الملحوظة الأخيرة، فإنها كانت تشتري الكثير من التذاكر وبآخر ما لديها من نقود. طوال تلك السنوات، كانت تلعب "اللوتو الروسية". تملك صندوقًا تحت الطابعة، ممتلئًا بالتذاكر، - عن آخره. لن تتوقف عن اللعب مهما حدث. يومًا ما، خلال عام ١٩٩٥، في أعياد الثامن من مارس، بينما كانت تندب حظها العاثر، لم تشترِ تذكرة لكنها لا تزال تشعر بالندم حتى اليوم. حينئذٍ، قالوا، آن أوان سعادتها - نعم، تباطؤ الشيطان. خسرت. الآن صار عليها أن تحاول من جديد.

أنهت سيجارتها، لكن، لكي لا تستدير، أشعلت أخرى. وعدته أنها لن تدخن سيجارتين واحدة تلو الأخرى، دون فاصل. جلس ميتيا على الكرسي. اختفت الحقيبة، تمت تسوية الملاءة على السرير - لا أثر. ندم ميتيا على المجيء للمبيت عندها. كانت الفكرة في أن يستيقظ مبكرًا ويذهب إلى مركز شرطة المنطقة. يبدأ الطابور هناك كما في إدارة جوازات السفر والتأشيرات، من الساعة الخامسة. كان عليه أن يعبر المدينة بأكملها، ولكن في هذه الساعة المبكرة لن يكون من الصعب أن تصل في الوقت المناسب، ولهذا قرر أن يقضي الليل عند والدته.

صار صوتها، مثل نهر يئن تحت الجليد:

- كيف حاله هناك؟ - حاول ميتيا التزام الصمت.- هل يتصل؟ هل يكتب رسائل؟ - سيطر عليه الشعور بالندم على المجيء إلى هنا. قضت طيلة الليلة الماضية في البكاء. جاءني في الحلم. يرتدي بدلة أنيقة، في حجرة واسعة. صار كبيرًا بشكل لا يصدق، فرق شعره من المنتصف.- نهض ميتيا وأخذ المعطف من على الشماعة. - هناك الكثير من الناس في الجوار، والزهور. لم الزهور تحت الأقدام، تتناثر على الأرض في كل مكان. وأنا، أيتها الحمقاء، لست هناك حتى أركض نحوه - مالت لالتقاطها، وجمعت حفنة منها في يدها، نهضت، بينما اختفى هو بلا أثر. ضاع مني. تدور بين بعض الغرف، تصرخ، تناديه. لو أنك حينها، فقط حينها، ولمرة واحدة، استمعت لي، لكان فانيا بيننا الآن، وليس معها. فقط لو أنك استمعت لي!

انصرف ميتيا صامتًا.

في الشارع، دهسَ الجليد بقدميه، وقف لبضع لحظات، ليختار، إلى أي محطة سيتجه، مباشرة عبر البستان، فوق العشب الأبيض الذي يطقطق، واتجه نحو المركز التجاري. حل التعب في كل أنحاء جسده. هل كان عليه أن ينسى كل شيء ولا يذهب إلى أي مكان. لو لم يتلقَّ خطاب فانيا، أو طائر النار الذي يرفرف من الظرف، ربما اكتفى، ميتيا، على الأرجح، بهز كتفيه ببساطة، وواصل حياته. من يدري أية قوانين يضعها مهاويس الدوما! لن يضعوها في سيبيريا على أية حال، ثم يرسلوها إلى جورجيا. لن يفعلوا.

في هذا المكان، فكر ميتيا بعمق. بدا وكأنه ربط في كتلة صخرية، ليفقد الاتصال بكل ما يدور حوله ثم أحكم إغلاق ذاته، ونال الحكم الذاتي. توفر لديه كل ما يلزم من ضروريات الحياة. الأكثر أهمية، أن يكون لديه مستودع من

ذكريات كثيرة لن تحرمه أبداً من المواطنة، ولن تنكر عليه الحق أن يعيش في جمهورياته السماوية. أمر غريب: كلما تعقد أمر جواز سفره، كانت ذكريات الطفولة أكثر إشراقًا، تلك التي بدت، منذ فترة طويلة، وكأنها تحترق وتهدأ في روحه. قادوه إلى هناك، من حيث لا ينوي العودة مرة أخرى، وتركوه هناك في حالة ارتباك تام. مرات عديدة، وقف قبالة باب مغلق محرم. يدور خلفه احتفال صاخب. وقف يسترق السمع لأصوات غامضة – لو أن بإمكانه أن يعبر إلى هناك. خاطبته الطفولة عبر الباب، لكنه بالكاد كان يسمع ما تقوله، وأكثر ما أزعجه – أنه بدا من المستحيل تمامًا عليه أن يخمن عمَّ تتحدث. الأمر لا يخص جواز السفر! أغمض عينيه. حسناً، ماذا هناك، ماذا؟ انبعثت رائحة اللوز، الذي ينمو في معسكر الجيش وراء المدرسة، والخفافيش التي تحلق مسرعة فوق الباحة، وكأن هناك شخص ما يهزهم دون رحمة في دلو ضخم غير مرئي. حتى ذلك الحين، كان لا يزال بمقدوره التغلب على عبث الشعور بالحنين إلى الماضي. قال متسائلاً: "ما جدوى وجودنا في غابة الدانتيل هذه، يا صديقي؟" – محاولاً استجماع شجاعته، وشد عضلاته بشكل غريزي، وكأن شخصًا يوشك أن يلمسها. لكن اليوم، بعد أن ارتبك كل شيء بسبب ساشكا الأحول، الذي ذكره بفانيا على نحو قاس، فقرات ظهره، أكتافه الحادة، لم يحاول ميتيا صد شعور الحنين بأفكار شجاعة، وفجأةً، وبشكل عجيب، وجد نفسه على الجانب الآخر من الباب السحري. لا ترغب الطفولة أن تدعه في حاله. شعر بميلاد علاقة جديدة مع ابنه، ومع ساشكا، وكل من تحتضنه راحة اليد، من يحمل المجارف في صناديق الرمل، يجادل حول التنانين، من يؤمن يقينًا. نضج عديم الجدوى – المعنى، ثمنه فقدان الصدق، – تناثرت منه كرمل جاف. صبية ثلاثة: ساشا، فانكا، وهو، الفتى ميتيا، النمش وذات الشعيرات النافرة الحادة، جميعها وقفت خلف الباب المحرم، يتحدثون عن أمر ما يخصهم.

فهم ميتيا أنهم، تلك المخلوقات الهشة بارتفاع متر وقبعة، – هي الشيء الأكثر أهمية في العالم، الملح الحقيقي للأرض، وكل الأشياء الأكثر أهمية تحدث لهم. التبعات غير ذات شأن، من صار: واهنًا أو مفتول العضلات، وغدًا أو طيبًا – لا يهم. لا يهم على الإطلاق، وما نتيجة هذا، – فقط ما ينعكس في عيونهم المفتوحة، يسقط مطرًا في قلوبهم، يومض ويشرق في أفكارهم، – هذا فحسب ما يمكن عده منطقيًا. كل ما كان هناك، وكل، ما تلاه، – هل هي مجرد أصداء خافتة؟! وصل إلى مسامعه صوت الجدة من بعيد. تحدثت عبر الشقة بأكملها بصوت مرتفع قليلاً، ليبدو أرفع من المعتاد. استمع ميتيا بشغف، منتظرًا، عله يتبين كلمات واضحة من الصوت، آملاً، أن تكون الكلمات مفهومة هذه المرة. قالت: "افتح النوافذ في المطبخ"، – "وأطفئِ النور." سالت وتجلت في أعقاب تلك العبارة البسيطة شقة تبليسي في فراغ أحمر تحت الجفون، تلك الشقة، بيته الحقيقي الأول والأخير: غرفة المعيشة بورق جدرانها البيج – مشرق، حتى أصغر خطوطه، وحوض السمك الثلاثي الضخم بأسماك الزيبرا المخططة، التي تسبح هنا – هناك في غرز سريعة، وكأنها تريد لفق اليمين واليسار معًا. كل شيءٍ، كل شيء. انتفخت الستائر الحريرية، عادت إلى الحياة، سارت نحو سريره، هنا انزلق الريح حاملهم، فسقطت الستائر دون حراك.

– غط في النوم. احذري، لا توقظيه.

ضحكت الفتيات ومررن بجواره تحت مظلة موقف الأتوبيس. عبس ميتيا، ونظر حوله، لكنَّ أحدًا من الأشخاص الواقفين أو الجالسين في موقف الأتوبيس لم يعِرْه اهتمامًا. جلس على المقعد تحت المظلة ساندًا ظهره إلى جدار المحطة. سار الناس أمامه، تبادلوا الحديث، همسوا، وزمجرت

الأتوبيسات، ولكن لم يكن بينهم الأتوبيس الذي يريده. إنما، هل هو بالفعل بحاجة إلى أتوبيس، يأخذه مجددًا إلى شقة فارغة؟ مرحبًا لويس، ملك الشمس.

المخالب للأمام، قوست القبة أجنحتها، سقطت بومة من السقف. تابع الأطفال بافتتان، وقد أداروا رقابهم على نحو تلقائي.

- تعالَ ، تعالَ - تنحى ليفان جانبًا بحركة رياضية رشيقة.

بالطبع، كانوا يخافونه. ربما الجيران كافة، يخشونه. ليس لدرجة الهوس. لكنهم يخافونه على أية حال. عاش في الجوار منذ زمن بعيد. ربما، على الدوام. استقبله الجميع كزائر. أحيانًا، يستقبلون الضيوف من الأقارب عند أي منهم. يقدمونهم للجيران، يشرحون، من هم، وما الذي يجعلهم رائعون. لكن، على أية حال، سيلقون عليهم التحية بجدية، وبشكل رسمي - أي، كما يفعل الناس عادةً مع الزوار، لكن لا يبدو أن ليفان لاحظ شيئًا من هذا. ابتسم. دائمًا ما يبتسم. لا ينشغل إلا بنفسه.

طويل القامة، رأس صغيرة، على خديه شعيرات رمادية خشنة. "مثل أبريك،"[(١)]، - هكذا حسموا أمره. كان من الصعب الوصول لمنزل ليفان. قالوا إنه عاش في موسكو، أو ربما سافر. في بعض الأحيان، عاد بصناديق خشبية كبيرة، برزت منها أشياء لا يعلمها سوى الشيطان - ذات مرة، على سبيل المثال، حمل قرونًا عديدة متنوعة: مثل فروع مفلطحة، مثل مثقاب منقط، مثل قرون بقر ملولبة بمسمار. جاء في سيارة أجرة عادية شنطتها

---

(١) إنسان هجر الحياة، وذهب للعيش في الجبال، بعيدًا عن السلطة والقانون، يتحصل على قوته من السرقة. عادةً يطرد ساكن الجبل القوقازي من المدينة لجريمة ارتكبها، عادة جريمة قتل. انتشر المسمى في شمال القوقاز، خاصةً في جورجيا، أبخازيا، وأذربيجان.

مفتوحة على مصراعيها أفرغوها عند المدخل، مثل حقائب محمولة من السوق. أثار الأمر شغفهم، بالطبع، لكنهم كانوا يراقبون من بعيد. كان ليفان بروفيسورًا، أو أكاديميًا. تساءلوا ذات مرة على نحو جاد: بروفيسور أو أكاديمي؟ تراهنوا على العلكة. علبة علكة من نوع "Wrigley". ولأجل فض النزاع، لجأوا إلى ليفان، سألوه. أجاب: "بروفيسور، أم أكاديمي؟ اختاروا أيهما أرقى. في الواقع، يبدو كمستشار الدولة لشؤون الحوافر والقرون!". غريب الأطوار.

لكن تغير كل شيء. مع توقف رحلاته فجأةً، بدأ ليفان في العيش في المنزل، كعموم الناس. لاحظ الناس أحيانًا أن هناك تصرفات عجيبة تصدر عنه. يخرج صباحًا من المنزل، يقف، يتطلع إلى الأشجار، التي تحتضن الشمس. يدور بعينيه، ينظر مرة، وأخرى - بدا وكأنه يريد رؤية شيء بعينه. لا شيء، على الأشجار، - فقط شمس وعصافير.

حدثه بهدوء:

- مرحبًا.

يرتجف، كما لو أن أحدًا أيقظه، ترتسم على وجهه ابتسامة.

- مرحبًا عزيزي! - لم يلبث أن تحرك بعزم في كل الاتجاهات، إلى أسفل، إلى أعلى، ثم إلى أسفل مجددًا، كمن يحاول نزع الشمس من عينيه. - لا أراك. لا أرى شيئًا. اسمع، هل سبق لك أن رأيت أسنان التنين؟ تعالَ، سأريك. نعم، إنها لبنية، على أية حال.

- لا يوجد شيء اسمه تنانين.

- أوووه! أيها الفتى! لمن تقول هذا! انظر، هنا، على هذه الأيدي... - فرد أمامي أصابع مشعرة. - حصلت عليه من وكره. لو كان لك أن ترى

مثل هذه الهياكل العظمية هناك؟ العظام، كما في مفرمة اللحم – ضغط كفًا بكف، ثم برم يديه.

- فعلاً، هل تملك التنانين أوكارًا؟

- همم، تبدو جاهلاً تمامًا. في أي صف دراسي أنت؟

يثمل في أغلب الأوقات. متى شرب، يصير من الخطر الوقوف أمامه، تمامًا كالوقوف بالقرب من عامل حفر. ترنَّح، رسم شيئًا، يداه متدليتان، كما لو كان يريد التخلص منهما نهائيًا. في العموم، كان كمن تعرض للانفجار – والآن ها هو يطير في كل اتجاه.

ربما، لم يسبق لهم أن قرروا زيارته. كان يعلم، كيف يستقبلهم. يحمل حفنة من الحلوى وينتظر قليلاً. (منذ ذلك الحين، غالبًا ما كان يقوم بهذا. يمسك حفنة الحلوى في راحة يده المفتوحة ويقف تحت شجرة، كأنه خرج لإطعام الطيور. ربما فعلها ليفان بذات الطريقة، محتمل أن يكون الأمر مربكًا – تسرع الخطى، لم يكن لديه حلوى، إنما فتات خبز هشة. يسكب الخبز على الأسفلت، ويكمل طريقه حاملاً الحلوى). لم يكن طوفي أو كراميل، بل "دب في الشمال"، "سنجاب"، "كراكوم"[1] ("قال الوالدان – ومن أين يمكن الحصول عليها. " يملك الأساتذة إمدادات جيدة." – "وليفان – هل هو حقًا بروفيسور؟" – قالوا هذا والشك ينتابهم". حسنًا، نعم، – أجاب الوالدان، "حقيقي . أم أكاديمي").

- لوح لهم ليفان قائلاً: "انزعوا أحذيتكم، الآن تفضلوا".

لم يكن أحد ينوي الدخول. استحال عليهم تصوُّر، ما يحويه هذا المنزل، كما هو الحال مع ضيوف يقضون عطلة مع طفل سيد المنزل الأنيق

(١) رمال.

في الزاوية البعيدة، يقتضي الأمر أن تخلع حذاءك أو تذهب لغسل يديك. بعد أن مروا بمخالب البومة، صاروا على استعداد لرؤية أي شيء. ليس التنين، أمرًا مفهومًا، بطبيعة الحال، – لو حقًا عاشت التنانين في وقت ما، لربما انقرضت منذ وقت طويل. أما الحصان – فالأمر أهون.

كان مسكنه غريبًا كصاحبه. شقته ذات ثلاث غرف، عابسة، ساخرة، لامعة في كل ركن منها، بأعين زجاجية يقظة. بعبور المدخل والسير إلى اليسار في الباب المفتوح، وجدوا أنفسهم في المتحف. حلق قطيع من السمك الطائر أسفل السقف. حامت ثلاث سمكات صغيرة أخرى فوق الطاولة المطلية الممتدة، على ارتفاعات مختلفة. ظهر خلف الكرسي ذئب مبتسم. وفي دولاب زجاجي ذو قفل، اصطفت مجموعة من البنادق، متنوعة. عتيقة. بمؤخرات جميلة، طويلة جدًا، يبدو أنها مطعَّمة بالذهب. (قالوا، في مسكنه، هناك جهاز إنذار، كما في المتجر).

– كل شيء في حالة عمل، أيها الشباب. بهذه البندقية الجميلة، أسقطت ذات مرة نسرًا، خطف طفلاً.

– طفلاً؟

– أصغر قليلاً منك. نعم فعلاً، خطف طفلاً. في ضواحي كوجوري، كنت في طريق عودتي من عند صديق قديم، متخصص في الأسلحة النارية، اصطحبني إلى حيث تجري عمليات الترميم، نعم، بالفعل، لكنني مررت بالقرية، رأيت، الناس في حالة من الفزع.

حدق ميتيا بتمعن في فم الذئب المقلوب، استمع إلى ليفان دون تركيز. بمشاعر مشوشة. أحيانًا، ترسم بألوان مائية على ورقة مبللة، ولا تثبت

الألوان فوق خطوط الرسم. تلك الحيوانات والأسماك حقيقية جدًا، لكنها لا تنبض بالحياة. أمر مثير للسخرية، مثل الحراس الملكيين في القصص التلفزيونية، لديهم بنادق، تحرسها شرطة حقيقية، لأنهم في حالة عمل، – كل هذا في الهواء. لا تعززه حقيقة، أو خداع – عالقًا في مكان ما بينهما. تمامًا كالموقف من ليفان وحكاياته عن التنانين أو صداقته مع ابن حفيد دي أرتاجنان[1]، الذي، كما ترون، كان سببًا في وجود هذه البندقية. هذه البندقية – التي ترقد، هنا، فوق ركب ليفان. وعلى مقبضها – زنابق.

في غرفة النوم، برزت من الجدار رأس فرس نهر. صغيرة.

-قال ليفان: "فرس نهر قزم"، وصفع خد فرس النهر البني مثل كيس من الرمل.

لم يصدقوا أنه قزم. اعتقدوا – أنه وليد. قالوا بحسرة: لماذا هذا الشبل؟

أخرج ليفان فكي سمكة قرش مرعبة من الدولاب، ممسكًا بهما من أسفل إلى أعلى، ونقرهما بإصبعه أمام كلٍ منهم.

– حسنًا؟ من هو الأكثر شجاعة؟ – ابتسم، ودون انتظار متطوعين، أمر أقرب واحد: – ضع إصبعك هنا، وبادر بوضع إصبعه بين أسنان القرش.

ستة صفوف من سيوف عظمية، إضافة إلى ستة من الحراب المتعطشة للدماء، متأهبة لالتهام عظام الأصابع البشرية الهشة. كان الأمر مرعبًا خلال المرات الأولى. سرعان ما أدرك الجميع، أن الفكين – فوق كل شيء، لا يعضان

---

(١) تشارلز أوجير دي باتس دي كاستيلمور، كومتي دي أرتاجنان، الذي ولد عام ١٦١٣، لوبياك، فرنسا. خدم لويس الرابع عشر ككابتن فرسان الحرس. مات في حصار ماستريخت خلال الحرب بين فرنسا وهولندا، عام ١٦٧٣.

- لا يطبقان، لن تتأذى منها الأصابع. لكن لطالما سأل ليفان، من هو الأكثر شجاعة، ثم صعِدَ فوق الدولاب، ونقر على فكي سمكة القرش أمام الحضور.

- مذعور؟ - ابتسم ليفان وهز رأسه، قائلاً: - نعم، وعندما سقطت فوقهم، لم يكن الأمر مضحكًا بالنسبة لي على الإطلاق.

كان لديه ابنة تدعى مانانا. حسناء. عزباء. متوسطة الطول، هناك في الجوار من هنَّ أطول منها. وعندما لملمت شعرها في ضفيرتين على الجانبين - كيكينيبي، هكذا تسمى التسريحة، - صارت شابة. كانت تبلغ من العمر، على الأرجح، ثلاثين عامًا. أو ربما أربعين. تفوح منها دائمًا رائحة العطور، ترتدي خواتم كبيرة رائعة. تسعد مانانا، حين تجد ضيوفًا عند والدها.

- قالت: "آه ، أيها الأعزاء"، تصفق بيديها، - "الآن سأعد الشاي".

في عجالة، تخلع حذاءها، تلقيه في الممر، تذهب حافية القدمين إلى الحمام لغسل يديها. وإذا كان الباب لا يزال مفتوحًا، يمكن سماع صوت الخواتم عند وضعها فوق الحوض واحدًا تلو الآخر - تسوك، تسوك، تسوك - ودبلة صغيرة على شكل ثعبان - دززززين. يعتذر الضيوف أغلب الأوقات غالبًا عن تناول الشاي: لكنهم يخجلون في حضرة مانانا. كان من الصعب تمامًا فهم الكيفية الواجبة للتفكير فيها: عن المدرسة، على سبيل المثال، أو الطبيبة في مستشفى - أو عن شابة بقصة شعر الكيكينيبي؟ كما أنها أحيانًا تقف أمام باب المطبخ، عيناها تنظر إليهم بمسحة حزن ترتسم على وجهها، لدرجة أنها تصير غريبة الأطوار. هكذا يهرولون نحو الباحة، يناقشون ما رأوه، يتجادلون، إذا كان في الإمكان اصطياد النسر الطائر بالبندقية، دون أن يصاب الطفل بأذى.

أوراق ذابلة صفراء، تحدث حفيفًا بينما تمتد كبساط فوق الأسفلت. سماء كشريط حاد الزاوية من فروع الشجر، بدت باهتة، انهمرت إبر المطر. ثم هطل وكسى الشوارع ثلج ناعم متوهج، - ليتحول إلى وحل بني، تشرَّبه أسفلت الطريق المؤدي إلى المدرسة. وفاض كريستال الربيع في الهواء، ليكسر الألوان والأصوات الناشئة على نحو جديد. ويكبر الأطفال.

لم يعد ليفان يخرج حاملاً الحلوى في راحة يده المفتوحة. بدأ يرتدي نظارات ذات عدسات سميكة. تواصل مع الصبية، الذين يتحدثون لغة باسك ركيكة، بشكل رسمي إلى حد ما، على الطريقة الجورجية، وأحيانًا يخاطبهم بـصيغة الجمع "حضراتكم". يضغط على أيديهم، بوجه مقتضب:

- لا تضغط، يا إلهي، لا تضغط هكذا!

تراجع حماس ميتيا قليلاً. صار إحساسه نحو رفقة الباحة فاترًا، بل إنه شعر بشيء من الغربة. أقلق هذا ميتيا، لكنه عجز عن فعل شيء. البنادق، التي تطلق أعيرة نارية من رؤوس كبريتية، وسباق الدراجات بدت تافهة أمام ناظريه. شرع ميتيا في القراءة: ("قالت أمي للجدة - شكرًا للرب، بدأ الولد في القراءة،" ثم أغلقت الباب بهدوء). القدرة المكتسبة على العيش وسط عالم غريب، بينما يقلب الغلاف ويمر بعينيه سريعًا فوق السطور، أدهشت ميتيا للغاية. بدا له التعود دربًا من المستحيل - وعليه ألا يرضى بهذا. خرج مسرعًا من المدرسة، وصعد على كرسي بصحبة الكتاب، وهكذا ظل جالسًا حتى المساء - ما لم يجروه عنوة إلى الطاولة.

لكن ليفان جذب انتباهه. ما إن رآه من خلال النافذة، حتى أغلق ميتيا الكتاب وظل يتأمله لفترة طويلة. أمر عجيب، سرت في جسده قشعريرة بغيضة شفقة من مرأى العجوز وهو يحدق في الشمس. القلب، في ذات

الوقت، الذي تدرب بفضل الأدباء الروس على المعاناة، أحسها هنا، لكنه عجز عن رصدها.

لا يزال ليفان يحب أن يروي. كانت حكاياته طويلة خلاقة. وليجد متسعًا من الوقت لينتهي، قبل أن يقرر المستمع الإفلات، كان ليفان يتعجل، يسكب الكلمات ليكدسها في أكوام - لكن دائمًا، على نحو أنيق، متكامل. عادةً، يميل نحو وجه مستمعه، لتبدو عيناه خلف العدسات، على بعد بضعة سنتيمترات، كبيرة بشكل لا يوصف - كأسماك في حوض مائي دائري، تسبح قرب الجدار. ما إن يلمح سرحانًا في عينيه، يمسك مستمعه من ذراعيه، يعصرهما بين راحتي يديه القويتين، يربت عليهما، ثم يتركهما، وما يلبث أن يمسكهما مجددًا، وبعد أن ينتهي من الحكي، يضحك بصوت جهوري مفعم بالحيوية. صار يشرب بانتظام - مما استدعى شجار مانانا معه بلا كلل. أحيانًا، تظهر بحقائب مملوءة في الباحة، تلقي التحية على جيرانها - حينها يتطلع الجميع في أعقابها مشفقين. يعلمونَ. طالما لم يظهر ليفان طيلة اليوم، يعني هذا أنه يثمل.

كانت المشاجرات "في اتجاه واحد". لم يُسمع صوت ليفان قط. لم يكن طرفًا في الشجار مع ابنته. كما يبدو، كان يلتزم الصمت كل مرة. يجلس، على الأرجح، على الكرسي، ويربت على مؤخرة رأس الذئب. تصرخ في البداية، ثم تتوسل، تبكي. وفي كل مرة تجده ثملاً، تعيد الكرة من البداية.

ليفان، عندما يثمل بالبيت، لا يخرج إلى الباحة. ولا يفتح الباب لأي شخص. يختفي. يظهر في صباح اليوم التالي. يرتدي بنطالاً مكويًا، حذاؤه لامع، حليق الذقن، ليطعم العصافير.

- بالأمس ذهبت لزيارة صديق.

- آه، ولهذا السبب كنت مختفيًا، ولم يصدر عنك أي صوت.

في الأوقات التي يشرب فيها ليفان في صحبة ندماء، كان كل شيء مختلفًا تمامًا. يكاد ينفجر من النبيذ. في الأمسيات الصيفية، الكسولة - الراضية، الممتلئة بالصراصير وطيور السنونو، يجلس الرجال في الباحة، على طاولة حديدية تحت أغصان شجرة توت عملاقة. كانت عجوز مسنة تطرح ثمارًا صغيرة وشفافة، بطعم الورق. لكنها تمنح ظلاً على مدار اليوم. أما في المساء فالمكان تحتها رائع منعش. جلسة الشرب - بدون ليفان - عادية تمامًا، مثل اجتماع في مدرسة. يجتمعون على عجل. يفترشون الصحف، يضعون وجبة خفيفة بسيطة، يحضر أحدهم الأطباق.

- ساندرو، ساندرو! - صرخت، وهي تميل من النافذة، العمة تسيرا.

- تعال! أي الأكواب أخذت؟! هل أخذت كؤوس الكريستال. تعـــالَ وخذ أكوابًا عادية.

كانت تُمْسِك في يديها مجموعة من الأكواب المضلعة.

- آآآه ، ألقيها يا امرأة! - هز ساندرو كتفيه، بابتسامة عريضة على وجهه، لاكتشاف أمره بهذه السرعة. - قال: "كان عليها العمل في المخابرات السوفيتية، أقسم على هذا،" بينما يضع الأكواب على الطاولة. - هكذا أعيش بصحبة محقق. حسنًا، كان لديَّ مزاج أن أشرب في كأس كريستال! - قالها موجهًا كلامه إلى تسيرا. - ما الداعي لصفارات الإنذار؟!

قالت تسيرا غاضبة: "أمير أفلابار[1] أنت"، بينما تبتعد عن النافذة. - هيا، اكسر آخر أكواب لدينا.

---

(١) واحدة من ضواحي تبليسي القديمة.

ما إن وصل إلى مسامعه صوت الضحكات المجلجلة، صخب رفاق الشرب، خرج ليفان إلى الباحة. دعاه الرجال على الفور، كما هو متوقع، للحاق بهم – ببعض التردد.

– قال: "حسنًا، سأذهب أولاً إلى المتجر"، مما سبب ضيقًا للجميع.

– أي متجر! تعالَ اجلس معنا، لدينا ما نحتاج؟ إيه، يا عزيزي، لقد عشت في موسكو أكثر من اللازم!

ملأ كأسه بسرعة حتى الحافة. شعر، ربما طوال اليوم، كأنه بصحبة مجموعة من كلاب الرعي، التي اندفعت نحوه وقامت بعدة حركات رعناء لا لزوم لها. بدا في عينيه ندى لامع، وصار من الصعب عليه أن يسمع الأنخاب. جلس بهدوء لفترة من الوقت، يرقب ساكنًا عبر عدسات نظارته، وبدت عيناه من خلفهما كبيرتين بأبعاد غير متناسقة. ثم قفز فجأةً وركض نحو البيت. علم الجميع، ماذا دهاه.

– سيأتي حالاً.

– آخر مرة كان الصوت مدويًا، هاه. سقطت حماتي من على الأريكة.

– لديه مجموعة متنوعة، تطلق النار بشكل متفاوت.

– أحدها، طويل المدى، مع الغزلان، أعلاها صوتًا، في رأيي.

– ربما، لم تسمع هذا، الذي يحتاج إلى الدق عليه في المقدمة.

– سيلقون القبض عليه يومًا ما، لا مفر.

– أوه ! انظر ماذا اختار اليوم.

في يده، يمسك ليفان بندقية طويلة ذات فوهة كبيرة عند نهايتها. يبدو أن هذه ما يطلق عليها بندقية ذات فتيل – أو الموسكيت – لديه حوالي عشرة منها، جميعها في حالة جيدة. يحشوها بأشياء معدنية، مثل مسامير.

- يعيش الإمبراطور خوان زي! - صرخ.

ثم يسمع صوت إطلاق نار مدفع، يصم الآذان، يخرس الصراصير، بينما يضع الأولاد الذين يقفون في الجوار أياديهم على آذانهم، وتحت سقف بيت المالاكان[1] انتشر سرب حمام، ورفرف بأجنحته. هرع ليفان ممسكًا ببندقية جاهزة للإطلاق.

- عمر البندقية، - علّق المتابعون.

لكن للمرة الثانية، انطلقت مانانا في أعقاب ليفان. لا تصرخ في وجهه أمام الناس. تقف على مقربة منه، تغطي أذنيه، في انتظار الدوي.

- يعيش لويس المتألق، ملك الشمس!

- ليفان، - ينادون عليه من خلف الطاولة، انخلعت "الفوهة"!

- ستتسبَّب في محاكمة لويس، سيكون أمرًا محرجًا.

بينما تبعد سحابة البارود بيدها، تسرع منانا بنقل والدها إلى المنزل، وترسم ابتسامة تفوح بالشعور بالذنب في وجه الجيران الناظرين من النوافذ - قائلة، عذرًا ، عذرًا. وبعد أن أدخلت أباها المنزل وأغلقت بالمفتاح، عادت مجددًا إلى الباحة، واقتربت من الرفاق. وقفت، محتفظة بظهرها مستقيمًا. حاولت أن تتماسك، لكن الدموع انهمرت من عينيها.

---

(١) آكل منتجات الألبان، وهو عضو في طائفة مسيحية ظهرت في المسيحية الشرقية في الأراضي السلافية. تختلف تقاليدها - خاصةً فيما يخص تناول منتجات الألبان خلال الصيام المسيحي - وهي غير متوافقة في هذا الجانب مع ما تقتضيه تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية الروسية.

- توسّلت إليكم من قبل، توسلت. هذا خطر عليه، أتفهمون، قد يودي بحياته. قال الأطباء، ربما يقضي عليه الكحول في أي وقت. - صمت الرجال متجهمين. - أرجوكم، أتوسل إليكم.

همت مانانا بإضافة شيئًا آخر، لكن سبقتها دموعها. بينما جلس الرجال في وجوم تامٍّ.

- لسنا بأطباء، كيف يمكننا مساعدته؟ ما دام لم يساعدوه في موسكو. هل من الأفضل أن يشرب رجل بمفرده محبوسًا، أخبرينا؟ أخبرينا كل شيء.

الكل أجمع، على - الرفض، لا يمكن لرجل أن يشرب وحيدًا محبوسًا.

بدأ التحضير لإصابته بالعمى مقدمًا. اشترى عصا المكفوفين ونظارات سوداء.

في الصباحات، بعد إطعام العصافير، يغلق عينيه، يمد أمامه تلك العصا الطويلة ذات المفاصل - ويتجوّل في أنحاء الباحة. ستوك - ستوك، ستوك - ستوك. في دائرة بمحاذاة الرصيف الذي يطوق ميدان الباحة، وهو يختلس النظر إلى المنحنيات. يبدأ هذه التمارين المرعبة ما إن يذهب الأطفال إلى المدرسة.

- مرحبًا.

يجيب: "أهلاً، أيها الطير المبكر". - قررت أن أتدرب على المبارزة، - ومد العصا أمامه كما السيف.

أصيب ليفان بالعمى في الخريف. "ربما، أمر مخيف أن تصاب بالعمى خاصةً في فصل الخريف"، - قرر ميتيا، - عندما تحدث الأوراق حفيفًا. أحضروا له سيارة الإسعاف بدايةً، وعاد بعد مرور يومين، مكفوفًا بالفعل.

كان يمشي، يضرب برفق أمامه بالعصا، حتى يصل إلى حافة الرصيف، الذي يطوق الميدان الداخلي، سار في دائرة. ستوك – ستوك، – ستوك. في البداية، يهدأ الجميع عند سماع خطاه تقترب. خصوصًا في ذلك الخريف، اليتيم – الرطب الهادئ. كان من السهل التهرُّب منه، كان يكفي الصمت والتنفس بهدوء. يمر ليفان على مقربة. ستوك – ستوك، ستوك – ستوك.

يجلس على الطاولة تحت شجرة التوت، يخفي يديه في جيوب عباءته ويجلس لفترة طويلة، دون حراك. تسقط ورقة شجر جافة على الطاولة أمامه، يعثر عليها ولسبب ما يمسح الغبار. وبعد أن يعيد يديه إلى جيوبه، يعود مرة أخرى إلى الجلوس دون حركة، مثل دمية كتلك التي تعيش في منزله. نقلوا مجموعة أسلحته بعيدًا إلى مكان ما، وضعوها في سيارة "فولجا" سوداء، وقع رجل في قبعة صوفية على ورقة، ثم سلمها لمانانا. نادت مانانا على أبيها:

– أبي، ألا تريد أن تودعني؟

لكن ليفان أشار بيده بشكل مبهم عبر الهواء وظل جالسًا بلا حراك في مكانه الذي لم يتغير تحت شجرة التوت، ولم يحرك ساكنًا حتى عندما أغلقت أبواب السيارة "الفولجا"، وشرعت في التحرك.

في الباحة، اعتادوا تدريجيًا على وضعه الجديد، وتوقفوا عن التهرب منه.

– مرحبًا ، ليفان.

– مرحبًا بك.

– ألا تشعر بالبرد هنا؟ تجلس هنا طيلة اليوم، ألا تملُّ. أنا نفسي أشعر بالبرد، عندما أخرج للتدخين.

- لا أجلس هنا هباء. هناك أمر يشغلني، يشعرني بالدفء.

- ما هذا الأمر؟

- أنا وهذا الجذع القديم، - أومأ برأسه نحو شجرة التوت، - نتعجل نهاية الشتاء. نستمتع معًا. نود انتظار الربيع. السنونو، أتعرفه، أم لا، العشب، النبيذ. أحمر مثل الدم.

- الوقت لا يزال مبكرًا جدًّا على تذكر الربيع.

- ليس مبكرًا على الإطلاق. أتريد شرب النبيذ. عندما يصير الجو دافئًا.

- أو!

- أتدعونني للشرب؟

- ما هذا السؤال. للأسف، لن يكون هناك صخبٌ على شرف لويس.

- لهذا يمكنني القول، على انتظار الربيع، فلأنتظر الربيع.

لكنه لم ينتظر. بعد خريف هادئ في نفس العام، جاء شتاء هادئ أيضًا، ولكنه طويل على غير العادة، ممل، موحل. توفي في التاسع والعشرين من شهر فبراير. هطل مطر بارد، وضعوا مظلة فوق النعش. وقف ميتيا يشاهد مراسم الجنازة من النافذة بنظرة جادة، كما لو كان يبحث عن برهان لأفكار تراوده.

انتزعهم سفاح الريح من ملابسهم، مثل المحار من الصدف. ابتلعهم بالكامل. جسيمات ديسمبر الصباحية، اللينة، الباردة. تحلق كل دقيقة في الحلق البارد الرطب، تعبس، تتنهد، تختبئ وراء حواف الجدران. استقرت السماء الرمادية التي تشبه الماء على ارتفاع شاهق، تمامًا كما التصقت

فضلات السوق بالأقدام. يبدأون في استقبال الجمهور في الساعة التاسعة، وكي تحجز مكاناً، عليك الحضور مبكرًا. وصل ميتيا في السادسة وكان ترتيبه الثامن والعشرين. هنا، كما هو الحال في إدارة الإسكان والتعمير، يسجلون أسماءهم في ورقة، ثم يعلقون الورقة على الباب بشريط لاصق. يحضرون هذا الشريط اللاصق معهم. لم يحضر ميتيا معه قلمًا، قرر أن ينتظر حتى يأتي الشخص التالي في الدور، ليطلب منه قلمًا. اضطر إلى الانتظار لفترة طويلة. يقف قبالة الباب فوق الدرجات المتهالكة، التي تهتز مثل بركة، تكاد الريح تبتلعه من جميع الجهات، وأخيرًا ظهرت على الرصيف سيارة "لادا" قادمة، خرج منها شاب ضخم في الأربعين من عمره. بدا الشاب على علم بالمتبع هنا، أخرج أثناء سيره قلمًا من جيبه.

– عذرًا ، هلا أعطيتني قلمًا. لا يوجد لديَّ ما أسجِّل به اسمي.

تطلَّع إليه الرجل باستياءٍ – وربما بنظرة احتقارٍ معتادةٍ – كأنه أراد سبَّه "يا ابن العاهرة"، ثم سجَّل اسمه في صمتٍ، وبذات الصمت أعطى القلمَ إلى ميتيا. يبلغ ميتيا الآن الثلاثين من عمره. ولا يزال يعتقد أنه يفعل كلَّ شيءٍ بشكلٍ خاطئٍ. يعجز أن يقوم بأيِّ شيءٍ كما يجب.

بدت النزعة إلى كتابة ما يقوله على الورق غريبةً. اتَّضح أنه بمجرد أن بدأ استقبال الجمهور، تشتَّت الحشد، واندفع كالفيضان نحو الباب المقدَّس، وفقدت قائمة تسجيل الحضور قيمتها بشكلٍ أو بآخر.

– ما رقمك؟

– أسأل فقط.

ولم تَهدأ الريح، لا مكان للاختباء خلف الحوافِّ الحجرية. فكَّر ميتيا، أنه – عبثًا – لم يتناول الشاي قبل مغادرته البيت، الآن لو أراد أن يشرب الشاي، فلا مفرَّ من أن يطلبه من الخارج.

في الساعة التاسعة والنصف، ترددّت صيحاتٌ عاليَةٌ خلف الحشد:

- دَعُوني أدخلْ! دعوني أدخل، اللعنة!

كانت المرأة العجوز ترتدي باروكةً مائلةً، صفراء اللون، ودون أن تستوعب شيئًا، غمغمت:

- إلى أيِّ غرفةٍ؟ هذا الطابور.

- حالاً سينتهي هذا الهراء. سأستدير، وسيعود الطابور بأكمله إلى المنزل!

بطريقةِ طيور البطريق، سحق كلٌّ منهم أصابع الآخر، وغادر الطابور على مضضٍ.

فتاةٌ في العشرين من عمرها، في مكياجٍ مسائيٍّ ثقيلٍ، أزرقَ - ذهبيٍّ، شفاهها لامعةٌ مُعوجَّةٌ، تطلَّعَتْ إلى المساحة الضيقة المتاحة أمامها للمرور، وقالَتْ: "أَفسِحوا، أيُّها الخِرَافُ!" شهيةٌ جارحةٌ، لم يتحدث أحدٌ هكذا عن الخراف أبدًا. ثلاث سيداتٍ عابساتٍ، تقفنَ على مَقرُبةٍ من الفتاة، يضعْنَ المساحيق- على ما يبدو - زميلاتها. مرَّتْ، ضغطت عقِبَها بقوةٍ على الباب، تردد صوت المفتاح في القفل، أدارته، سحبته، فتحت الباب، بشكلٍ ربما أحدث أزيزًا في عظام شخصٍ ما، ألقتِ الميدالية في الشنطة، أقفلتها. هزت كتفيها، كأنها تنفض حشرةً.

- لماذا تتدافعون، اللعنة!

- هل يمكن الدخول؟

- سيُنادُون عليكم.

- الجوُّ باردٌ جدًّا هنا.

كانت الفتاة ذات المكياج قد دلفت بالفعل إلى الغرفة، في أعقابها زميلاتها العابسات، لكنَّ شخصًا ما غمغم:

- هل سينادون علينا؟ متى؟ مرت نصف ساعةٍ على موعد بدء العمل.

لكنها، وبحركةٍ سريعةٍ متعاليَةٍ، استدارت وتطلَّعَتْ إلى الحشد خلفها بحدَّةٍ.

- مَنْ لدينا هنا بهذا الذكاء؟ ها؟!

لم يردّ أحدٌ.

لكنَّ عينيها رصدت بشكلٍ لا لَبْسَ فيه من بين غابةٍ القبعـات الباليـة الزرقاء، نظَّاراتٍ على ذراعها شـريط لاصـق قـذِرٌ، شـوارب همجيـة، تحت أنف زرقاء. هزَّت رأسها بشدةٍ ثمَّ توارت في الغرفة. حُشِرَ الحشد قبالة الباب المفتوح.

حسنًا، نعم،- قالها صاحب السيارة "اللادا" الذي يرتدي قبعة زرقاء- لقد رصدتك. نصيحتي لك، أيها الرجل: عد إلى المنزل على وجه السرعة، ولا تأتي إلا بعد مرور أسبوعٍ على الأقل. ربما حينها تكون نسيت.

- أوه، اللعنة! سرح لبرهةٍ ثمَّ انسحب ببطءٍ منصرفًا.

نادوني في الحادية عشرة. تشاجر الحشد بشكلٍ أخرق، فتراجع عبر القاعة، لينقسم إلى ثلاث فرَقٍ، في الممرات الضيقة، مُلصقاتٌ، أوراقٌ، قصاصاتٌ معلَّقَةٌ. تتطلع نحو المكتب المقصود، استقرت هنا على طول الجدار، وقد مزَّقها حلق الباب. فكَّر ميتيا: "إننا بحاجةٍ إلى شفاطاتٍ، - نحتاج شفاطاتٍ، مصَّاصي دماءٍ، مصاصي دماءٍ للممرّ. لا أعرف لماذا لا تتعجل الجدة - التطور، إنها متأخرةٌ. لو وجدوا لمارسوا هوايتهم في الامتصاص

الآن– وبشكلٍ جيدٍ". ضغطت المثانة على مقلة العين. انحشر الحشد بين الجدران، غلبه التعب والهلع، متكاسل، أخرس، لكنه في وضع استعدادٍ للانفجار في أقرب وقتٍ. شمَّ ميتيا رائحة الفراء، الذي يفوح برائحة البيرة على نحوٍ غير متوقَّعٍ، ضربت ركبته، حقيبة دبلوماسية، كزعنفة سمكةٍ كبيرةٍ. من بين العديد من الأحاسيس التي انتابته، هناك شعورٌ واحدٌ فقط كان ممتِعًا: أذابت المدفأة الصقيع الذي ضرب مُؤخرته.

– لليوم الثالث لا أستطيع الدخول.

– ما مشكلتك؟

– طفلٌ، يجب الحصول على الجنسية على نحوٍ عاجلٍ. يصدرونها الآن وفق مكان الميلاد.

– لماذا؟

– لا أعلم؟ ربما يمكنك معرفة الإجابة. ليس باستطاعتي تفسير شيءٍ. ابني ولد في فلاديفوستوك[1]. تخيل كم سيستغرق الأمر من الوقت حتى يكتب هؤلاء، ويجيب الطرف الآخر هناك؟ وجَّهوا إليه دعوةً لمدة ثلاثة أشهُرٍ، في إطار برنامج تبادلٍ. هذا لو لم يُسعِفُنا الوقت خلال شهرٍ.

– حسنًا، عليك إذن الذهاب إلى المدير.

– أتعتقد ذلك؟

– أعرف.

---

(١) مدينةٌ ساحليةٌ روسيةٌ وميناءٌ يُطِلُّ على خليج القرن الذهبيِّ، قرب الحدود مع الصين وشمال كوريا.

قرَّرَ ميتيا ألاَّ يذهب اليوم إلى المدير. قرَّر- بدون أيِّ سببٍ، وبشكلٍ عفويٍّ، كما في لعبة ورقٍ غير مألوفةٍ، - أنْ يبدأ على نطاقٍ صغيرٍ، مع مفتش شؤون الجنسية. أحب التسمية، مهيبة، حاسمة: "مفتش شؤون الجنسية". المفتش كذا وكذا. أرِني جواز سفركَ.

وقفوا قرب الباب رقم اثنينِ لمدة عشرين دقيقةً، لكنْ لم يدعهم أحدٌ للدخول. تعلَّقَتْ مثانته مثل مرساةٍ صلبة فوق صنارةٍ رفيعةٍ. سريعًا صار الصبر دربًا من المستحيل.

- عذرًا، أين الحمام؟

- أتمزح؟ حمامٌ؟ أترى، لا توجد هنا حتى مقاعد، يريد مرحاضًا!

بعد مرور بعض الوقت انفتح الباب. انفتح على مصراعَيه وكمعلقةٍ من الجيلي، قفز نحو الحشد. وقف الجميع واجمين بلا صوتٍ. لم يُسمَع سوى صوتِ خرفَشةِ أحذيَةِ الحشد.

- أفسحوا الطريق! - زمجر صوتٌ مألوفٌ من خلف الباب المفتوح- أفسِحُوا!

دُهِسَتْ قدَمُ أحد الأشخاص.

- أبعدوا أحذيتكم، أفسحوا الطريق!

بدت الحركة حادةً مُتراخيةً. كانت تحمل في يدها غلايةً. مرقت من بين الحشد واختفت عند الركن.

"لماذا مُجدَّدًا؟ ما الداعي لوجودي هنا؟ ما الداعي؟ لماذا، بغضِّ النظر عن كيفية مقاومتك، سيعثرون عليك على أية حالٍ، يُزلزلونك، يدفعونك نحو

الأحراش، في الصفِّ، إلى الرُّكبِ، في طوابير شر يكسوها العرَقُ. مَنِ الأخير في الطابور؟ لماذا نقف هنا؟ في سبيل الحصول على الجنسية؟ كم تتكلَّف؟ ما الفائدة؟ لماذا هكذا، فقط بهذه الطريقة؟ مرارًا وتكرارًا – أيًّا كان ما يطلقونه علينا. أرثوذكس، شعبٌ سوفيتيٌّ، روسٌ. ليس ثَمَّةَ فارقٌ: حشدٌ، زحامٌ، طابورٌ. طابورٌ بلا نهايةٍ في سبيل الحصول على حياةٍ طبيعيةٍ. طابورٌ، نمطُ حياةٍ أدركَتْهُ الشيخوخة. مَنْ أنتَ، أيها الواقف في الطابور؟ ما رقمك؟ طابورٌ يَلِدُ طابورًا، يتورم، يفسح الطريق لنبْتَةٍ جديدةٍ. يترعرع طابورٌ طازجٌ، على الجانب إلى أعلى، وإلى أسفل تنمو فروعٌ، تمتدُّ حتى تتسلَّل إلى مَرْسَى الشمس في المكاتب، ما فائدتها؟ الجنسية، هل أنت بحاجةٍ إليها؟

عانَى ميتيا من سخطٍ مهلِكٍ سقيمٍ. حاول أن يقمعه، يتجرَّعه، يهرب منه، كما كان يفعل في طفولته بفرارِه من الظلال العجيبة المُرعِبة في غرفة النوم. كلا، لم يُفلِحْ– تمامًا– كما في طفولته – لم يفلح. ساد في الممر الضيق هدوءٌ حذِرٌ. خيَّم صمتٌ تامٌّ على الحشد المحشور. الكلام هنا خطرٌ كما في محطات الوقود. الجميع صامتون، يتصبَّبون عرَقًا.

عادت– بذات الجرأة– رافعةً مِرفقَيها، بينما يتسرب الماء من الغلايةِ. اعترض ميتيا طريقها.

– عذرًا، متى تبدؤون العمل؟ كانت لتبدو جميلة، لولا المكياج الصارخ وهذا المظهر. نظارةٌ مسطَّحَةٌ ناعمةٌ لامعةٌ: رموشٌ لاصِقةٌ مجهريةٌ، بينما تدلَّتْ شفاهٌ من الكرَز. لم يعتدْ ميتيا على مثل هذه المشاهد منذ فترةٍ طويلةٍ. فجأةً، تذكر القوميسار[١] ترياسوزكا في ممارسته للشؤون السياسية: يصرخ

(١) مسؤول في الحزب الشيوعيِّ السوفيتيِّ، ولاتزال التسمية موجودة في الصين حاليًــا. يقوم بمهام التعليم والتنظيم السياسيِّ.

بصوتٍ عالٍ بأرقام وفقرات المقالات، أخبرَهمْ للتوِّ، مَنْ ولماذا تمَّ إرسالُه في كتيبة التأديب - والآن يتطلع ببطءٍ نحو أعينهم. لا ينظر، إنما يتفحَّص. يدور بعينيه- ربما، على ما يبدو، آن أوان الدخول منذ وقتٍ طويلٍ.

تو ارت النظارات خلف الرموش، لمعت مجدَّدًا - دارت حول ميتيا، دلفت الغرفة.

- سيَشربون الشاي.

- يا ليتهم يختنقون.

تدافع خلف ميتيا الداخلون والخارجون. اتضح أنها هي المفتش المسؤول عن الجنسية. بينما تحدَّثَت عبر الهاتف مع صديقتها التي كانت في زيارتها، والتي نسيت هاتفها الخلوي فوق الثلاجة، تطلَّع ميتيا حوله بعصبية. لا يعنيه على الإطلاق هذا المكتب الذي تفوح منه رائحة مزيل العرق. تملَّكته رغبةٌ مِلحَّةٌ في الذهاب إلى المرحاض بشكلٍ فاق حدَّ الهوَس، وبينما ينتظر أن يهتمَّ المفتشُ المسؤولُ عن الجنسية، كان من الضروريِّ صَرْفُ الانتباه إلى شيءٍ آخر. في المكتب رقم اثنين، تجلس أربعُ مفتشاتٍ، شابَّاتٍ. خلا المكان أمام طاولاتهم من الكراسي، ولهذا بقي المواطنون واقفِين. من حينٍ إلى آخَر، كان عليهم الانحناء لوضع بعض الأوراق. مَن يُعانُون من بطْءٍ في السمع، لم يفردوا قامتهم أبدًا، ظلُّوا في موضع نصف انحناءٍ، مُوجِّهين آذانهم في اتجاه مسؤولي التفتيش، ربما، لا سمح الله، يفوتهم أيُّ شيءٍ. في عيون ميتيا، بعد أن انهار ما بقيَ لديهِ مِن قوةٍ، سقطت الدموع - وفي محاولةٍ يائسةٍ لصرف انتباهه، نظر من خلال الستارة، بدا كأنه يقف على أرضية أحد المصانع. تقف هناك آلة عند كل طاولة، وظهر ينحني - ينفرد.

وأخيرًا، وضعت السماعة وجلست، واضعة ذراعيها على الطاولة. انتفخ عنق بلوزتها، ودهست حلقة بيضاء حول الرقبة رفيقتها. لم يثر أي من هذا أي رغبةٍ ذكوريةٍ في ميتيا، كما لو أنَّ ما برز من البلوزة كراتٌ من الجبس، أشكالٌ هندسيةٌ مجردةٌ.

- ها هو، تنهد بهدوءٍ ووضع جواز سفره. كان من الضروري التحدث بسرعةٍ. ليس فقط بسبب الألم الحادِّ أسفل البطن. إنه في مصلحةٍ حكوميةٍ على أيةِ حالٍ. هو طالب خدمةٍ. على طالب الخدمة الجيد أن يكون رشيقًا- مثلَ فأرٍ جائعٍ- أُتيحت لميتيا الفرصة، في وقتٍ غير بعيدٍ، لتحديث هذا الوعي السوفيتيِّ الذي ربما طواه النسيان. يا رفاق! عليكم الاستعداد قبل الدخول. السؤال سريعًا، لا تُعطِّلوا الحركة.

أخذت جواز السفر، وبدأت في تقليب صفحاته على عَجَلٍ.

- ليس لدي أية مدرجاتٍ، وتسجيل الإقامة في سنة اثنين وتسعين كان مؤقتًا، وبصفةٍ عامةٍ، أعيش هنا منذ سنة سبعةٍ وثمانينَ، درست هنا، في الجامعة، وخدمتُ في الجيش؟

كلما تكلَّم أكثر، أصبح أكثر انزعاجًا. كلُّ التحولات اللازمة واضحةٌ: احدودَب الظهر، توارى العقل، ولد صرير في الحلق، كان عليه ترجمته إلى لغةٍ بشرية. حاول السعال، الغناء بصوتٍ عميقٍ، لكن لم يُوفَّقْ. الكلمات ذاتها، التي نطق بها، بينما يقف هنا، بعد ساعاتٍ عديدةٍ من الانتظار في مرمى ريحٍ جليديةٍ، ثمَّ محشورًا وسط العرق، بأقدامٍ مُجمَّدَةٍ، ومثانةٍ تصرخ، كان من المستحيل أن ينطق بطريقةٍ مغايرةٍ.

تفكيره في التواليت يُعذِّبه.

– لماذا أتيت إلى هنا؟

لم يفهم على الفور ما تعنيه.

– ماذا – لماذا؟

– حسنًا، لماذا أتيت إلينا هنا في مصلحة جوازات السفر والتأشيرات، وليس في منطقة لينين، على سبيل المثال؟ إننا هنا لا نُقدِّم خدماتٍ للأشخاص غير المسجَّلِين في منطقتنا. وداعًا.

– هل يَعني هذا أنكِ لن تقومي بتسجيل إقامتي.

فرَدَت يديها، مما تسبَّبَ في فَكِّ الزرِّ العلويِّ قليلاً، خرج نصفه من العُرْوةِ.

– لن نسجِّل، مما يعني أننا لا نرى سببًا وجيهًا لذلك.

– هلا استمعت لي. لديَّ معاشٌ، رقم هويِّةٍ، أنا دافعٌ للضرائب، كلُّ شيءٍ على ما يرام، وأذكُر في سنة اثنين وتسعين، عندما صدر هذا القانون القديم، ذهبتُ إلى مكتب الجوازات للإدراج، لكنهم لم يسمحوا بذلك، قالوا إنَّ هذا ليس ضروريًا – لأن تسجيل إقامَتي مؤقتٌ. إنها حلقةٌ مُفرَغَةٌ، أليس كذلك؟

كان ميتيا في عجَلَةٍ من أمره، وكان الذُّعْر مُحرِّكه عبر متاهاتِه المشتعلة. تنهَّدَت وتراجعت إلى الخلف في مقعدها، وبحركةٍ رياضيةٍ جريئةٍ، ألقَتْ جواز السفر عبر الطاولة.

– التالي!

– انتظري، انتظري. كيف؟ التالي – كيف؟ ماذا عليَّ أن أفعَل؟

- استعِن بمحامٍ.

- أيُّ محامٍ؟

- اممم! قلتُ، اذهَبْ إلى محامٍ!

- يبدو أنكِ لم تسمعي شيئًا مما قلتُ.

- ألاَ تَفهم؟ وفقَ القانون الحاليِّ، يحقُّ للمواطن الروسيِّ فقط أن يحصل على مدرج الجنسية أو الإقامة الدائمة - توقفت للحظة، على ما يبدو لأنها نسيت التاريخ- في سنةِ اثنتين وتسعين. ليس لديك هذا ولا ذاك، وداعًا.

- سيكون لديَّ تصريح إقامةٍ دائمةٍ في غضون ستةِ أشهرٍ، وربما أقلُّ من ذلك. من غير الممكن أن يكون هذا مُبررًا. في المرة السابقة لم يمنحوني مدرجًا بسبب الإقامة المؤقَّتة، ثم ماذا؟

- جئتَ إلينا من أراضي دولةٍ أجنبيةٍ.

- أيُّ دولةٍ أجنبيةٍ تقصدين؟ كانت دولةً واحدةً حينها، اسمها اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. ربما سمعت بها؟ ألم تسمعي بها في المدرسة؟ ثمَّ إنَّ القانون القديم يذكر: أن كلَّ مواطنٍ مقيم على أراضي روسيا لا يقدم التماسًا بالتخلِّي عن الجنسية يُعترَفُ به كمواطنٍ، لم أقدِّم مثل هذا الالتماس.

تطلَّعتْ بسرورٍ إلى انهياره، وقالَت:

- حسنًا، بما أنَّك بهذا الذكاء، لا حاجة لكَ إذن في الاستعانة بمحامٍ. في سوق الكتاب في ملعب "دينامو" ستجد كلَّ ما يلزم من المراجع، التالي!!

صرَّ الباب من خلفه، فاحت رائحةٌ مثل تلك التي في غرفة خلع الملابس الرياضية، وكما في إدارة الإسكان، بدأ شخصٌ في التذمُّر على

الفور، حتى لا يبقى منتَظِرًا، ويبدو أنه ليس بمفرده مَن تذمَّر هنا، إننا نقف منذ ليلة البارحة، ما العمل إذن لو أَطال كلٌّ واحدٍ؟ هزَّ ميتيا كتفيه، ووضع جواز سفره في جيبه، وانطلق.

- التالي!

جاهد محاوِلاً الخروج. دارت دوامةٌ مجنونةٌ في رأسه، برق كلُّ شيءٍ ثمَّ انفجر، ووسط هذه الفوضى من الأفكار الخاصة بوضعه الجديد الغامض، الرحلة المفاجئة لابنه، سيطرت عليه فكرةٌ واحدةٌ خالصةٌ: "أين يمكنه التبوّل؟!".

صادف أليج، وهو في حالة راحةٍ تامةٍ أثناء الخروج من الجراج. ومع الأخذ في الاعتبار موقعهم بالقرب من الجدار الأجوف، لم يكن هناك شكٌّ حول ما كان يفعل هناك. ومع ملاحظة أنَّ في نهاية الجراج يتدفق لون تيار نهر هوانج المرح، ارتبك ميتيا بشكلٍ أكبر، فألقَى التحية على نفسه على نحوٍ غير متوقَّعٍ. اعتاد على تجاهُلِ زملائه الطلاب السابقين في الشارع. حتى لو وجد نفسه جنبًا إلى جنبٍ مع أيٍّ منهم، أو لاقاه في ممرٍّ ضيقٍ، فجأةً وبشكلٍ مباشرٍ، وجهٌ يبتسم بوُدٍّ، لا، لم يلحظ شيئًا، وبوجهٍ سارحٍ يواصِلُ سيرَه مارًّا بجواره.

لكن ليس هذه المرة. في أثناء ابتعادهم عن التيار المتجه نحوهم، تصافحوا، ربتَ كلٌّ منهما على كتف رفيقه. كانت مصافحة أليج سريعةً وهزيلةً بشكلٍ مدهِشٍ - كأنه غطَّى راحة يده بحيوانٍ رشيقٍ عصبيٍّ، طقطق وهرب على الفور. في الوقت نفسه، تذكَّر ميتيا أنه كان يلاحظ دائمًا هذه الصفة في أليج، ولم يحب مصافحته باليد، لكنه كان يُحيِّيهِ على أيَّةِ حالٍ، حتى لا يُسيء إليه. جامعة الحياة - قديمة، عتيقة، مدفونة تحت طبقاتٍ من

الوقت المحترق – بدا كلُّ ما حوله ينبض تمامًا بالحياة، الندية بعرق المصافحة العجولة، تحيط بها الجدران، الوجوه، الأصوات. تتساقطُ التفاصيل الحيَّة، لا قيمة لها أساسًا، غير مُجدِيَةٍ – وكلَّما كانت بلا قيمةٍ، كانت أكثر تصويريةً، يَقولون: إن لدى أليج أبًا يعمل في المخابرات السوفيتية، امتنع أليج عن الإجابة عن السؤال المباشر بابتسامةٍ خبيثةٍ. لم يسبق أن رَأيناه بصُحبَة فتاةٍ قطُّ، لذا فهو لا يتمتع بثقةِ أحدٍ؟ أَطلَقوا عليه لقب الفرج، لا أحد يتذكر السبب. كان يأتي إلى الامتحان يرتدي بابْيُون من القطيفة السوداء.

– حسنًا، كيف حالك؟

– في أفضل حالٍ– وضع أليج حافظته تحت إبطه– وأنت؟ كيف حالك؟

– أحيانًا أكون بحالٍ أفضل، فقط لا أذكر متى.

– لماذا؟

كان هذا أيضًا مخالِفًا لقواعده. عادةً لا يخبر ميتيا الغرباء عن مشاكله. على الأقلِّ إلى أولئك الذين ليس بمقدورهم المساعدة في حلها، لكنه في هذا التوقيت كان ساخرًا، بشكلٍ غير معتادٍ، ففي ردِّه على السؤال : "كيف حالك؟" أجاب بتفاصيل تليها تفاصيل، يشير أثناء الحديث ويتطلَّع في عينيه. عبر المارة بجوارهم، بينما يغادرون الرصيف. استمع أليج بحيويةٍ مدهشةٍ. تجاوَبَ، استوضَح. تبيَّنَ أنه ضليعٌ للغاية في مثل تلك المسائل. في النهاية، فتح المحفظة، بحث فيها، ولكنه لوى بأسى شفتيه الرطبة المعقوفة.

– كلا. نسيتها في المكتب. اليوم، أحضَروا أخرى جديدة. أردتُ أن أُعطيك بطاقة عملٍ– ثم استطرد بلغة رجال الأعمال المفعمة بالحيوية –

تعالَ صباح يوم الاثنين، أحضِرِ المستندات. سنحاول حلَّ المشكلة. فلتقابلني في الردهة. لا أُحبُّ مقابلات المكتب.

بعد أن استمع لكلام أليج، غمغم ميتيا:

"اممم"– أومأ صامتًا، كما لو كان يحاول نزع الكلمات من داخله بيديه. أخيرًا، وجَّه سؤالاً– آه؟ أين تعمل؟

– في شركة "إنتوريست".

لم يتعجَّل أليج التعلّيق. أخرج دفترًا، قطع ورقةً، وكتب رقم الهاتف.

– هذا رقم تليفون المنزل. إذا لم يكن بمقدورك المجيء يوم الاثنين، اتَّصِل بي في المنزل، اتفقنا.

– في "إنتوريست"؟

– ماذا بكَ؟.

– آآاه.

– نائب المدير العام بيريوكاف. تعالَ يوم الاثنين، سنتحدَّث. الآن أعتذر، عليَّ الانصراف، أيها العجوز: لا وقت لديَّ. السيارة على وصولٍ، وما زال لديَّ ما أقوم به، وداعًا!

"حسنًا، فكَّر ميتيا، متطلعًا إلى الجسد الذي توارى في ظلام المَدخل، انظر كيف جاء الفرج". يتساءل، ما طبيعة العلاقة بين فندق إنتوريست وبين "مشكلته"؟ أمرٌ واضحٌ حتى للأبلَهِ. إنتوريست! واحدٌ من تلك التروس الإضافية، المترابطة، والتي يمكنها تحويل "المشاكل" في أيِّ اتجاهٍ. من المفيد دائمًا أن تتوافر مثل تلك التروس الإضافية، وهذا ما لم يكن يملكه ميتيا في

أيٍّ وقتٍ على الإطلاق. لكن انظر إلى أليج! لم نتقابل منذ مائة عامٍ، وهوَ! يا له من همام.

أمطرَ ميتيا رأسه بالرماد، عضَّ شفته، قام بمحاولات انتحارٍ كثيرةٍ، ودعا نفسه أبله البلهاء- عمومًا، تعهَّدَ بالتغيير. كل من لم يتعرَّف إليهم من زملاء الدراسة السابقين في الشوارع، كانوا لعناتٍ مُخلِصة. "وإذا، كالمعتاد، مرَّ بجانبه واحدٌ منهم- يرتعد ميتيا ويفكِّرُ: - في كلِّ الأحوال، هذا ليس بالأمر الجيد. لا يجب أن تتصرف هكذا مع الناس. لا لَومَ عليهم، أنهم سكنوا ماضيكَ في وقتٍ ما. ليس أمرًا محمودًا أنْ تقتلهم هكذا وهم على قَيدِ الحياة. إنهم أحياءٌ. إنهم في الحاضر. ومفيدون جدًّا".

سار ميتيا عبر الأفنية. حملت الريح الندى، ضربت القطرات خدَّيه. وبقدر ما يستطيع، حاول تفادي الصفعات الرطبة، مثل سلحفاةٍ في صدَفَةٍ، مُنسحِبًا داخل معطفه، لكنَّ الريح أصرَّت على مواصلة طريقها إليه من تحت الياقة، لتَصطدم بشكلٍ مُثيرٍ للاشمئزاز بألواح كتفه. أخذَتهُ أفكاره بعيدًا عن المفتشة التي ألقَتْ في وجهه جواز السفر عبر الطاولة.

كيف لا تصيبه الدهشة من حسابات الحياة الساخرة! كل هذه المصادفات - الحشود - الطوابير - ونقاط المعادلة الكبرى، التي لا تسر العين، أو يقبلها العقل. تلهو الحياة، بلباقةٍ، أو بسخريةٍ، باستدعاء الماضي للحاضر. التقى ميتيا بأليج في ظروفٍ، تتعلق بواحدةٍ من مراتِ التبوُّلِ المُؤسِفَةِ.

حتى ذلك المساء، لم يكن ميتيا يعرفه. سمع، بوجود هذا الفرج[١]، الذي عندما يسكر، يسقط فاقدًا الوعي، ثم يستيقظ فجأةً ويُلْقِي بشيءٍ قاتِلٍ.

---

(١) أطلق زملاء أليج في الدراسة لقب "الفرج" عليه لأنه لم يكن لديه صديقاتٌ أبدًا.

أو يخطف الأواني ويهرب، ويسبِّب جلَبَةً بها بطُولِ النزل - إنذارٌ، كما يقولون، في السفن، مدمرة معادية على الجانب الأيمن. مع أنه لم يكن مُجَنَّدًا في الأسطول. أو في أيِّ مكانٍ آخرَ، عمومًا. وعلى الجانب الأيمن من النُزُل - هناك نزلٌ آخرُ، ليس معادِيًا على أيةِ حالٍ، لأنه يخصُ المعهد الطبيَّ، يعلم الجميع، أنَّ هناك فتياتٍ جميلاتٍ في المجال الطبيِّ، ثمَّ فجأةً، يبدأ في وضع الكراسي، مُطالِبًا بفراشٍ ووسادةٍ - حتَّى يُفهِموهُ أنه في البار - في البار، وليس ضَيفًا عند يفجيني، - ومن الأفضل إعادة الكراسي إلى الطاولة التالية، قبل عودة أصحابها.

في ذلك المساء، ثَمِلَ ميتيا لأوَّلِ مرةٍ في نزل كلية الجغرافيا. حدث بعد قتالٍ في الديسكو. حضر السكان المحليُّون للعِراكِ مع الطلاب الزائرين. كان العُرْفُ هكذا عندهم. وجد ميتيا نفسه، بطبيعة الحال، وسط الزلزال: هياجٌ، جلبةٌ، لكماتٌ مُتطايرَةٌ في كلِّ الاتجاهات. تمكَّنَ بالكاد من عبور اثنينِ منهم، لم يفلح تمامًا، استفزَّهما. اتَّضَح أنهما محترِفان في معارك الديسكو. جذَبَهُ أحدهما بشدةٍ، ضغط يديه إلى جسده، وشرع الآخر في ضربه، حيثما اتفق. أنقذَتْه لوسيا. اعترضت اللكمة الموَجَّهة إلى جسده، بدأت تذكر ألقابًا وأسماء عائلات، ثم غمرت الجميع بوابل من الشتائم، حتى يتركوه. أخذَتْه لوسيا للشارع. عندما غادرت سيارات الشرطة، التي حملَتْ، كما هو مُتَّبَعٌ، مَنْ تعرَّضُوا للضَّرْب، تعرف الجميع على بعضهم البعض، وذهبوا جماعةً للسُّكْرِ في النزل، في غرفة القتال رقم مائتين وواحدٍ.

- لوس[١]، - سأل ميتيا في الطريق، حيث تغلَّبَ الفضول على الخجلِ- ماذا عن تلك الأسماءِ التي ذكرتِها؟

---

(١) تدليل لوسيا.

- حسنًا، أجابَتْ لوسيا بهدوءٍ، - إنهم مجرمون مِن أقاربنا، ثمَّ أضافَتْ، أيٌّ من سيوقع بدلاً منك، لأنك ابن عم كروت سيفيرني.

- حقًّا، أنت على علاقةٍ بمجرمين؟

- هل جُنِنْت؟ لا أعرف أيًّا منهم. لكنِّي أعلم كلَّ شيءٍ عن الجميع. لو وقفتَ في مطبخنا مرتَين، لعرَفْتَ بدَورِكَ. جيتار، كأنها تشعر بالذنب، وقفت في الزاوية. رقد دخان السيجارة على التلِّ الأبيض المقلوب فوق الطاولَةِ. أَشعلَت ثم نَقرَتْ بعصبيةٍ شمعةً في برطمانٍ من الصفيح. جلَسْنا، برؤوسٍ تَتدلَّى بعناءٍ. من بين كلِّ الفتيات هناك لوسيا واحدةٌ. أَلقَتْ بيدها فوق كتفِهِ، اقتربَتْ بشدَّةٍ حتى وصل صوت أنفاسها التي سخنها الكحول إلى ميتيا. هزَّت قدمَها تحت الطاولة، حتى بدَتْ هذه الاهتزازات، كأمواجِ ظِلٍّ فوقها طافيًا.

صمتٌ لا يُقاوَمُ، كطريقٍ مسدودٍ. نفدت الفودكا. لم تكن هذه هي المشكلة. عبر الطريق من النزل هناك قطاع أهلِيٌّ، حيث الجدات بائعات الساماجون[1]. تطرق الباب، تضع النقود في الشرَّاعة - وتحصل على المنتج. المشكلة أن الفودكا نفدت، والنقود أيضًا. أجهَزْنا على آخرِ سيجارةٍ.

وفجأةً صعِدَ صديقي بيچنياك من كلية الكيمياء بابتسامةٍ عريضةٍ.

- وجدْتُها! قال هامسًا.

انطلق وسرعان ما عاد مع زجاجة خمرٍ.

-لقد تذكَّرتُ - قال بيچنياك- كيف يمكنني أن أنسى؟ - ولمس ذقنه المتورم في الجانب الأيسر.

---

(١) مشروبٌ روسيٌّ مثل الفودكا، يُصنَعُ في المنازل.

زجاجة "نارزان"، مسدودةٌ بجريدةٍ ملفوفةٍ في حزمَةٍ. نظَّفُوا من أجلها المكان بمرحٍ، أزالوا أعقاب السجائر، والهياكل العظميَّةَ للأسماك المُلْقاةِ على الأرض. ارتجف ميتيا كما لو كان يرى من خلال مصباح كيروسين - يفوح السماجون بالكيروسين بقوة - صرخت المعدة، تردَّد الصَّوت في الأسفل، إلى الجانب، واستقرَّ عند شفرات الكتِفِ. "هذا بالتأكيد فِعْلُ الكيروسين!!!" لم يكن هناك شيءٌ خفيفٌ يُؤكَلُ، من بقايا سلطةِ "أوليفييه"، التي أَعَدَّتْها لوسيا على عجَلٍ، برزت سجائر "ردوبي".

- يا ابن العاهرة، لماذا أَلقَيتَ "رودوبي" هنا في سلطة "الأوليفييه"؟

لكنَّ ابن العاهرة كان نائمًا، يُحدِّقُ في السقف بكدماتٍ قُرمزيةٍ. أَيقِظُوهُ.

- لماذا أَلقَيتَ بقايا السجائر في سلطة "الأوليفييه"؟

نهض فجأةً، يُحدِّقُ بعينينِ مُنتَفِختَينِ، أَمسَكَ ما بين قدمَيهِ، وحلقهِ، في ذات الوقت، ثمَّ قفز بعيدًا.

- إلى أين أنت ذاهبٌ؟

هل عثر أحدكم على الفجلِ. مُقطَّع بعنايةٍ إلى شرائح.

- بين الأولى والثانية.

سكب ميتيا الثانية في حوضٍ مع الفيكوس(١). جلب الفيكوس ليلاً بهدوءٍ، من القاعة وقتما غطت الحارسة في النوم. ظلَّ واقفًا هناك، ما لم تلحق به الرفيقة جفوزد (مسمار)، مديرة النزل. بعد مرور بعض الوقت، بتوافر ظروف مواتية، عاد الفيكوس مرةً أخرى إلى الغرفة مائتين وواحدٍ.

---

(١) نوعٌ من الأشجار.

- حسنًا.

الثالثة - في جَرَّةٍ سعة ثلاثة لترات، والتي كانت بمثابة طفَّاية سجائر. لم يشرب بيچنياك لسببٍ مَا، أمسك بالكأس بيدٍ مرفوعةٍ وتأمَّلَها بعنايةٍ. ثمَّ فجأةً، قال على نحوٍ غيرِ مُتوَقَّعٍ:

- آه! نعم فعلاً، لقد ارتبكت. أعطِنِي هذه.

وضع الكأس، وأخذ الزجاجة، قرَّبَها من وجهه.

- نعم، كان السماجون في زجاجة "كالاكولتشيك"، أما هذه الزجاجة "نارزان". لقد اختلط عليَّ الأمر. كان يساورني الشكُّ. سأُحضرها حالاً.

اختفى خلف الباب، ثم عاد، أَخذَ الزجاجة.

- أنا بحاجةٍ إلى الكيروسين، طلبوا مني أن أَجلِبَ بعضًا منهُ في التدريب.

لم يكن الباب قد أُغلِقَ بعدُ، انفتح مجدَّدًا. ظهرت صورةٌ ظِلِّيَّةُ في المدخل.

- ألَيس هذا صديقك الذي ينام في الحمام؟ - قالت الصورة الظلية، تَثاقلَتْ ثمَّ أَضافَتْ: - هلا أعطيتَني سيجارةً.

لمْ نفعل، من ذا الذي يُعطِي سجائرَ إلى صُورٍ ظليةٍ مُعتِمَةٍ؟ أعدت للفرج مغامرة كاملة. ذهب بصحبة ميتيا ولوسيا. لم يعترض أحدٌ. لوسيا في أيِّ صُحبَةٍ كانَتْ صديقي.

كان الفرج نائمًا، واضعًا مرفقه على حافة فتحة المرحاض، حافي القدمَين، وقد احمرَّت أذناه. صدرُه مغطًّى بالبازلاء الممضوغة، امتدت ساقاه الطويلة النحيفة إلى الكابينة المقابلة. مازالت يده اليسرى تمسك بعضْوِهِ.

- أنت! استيقظْ! استيقِظْ! لم يصدر عنه أيُّ ردٍّ فعلٍ واستيقظ، فقط عندما فتحوا السيفون في المرحاض الذي كان ينام عليه. هسهس الرذاذ وقفز

خارج المرحاض، أغرقه. نهض، وسرعان ما وقف على قدميه وخرج من المرحاض. إلى أين أنت ذاهبٌ؟!

جسد الفرج الهزيل، وإحدى يديه تتلوَّى وتلوح، يعدو عبر الممر. انطلق إلى إحدى الحجرات في أقصى نهاية الممرِّ - وللأسف، كانَتْ مفتوحةً - وبعد بضع ثوانٍ، وصل صوت صرخات فتاةٍ حادٌّ.

في ذلك المساء، لم يكن بيجنياك فقط هو الذي كان مُشَوَّشًا. إنَّما الفرج أيضًا. تذكَّرَ، أنَّ الطريق إلى الحمام- إلى نهاية الممر ثم الانحراف ناحية اليمين. ما أيقظه، لم تكنِ المثانة الفارغة التي تضغط على عينيه. جرى - إلى الممر مباشرةً ثمَّ إلى اليمين. دخل الغرفة بسروالٍ مفتوحٍ، فزعَتِ الفتيات منَ الغزو الغادر، ولمْ يُسعِفْهُنَّ الوقت لإيقافه. حمل من خلف الكابينة دولابًا له مصراعان.

# الفصل الرابع

تشبه "حجرةُ الحراسَةِ" الضيقة درعًا جماعيًّا، اتسع للكلِّ، صارت امتدادًا للظهر، صندوقًا صغيرًا للعقل. ومما يُثيرُ الدهشة أنَّ أثناء الجلوس فيها، من الممكن التفكير لساعاتٍ حول أمور، لم تتجاوز حدود هذه الأمتار الخمسة المربَّعة. خمسة أمتارٍ مُربَّعةٍ كساها التراب، ممتلئة بالعِصِيِّ المطاطيَّةِ، أجهزة اللاسلكيِّ، دفاتر تسليم وتسلُّمِ الأسلحة، المجلات الإباحيةُ، خِرْقَةٌ سوداء مشبعة بزيت الأسلحة. لم يعد ميتيا يقاوم كما كان يفعل أثناء خدمته في الجيش. صارت المقاومة الآن بلا جدْوَى. تبيَّن أنّ أمْنَ البنك التجاريِّ هو الآخر مجرد ثكنةٍ. اتَّضَح أنَّ الثَّكنات هيَ أفضلُ علاجٍ للأفكار غير المرغوب فيها.

- أتَسمَعُ، فالي، اذهَبْ إلى المدخل، هذهِ نَوبَتُكَ.

- حسنًا، أعرف! لكِن لديَّ خمس دقائقَ أخرى.

- عليك أن تلقي ساعتك في القمامة؟ الساعة الآن الثانية بالفعل.

تفوح "حجرة الحراسة" برائحة الرجال. رجال يتعرقون أثناء العمل. انبعثَتْ منهم رائحة "حجرة الحراسة". الأكثر غطرسة، هي رئيسة قسم العُمْلات، عندما تقابلها في الممرات، لا تلقي التحية بل ترفع أنفها. يُطلِقون عليهم الحرَّاس. بينما يُسمُّون موظفِي البنك "ماكينات الصرَّاف الآلي". ذاتَ مرةٍ، اشتكَتْ "ماكينات الصراف الآلي" إلى ريزينكا. قالوا: إنَّ الحرَّاس يَفوحون برائحةٍ كريهةٍ - هؤلاء الناس يأتون إلى البنك، وهنا، استدعى

يوسكوف، رئيس الأمن، ريزينكا إلى مكتبه. كان عليهِ أن يكذب، ويقول إن "الأولاد" يُمارِسُونَ الرياضة طيلَةَ الوقتِ – يَتمرَّنون على العارضة، ويرفعون الأثقال، وهذا هو سبب الرائحة. "الأولاد" – الجميع هنا دائمًا أولاد. جَرْوٌ صغيرٌ حتَّى الشيخوخةِ. ميتيا، مثل الآخرين، لم يكتشف من البداية، أين مكانه في التسلسل الهرميِّ بالبنك. ومع ذلك، في البداية كان الأمر مختلِفًا. الواقع أنَّ الجميع أراد بشدةٍ، أن يكون الأمر مُختلِفًا. سواء بالنسبة للحرَّاس، أو "ماكينات الصرَّاف الآلي". كانت هذه سمة العصر – أن الجميع يتمنَّى شيئًا مَا، ذلك لأنَّهم لمْ يعرِفُوا مِن قبل، ماذا يُريدُون، وربما بدا، أنَّ الأُمنِيَةَ بإمكانها أنْ تَتحقَّقَ ذاتيًّا. تَمنَّى الكلُّ أن يكونَ كل شيءٍ جميلاً: أنْ يرتديَ الجميع ملابس باهظَةَ الثمن، وأنْ يُخاطبَ كل واحدٍ رفيقَه بـــ "حَضْرِتَك". لم يحدث. ولا يزال هناك وافدون جُدُدٌ، كان يوسكوف يغسل أدمغَتَهم في مرقٍ ورديٍّ: "هذا العمل للرجال الحقيقيين. مسؤولية السلامة. السلامة – أمرٌ له أهميةٌ قُصْوَى. فريقٌ شابٌّ متماسكٌ".

– مرةً أخرَى يا فيتيا. فعلُوها.

– حقًّا؟

– نعم، لم يتعرَّف الجنرال إليها، لم يَدَعْها تدخل إلى البنك.

– يملك ذاكرةً ضعيفةً، لا يتذكَّر الأشخاص. أنا على سبيل المثال، تكفيني مرةٌ واحدةٌ.

– الأهمُّ، أنه يرى أنَّ الكولونيل جاء بصحبْتِها، يَفتحُ الباب لها.

قطعوا العارضة الصدِئَةَ في الباحة، بعد فضيحةٍ بسبب الروائح الكريهة. أزالُوا" الطاحونة" – صاخبة، تتطاير منها حزمُ الشرَرِ في نوافذ قسم

العملات. بالطبع، لم يَرْضَ، بالطبع، هذا موقف كُبَرَائهمْ. "شعرت ماكينات الصراف الآلي بالقرَفِ!"، اشترَوُا الكولونيا، بدأوا في تَهْوِيَةِ الغرفة، يحرس بعضهم بعضًا: "وأنت، يا أخي، ارتديتَ بالأمس هذه الجوارب أثناء العمل"، لفترةٍ مِنَ الوقت، ظلَّ كلُّ شيءٍ يتمُّ بشجاعةٍ. وفق رغبةِ كلٍّ مِنَّا. يوسكوف شخصيًّا شمَّ تلك الروائح، وظلَّ راضيًا، ولكن عادت بعد ذلك رائحة الثكنات. نفدَتِ الكولونيا، وبدا تغيير الجوارب في كلِّ نَوبةٍ أمرًا مُزعِجًا. لم نَعُدْ نلمسها. نمرُّ بالقرب منها، العيون منصرِفَةٌ عنها. أيُّها الحارس، ما فائدتها؟

- القاعدَةُ - مائة!

قام فوفا من نومه فزِعًا فتصدَّعَ الكرسيُّ تحتَه وانكسر. لم يضحكوا. فهو عصبيٌّ جدًّا، هذا الجنديُّ النفَرُ. يحب أن يتحدث عن كدماته، في كل نوبةٍ، يحب الشجار مع شخصٍ ما. يَحملُ صورةً عارِيَةَ الصدر لزوجته في جيبه. يعرِضُ الصورةَ: "أشاهَدْت مثل هذا؟ مقاس رقم ستة!".

- قاعدة - مائة!

- القاعدة تتأهب لاستقبال مُجنَّدِينَ جُدُدٍ.

- استعدُّوا.

- فهمتك، يا مائة. مستعدُّونَ لاستقبالهم.

رفع فوفا ساقيه مِنْ فوق الطاولة، ثمَّ وقف. بقي أثرُ كريم أحذِيةٍ على إحدى الشاشات - وهو سببٌ يَستدعي التعنيف من يوسكوف. ولكن لن يُنظِّفَها أحدٌ- أمرٌ مُخجِلٌ. كان وجه فوفا مُتورِّمًا، خدُّه الأيسر، التفَّ في طيات بيضاء وردية. وقف، رمش واستنشق، عدَّل من وضع جراب المسدس الذي مال جانبًا. غمز توليك لميتيا بهدوءٍ - قائلاً، إنه يستعد على هذه الهيئة حتى

يستقبلَ ميشا. كان دور فوفا – الجنديّ النفر لاستقبال ريزينكا عند المدخل. بالطبع، لم يكن هناك داع للزحف في استقبال ريزينكا، مثل حيوانٍ قارضٍ. كرر عليه توليك عشر مراتٍ: لا تنَمْ، ميشا على وصولٍ.

– سأذهب أنا – قال ميتيا – ستصبح مدينًا لي.

– حسنًا، – أجاب فوفا، غطس على الفور في مكانه.

ليس هناك أدنى صعوبة في الوقوف عند المدخل، مُمسكًا جراب المسدس بيده، يتطلع حوله باحتراس. لم يكن هذا هو المهم. غير مسموح بكَسْر القواعد. لا تفعل أيَّ شيءٍ نيابةً عن أحدٍ – القاعدة الرئيسة للثكنات. ربما لدى قسم العملات الأجنبية قواعد أخرى، لكن هذا أمرٌ مشكوكٌ فيه. وإذا حكمنا من خلال مَا يَصِلُ إلى مسامعنا من أشتات المشاجرات، أثناء المرور بقسم العملات، تبدو القواعد متماثلةً. وإلا، هل سيجدون مبررات، عن المسؤول أمام العميل عن الكذب بخصوص تأخير تحويلاته: "هل عثرت على كبش فداءٍ هنا؟ هل عليَّ أن أقوم بالعمل بدلاً عنك؟" أبطأ ميتيا الخُطَى، ما إن اقترب من الخزينة، واتجه نحو الفجوة بين الحاجز وزجاج المرآة.

– قال: وصل.

في نفس اللحظة، سمع وقْع خطوات تتجه نحو الباب في الخزينة. في الصباح، حصل ريزينكا على نقودٍ من الخزينة. ثلاثة آلاف يورو. لم يكن هناك نقود في جيبه، هناك حاجةٌ مُلحَّةٌ. هذا أمرٌ رائعٌ – بينما يجري نحو الخزينة، مائلاً نحو الحاجز، قال: "أيها الفتيات، أعطوني نقودًا." قهقهت الفتيات: "كم عمرك، ميخائيل يوريفيتش؟" يفعل هذا كثيرًا. يذهب، ثم يعود في غضون ساعةٍ. "تفضلوا، أعتقد أنني مدينٌ لكم." قهقهت الفتيات مجدَّدًا.

ولكن اليوم حدث خطـــأ. المساء يقترب، حان وقت إفراغ الخزينة، وهناك عجزٌ في النقدية. لقد نسيَ على الأرجح. الفتيات في الخزينة أصابهم القلق، لا يريدون البقاء حتى وقتٍ متأخرٍ.

أمطرت السماء مطرًا خفيفًا في الشارع. شقَّ المارة طريقهم في عجلَةٍ بين السيارات الواقفة أمام البنك. سرعان ما ظهرت سيارةٌ "مرسيدس" سوداء عند المنحنى، وانطلقت عبر الشارع، ثم توقفَت في الاتجاه المعاكِسِ.

أغلقت أبواب المرسيدس بقوةٍ لطالما أحبّ ميتيا الإصغاء، إلى صوت إغلاق أبواب السيارات ذات الماركات العريقة. تشبه إلى حدٍّ ما صوت قضم التفاح. تفاحة ناضحة ضخمة. وفي الطريقة التي يغلقون بها تلك الأبواب اللامعة الجميلة، تشابهًا مع تلك السعادة التي يجلبها التفاح حين يقترب من الفم. القضم! قفز ريزينكا قبل الحارس الشخصيٍّ وهرع نحو البنك. كان دائمًا في عجلة من أمره. قفز من السيارة وركض. وكان وجهه، كلاعب شطرنج، يفكر في الحركة التالية. في العشرات من العيون، شاء أم لم يشأ، يتأملُهُ المارّة طويلاً، جميعهم يحملون ذات المشاعر: الحسد والإعجاب. يرغب الجميع أن يصفق باب سيارة "مرسيدس" مثله، ثم الهرولة إلى البنك في مقدمة حرّاس شخصيِّين.

اتخذ ميتيا قراره في اللحظة الأخيرة، عندما صار ريزينكا على مقربة من الدرج عبر الطريق.

– ميخائيل يوريتش.

توقفَ ريزينكا، واضعًا قدمًا واحدة على درجة السلم. بدا حزينًا. "دون مداهنة،" ذكر ميتيا نفسه، "دون مداهنة". منذ أسبوع، صار كل شيء على ما

يرام. طرقت الباب، دخلت. احتفظت برباطة جأشٍ، يدي اليمنى على جراب المسدس، اليسرى ممتدة بطول جسدي. "آسف، للمقاطعة." استمع له ريزينكا، ضحك على النكتة الشرعية. هو نفسه ركض من قبل ذات مرةٍ إلى مكانٍ ما. وعد أن يفكر.

- ميخائيل يوريفيتش، أتيت يوم الاثنين الماضي، شرع ميتيا يدنو أكثر، متطلعًا مباشرة في عيون ريزينكا - جواز السفر؟ الجنسية؟

طال الانتظار، وبدأ يشعر بالندم لأنه هو من بدأ. لاذ ريزينكا بالصمت. عبرت ظلال سريعة على وجهه.

- إذن! ما المطلوب؟

شعر ميتيا بالندم، ندم، ندم. بشكلٍ نهائيٍّ لا رَجعة فيهِ، ندم: أنه هو من بدأ. وقف "الحرس الخاص" على مسافة، وتابع حديثهما. كان من الأفضل دعوة فوفا ذي الفك الذي يفوح برائحة النعناع إلى هذه المَهْزَلَةِ الجماعية. للأسف لم يكن هناك مخرجٌ، لا مفرَّ من استكمال الحوار.

- لقد أخبرتك، في إدارة جوازات السفر والتأشيرات لا يريدون تغيير جواز سفري، صدر قانونٌ جديدٌ. قلت إنك ستفكر ... - كان الصوت حلوًا، لزجًا، بينما الأحبال الصوتية تخرج عصيرًا يُبصَق مع الكلام. سعل. ما رأيك فيم يمكن القيام به حِيَالَ الأمر؟

هزَّ ريزينكا كتفيه، ومال إلى الأمام، ودبَّتْ فيه الحيوية.

- ما الذي تريدني أن أفعله، أن أذهب إلى هناك، وألكم وجوههم، أم ماذا؟

ثم أسرع صاعدًا الدرج. طار عبر ست درجات حتى الشرفة، كقذيفة مدفع، وسحب الباب الضخم. " نسي فتحه"- فكر ميتيا بسرعة. في أعقاب ريزينكا متوافقًا مع خطواته، كانت كعوب مديرة الخزينة تطرق بالفعل على الرخام. عدل ميتيا من وضع جراب المسدس ثم سار بطول ماكينات الصرّاف الآليّ، يتطلع إلى الأرقام دون اهتمامٍ. احتشد السائقون حول الكلمات المتقاطعة التي وضعت فوق إحدى حقائب السيارات، وعلى الأرجح لم يكن بمقدورهم رؤية أيّ شيءٍ. أخرج الشباب من "الحراسات الخاصة" صندوقًا من حقيبة السيارة به ماء. "لستُ في حالةٍ مزاجيةٍ جيدةٍ- فكَّر متيا لم يكن من الضروري المرور عليه – مزاج سيئ. كان ملحوظًا منذ الصباح، أنه في مزاج سيئ. لم يكن هناك داعٍ للمرور عليه." فوق الكتلة المتماهية لأسطُحِ السيارات اهتز رذاذ المطر، تلألأت الأسطح. "ربما، لو ذهبت يوم الجمعة بعد الغداء". لم يكن من الضروري الذهاب اليوم بلا فائدة، اليوم لم يكن ذلك ضروريًّا".

توقف عن الانزعاج. وليــكن. نهــاية، بلا خنوع في هذا الزيّ الكاريكاتوريّ، على غرار زِيّ شرطيٍّ من إحدى جمهوريات الموز البعيدة، أمرٌ صعبٌ. عليَّ أن أتدربَ. نظر إلى نفسه من منظورٍ طبيٍّ. كل شيءٍ على ما يرام – لم يذهب الخنوع إلى أيِّ مكانٍ. وأين يمكنه الذهاب؟ تهذيبٌ. ماذا كنت تنتظر؟ علَّموك، دون تصريحٍ، أن تختار بقلبك، أن تضع يدك في جيوبك،- وماذا كنت تتوقع بعد ذلك؟ لا يجب العيش في حظيرة الخنازير، والإيمان بأنك غزال نبيل.

خرج توليك، ابتسم ابتسامةً عريضةً:

- حسنًا، هل سألت؟

- نعم.

- ثمَّ؟

صفق ميتيا بيده اليمنى فوق راحة يسراه. ابتسم توليك مرةً أخرى، وهز رأسه.

- إذن، أيها الجورجيُّ غير الشرعيِّ، إلى وطنك التاريخيِّ. أين أنت، يا سوليكا[١]؟

في الواقع، كانوا يمزحون حول جواز سفر ميتيا بنفس الطريقة. وضحك ميتيا معهم. هل عليَّ أن أخبرهم أن كل شيءٍ يعتمد على جواز السفر هذا الآن. أخرج توليك علبة سجائر، أتريد واحدةً؟

- نعم.

- هذا صحيح، جيناتسفالي[٢]، إن الحالة الصحية لغير الشرعي تأتي في المقام الأول. كي تسي[٣]، لن تعرف أبدًا، ما مصيرك، أن تنزل تحت الأرض أو تصعد الجبال.

يا لكلمات توليك هذه "كي تسي" نعم "كي تسي"، الاختصار الأقصى لـــ "كما يقولون" و"باختصارٍ"، ميتيا ذاته يستخدمها في بعض الأحيان في العمل. ما من شيءٍ يمكنك فعله، عندما تعمل مع صديق لسنوات طوال، تبدأ في فهمه. في المقابل، أخذ توليك شيئًا من ميتيا: بدأ بحلق إبطيه وقراءة كتب سميكة ذات محتوى تاريخيٍّ.

---

(١) اسم ذكر وأنثى باللغة الجورجية.

(٢) أيها المحترم باللغة الجورجية.

(٣) كما يقولون.

في عام ثلاثةٍ وتسعين، استقر ميتيا في "يوجينفيست"، شعر وكأنه مَعلَمٌ تاريخيٌّ. "هذا هو القوقازي الجورجي". شغلت لهجته و"أخلاقه غير الروسية" الجميع لأقصى حدٍّ. كانت لهجته ترحل وتعود، ثم تهدأ تدريجيًا، مثل الصدى. في حين بقيت أخلاقه. لم يكن من السهل تحديد مظاهر تلك الأخلاق غير الروسية بوضوحٍ. هكذا، هناك شيء ما غامض مثل الهالة. لا يمكن رؤيتها أو لمسها، إنما تدرك: غريب. فهو مثلاً: قد أصر على عدم الإحساس بالإساءة من عبارة "يا ابن العاهرة"، - واعتبارها مجرد تعبير عن الاحتجاج، ولا حاجة إلى القيام بأيِّ ردٍّ فعلٍ تجاهها. كان لدى ميتيا شعور دائم بهذا الاختلاف الغامض مع المحيطِينَ. كأنه مرسوم. ليس سيئًا. لكن الصورة الكاملة بالطباشير، بينما هو- بالقلم الرصاص اليدان، الساقان، الرأس -، الحزام، هكذا - مثل أي شخصٍ آخر. لكن، إن نظرت عن قرب، ستجد الفارق واضحًا. نعم، حتى مع النظر من زاوية، خدوش الأصابع- واضحًا. غريب لم يمت، كما كان متوقعًا، على مر السنين، فقط اختبأ في الجوف، لكنه ينقض في مواضع غير متوقعة بشكلٍ مدهش. تعلَّم ميتيا أن يكون نفسه. بل إنه تعود أن يكون نفسه. اعتادوا على ميتا. لطالما أرهق هذا الأمر الجميع، باستثناء ما يقولونه في بعض الأحيان، عندما لا يكون هناك ما يمكن الحديث عنه: "هل سمعت عما يجري في جورجيا؟" يجيب: "نعم، سمعت"، معتقدًا أنها لا تخصه، جورجيا من قديم الأزل لم تعد تخصه منذ أن طافت صور العابس ذي الشارب، الشوارع لم تعد جورجيا التي تخصه.

- ماذا ستفعل؟

- لا أعرف، أمر جواز السفر أكثر أهمية بالنسبة لي. إذا كان بالإمكان أن نصدره على حدةٍ.

- لماذا تحتاجه؟

- أريد السفر في رحلة سياحية.

- حقًا؟ وحدك! ماذا عن المال؟

- ادَّخَرْتُه.

- أنتم، أيها الأغنياء، من الصعب فهمكم. رحلة سياحية! - هز رأسه باستنكار- ذهبت إلى ليفي بيريج[١] مع الشباب - أفضل من أي رحلة سياحية. على أية حال، كي تسي، سأسأل. لدى أختي جار في الشرطة. ربما فعل شيئًا؟

- اسأل.

أومأ توليك.

-حسنًا، - تنهد، ثم انتقل بالحديث إلى موضوعه المفَضَّل. - في السابق، لم يكن ميشا هكذا على الإطلاق.

- حقًا.

- كان كل شيءٍ على ما يرام، كانت الرواتب إنسانية.

توليك مثل ميتيا من الحرس القديم. عاشا تلك الأوقات التي كان فيها ريزينكا يصافح الحراس بيده، يحمل لهم في احتفالات العام الجديد صندوقًا من "المارتيني". "فقط لا تبيعوا البنك ما زلت في حاجة إليه." في تلك الأوقات كان يأتي إلى البنك أيام الآحاد، يجلس معهم في البهو، يشاهد فيديوهات

---

(١) تعني الضفة اليسرى باللغة الروسية، وهو اسم مدينةٍ في أولان أودي بسيبيريا، كما يطلق الاسم على مدينةٍ أخرى في مقاطعة أرخانجليسك.

لتايسون[1]. كانت أوقاتًا ممتعة. كوليك موريف، ابن موريف الأكبر، لص وفق القانون، سمح بشكلٍ ودِّيٍّ بالجلوس خلف عجلة القيادة لسيارته الجيب. سحب سلاحًا من تحت سترته، أعطاها لي. حكى لهم مثل أحبائه عن بدايته. عن السرقات في المتنزه الذي يحمل اسم فيتيا تشيريفيتشكين[2]، عن الكيفية التي أطاحوا بها القبعات، كيف استولوا على أحذيةٍ رياضيةٍ. "تخطف الحذاء بساقيك، ترتديه، ثم تشده جيدًا، عادة دون أدنى مشكلة." استمعوا مثل أحبة. حكى كوليك، كانوا فخورين بتعارفهم إلى كوليك موريف. منبع فخرهم بشكلٍ خاصٍّ أن بإمكانهم، عند مرورهم بالقرب من موريف الأب، الواقف عند المدخل، أن يلقوا التحية، ويتلقوا في المقابل بالكاد إيماءة واضحة عالية المقام. قلة من الناس في المدينة بإمكانهم تبادل التحية مع لص وفق القانون. لم يعد الأمر هكذا الآن. يعيش موريف الأب في موسكو منذ فترةٍ طويلةٍ. يدير المركز السمعي الإقليمي، حيث يقوم بتوفير الأجهزة لضعاف السمع.

– سأذهب لتناول الطعام، اللعنة– أخفى توليك السيجارة في حذائه – ألن تأتي؟ فليذهب، كما يقولون، هذا العفريت لحراسة البوابة. ألا يفسد شيئًا.

– في وقتٍ لاحقٍ أريد أن أشم الهواء.

– حقًّا؟

صار توليك أسيرًا للذكريات. عام ثلاثة وتسعين الجميل. مهمات الحصول على النقدية من موسكو، مليون دولار في حقيبة رياضية «بوما».

---

(١) لاعب البوكس الأمريكي الشهير مايك تايسون.

(٢) فيكتور إيفانوفيتش تشيريفيتكشين، مراهق سوفيتي قتل على يد المستعمرين الفاشيين عام ١٩٤١.

زيادة الراتب الفصلية. تطلب "ماكينات الصراف الآلي" بتملُّقٍ: "أيها الشباب، ألا تساعدونا في نقل القسائم؟"، يجيبون: "لماذا، ألا يوجد رجال لديكم في القسم؟ "

- أتتذكر؟ لم يكونوا يرسلونهم من أجل أعمالٍ تافهة. كانت أيام!

أومأ ميتيا موافِقًا بذهن شارد. غنِيٌّ عن القول، إنه توقع تصرفًا مغايرًا من ريزينكا، تصور أنه سيقدم المساعدة. عرف على وجه التحديد أن هذا الأمر لا يعنيه. استخرج ريزينكا لأحد أفراد الحراسة الشخصية بطاقة هوية عسكرية. أنقذ آخر من محاكمةٍ. أما ميتيا فبالطبع ليس من أفراد الحرس الخاص. يفتح الأبواب، يقف أمام الضيوف المهمين، عاقدًا يده على جراب سلاحه. يطرد عميلاً مزعِجًا. ثم يغلق الباب مرةً أخرَى. لكنه كان ينتظر تصرفًا مغايرًا. فكر في تلك الأوقات الجميلة، عندما بدأ كل شيء، فقط بدأ حين كان العالم الحديث الولادة بالكاد يشق طريقه عبر الغبار الصاغر، بينما ترقد الأسود إلى جوار الظباء، والمصرفيون يلقون التحية على الحراس ويصافحونهم باليد،- تصور أن تلك الأيام تحمل معاني ما، تتلاقى بشكلٍ استثنائيٍّ، خارج إطار التسلسل الهرميِّ. سقط ميتيا تحت تأثير الصدمة دون مقاومةٍ، ضربة قاضية، تلغي كل حاجة في استجماع الأفكار في صرة، ومن ثم العودة للوعي. عندما تعلم في يومٍ رائع، أنك لم تعد مواطنًا من البلد، الذي تعيش فيه، تتعلم ألا تندهش بلا طائلٍ.

عندما تغني لوسيا كما فعلت اليوم، تتولد لديه رغبة في الموت أو العيش على نحوٍ مختلفٍ. لكن، لم يكن باستطاعته إلا أن - يدخن سيجارة سرًّا. بعد أن ترك ميتيا طاولته في "الظل" قاصدًا أبعد زاوية في البار، خرج ميتيا إلى القاعة "الكبيرة"، حيث الزجاجات البارزة على كل طاولة، النساء

اللاتي تدخنَّ ببهاء، الفتيات الباردات، الرؤوس الصلعاء اللامعة، الذين خرجوا للتوِّ من لوحةٍ كبيرة، وكالعادة، انتشروا فوق طاولة بلياردو، كأنهم كراتٌ مبعثَرَةٌ.

عبر الطريق من "أبارات"، هناك سياجٌ لأحد المباني، شيد على مدار فترةٍ طويلةٍ من خلال أحد حاملي الأرقام القياسية، لم يكن المبنى موجودًا خلال أيام معهد الأبحاث العلمية في عهد السلطة السوفيتية. اختفت حوافه القبيحة وفقرات هيكله وراء السياج، كما لو كان أثرًا تحت حماية القانون: منذ قديم الأزل – في العصر البليستوسيني، أيام البيريسترويكا[١]، – عندما وصل لأول مرة إلى روستوف، كان هناك سوقٌ. سوق مسائية صغيرة، زهور مخملية، قبالة صف من المنازل البيضاء المتداعية. اشترى ذات مرةٍ هنا لبنًا رائبًا هنا، للمرة الأولى في حياته يشتري اللبن الرائب – مثل شيءٍ نادرٍ، لم يعرف حتى اسم هذا الشيء. "واحدة من هذا من فضلك." – "ما هذا؟" – "أتقصد هذا" – "اللبن الرائب، أم ماذا؟" اعتقدت البائعة أنه يصنعها. أصابه تذكر ذلك الشاب، الذي كان يومًا – بشعور اليتم والحسرة. وكما هو الحال دائمًا، كان شعورًا مؤثرًا جدًّا، يشبه غطاء اختبأ تحته من البرد.

جاء إلى هنا مرتين فقط، أغلق السوق بعدها، هدموا منازلاً كساها الثلج، ثم وضعوا سورًا حول المكان – ربما، على سبيل الحفاظ على النُضْرَةِ، على الانطباعات حية، أبقت الذاكرة هذا السوق مشرِقًا جدًّا. تطلع ميتيا إلى السياج الغارق في الإعلانات والأفيشات، ورأى التاجرات ترتدين أغطية الرأس والقبعات المصنوعة من القش، أسماك مكسوة بقشرة خضراء، ترافقها أفرع تطوف برتابةٍ ذهابًا وإيابًا، كسرب رتيب من الذباب، حزم

---

(١) البريسترويكا، وتشير إلى عصر جورباتشوف، وتعني بالروسية إعادة البناء.

البصل، وأكواب اللبن الرائب أمام ناظريه، رأى ظهرًا لشخص ما يعرفه جيدًا. بالفعل عرف من هو: زميل دراسة لميتيا في الصف الأول، نمش الوجه، وشاربٌ طفوليٌّ خشنٌ. من الغريب ألا ندرك، أن هذا مستحيل، إنما ماذا لو فجأةً – توفرت إمكانية ترتيب لقاء كهذا مع الذات في السابعة عشرة من العمر– غريبان تمامًا يلتقيان، ليس بينهما أي شيء مشترك، ربما الاسم، لكن الاسم – محض مصادفة تافهة. شخصان، عاجزان عن تبادل كلمة واحدة. يجمع هذين الشخصين تواصل مجرد تمامًا، تواصل قضى نحبه.

انتهت السيجارة، قاطع ميتيا أفكاره وسحب الباب.

تجاوز نفس الزجاجات والرؤوس الصلعاء، وقد اصطفوا الآن في وضع آخر على طاولة البلياردو، – كما لو أن شخصًا ما، بينما كان يدخن، دحرج كرتين في جيوب الطاولة، ليغيّرَ من موقعها.

– عذرًا، هلا أعطيتني سيجارة؟

– ماذا؟

– سيجارة.

– لا أدخن.

كيف؟ كنت تدخن للتو عند المدخل.

– نعم! نعم، بالطبع، لم أفهم ما قلت. سيجارة، تفضل!

بعد أن استعاد نفسه، عاد ميتيا إلى الأحلام المتقطعة، هرول متعجلاً خلال شوارع مألوفة، عبر بوابات عتيقة (تسلق السلالم المتعرجة على طول الواجهة بهدوء. وقف في مكان قريب، مائلاً على الدرابزين. من هنا، من السهل مراقبة الصبي، التحديق في ليلةٍ مقمرةٍ).

غريبان سيصيبهما مللٌ لا يوصف، لو حدث فجأةً أن تبادلا الحديث معًا.

- كيف حالك. ميتيا؟

- لا شيء يا ميتيا، بخير.

كل كلمة تالية أكثر غباء من سابقتها. وإذا صادفت ذاتك من غير انتظار في مكان غير متوقع، في طابور طبيب الأسنان. هكذا: تذهب لحشو أسنانك، بينما يرقد فوق الأريكة. أنت. غير طبيعي. يجلس، يفحص عابسًا. حجرة الاستقبال، بلا نوافذ، أربع على أربع، مجلات مكرمشة من العام الماضي، سكون مكتبة مريض – ما من أحد، سواك أنت وأنت. وحفيف ورق الجرائد، مثل طرح الريح في غابة ناعسة.

يا لعذاب الإنسان!

إنهما يقفان بشكل متباين. أحدهما يقف مستقيمًا، تدلت يداه بحرية على الدرابزين، والآخر يستند بكتفه على الحاجز، ضاغطًا على قطعةٍ خشبية مشروخة، كمقبض في حافلة. أخفى يده المعاقة في جيبه. تلألأت أسطح فليمونوفسكي[1] في ضوء القمر. على ارتفاعات مختلفة، امتدت في زوايا غير متوقعة، وتجمعت في عنقود. عناقيد من زوايا الأسطح. كما هو الحال في تبليسي القديمة. أثناء الليل، عندما يصيبه الأرق، يذهب إلى الشرفة، ويتطلع إلى تلك الأسطح.

فليمونوفسكي – شارع مذهل. المنازل المحنية المتجعدة، مثل بقايا عيش الغراب، برزت منها مباني ملحقة مختلفة، أجنحة، مقصورات، حظائر، مطابخ صغيرة. بنيت لحياة أخرى، تبدو كملابس غريبة، مطرزة – محاكة،

---

(١) قرية روسية.

بشكل سيئ للغاية، لا أمل في إصلاحه. ظلال عالية سمراء اللون للأبواب، عليها نسور وحروف "يات" ترى بالكاد، تحدث صريرًا بفعل الريح.

أمام بعض الأفنية على رصيف ضيق - صناديق قمامة. لا يقترب المشردون من هذه الصناديق، ما من شيء يستحق هناك. الوقت الأكثر إثارة للاهتمام في فليمونوفسكي - الصباح الباكر. أولئك، الذين هم في طريقهم للعمل، يسرعون الخطى نحو موقف الأتوبيس، يمرون على من يقصدون المستشفى، أو من يمارسون الروتين اليومي. في شارع فليمونوفسكي، لا ترن المنبهات، لا أحد يهرول إلى العمل. ولكن في كل صباح يستيقظ الناس، يقفون على الأرصفة. سيدات بشعر دهني. رجال يسيرون بحذر بمحاذاة الجدران، يشعلون "أعقاب" سجائرهم المنبعجة لوقتٍ طويل. يتوقفون أمام الباحات، يتطلعون حولهم- ومن الواضح أن الأمر ليس من قبيل المصادفة، الوقوف هكذا. بعد الوقوف على هذا النحو لبعض الوقت، غالبًا يبدأون في التجمع، اثنان، ثلاثة، تندمج مجموعة مع أخرى. حقيقة، لا يستمر هذا طويلاً. أسئلة قصيرة - "كلا"، "كيف!"، "يأكلون! يشربون" - ثم يتفرقون، وهم يتطلعون بحذر نحو المارة.

- حسنة لله؟ عشر كابيكات. لا تكفي. - ثم إشارة مميزة - مخالب أسفل الحلق، كما يقولون، كيف؟ ضروري، غير ضروري.

يعطي الكثيرون المال. هناك نوع واحد، على عكس الآخرين، لا يبتز مشاعر الشفقة على الإطلاق. لديه كلب دوبرمان. يذهب مع كلبه الدوبرمان، يمضي الكلب في المقدمة، مثل الكثيربن في هذا الزقاق، يتطلعون في وجوه المارة. كلاهما نحيف وطويل، وينظران إلى المارة، مثل الصيادين إلى قطيع هارب. يختار صاحب الكلب، ويدفع الكلب عبر الطريق. لكن يقف

الدوبرمان مرتعِدًا إلى جواره. ينظر إلى أسفل، موجهًا عنقه إلى الأسفلت.

- حسنة لله!

من يزعج هذا الزوج - الرجل والدوبرمان - سيتوقف على الفور عن التخفي في زي اليتيم.

- حسنة لله؟ آه، أيها الشتا! كلا! عشرة كابيكات، كيف، لا يوجد؟

في اللحظة، التي توقف فيها ميتيا عن الضجر من "صيادي" الصباح، اعتبر ذلك انتصارًا. أصعب مهمة في الحياة - أن تصير من أهل المكان، ساكنًا محليًا. يبدو أنه بدأ يفعلها. لا يقترب "الصيادون" من لوسيا أبدًا. وإذا حدث ذلك عن طريق الخطأ، فإنها توبخهم على نحو واضح وقاطع، فينصرفون بعيدًا. تعلم ميتيا من لوسيا بعض السلوكيات. "هل تعتقد أني مسرورة لاستخدام تلك الألفاظ الخارجة؟ ماذا عساي أن أفعل؟" كلا، الأمر ليس عسيرًا بالنسبة لي، أتفهَّم الموقف. لكن، كما ترين، مع النساء الأمر ربما لا يليق؟ " - "مع من، العمة زينا، أم ماذا؟ نعم، بالنسبة لها، ألفاظك مثل "من فضلك"، في الحقيقة" لا تتسبَّب سوى في الحسرة. "هل استخدمت ألفاظًا خارجة في الجيش؟" "أمر طبيعي، فالتواصل أمر ضروري، لكني الآن لست في الجيش. إنما في البيت على أية حالٍ. حسنًا، بشكل عام، لا تتحدث النساء هناك. بلغة خارجة. من الصعب عليَّ اعتياد الأمر. حسنا، يبدو أن هناك حاجة إلى استعمال لغة خارجة. أما، في وقت المشاحنات، المعارك، أو عندما تضرب الأصابع بالمطرقة، وقت أن يجن جنونك - بشكل عام، لكني لم أتحدث بلغة نابية أبدًا، لم يكن بوسعي أن أفعل." "هيا نتعلم".

في الباحة، ظن الجميع أنهما "تزوجا".

مع مرور الوقت، بدأ ميتيا يلاحظ: أن لوسيا بالفعل لم تكن هنا في مكانها الملائم. كانت تتصرف على طريقتها الخاصة. درست الموسيقى – كان هذا كافيًا، للابتعاد عن الاتجاه السائد، لكن لا يمكننا القول إنها كانت غريبة تمامًا، مثل ميتيا. بينما يسير في صحبة لوسيا، كانوا يربتون على كتفه. "كيف حال العريس، بخير؟" ووقتما يكون بمفرده، لم يلق أحد عليه التحية، ليس دائمًا، حسب الحالة المزاجية. ذات مرة، في وسط الباحة، قابلته المندفعة يلينا بيتروفنا، والدة لوسيا، نزعت قبعته: "صهري! أعطني إياها، أحتاج إلى الدفء!" – ثم وقفت بالقرب من كومة الفحم مع الجيران، وهي تتطلع بخبث ناحيته. وضعت القبعة مائلة على رأسها على نحو متعمد. احمرَّ وجه ميتيا حد الألم في عينيه، وذهب إليها، لا يدرك تمامًا، ماذا عساه أن يقول، أو يفعل، لا حاجة بالطبع إلى جرسة. استدعاء هذه المرأة الغارقة في السكر باسم والدها بدا مشكلة.

– يلينا بيتروفنا – تنفس، أوشك أن ينهار، لكنها فاجأته من جديد. نزعت القبعة وألقتها إلى رفيقتها عبر كومة الفحم. أمسكت رفيقتها القبعة، صرخ من هول المفاجأة، حاول إمساك القبعة، لكنها ألقتها مرة أخرى نحو يلينا. طارت القبعة من جانبٍ لآخر. سيدات مسنات بدينات يلهون بالقبعة دون اكتراث، تقهقهن وتصرخن، بينما ميتيا وقف كالمشلول.

– ماذا أصابك، يا صهري، أتريد أخذ القبعة من حماتك؟! أنا أتجمَّد، اللعنة.

في تلك اللحظة، ظهرت لوسيا في الباحة. وفور رؤية لوسيا، أسرعت السيدات بإلقاء القبعة إلى يلينا بيتروفنا، التي دفعتها بدورها إلى يدي ميتيا اللدنة.

- نمزح، نمزح. شباب لا يعرف الضحك، نممـــ - ززز - ح ح ح، نمزح.

ربما، استطاعت أن تنال تقديرهم في نهاية المطاف هنا، رغم العمل غير القانوني المرتكب، لو لم تتسبَّب في عقاب شوروب بالسجن لمدة خمسة عشر عامًا. فقد كان شوروب معشوق المنطقة بأكملها، ذكروا أنه كان لصًّا للسيارات. مع المال، دومًا سعيدًا غاضبًا، ذات مرة، خلال وجوده في براتسكي، غير مسار حياته بطريقة خاصة. وعندما كان الناس يسألون بعضهم البعض: "هل رأيت شوروب منذ فترة طويلة؟" - وهو ما يماثل ذات السؤال، الذي يوجهه أحد البحارة إلى زميل له: "كيف الطقس هناك؟" وصل إلى الباحة في سيارة أجرة، بالتأكيد ليس إلى وسط الباحة بالضبط، على الرغم من أن عبور البوابة الضيقة يكلف السائق الكثير من العناء، حيث استقبله الجيران بهتافات مبتهجة: أوه! وصل الأحبة!". إن وصول شوروب يعني أنهم سيقيمون احتفالاً كبيرًا وصاخبًا، جملة وتفصيلاً. واحدة من عشيقاته، تونيا، عاشت في سرير لوسيا، الأخرى، فيرونيكا، - في بيت مؤلف من ثلاثة طوابق. على نحو ما تم ترتيب كل شيء، وفي بعض الأحيان، يبدأ اللهو في منتصف الباحة، وفي اليوم التالي يجدونه على الجانب الآخر.

كان صديقًا للعمة زينا تعامل معها وفق معاييره بكل احترام، وإذا لم يشعر بحاجة إلى أيٍّ من عشيقاته، يبقى في مطبخها. "زينة! - يصرخ في نافذة مطبخها الضيقة، بزجاجها المغبَّش بفعل الغبار الملتصق. جاء الطبيب، ومعه الدواء!" وعلى مدار يومين، يمكن سماع صوت قوي حاد، يسأل، يلقي التعليمات، أو يمدح، إنه صوت شوروب.

نادرًا ما تعثر عليه ثملاً في الباحة، يميل أكثر إلى صحبة الآخرين. وفي حالة السكر، كان كمَن أصابه الجنون. ظاهريًا، بدا متماسكًا، وغير ثرثار، وهو ما قد يعكس أن شوروب ربما صار على نحو مفاجئ رزينًا – لكن عليك فقط ألا تأمن غضبه، لكنه وعلى مدار ساعات يتطلع إلى نقطة واحدة تفضحها عيناه. عاد تلك المرة في حالة سيئة سببه سائق سيارة الأجرة عقب نزوله لأنه لم يغلق الباب وراءه. ردَّ على نداء شخص متملق من الطابق العلوي: "أيها الرئيس، الأكواب جاهزة!" – بلا مبالاة تامة. أسرعت العمة زينا إلى محل البقالة، عادت تحمل كيسين ثقيلين، ولمعة في عينيها.

– زينكا، هل لنا أن نصير ضيوفك؟ – سألت جارتها التي تراقبها من الشرفة، يلينا بتروفنا.

"لا ، لا ، لا"، – أجابت بجدية غير معتادة. – إنه حزين، أووه، حزين!

الأجواء هادئة طيلة النهار في مطبخها. عدا طرق الأطباق، وقيعان الزجاجات، على الطاولة. بدا هذا غير طبيعي، بسبب الجيران الحاسدين، الذين جلسوا يجرزون اللب في الشرفة، يكادوا ينفجرون من الغيظ. في اليوم الثاني، ركضت العمة زينا إلى محل البقالة مجددًا. وبفعل تلك الطاقة التي ملأتهم، انتشلهم ذلك السكر البائس إلى خارج حدود المطبخ الخانق في اتجاه أكثر واقعية. انتقلت الطاولة إلى الشرفة، وفي لمح البصر، اجتمع الجيران حولها سعداء. تدافعت إلى الطاولة أطباق الأطعمة فاتحة الشهية، الكرنب والخيار المخلل. شرع شوروب المبتهج في تلاوة حكايات بلا نهاية عن أساطيره في السرقات، عن السيارات التي كان يفككها في غضون نصف ساعة حتى آخر مسمار، عن الاختطاف لصالح أحد طرفي صراع،

وبالحجز، عن إنزالهم ألف ونصف الألف في حانات سوتشي في ليلة واحدة، وكان عليهم سرقة "كابيك"[١]، من أجل أن يعودوا للمنزل، والـ "كابيك" كان لأحد الفنانين، ظهر باكيًا على شاشة التلفاز، حيث وبَّخهم بكل طريقة ممكنة. حكى – للمرة الألف – عن راقصة الباليه، التي تعرف عليها في وقت سابق عند مسرح البالشوي، كعاهرة عادية، استهواها طيلة المساء، وصحبها إلى مطعم فندق "كوزموس"، حتى أنا سافرت مع رفاقه إلى روستوف و"احترمت الجميع لأني أخبرتها أن بإمكاني فعل أي شيء من أجل أصدقائي". مجددًا، كان محاطًا بالاحترام، أشرق مرة أخرى: أرسل شخصًا ما لشراء السجائر، ألقى– دون النظر على الطاولة – مائة روبل مكرمشة، وأطلق، مثل أسماك البيرانا المخيفة، نكاتًا عن زوجات آخرين. تونيا، بينما سيطر عليها الخوف من الجلوس على مقربة منه، جلست في الجهة المقابلة وضحكت بأعلى صوت، أما فيرونيكا، فأسندت رأسها برقة، وبقيت عند نافذتها لمدة طويلة، ومع حلول المساء بعد أن استعادت رباطة جأشها، دفعت النافذة بقوة محدثة جلبة، واختفت عن الأنظار.

تونيا التي ترتدي فستانًا مخمليًا أسود، ألقت على الطاولة – من القبعة، مثل شخص فقير– كرنبًا، خيارًا، وعيش غراب، وسلطة مقطعة لقطع صغيرة على نحو غير معتاد، كما كان يحبها، – بنكهة تفوح برائحة زيت بذور عباد الشمس. أحضر أحد الأشخاص راديو كاسيت. "إيبيبـ – ييه!" – هو هنا، لم ينتظر الموسيقى، أصدر صوتًا مدويًا. احتفلوا احتفالاً صاخبًا، كأنهم يطردون أرواحًا شريرة، تبتلي الناس بالكرب، وضربت السيدات بكعابهن على الأرضية الحديدية، لدرجة أن أزيزًا مكثفًا امتد من براتسكي

---

(١) بالعملة الروسية، يعادل قرش صاغ.

حتى فيليمونوفسكي. ولكنهم انصرفوا مبكرًا على غير العادة. كان هذا هو اليوم الثاني لشوروب، ومع شعوره أن عينيه تكاد تفقد الرؤية ضرب كفه، ونهض، لوح لتونيا الواقفة حتى لا تنزعج، ثم ذهب ليخلد إلى النوم على أريكة المطبخ في بيت العمة زينا.

-يا له من حفل رائع، - قال الجيران، بينما ينصرفون. - أفضل علاج للحزن. لا يفل الحديد إلا الحديد.

سارت تونيا عابسة، عازمة الابتعاد عن تلك التلميحات الخبيثة.

في منتصف الليل، نهضت العمة زينا التي كانت ترقد على الأرض أمام الثلاجة، لتشرب بعض الماء واكتشفت اختفاء شوروب من مكانه. لسبب ما أرادت أن تعثر عليه، أو ربما شعرت بالقلق من أن يكون الضيف الغالي قد أصابه الحزن مجددًا، أو لأي سبب آخر شرعت في البحث عنه. مرت بجميع المراحيض، لكنها لم تعثر له على أثر في أي منها، دقت باب تونيا، وتلقت وابلاً من أقذع الشتائم، أجابت بذات الطريقة، وعند عودتها على طول الممرات المعتمة المتعرجة في اتجاه منزلها، سمعت صوته فجأة. دفعت الباب بشكل عشوائي، ذلك الذي جاء من خلفه صوت شوروب، ودخلت، غرفة لوسيا.

لوسكا، ترتدي ثيابًا ممزقة، بينما يداها مقيدتان بحزام، ووجهها المضروب يقطر دمًا، ملقاة على السرير، وشوروب قابع فوقها، واضعًا السكين على رقبتها، ويحاول تقبيل شفتيها. نظرت العمة زينا إلى لوسيا، المضروبة، والتي تكاد تختنق، وسألتها:

- أين أمك؟

- في وردية الليل - همست لوسيا.

صرخ شوروب بعد أن فقد صبره:

- اذهبي، اذهبي!

- وأين المستأجر؟ أقصد مستأجر الحجرة عندي؟ - واصلت العمة زينا، دون أن تنظر إليه.

ولكن لوسيا كانت عاجزة بالفعل عن التنفس، فلم تستطع الرد.

- اذهبي، أحذرك، ألا ترين، أم أصابك العمى؟

وضعت العمة زينا يديها على خصرها، ونظرت إلى أكمامه الممزقة، وإليتيه البارزتين من بنطاله، وضحكت.

- أرى إذن يا ابن العاهرة، أرى كل شيء. ألا ترضيك قمامتك. لماذا لم تصرخي؟ - قالت موجهة كلامها إلى لوسيا. أومأت لوسيا برأسها. - ثم ماذا، هؤلاء حثالة مخزية، ألم يكن في مقدورهم أن يأتوا في أعقابي؟! - صرخت العمة زينا في الجدران.

علق شوروب، دون أن يسحب السكين من فوق رقبة لوسيا:

- اذهبي إلى الجحيم. أيتها العاهرة العجوز! سأنال منك لاحقًا!

ضربت زينا فخذيها، وقهقهت على نحو يشبه صراخ طائر.

- اسمع! أيها المارق! الحقير الذي لا مثيل له! عقلك- كما ترى- انتقل بأكمله إلى مثانتك. - اقتربت من السرير وصفعت شوروب بتلذذ في ظهره- استر لحمك، استره! هيا، يا عزيزي، ما من مغامرات جنسية هنا- وجرته من كوعه.

سحب مرفقه، أزال السكين من على حلق لوسيا، متطلعًا بحيرة نحو وجهها المتورِّم، وصدره مبلَّل بلعابه. همَّ بقول شيء ما، ولكنه اكتفى بتحريك

شفتيه. توتر الموقف، لوسيا استغرقت دقيقة لتستجمع قواها، سحبت يدها من القيد الذي تراخى، ومسحت الدم من على شفتها. وقفت العمة زينا أمامه مثل صبي شقي.

- تعال هيا.

بدا للحظة أنه هو نفسه على استعداد للمغادرة، لكنه كان في انتظار إشارة مناسبة حتى يضع النهاية لكل شيء. فجأة سب ببرود دون أن يلقي بالاً لبنطاله الذي سقط حتى ركبتيه، نهض شوروب، استدار إلى زينا، التي استقبلته بقبضة جذبته بشدة دون خجل، وارتسم على وجهها المذهول تكشيرة ساخرة، ودون أن تنتظر لحظة، وبحركة خاطفة لا تصدق، مثل مفتاح يدخل في القفل، طعنها بالسكين في بطنها. انهارت مذهولة ساخرة، بفم مستدير وحاجبين ارتفعا حتى جبهتها، أسقطت الكراسي، التي ازدحم بها المكان خلف ظهرها، في كل الاتجاهات. انحنى شوروب ورفع بنطاله، وفرد طيات قميصه بعناية، وخرج.

حاولوا إثناء لوسيا، وإيضاح أنه كان ثملاً، حتى إنه يشعر بالشفقة تجاه العمة زينا، بدرجة لا تقل عن أيٍّ منا، وأن الأمر لا يستحق تدمير حياة شاب - وحتى أمها، بعد أن ثملت من أجل استجماع شجاعتها، حذرتها ونبهتها قائلة: "لقد تحمل نفقات الجنازة، بل واختار لها أفضل مكان في المقابر عند المدخل. قولي- فرضًا- إن الرعب سبَّب لك الضلال. قفز شخص ما شبيه له، وهكذا كتبت شهادتها في التحقيقات. الآن صار كل شيء واضحًا. حتى إن شوروب يرتدي زي الحداد على زينكا"، - لكن كل هذا ذهب هباء.

جلس شوروب، وميتيا، الذي عاد من تدريب الجيولوجيا، استقبلتهم الأقفال والشمع الأحمر. وضعت الأختام على الغرفة والمطبخ، نظرًا إلى أن

المتوفاة لم يكن لها ورثة، لم تكن الشقة ملكًا لأحد. خلف نوافذ المطبخ القذرة، أرخى راحتيه ليخفي السنتيميترات التي شغلها البئر، وتطلّع إلى الزجاجات المتناثرة على الأرض والطاولة- ربما، هي نفسها- الملاءات المتكوّمة على الأريكة، والمرتبة المفرودة على طول الجدار. فكر ميتيا: "جديدة"، - متذكرًا الأكوام الناعمة من ملاءات السرير "المحفوظة" بانتظار مستأجر الغرفة الجديد وراء الباب المشمع، وارتعش ميتيا، كمن صُبَّ عليه ماء مثلج.

بعدها كان ميتيا يتأمل، في كثير من الأحيان، فيما آلت إليه الأمور، وماذا لو لم يخلُ مكان في النزل في مصادفة مدهشة، لو بقي في تلك الباحة، مع بدرومات الفحم، التي أوشك أن يصبح فردًا منها، - مع توافر فرصة استئجار غرفة في أيٍّ من المنازل الأربعة. كان بإمكانه حينئذٍ أن يرى في لوسيا تلك المرأة، ولسار في هذا الطريق، لكن هذا لم يحدث. كل هذه العبارات "ماذا لو" كالعادة - وريقات تافهة حمقاء، ترتدي ثوب الحقيقة. في الحشد المسرع نهارًا، رأى السيقان العابرة، التي تلمع بنعومةٍ أسفل التنورات القصيرة، سقط في حالة شبق عابرة، مغلفة بالبهجة. متطلعًا إلى أرفف الجرائد في المحطات، التي تشبه مشهدًا بانوراميًا لحمام نسائي، شعر بأنه يُحلِّقُ عاليًا، وعلى استعدادٍ كاملٍ للتعارف مع فتاة في الشارع على الفور. إنما ماذا عن لوسيا؟ كلا، تبقى لوسيا، ذات الساقين السائلتين، بصوتها الناعس، الصديقة الأفضل، بلا أية علاقة جنسية.

عند التفكير فيما مرت به وما كان يمكن أن يحدث لها في تلك الليلة، وقع ميتيا أسيرًا لغضب حيواني عارم. تأمل ببرود شوروب المحفور في الذاكرة جيدًا، ليشعر تجاهه بكراهية أكثر إيلامًا من تلك التي يكنُّها لنائب

الجيش للشؤون السياسية ترياسوجوزكو. فكر لفترة طويلة وبالتفصيل، لو كان موجودًا، لاستيقظ وهرع لمساعدتها، - ونزع السكين من يد شوروب، أو على العكس، تعاركًا بالسكاكين، وإما أن ينتصر ميتيا وإما يلقى حتفه تحت صرخة مفزعة من لوسيا، لكنها ظلت دائمًا على العهد، لوسيا، الحياة بصحبتها آمنة ومريحة إلى أبعد حد، ما من ضرورة لاختيار الكلمات أو التفكير في شيء قبل القيام به. بدا أن الأمر لا يستقيم على نحو مغاير، كما لو أن كل شيء آخر تعرض للاعتقال بفعل تابو عظيم، انتهاك أكثر بشاعة من سفاح المحارم. تنهدت لوسيا في نومها وألقت بيدها خلف رأسها. يشعر أحيانًا بالخجل، مما يفعله بها. ينظر إليها، نائمةً، ويقسم على أن يتوقف عن كل هذا، ولكن عند حلول الصباح، يتبادلون القبلات من زوايا الشفاه، ويقولون: "وداعًا" – ويبقى كل شيء على حاله.

أخيرًا، خار عناد أعواد الثقاب، اشتعلت. نثر اللهب الضوء على الظلال الساقطة المائلة، التي انكمشت، وارتعشت في قبضة يده. بدا كأنه يشعر بالبرودة في هذا الضباب. سحب ميتيا نفسًا ونفث الدخان بعيدًا في اتجاه باب الشرفة المفتوحة. انتفخ دخان السجائر في الضباب، وتشكل سريعًا في حلقات. نظر ميتيا إلى الدخان المتناثر، وأنصت للهدوء، وفكر أنه ربما لا يهوى الهدوء، وأنه بمثابة عبء ثقيل عليه. ارتج في الغرفة التلفاز، المغطى بقطعة قماش. بل وارتجت وطافت الغرفة ذاتها – مثل تلفاز، يعرض في تلفاز آخر. يقوم بهذا غالبًا، يحب أن ينظر إلى شيء غامض، متحرك. في الدقائق، التي يمكنه أن يصبح فيها نفسه، تزحف الأشياء من أسفل كل محارات الحماية الواقية، عارية، ناعمة، غالبًا ما تجعله يقع أسيرًا للتأمل. ربما، هو بطبيعته، مثل هذا المتأمل. عاطل. حقًا، نعم – عاطل. مفكر. ماذا

في هذا – هل يستحق الإعدام لهذا السبب؟ مثله، في جميع أنحاء روسيا – بالملايين. ربما، بطل، كما كانت تريد رؤيته محبوبته مارينا، لكنه فشل أن يكون كذلك. متأمل بدا يخطو نحو الفشل عن عمد. يصدرون الأوامر: "انتباه – مارش"، بينما هو يتأمل، كيف دمروا كل شيء ببراعة، كيف تطفو وتغرق الأكتاف، كيف تدفع الأذرع الميكانيكية في الهواء على ارتفاع واحد، كما لو كانت حاجزًا. يأتي شخص ما أولاً، شخص ما في العشرين من عمره، شخص يفضل التهليل من المنصة. النظام العالمي: وهم، إعدام، إعدام، يجرِّر نحو محاكمة رأسمالية همجية! اللعنة عليكم جميعًا!

علقت الملابس على ظهور الكراسي. على واحد منها – ملابسه، وعلى آخر – ملابسها. تسللت حمالة الصدر من تحت بلوزتها وصلت إلى أرضية الغرفة. تزحف الديدان من تحت الأوراق المنتفخة بفعل ماء المطر، والثعابين من تحت الصخور التي صارت ساخنة من أشعة الشمس. حمالة الصدر – من تحت البلوزات، علقت في الليل على ظهور الكراسي. تأخذ قسطًا من الراحة. من أعمال المساء المثيرة، من التزامات اليوم الثقيلة. تطلق لوسيا على حمالات الصدر الكمامات، وعند خلعها تقول:

– تجمَّدنا في الكمامات.

بقع نبيذ بادية على الكؤوس. شمعة منتفخة، دولاب كسيح يتكئ على كومة من الكتب. على الأريكة، في عتمة دخان الفحم والملاءات البيضاء المطوية، ظهرت لوسيا. استلقت على جانبها، مال فخذها بشكل بديع، مثل آلة الكمان. في هذه المرة، أطال ميتيا على نحو غير معتاد، تطلع إلى ظهرها لفترة طويلة، تشكيل الظلال الحريرية. كان مغرمًا بظهور النساء. ربما أكثر من الوجوه. ظهور الجميلات. تملك لوسيا ظهرًا جميلاً. ورد في ذهنه

سؤال، ربما محير، ألم يغرم بها أحد؟ غرامٌ حقيقيٌّ، لوعة بطعم الدم، تقلب الحياة رأسًا على عقب. تملك نصيبًا من كل شيء: موهبة، ساقين بديعتين. الظهر مرة أخرى، لكن مَن يفهم. ماذا عنه؟ لا موهبة، أو سيقان. ولا حتى جنسية. مستقبل – مثل نافذة مفخخة.

النظر إلى النائمة لوسيا كان أمرًا ممتعًا دومًا. إنها تتلذَّذ بالتهام أحلامها – ربما، تفاحات أو حبات خوخ كاملة، – ربما كانت تتمهل في تجولها أثناء الأحلام، وتتمتَّع بمناظرها الساحرة. لم يذُق ميتيا طعمًا للنوم لليلة الثانية على التوالي، ولا حتى مقابل عدة مئات من رؤوس الأغنام، قدر ما استطاع، حاول أن يغمض عينيه بإحكام. أدرك بالفعل: الأرق وهو ما يعني وجوب التدخين، والوقوف في الشرفة، والجلوس في المطبخ، باختصارٍ: عليه أن ينتظر – لا بديل عن الانتظار حتى يستبدَّ به التعب. قرَّر الذهاب من أجل شراء السجائر. كان الأجدر به اليوم أن يدخِّن حتى يصل حد القرف، حتى يصير الفم في الصباح، كطفاية السجائر، والسجائر باردة من فرط الرائحة. عند عبوره الغرفة، تنهَّدت لوسي فجأة في نومها، وقالت: "هذا غير ممكن"، – ثم مالت على الجانب الآخر. تتحدث لوسي في كثير من الأحيان أثناء نومها.

تدافع الضباب في استقباله، إما سميكًا مكثفًا، وإمَّا ينساب بشكل مفاجئٍ، ليفسح في الدخان المنسحب مسارًا يبرز منه الشارع: الرصيف، الأشجار، على المقاعد المتهالكة – قطة نائمة، حولاء، قصيرة النظر. حتى الوصول إلى الكشك الذي يعمل على مدار أربع وعشرين ساعة، كان عليه المشي لمدة خمس دقائق، انتابته رغبة في المشي لبعض الوقت في الضباب، مضى عبر الميدان. قرر، أن يبدأ بتدخين السيجارة الأخيرة الباقية معه، ثم

يتجوّل تحت الفوانيس، التي بدت وكأنها صفار بيضة مقلية، ثم يعود أدراجه عبر الميدان، وربما يجلس على المقعد بالقرب من القطة النائمة. عبر ميتيا الطريق على مهل، مستمعًا إلى وقع صوت خطواته الناعم، المكتمل على نحو غير معتاد. شرع يحصي الخطوات. ثلاث وعشرون، أربع وعشرون. عادةً عندما يحصي عدد الأغنام، فإن حيلته لتحدي الأرق تنتهي بمجرد الوصول إلى الرقم مائتين أو ثلاثمائة. هنا يبرز تساؤل، إلى أي مدى قد يصل، لو عد الآن حتى لو إلى الرقم مائة؟ خمس وعشرون، ست وعشرون. تجول في ميدان غير مرئي، متطلعًا إلى العتمة المشرقة، محاولاً تأمل صورة ظلية لأحواض الزهور، حتى يعود في الوقت المناسب. سبع وعشرون، لكن العد توقف - مثل الضباب، حيث غرق في هواجس الماضي، ثم استفاق فجأة، وعاد إلى إحصاء خطواته مجددًا.

في الطريق، كان هناك من يسير نحوه. أسرع قليلاً منه شخصان. سار ميتيا بمحاذاة الرصيف، في انتظار أن يبصق الضباب هذين الاثنين. وصلت مسامعه أصواتًا لذكر وأنثى. رجل وامرأة يتعاركان. امتزجت الخطوات مع صوت ما. طرق ثقيل على الأسفلت ذو إيقاع متباين. ظهر أخيرًا. برز أولاً في المقدمة صليب. سقط من حجاب لبني - صليب خشبي كبير، خامة جيدة، لامع بفعل الورنيش. من المؤكد أنهما زوج وزوجة. كلاهما في الخمسين من العمر. كتف الرجل تحت مفصل العارضة، إحدى يديه في الجزء العلوي، والأخرى تتدلّى للخلف، حتى أقصى نقطة، يقفز باستمرار. مجدَّدًا، يلقي الرجل بيده على الصليب، يضغط، يحكم قبضته، ثم يقاطع زوجته، مواصلاً محاولة إثبات شيء لها بحدة. لم أتبين سبب شجارهما. وضعت الزوجة يديها متشابكتين على بطنها، وسارت مثل البطة. كان شعرها ملفوفًا إلى أعلى

وبرز كسنبلةٍ رقيقةٍ. بمجرد رؤية ميتيا، انتابهما الصمت للحظة، وتحركت مقلتاهما جانبًا نحوه. نظرة خاطفة من تحت عارضة الصليب.

يا له من حظ سعيد، أن نفذت السجائر. كيف يفوته هذا. تذهب لشراء السجائر من الكشك الذي يعمل على مدار أربع وعشرين ساعة - يلد الضباب من يلقاك، على نحو غرائبي، ويخرج رجل يحمل صليبًا على كتفه. يسير، يتشاجر مع زوجته، يعدل من وضع الصليب ليريح جسده. ربما سرقوا الصليب. سرقوه من أحد الموتى، ليمنحوه لآخر. أو ربما استلموه من النجار في هذا الوقت المتأخر من الليل. قد يكون الرجل ذاته نجارًا. طلبه منه أحد عملائه. ربما من الجيران. مات جدهم. والجار يعمل نجارًا، حقًا، ما الداعي لدفع المال لشخص آخر، طالما هناك إمكانية للتعامل على طريقتهم دون تكليف. طلبوا منه. وهو بدوره ظل يعمل على تجهيزه حتى وقت متأخر. انشغل اليوم بطوله في الأمور العاجلة، أما وقت فراغه، أبقاه إلى المساء. انتظر الجيران طويلاً، انتابهم الغضب. غدًا موعد الدفن، وحتى الآن بلا صليب. أرسلوا زوجته في أعقابه. ربما لا - كلا، لم يكن الأمر هكذا على الإطلاق. إنه هو- ها هو المسيح قادم. المسيح الذي هرب من درب الجلجثة[1]: أحضر زوجه والأطفال وورشة النجارة. أصلع قليلاً - وهل يمكن ألا يطير شعر رأسك وتصاب بالصلع بفعل هذه الحياة! يرتشف قليلاً من الماء، بالطبع، لا يستقيم الأمر دون هذا. لن يكون الأخير في المنطقة، على أية حالٍ المسيح أشهر نجار بالمنطقة.

مروا بالقرب منه، تجاوزوه بالفعل، لكن نظرة ميتيا الثاقبة أجبرت الرجل على الإشاحة برأسه بعيدًا. الصليب كبير وطويل، وعندما انعطف

---

(١) المكان الذي صلب فيه المسيح خارج أسوار القدس.

الرجل، اهتز الصليب مثل ذيل كبير مستوٍ. التفت وزوجته التي لم تفارق أصابعها المعقودة بطنها النحيفة. نظرا إلى ميتيا بريبةٍ، أقسم أنه هو، وليس هما من يسيران في ليل المدينة بصليب على أكتافهم.

وقبل أن يسعفه الوقت للالتفاف، ركض ميتيا بعيدًا، محرجًا، وكأنه رجل ضبط وهو يختلس النظر من ثقب الباب. سريعًا ظهر في أشتات الهواء الأبيض إطار الكشك، وانسكب على الأسفلت، على الجانب الخلفي، تشكيلاً بالضوء. الباب، رغم هذه الساعة الخطرة، كان مفتوحًا، دخل.

- مرحبًا، – ألقى التحية، وهو يبحث عن البائعة بعينيه.

ضاغطة معصمها على لحم خدها، جلست في زاويةٍ مظلمة بعيدة خلف ثلاجة الآيس كريم الصغيرة، ناظرة إليه، لم ترد على التحية. لها نظرة قاتمة بائسة دون أمل، مرتابة، ربما أكثر من تلك التي قابلها ميتيا للتو في الحديقة العامة. أخرج النقود من جيب قميصه العلوي، لكنه توقَّف فجأة. لم يعد لديه رغبة في شراء سجائر منها. ليس الآن وليس في هذه الحالة.

– اغرب عن وجهي، اغرب! – أشاح بيده بطريقة مسرحية في اتجاه الأشعة البيضاء المتلألئة، التي برزت من العتمة.

هناك كشك آخر بعيد، على بعد ثلاثة مربعات سكنية، لكن السير في الضباب كان مثيرًا وساحرًا. اسمرَّت تيجان الأشجار التي اصطفت في طابور، وتدفقت بقع الفوانيس الصفراء أمامه. مع انشغاله، فيما ظنت فيه البائعة البائسة بعد انصرافه، هز ميتيا رأسه ببساطة، وتمتم: "اغرب عن وجهي، اغرب".

وفوق الشارع العريض، فرقت الرياح الضباب، لتنحت في قلبه شقًا سيَّارًا يغير أبعاده كل ثانية، بينما احتلَّ سديم أزرق أشعث الأزقة الجانبية

وأحكم سيطرته عليها. أحد هذه الأزقة – صار غير مرئي الآن، ذلك الذي – يقود إلى الحرم الجامعي. أشاح ميتيا بيديه رافضًا فكرة الذهاب إلى هناك الآن، والتنزه على مقربة من النزل القريب إلى قلبه، تمامًا مثلما فعل مع البائعة صاحبة الوجه البائس.

لم تتمكّن مارينا من التنبؤ بأي شيء على أي مستوى. بعودته من الجيش، التحق بمجموعة جديدة، حيث كانت هي المسؤولة. مارينا هي مارينا. تعارفا، مدت يدها، صافحها. وكما يحدث له أمام أية امرأة جميلة، عانى من رجفة مزعجة مصحوبة بشهوة –كتلك الرجفة التي تحدث قبيل العراك– تمامًا. أقواس الحواجب الحادة، الأظافر المقلمة، كما هي العادة عند الرجال، قصيرة للغاية، والإيماءات الموجهة من أقصر طريق رأسًا إلى النقطة المرغوبة. في البداية، انزعج من هذا الأسلوب – "بدت آلية". الحياة الطبيعية، التي عاد إليها ميتيا من ثكنات الجيش، بقيت بالنسبة له لفترة من الزمن زجاجية: بشر من زجاج أوكلت إليهم أعمال زجاجية غامضة – سجلوا محاضرات، قاموا بدورات تدريبية، قرأوا كتبًا، كان عليه، من أجل استيعاب محتواها، أن يقرأ صفحة واحدة مرتين أو ثلاث مرات. بدا هذا الزجاج مسليًا قياسًا إلى تلك الهموم العسكرية الثقيلة التي قهرتهم في الجيش. متتبعًا خطى الباقين، شغل نفسه بذات الأمور، ينتظر بفارغ الصبر، حتى ينصلح الحال مجددًا. خلف هذا الزجاج الحي، كلا – كلا نعم ظلت صور الجيش السوداء – البيضاء صامدة: خيط دخان سميك يقطع كامل الأفق، مدرعات مقلوبة، عيون اللاجئين الفارغة، أولئك الجالسين على الحقائب في أي مكان، أشاروا لهم به، – كل هذا كان حيًا لأبعد مدى.

توارت الصور، طفت، تلاشت التفاصيل سريعًا، تهرأت، مثل ملابس الجيش بفعل الشمس، ليعود ميتيا تدريجيًا من هناك إلى الواقع.

كان كل شيء بسيطًا. تساقطت رقائق الثلج ببطء. طقطق تحت قدميه على نحو ممتع، كان يخشى أن تتسخ نعاله، لذا حرص ميتيا أن يمشي على طول حافة الطريق، ربما لا يفصله إلا القليل عن الرصيف. أسفل سيقان أشجار الصنوبر الراسخة المثقلة، توقف لالتقاط الأنفاس على فترات، تغريه رغبة في ركل الجذع، لتتساقط نثرات الثلج الناعمة، تصحبها تنهيدة قصيرة ندية بالسكينة، على رأسه، فوق كتفيه، - وتخيّل صورة حية للثلج المتساقط، وهو يستدير ليجرجر عنقه، ولكنه شعر بالأسي بمجرد التفكير في قطع تلك الأوراق الوارفة عن الفروع، واصل سيره. رغم أنه لم يبق سوى عشرين دقيقة على بداية أول محاضرة، فإن امتداد الرصيف المؤدي إلى كلية الجغرافيا كان خاليًا: فهم يتجمعون قبل البداية مباشرة. سمع صريرًا في الزقاق الفاصل بين الكلية وملعب كرة السلة، وزحلقة ناعمة، لتقفز فجأة أمامه مارينا. بينما تدير ظهرها له، تمكنت من الابتسام، عيناها على الثلج - يقولون، هكذا يتساقط الثلج. بينما كانت تهرول نحو شرفة الكلية، تطلع لها ميتيا بلهفة، كما لو أن من واجبه أن يحذرها من إصابة ظهرها بفعل الدوران الحاد، حذائها المطاطي البرتقالي اللامع، وشالها الدانتيل الأبيض، محتضنًا رأسها بنعومة، بينما استقرت أطواق الثلج على المعطف. هكذا، سارت مارينا فوق الثلج المتداعي، لتقتحم حياته. الآن، كل صباح، وقتما يدخل الكلية، أول ما يبحث عنه، مارينا، يلمح شيئًا ما في مظهرها، يقيمه على الفور - من هذا القبيل: "الأزرق لا يناسبها" أو: "حسنًا، يا له من مشهد! مشرط جراح!" - ثم يبتعد، كما لو أنه أدى ما وجب عليه فعله.

أما عن المشاهدة، فقد شاهدها، لكن بعيون باردة كاملة الوعي. ربما لم تنل إعجابه. بدت كتومة. "نعم - لا، نعم - لا". زائد - ناقص، بطارية، ليس

إلا. طاقة الاستقامة والصرامة التي تنبعث منها، معمدانية تمامًا، تسكن روحًا متجمدة. يبدو أن، مارينا، تنتمي إلى ذلك النوع البطولي من البشر الذين لم يرتكبوا أخطاء قط. أن تحكي لها نكتة غير لائقة – نكتة بذيئة مضحكة – كأنك تحكي لجهاز أشعة سينية: بلا عاطفة، لن تحصل سوى على حفنة من أشعة جاما الثقيلة. لا تتأخر أبدًا. أبدًا وفي أي مكان. حتى في تدريبات علم هندسة البلورات، رباعي الأسطح – ذي الاثني عشر سطحًا، التي يتولاها الممل أناتولي أناتوليفيتش، كانت مارينا تحضر قبل خمس دقائق من البداية، تقف، تقلب صفحات الكشكول، في ممر ضيق خانق. في الصباحات، تفوح ملابسها برائحة المكواة، أما المنديل – فكانت ترتديه حال تساقط الثلج، – تجففه في قاعة الدرس على بطارية التدفئة، ثم بحرص شديد، تطبقه في مربعات، وتضعه بعناية في الحقيبة. هناك شيء في الطريقة التي ترتدي بها الملابس، لا سيما ذلك التنميق الحاسم لياقات بلوزتها البارزة، صرامة تليق بجندي في العسكرية. كلا، لم يكن ميتيا ينتظر ذلك من فتاة، من المحتمل أن يقع في حبها.

– نعم – نعم، فتاة رائعة. لكنها صارمة أكثر مما ينبغي.

– عمن تتكلم؟

– ماذا دهاك، يا ميتيا، ماذا تظنني، لا أملك عينين، أرى جيدًا كيف تحدق فيها.

– محض هراء.

– ها – ها، تلك النظرات، تعرف بعدها ربما يتطور الأمر إلى الزواج.

ضحك هذه المرة من قلبه (يبدو أن الجميع يحاولون دفعه للزواج بأي شكل. بلوسيا، أو في الكلية، بمارينا)، ثم وضع بالتفصيل شروطه، لما ينبغي أن

تكون عليه زوجته، ولماذا لا طاقة للزوجات هنا بالدخول في منافسة مع القوقازيات، وعن أي زوجة يتحدثون، فهو بالتأكيد، سيعود إلى وطنه في تبليسي.

- الزوجات الرائعات هناك في جنوب جبال القوقاز، يا صديقي! هناك أكاديمية الزوجات.

تحدث ميتيا بحماس واقتناع، وبعد أن فرغ من الكلام، أدرك أنه لم يكن هو نفسه مؤمناً بما قيل.

تعجب من نفسه، وواصل متابعة مارينا.

سواء لاحظت مارينا تجسسه عليها أو لا؛ فإنها لم تتأثر بأي شكل، وظل سلوكها على حاله. بعد فترة وجيزة، اضطر ميتيا أن يعترف: إن لباقتها لم تكن بضاعة رائجة للزفاف. لم تلق القدر الكافي من التسويق، كما يحدث عادةً بين الفتيات الأخريات من المقاطعة، اللاتي يسعدنه سعادة بالغة بسبب هذه المباشرة. ماذا يعني ملكة جمال المنطقة في نزل الجامعة؟ ذخيرة المخلل تحت السرير، محاضرات في جميع المواد، مكتوبة بخط اليد، "هل تريد شوربة البورش[1]؟ ساخنة؟ مع القشدة البلدي؟" - تشير إبرة البوصلة، في نهاية الطريق، إلى مكتب الزواج. الغرفة، نظيفة بشكل غير عادي، على جدارها زهور زينة، وقطع سجاد بائسة، - المحطة الأخيرة قبل الوصول إلى الذروة، الزواج. لم تدعه مارينا إلى شوربة البورش، وكان خط يدها أسوأ من الأطباء.

تطلع إليها ميتيا. ولا زال - كلا، لم تحظَ بإعجابه.

---

(١) نوع من أنواع الشورية المعروفة في أوروبا الشرقية، وجميع أنحاء روسيا. وهي في الأصل أوكرانية. تتكون غالبًا من أوراق الكرنب، الجذر، البصل، الشبت والبقدونس، ويمثل البنجر المكون الأساسي فيها، والذي يمنحها اللون الأحمر المميز.

وفق كل المعايير، لم تحظَ مارينا برضا ميتيا، الذي لم يعتبرها بأي حال من الأحوال الاختيار المثالي. على الدوام هناك شيء ما لا يروق له. حتى شكل الأنف. لطالما أحبَّ ميتا الأنف الصغير المغلق - وربما كان هذا التناقض مع صورة المرأة المثالية لديه، على ما يبدو، قد ضمن حمايته من الحب الحقيقي. هل بإمكانه أن يقع في حبها؟! إنها طالبة ممتازة - تكبره سنًا. حتى مدير النزل، الرفيقة الحديدية جفوزد (مسمار)، التي تدعوها مارينتشكا. إنها مستقيمة لدرجة أنه يمكن وضعها في جدول وحدات القياس، كوحدة لقياس الاستقامة. كود إنساني. كيف يمكن أن تقع في غرام كود؟

لعن ميتيا نفسه: لماذا بحق الجحيم تتجَّسس عليها، إذن؟ لكنه لم يستطع الإقلاع عن هذه العادة.

كانت مارينا تحضر الدروس الميدانية في رسم الخرائط وهي ترتدي حذاء رياضيًّا، من المطاط الخشن، لم تهتم، بنظرات الجميع إلى هذه الأحذية المطاطية الخشنة، وأثنى عليها المعلم، واضعًا إياها مثالاً لزملائها الطلاب، وهم يخطون على المطبات والأرصفة بأحذية ذات كعاب. كانت مارينا تركض في الأمسيات على تراك الجري وحدها. وحال حضور ضيوف أجانب، كانوا يقدمون مارينا لهم بصحبة المحاضر. من غيرها يملك طلاقة التحدث بالإنجليزية جيدًا؟

أثارت جدارتها ومؤهلاتها ميتيا. قرر أنها ربما كانت عبقرية.

للتأكد من هذا، تحدث معها. كانت تمسك بكتاب بأطراف أصابعها، من الكعب، تمسح بيدها الخالية على مؤخرة رأسها ذات الشعر القصير: إلى أعلى - إلى أسفل، إلى أعلى - إلى أسفل. قصت شعرها بالأمس، وربما لم تعتد بعد على القَصة الجديدة ودغدغة راحتي يدها مثل "القنفذ". إلى أعلى - إلى أسفل، إلى أعلى - إلى أسفل.

- أتعلمين، أنه يقيم بطريقة آلية؟

- كلا، لا أعرف، يا متييا. يقولون إنه فعلها في العام الماضي. - وبدون سبب ابتسمت مارينا.

كانت تبتسم دائمًا تقريبًا، ما إن تحدث إليها، كأنه يقول شيئًا مضحكًا. وهو ما كان يستفز ميتيا إلى حد ما، لكنه قرر ألا يعده إهانة.

- إنه يهتم بالحضور. وإلا كان بإمكاني الغياب.

- لا أعتقد، لو كان الأمر هكذا، لقام بتوزيع الأبحاث. أتعرف، ميتيا، أرى أن الكيمياء العضوية - ليست المادة، التي قد تستدعي القلق.

لماذا؟

- ميتيا، لقد حصلت كل أبحاثك على درجة "امتياز". باستثناء واحد فقط، على ما يبدو، أليس كذلك؟

- آه. فعلاً.

راق له التحدث إليها. خاصةً تلك الطريقة التي تنطق بها اسمه. بشكل رائق هادر. لا ينطق بهذه الطريقة سوى إنسان جميل. نادرًا ما نطق اسمه على هذا النحو الرائع. حتى لوسكا مع الشمس التي تشرق في حنجرتها، لم تنطقه على هذا النحو. ما إن اكتشف فراغ جعبته من أفكار تطيل الحديث معها، ادعى أن عليه الانصراف فورًا لأمر مهم، وما كان من مارينا إلى الابتسام مجددًا. "ربما، خطر بباله، بينما كان غارقًا في تأملات شعرية، وهو يعبر ممر كلية الكيمياء القاتم، الذي لا يوجد به نافذة واحدة، - ربما، نطق الملاك الحارس بأسمائنا بهذا الشكل". ثم انطلق للأبد إلى البرية السماوية

الذهبية، وواصل التفكير في الملائكة، وفي أثناء الوقوف في الشرفة بصحبة الريح الباردة الرطبة: "يا ترى، هل لديهم هناك استعلامات الحضور والغياب، اجتماعات؟ تقييمات؟ نعم، تقييمات الأعمال المنفذة. إذن، أيها الملاك فلان، عليك أن تعد تقييمًا عن طالبك! ينظر البعض إلى الأمام ويعد تقارير ذكية. البعض الآخر يتطلع إلى الأرض. أو ما شابه لديهم. ملاكي، على الأرجح، يقف في كل مرة منحني الرأس. بينما ملاك مارينا – هو، دون أدنى شك، الأعلى تقييمًا بين الجميع، الأبرع في التأهيلات السماوية ". ومن الغريب، أن مارينا المستقيمة أثارت فيه على نحو كارثي، أكثر القصائد الغنائية حرية.

نهاية، رفض العقل المشاركة في هذا الأمر، وأغلق عينيه تمامًا، ثم انزوى، ودخل في بيات شتوي. وحينئذٍ، في فبراير الجليدي العاصف، بدأ السحر الأعظم.

ذات مرة، بعد انتهاء اختبارات الفصل الدراسي الشتوي، تجمعوا عند جينيا. كانت جينيا تعيش بالقرب من الكلية، وقد صار بيتها مكانًا لتجمعهم أغلب الأوقات. مجرد تجمعات طلاب عادية دون هدف محدد. جمع الضيوف النقود لشراء "كيجليفيتش"[١]، سكبتها ربة البيت في برطمانات سعة الثلاثة ليترات "زوكا". وضعت البرطمانات ذات الألوان المتعددة على طاولة قهوة مغطاة بآنية ملونة، وهذا ما يطلق عليه "طاولة سويسرية"[٢]. انطلقت الموسيقى. كان والد جينيا يعمل بحارًا ، فضلاً عن عشقه للموسيقى، لذلك لم يخلُ بيتها يومًا من تسجيلات موسيقية رائعة. جلست مارينا على الأريكة،

---

(١) نوع من الفودكا.

(٢) يطلق على البوفيه المفتوح باللغة الروسية "طاولة سويسرية".

وهي تربت على رأس قط جينيا. القط كان محرومًا من التدليل، حتى الطبيعة ضنت عليه بدلال القطط المختال. "قط حراسة عادي"، – هذا تفسير جينيا. أطلقوا عليه لسبب ما، اسم "الرجل الضرير"، دون أي اعتبار لوضعه – ربما، تلمح كلمة " الرجل الضرير" إلى قدرته على النوم (أو التظاهر بالنوم) رغم صراخ ربة البيت في أذنه: "انهض أيها القط الشرير!" لكن لم تكن جينيا تسمح لنفسها بقول هذا إلا نادرًا، ومن النادر أيضًا أن يغط القط في نوم عميق (وهو ما كان سببًا وجيهًا يدعم فرضية التظاهر بالنوم). "جموريا!"(١) – نادت ربة البيت. – جموربيبا!" وبدلاً من، أن يفتح القط عينيه، فإنه يحرك أذنيه صوبها بكسل، ثم يهب واقفًا.

– جموريتشكا!(٢)

(يبدو أن الذي يعيش جينتشكا(٣) تملك إحساسًا ناعمًا بالصوت "ججج": أطلقوا على طائر الكناري الذي يعيش في المطبخ جورا). هذا القط الحارس، الذي يشمم الجميع عند المدخل، من وقت إلى آخر يقوم بجولات في الشقة، سمح لمارينا، إذا توافرت لديها دقيقة من العمل، أن تمسده. تضعه مارينا فوق ركبتيها، وتمسده حتى يمل.

تواصل الاحتفال كالمعتاد. واقفًا في غرفة نوم جينتشكا المعتمة، حيث يختبئ من تلك الفوضى المرحة، نظر ميتيا إلى انعكاس صورة مارينا في الإطار البراق، الذي يحوي قوارب سوداء، وأشجار نخيل سود وصفر، وكعكة تغادر شاطئ بحر القهوة المسائي. صورتها الجانبية، على خلفية

---

(١) اسم القط ويعني "الرجل الضرير".

(٢) صيغة تدليل للقط جموري.

(٣) صيغة تدليل لجينيا.

استوائية، بدت ناعمة مثل دمية. شعر ميتيا بخجل مخدر له حلاوة – خجل أمام رغباته الخاصة، رغبات ربانية هائلة، تجعل التوصل إلى قرار دنيوي عادي دربًا من دروب المستحيل. أشجار النخيل المرسومة وانعكاس صورتها الجانبية على قمة تلك النخلات – بإمكانها أن تشغل المساء بأكمله. مسدت مارينا چموري ونظرت أمامها، في زجاج النافذة الأسود، وربما رأت مجموعة من الصور الظلية والانعكاسات. زمجر القط، وتمدد بكامل جسده على ركبتيها، وتطلع حوله من حين إلى آخر.

– سأشغل شيئًا مختلفًا حالاً. – سحبت جينيتشكا أحد شرائط الكاسيت، ووضعت آخر.

– من هذا؟

– اسمها أوفرا خازا، يهودية.

– إذن، ستغني باللغة اليهودية.

– فو[1]، أيها الفاشل! ستغني – باللغة العبرية.

– حسنًا.

رمت مارينا رأسها على كتفها. "يا له من شيء رائع!" أطاع ميتيا حدسه، وانسحب من غرفة النوم إلى الصالة. سيطر على رأس ميتيا خاطر غريب – خاطر شديد الوضوح، كأنما أملته مقاطعًا صوتية: تقرر كل شيء بالفعل، منذ فترة طويلة. أجلست مارينا القط الحائر على الأرض وابتسمت في وجه ميتيا، ابتسامة حازمة، موجهة بشكل شخصي – كرسالة – صنعتها

---

(١) كلمة روسية تعبر عن الاعتراض أو السخط.

البسمات، تمزج روحين، رسالة وصلت للتو، تربط المرسل والمتلقي بشيء غامض توارى داخل ظرف.

- لنرقص! - قالت آمرة، وهي تنهض من مكانها. حتى وصل إلى المتجر، سار أكثر مما ظن. قد يكون السبب الضباب، الذي حجب الرؤية، وجعله يمشي بخطو بطيئة، أو ربما كانت ذكرياته.

كان باب المتجر مغلقًا، وهناك ورقة علقت على الزجاج تقول: "اطرق الباب"، - طرق الباب. من هذه النافذة، كما في صندوق نشوق به مفاجأة، حين يقفز منها وجه أبيض متجعد، طبع عليه التعب والمعاناة من النوم الذي يقطعه زبائن منتصف الليل. بعد أن اشترى السجائر منها، شعر ميتيا بالذنب، لمشاركته في عناء الحرمان من النوم. وعلى الرغم من أن راتبها يعتمد على حجم مبيعاتها أثناء الوردية، فشل ميتيا في الفكاك من فكرة، أن كل هذا لا يجوز، ليس بالأمر الجيد. "في الغرب، من المبهج أن المتاجر دون استثناء تغلق أبوابها بعد الساعة السادسة مساء. كسالى! عندنا، كل شيء من أجل الناس. اشربوا، أيها الناس، دخنوا قدر ما يرضيكم. في الليل، رغبة ملحَّة، في الشرب - التدخين، في الليل. علينا بتجهيز المتاجر، نضع البائعات هناك، نجعل كل شيء كما ينبغي أن يكون".

في طريق العودة، قرر ميتيا المشي بشكل أسرع، ولكن، بعد أن سقط مرتين في النقر على الطريق، قرر مجددًا أن يبطئ الخطى. أشعل سيجارة، شعر أن كتل دخان السجائر المرة، تعبِّر حنجرته بصعوبة، وأدرك، أنه على وشك تحقيق هدفه، والتدخين حتى الوصول إلى درجة الاشمئزاز. "عليه أن يدخن هذه العلبة بأكملها، ربما تمكن من الإقلاع عن التدخين تمامًا." وصلت إلى مسامعه هتافات مفزعة مشوشة، مجهولة المصدر، ذكرته، بمدى خطورة شوارع روستوف ليلاً.

في المتنزه، مر على ذات المتجر الأول، فوجد القطة لازالت نائمة هناك. حيث رآها في المرة الأولى. فتحت القطة عينيها في اتجاهه، ثم أغلقتها مجددًا. وحتى عندما جلس ميتيا بحذر على حافة الأريكة، لم تحرك ساكنًا. لكنها سحبت طرف ذيلها كنوع من الحيطة. "معشر القطط الأذكياء، فكر ميتيا. – لا يفعلوا أي شيء لا داعي له. ترى كم عدد هذا النوع من القطط؟ واحدة أو اثنتان، ثم تعثر في الحساب. الجميع في المنطقة يعرفون بعضهم البعض. شقة جينيتشكا لا تبعد عن هنا كثيرًا، والقط الحارس جموريا يقضي كل ربيع في الشارع. أتساءل، هل تقاطعت مساراتهم من قبل مع مسارات القطط؟ "انتهت السيجارة، أراد ميتيا أن يشعل سيجارة أخرى، لكن بمجرد أن رآها، انتابه إحساس كأن ضربة أصابته في معدته، فألقاها من فوره في سلة المهملات.

– وداعًا – قال مودعًا القطة النائمة.

لم تكن اللقاءات تستمر لفترة طويلة، كانت سريعة. لم تكن هناك لقاءات خاصة. كان كل شيء يتم بشكل تلقائي، دون ترتيب، بنفس الثقة الراسخة: كل شيء محسوم.

أخبر لوسيا على الفور. كان ذلك في الصباح الباكر. وراء فستان سهرة طويل أسود، يتجفَّف على قطعة من الخشب، تجلت أشعة الشمس البرتقالية.

- "أسبوعان في السوق"، – أومأت ناحية الفستان. – أسبوعان. ورك فرخة، ورك فرخة، ورك فرخة! لكني اكتسبت بعض المال. ما رأيك؟

كانت لودا تتأهب لامتحان الصوت. قطعت صومعتها ذهابًا وإيابًا، تركل أحذيتها البالية التي تناثرت أسفل قدميها، وتتنفس بطريقة خاصة، كأنها

ابتلعت مضغة، وهي الآن تحاول، ألا يلاحظ أحد ذلك. لقد كان امتحانًا مهمًا جدًا. وتجاوزه ليس بالأمر السهل.

-تصفية، وكرّرت في يأس. - تصفية، تصفية، أتفهم، تصفية حمقاء. لماذا، ها؟ ما هذه الكلمة الشاذة؟ حسنًا - تلقيح. وما هو ذلك المتسرب؟ لكن؟ صحيح - ولماذا تلك التصفية، حسنًا، أخبرني؟ حماقة!

كان رئيس الجامعة الملقب بـحفيد مفيستوفيلس[1] يقف موقفًا معارضًا من لودا. حتى إنه طلب منها ذات مرة الغناء بصوت جهوري هادر ناعم. قال لها، مقاطعًا الدرس: "هل ستغنين هكذا، عزيزي؟ اذهبي إذن إلى الفيلهارموني، هم سَيَستقْبلونَك هناك على الرحب والسعة. لكنكِ لا تصلحين للغناء كسوبرانو، هذه هي الحقيقة".

اقتربت لودا من المرآة، حلت ضفائرها، وجدلتها بإحكام، حتى لا تتطاير، لكنهم بعد مرور دقيقة واحدة، ظلوا على حالهم، مثل حفنة من الينابيع السوداء، حلتهم وربطتهم مرة أخرى.

- لا أتذكر الكلمات جيدًا.

- لا داعي للتسرع.

- لن أفعل.

- هذا ليس سوى إهدار للطاقة.

- ماذا لو لم أهدرها، سأحصل مجددًا على نغمة أعلى. أعلى، اللعنة. سيلتهمني. ستمزقني قرونه. أخبرتك، أن لديه بقعًا متورمة على رأسه الأصلع، بقع من القرون. ربما أخبرتك. حسنًا، لقد نسيت، قلت أم لا.

---

(١) اسم من أسماء الشيطان.

- فعلت.

- ربما لا تصدقني، تعالَ لترى بنفسك. ألق نظرة.

طلبت منه لوسيا أن يمر عليها، "ليصحبها" بعد نهاية الامتحان القادم - وقد جاء، على الرغم من أنه اضطر أن يشرح لمارينا، التي لم تقل كلمة واحدة، عن طبيعة علاقته مع لوسيا. طلبت منه لوسيا أن يأتي معها، لكنه لم يستطع أن يلبي طلبها. لقد أحرقه القلق. أعد نفسه، مستجمعًا شجاعته. لقد تلقت ماما تحذيرات، وهي تتأهب للرحيل، طالبة المشورة، هل عليها أن تأتي لتستقر دون رجعة، أم عليها أن تواصل العيش في تبليسي الكئيبة التي تتضور جوعًا. والدا مارينا في طريقهما إلى هنا، من المنتظر وصولهما في الغد. قرروا تفصيل فستان الفرح. لم يعثروا على بدلة مناسبة في أي متجر. وعن كيفية التعامل مع الأمر برمته، بدا كل شيء غير مفهوم تمامًا.

بدأت لوسيا تحكي عن بيوتر ميفيستوفيليفتش، عن طرده لأحد الشباب لمجرد أنه رآه يعزف على الكمان في الممر، وكان من الواضح أنها كانت تعتزم أن تحكي لفترة طويلة، وبالتفصيل. لكن ميتيا استجمع نفسه سريعًا، وكذب حول الامتحان الذي لم يتم بعد.

- إذن، أترى أي نوع من الأصدقاء أنت، ها؟ - وضعت لودا يديها على فخذها. - تهرب من سفينة غارقة، ها؟ غارقة؟

- لوسيا، عليَّ أن أنصرف، ليس بإمكاني. أنا آسف. - فتح ميتيا الباب.

- أنت كاذب وخائن. نعم!

كان ميتيا قد خرج بالفعل من الباب.

- أجل، هذا حقيقي. على أية حال، سأتزوج. لكن ليس غدًا، بالطبع. كان على وشك أن يقول، رسميًا. آمل، أن تباركي هذا الزواج، هذا ما أردت قوله.

بدا كأن شيئًا انفجر في وجهها. بقيت يديها على فخذيها، لكن أصابهما الخرس، الموت، مثل مانيكان. لا اختبارات صوتية. في لحظة، ارتدت شخصية أخرى مختلفة تمامًا. ارتعد ميتيا بفعل هذا التحول المفاجئ. لم يكن من لودا سوى أنها هزت رأسها، كمن يريد التخلص من شيء، ثم قالت:

– لكن لم يكن في نيتك أن تتزوج؟

– نعم، هذا صحيح، كل شيء حدث على نحو غير متوقع. أنا نفسي لا أصدق ما حدث إلى الآن. هل ستأتي إلى حفل الزفاف؟ اسمعي، أريدك أن تكوني إشبيني في الزفاف.

– كيف؟ كيف لي أن أكون إشبينك؟ أنا، أنا، لست؟ لست ذكرًا؟

– لم لا؟ لقد أخبرت مارينا بالفعل. وحتى لا يتساءل أحد، شرحت الأمر للجميع مسبقًا. إذا كنت أعز صديق لي! لم لا؟

– حسنًا، يا ميتيا، انطلق. أسعدك الله، تمنحني صفات الذكور، حتى لا تثير تساؤلات الآخرين.

– سأنطلق، حسنًا.

– انطلق، يا ميتيا.

على مدار ذلك اليوم، الذي كان من المفترض أن تخوض فيه لوسيا الامتحان، ظل ميتيا بصحبة مارينا. حبسوا أنفسهم في غرفتها، وتبادلا القبلات حتى الهوس، لدرجة أن شفتيهما أصابتهما الزرقة. كلا، لم يفعلا ذلك، لم يمارسا الجنس– تردد ميتيا، لم يسعه فك حزامه في الوقت المناسب، تماسك لفترة طويلة، واضطر إلى الجلوس، تخلص من اضطرابه الذي طال،

هدأت رغبته المشتعلة. قرر تأجيل المتعة، ثم همس إلى مارينا: "في المساء"، وذهب إلى غرفته. سرعان ما التوى ظهره، وكانت حالته، كمن يدفع سيارة أعلى تل. بحلول المساء، انهار تمامًا. بدا، مع محاولة المشي، كأنه دون ساقيه، فقط كومة من الرمال في الحذاء – وهذا يعني أنه قد ينام ملء جفنيه. وفي آذانه همسًا يتكرر بشكل هيستيري، يردد وعده "في المساء".

تذكر حينئذ أنه يتوجب عليه أن يسأل عن لودا: فهي ستؤدي الامتحان اليوم.

-لقد نسيت تمامًا، – قال مبررًا لمارينا. – نسيت تمامًا. توجب علي أن أزورها، ليس بوسعي ألا أفعل.

عبر المدينة بأكملها، فخورًا بنبله، ذهب ميتيا إلى لوسيا. صعد إلى الطابق حيث تسكن، وبينما لا يزال في الشرفة، سمع شيئًا غريبًا. مر ميتيا عبر متاهة الممرات المألوفة. قرب أحد الأبواب، جلس شخصان. يدخنان. أومأ أحدهما.

– أوه! يا لصديقتك لوسكا!

من ناحية غرفة لوسيا، برزت السوبرانو الأكاديمية الموهوبة: "ماذا فعلت، الفودكا الروسية؟"

كانت لوسيا جالسة على الأرض، مرفقيها على الأريكة. بين ساقيها، هناك زجاجة نصف فارغة من الفودكا، وبرطمان مفتوح من كومبوت المتجر. بالقرب منها، قطعة من الرنجة والخبز الأسود، لم يمسهما أحد، فوق نوتات موسيقية منثورة.

– راح كل شيء! – فردت ذراعيها عن آخرهما. – لم أنجح في الامتحان.

مرتعدًا من البرد، بينما انتفخت ملابسه بفعل البلل، عاد ميتيا متعبًا. الساعة، التي تضرب عقاربها بهدوء، فوق لوسيا النائمة، كانت الثالثة والربع. رفعت لوسيا رأسها من فوق الوسادة، تطلعت نحوه بعيون مرهقة: "أوه، هذا أنت،" – ثم انهارت مرة أخرى. زحف النوم بهدوء تحت الجفون، وقد استولى عليه تمامًا، ومع استسلامه له، استبد به الضيق. كان نومًا ميكانيكيًا، سمع ميتيا صرير الآلة الحاسبة الخاصة به، وهي تحصي النصيب المحدد من النسيان في جولاته الليلية الطويلة. راح النوم بذات الشكل الآلي: رحل ببساطة وألقى بميتيا في الواقع المتهرئ الهادر الذي تجلى مع ضوء النهار.

لم يبحث حتى عن سرواله. دقت الأجراس كأن حريقًا وقع. طرف عينيه، ركض عبر الشقة – لم تكن لوسيا هناك. "آه، تغني في حفل الزفاف، ذهبت لتغيير ملابسها"، – تذكر ميتيا، وهرع إلى الباب. أدار المفتاح بالفعل، ومازال الجرس يرن، وينقر في دماغه الذي لا يزال نائمًا.

– نعم، نعم، سأفتح، سأفتح.

بدت سفيتلانا إيفانوفنا، كما لو أن فتيلاً يحترق داخلها. نظرت بحزم إلى عينيه، أخذت نفسًا عميقًا، من الواضح أنها تنوي قول شيء مهم، لكن فجأةً غيرت رأيها، وأطلقت زفيرًا.

قالت: ألن تدع أمك تدخل، أم لا، ثم مرت بجواره. – أها، لقد صار لديك كرشًا!

"هل على الجميع أن يأخذوا ساترًا، ها؟" فكر ميتيا، وسحب كرشه. وبينما كان في الممر، كان لا يزال يرتدي سروالاً رياضيًّا وفانلة، اتجهت سفيتلانا إيفانوفنا إلى المطبخ مباشرة، دون أن تخلع ملابسها، وفتحت الشراعة، أشعلت موقد الغاز بولاعتها.

- هل توجد قهوة؟

- نفدت.

أطفأت الموقد.

- ألا تدخن؟

هز ميتيا رأسه نافيًا.

- أحسنت. أيها الرجل. دائمًا أقول إنك تملك شخصية، منذ الطفولة.

إطراء، علق ميتيا صامتًا. - لن يجلب خيرًا. أشعلت سفيتلانا إيفانوفنا سيجارة، اتخذت وضعًا معتادًا، وقد أرست كوعها على ضلوعها. أدارت ظهرها إلى النافذة، وقامت بإشارة مناشدة، قل، أخبرني.

- كيف حالك؟ - سألت، دون انتظار.

- أمي، هل أتيت لتسأليني عن أحوالي؟

- وماذا، هل هذا من المحرمات؟ سأرحل حالاً. كنت في الجوار، وقررت أن أمر على ابني. اشتريت من أجله شوكولاتة- أخرجتْ من جيبها الشوكولاتة- ربما، تدعونني لشرب القهوة؟ - أشارت إلى إناء القهوة القريب من الحوض.

- نفدت القهوة.

- آه، فعلاً.

جلس ميتيا قبالتها. كانا صامتين لبعض الوقت. عدت ساعة الحائط بضع ثوان. انتهت سفيتلانا إيفانوفنا من تدخين السيجارة، وأشعلت أخرى

منها. أخمدت عقب السيجارة تحت خيط الماء الرفيع. تلك عادتها دائمًا. تفتح الصنبور قليلاً، لينساب منه خيط رفيع من الماء ، ثم تضع السيجارة تحت خيط الماء، وتحاول، أن يقع العقب المحترق تحديدًا تحته، ثم تلقيها في سلة المهملات. فقد أعصابه:

- ماما، هل حدث شيء؟

هزت كتفها - لا شيء، وعلى الفور قالت دون تفكير:

- والدا ساشا مفقودان. كلاهما.

ألجمت الصدمة ميتيا، وعجز عن التصرف. "قد يقول شيئًا لا يليق - يسبب استياء". دون أن يفكر في انتقاء الكلمات المناسبة، قرر أن يلتزم الصمت. الحمد لله، وجه نصف نائم - مثل وسادة ذات أنف، لن يؤثر فيه شيء.

تصور، يا ميتيا، لم يعثر لهما على أثر منذ شهر، - تابعت سفيتلانا إيفانوفنا. - اختفيا تمامًا. ما زلت أنتظر، وأنتظر، ولا أثر لهما. يعيش ساشا معي الآن. سأل ساشا بالفعل اليوم. "بابا و ماما؟ - يقول. - بابا وماما؟" وأنا أجيب: "لا، يا ساشا، لا" وماذا علي أن أقول له؟ منذ جئت إلي، اختفى والداه.

لاذت بالصمت، سحبت نفسًا عميقًا ونفثت الدخان في السقف. كان من الواضح، أنه كان يتوجب عليه أن يقول شيئًا، كانت في انتظاره. قال ميتيا:

- لا داعي للقلق، سيظهرون، يا أمي، أين سيذهبون؟

لكن اتضح، أنه لم يقل ما كانت تنتظره منه. شقت سفيتلانا إيفانوفنا الهواء بيدها، استنشقت، وقالت على عجل:

- لا أظن.

لماذا؟

- أنا أدرى بما أقوله لك. أخبرتك، هذا يعني أنني أعرف. إن لم أكن أعرف، ما قلت لك شيئًا.

فهم ميتيا، ما كانت تنتظره، لكنه لن يجرؤ أبدًا على قول هذا. مستحيل. لن يجرؤ. لا يملك قوة كافية. لعلها تفعل هذا بنفسها، لتفعل ما تريد، لكن وحدها. هل من الممكن أن تحمل صليبًا بمجرد أن شخصًا أشار عليك بذلك؟

- لقد اختفوا بالفعل؟ وأكثر من مرة؟

- لكن ليس كلاهما في نفس الوقت! ولم يستمر غيابهم لفترة طويلة! ربما ليوم ، اثنين ، ولكن ليس مثل هذه المدة.

سقط رماد السجائر على معطفه، ليرسم خيطًا رماديًا رخوًا على القماش. تفحص بعناية هذا الخيط الرمادي الرخو. الأفكار مشوشة. عجز ميتيا عن استجماع تركيزه. تذكر لسبب ما، بينما كان طفلاً، ولأجل أن تقلع عن التدخين، كيف كان يغرس رؤوس أعواد الكبريت في السجائر. كان يجلس بالساعات، ينفذ كل شيء بعناية، حتى لا يُكْتَشَفُ أمره. حاربها طيلة حياته، لكنه هو نفسه صار مدخنًا في سن السابعة والعشرين.

- لن يظهروا بعد الآن. قلبي يحدثني بذلك. سيأخذون الطفل إلى دار الأيتام ... - هنا توقفت عن الكلام عمدًا، كأنها أرادت أن تمنح معنى للصمت، أكثر من الكلمات ذاتها.

استبدت به الرغبة في التدخين، لكنه أقلع عن التدخين أمام الجميع.

– تحدثك مشاعرك دائمًا. شعرت أنك ستفوزين في "اللوتو الروسية" وأحصيتِ كل روبل ستحققينه.

كانت تلك لكمة محرمة. حققت سفيتلانا إيفانوفنا الفوز في اللوتو الروسية مرتين فقط طيلة كل هذه السنوات. نتيجة متواضعة جدًّا. ندم ميتيا على ما قاله. عاير مريضًا لحصوله على الدواء. لم تمنح سفيتلانا إيفانوفنا ابنها أية إجابة، فقط، عقدت حاجبها بحدة، مما يعني في هذه الحالة: "لم تعجبني كلماتك، سأزعم أنني لم أسمعها". مشيت نحو الحوض لإطفاء عقب جديد.

كلا، لن تنال منه أي شيء. هذا مستحيل، بأي حال، مستحيل. فلتحمل على عاتقها، ما تريد، فلتحمل. عادت سفيتلانا إيفانوفنا إلى النافذة، وأمسكت بإناء القهوة، وصبت فيه الماء. تحرك ميتيا وأخرج من الخزانة برطماناً من الصفيح، فتحه، أخذ آخر ملعقة من القهوة ووضعها في الإناء.

-سأشاركك، – قالت بسخاء، وأضافت: "سأبقى، وأشاهد سحب اللوتارية؟" لن يسعفني الوقت للعودة إلى المنزل. ألديك مانع؟

بينما جلست سفيتلانا إيفانوفنا، أمام التلفاز وفي يدها قلم رصاص وكوبونات، دارت عيناها، التي بدت كأنها مصابة بالأنفلونزا، تحت عدسات نظارتها، إما تنظر إلى البرميل الذي يحوي الأرقام، وقد شغل الشاشة بأكملها، أو إلى تذاكرها، بينما حبس ميتيا نفسه في المطبخ. سحب سيجارة من علبة سجائرها، وفتح النافذة على مصراعيها، ثم أشعلها. كانت سيجارة قوية. تشق كل سحبة نفس منها حنجرته، كأنه ابتلع فرشاة. رغم الباب المغلق، اخترقته صرخات المذيع المرحة: "أحدَ عشر، تدق عصى الطبول! رقم – خمسٌ وعشرون!" ترفع الصوت، تخشى، أن يزعجها أحد، ربما يرن الهاتف، أو يسقط الجيران خلف الجدار شيئًا ثقيلاً – مما يحول بينها وبين

سماع الأرقام. في حجرتها بالنزل، تغلق الباب أيضًا بالمفتاح حتى لا يزعجها أحد في اللحظة الحاسمة.

كل شيء يتلخَّص في هذا الفتيل الذي يحترق داخلها. لم تكن روحها راضية قط - لا عن نفسها، أو عن الآخرين. هناك، بالطبع، كان الأمر مقبولاً. ربما طبيعيًا. وهكذا، يبدو العديد من البشر، يقطعون الهواء بإشارات، ينتزعون، ما تصل إليه أيديهم، يقدمون عبارات الثناء، عندما تسنح لهم الظروف، يلقون اللعنات، ما إن واتتهم فرصة للتبكيت. إنما هي هنا تخرج عن الصف العام. تُلفظ بعيدًا. من الصعب على البشر أن يصمدوا أمامها. كلا، ربما من السهل التعايش معها، حالها ليس كحال ميتيا. من وقت إلى آخر، هناك شخص ما قريب، من يخاطبها "سفيتلانا"، ويهنئها بعيد ميلادها، ويذهب لزيارتها في يوم عطلة، ربما من خلال مواصلتين مختلفتين. هناك شخص ما. تعلمهم طهي الساتسيفي[١]، أو قراءة الطالع في فنجان القهوة. كم من الناس في روستوف تعلموا على يديها طهي الساتسيفي وقراءة الطالع في فنجان القهوة! إن لها جاذبية، مثل أضواء خيمة السيرك، أو أصوات المعارض المتجولة. عندما تحل سفيتلانا إيفانوفنا، ضيفة للمرة الأولى عند أحد، ودون شك، كعادتها التي لا تتغير، تحمل معها نفس الخبز المحمص: "لعل قدمي تصبح سعيدة في هذا المنزل". وتشرح: "من الأمور المحمودة أن تقول هذا عندما تحل ضيفًا لأول مرة. حتى لا تحسد البيت وأهله". تحاول جاهدة أن تضع جدولاً زمنيًا للزيارات المتبادلة: في هذه العطلة، دوري في زيارتك، أما في العطلة التالية، فهو دورك أنت. لا تتخلَّ عن محاولاتها أن تستعمي هذا العالم من حولها، هذا العالم الذي اعتادته، لكن من بين أولئك

(١) أكلة جورجية.

الناس، الأقرب إليها حاليًّا، فر الكثيرون، وربما لن يبقى معها سوى القليل في الغد. لا يبدو، أن انتظار انفجار الوضع سيطول. قد لا ينفجر، لكنه على أية حال، يواجه الاستنزاف. إنها، بالطبع، لا تعترف بهذا لنفسها - ولا لأي مخلوق، - وهذا ينهكها. اعتادت هناك أشياء مغايرة. يعيش الإنسان هناك داخل كرة، محاطًا بعدد لا يحصى من البشر، غارقًا في دوامة. امتلكت دليلاً لأرقام التليفونات أضخم من رواية "الحرب والسلام"[١]. هناك، كان بإمكانها الاتصال بصديقتها في السابعة مساءً: "اسمعي، أصابتني الكآبة، تعالي. ستتحملين تكلفة المواصلات، وأنا سأتحمل تكلفة المائدة".

- هنا كل واحد يعيش وفق هواه، - قالت في حسرة. - ميتيا، هنا، كل فرد يعيش في شرنقته الخاصة. كيف لا يشعرون بالملل؟ لا يتبادل الأقارب الزيارات لسنوات. أي حياة هذه التي يصنعها الفرد لنفسه، حياة تجعلنا لا نرى أقاربنا، ها؟!

لقد اتخذت وضعًا دفاعيًّا، ولا تنوي الاستسلام. لم تحاول سفيتلانا إيفانوفنا في أي وقت، على عكس ميتيا، أن تنتمي إلى المكان، وتصير واحدة منه. كيف هذا! لن أتغير، هم من وجب عليهم ذلك. اللعنة عليهم، الشيطان فقط يعرف كيف يعيشون! بداية، بينما لم يصبها التعب بعد، تحاول أن تبهر كل صديقة جديدة، كما يجب. كان ميتيا يفهمها. والداها، جد وجدة ميتيا، عجزا أن ينتميا إلى تبليسي. لم يتعلما اللغة الجورجية، وظلا طوال حياتهم، غرباء. كانت دائمًا فخورة بلغتها الجورجية النقية، عاشت تسيطر عليها مشاعر بأنها أدت ما عليها، وأنجزت سنوات عديدة من الواجب الأمومي. لم تكن لديها رغبة في قطع ذات الطريق مجددًا.

---

(١) رواية "الحرب والسلام" للكاتب الروسي الشهير ليف تالستوي.

لو لم تكن تلك الشخصية شديدة العناد؟ ماذا لو لم تكن بهذا العناد، ربما كان في الإمكان إنقاذ الوضع. لو لم تحدث بينها وبين مارينا "أزمة الكاريبي".

ولكن لا شك أن مارينا تملك ما يكفي من العبوات الناسفة. لم ترغب مارينا في تحمل العادات الديكتاتورية لحماتها. وسفيتلانا إيفانوفنا لم ترغب في الاستسلام إلى تلك "الفتاة". كانت الابنة الكبرى في العائلة، وترغب في مكان شرعي. كانت تحمم الأطفال، تضع الأكل على الطاولة، كانت من تقرر أي نوع من الكيك يعد في ليلة رأس السنة. هذا ما يجب أن يكون. هكذا تجري الأمور في الأسرة: كل فرد عليه التزام خاص. هل من الممكن أن يمتنع أحد عن أداء واجبه؟ فهم ميتيا بكل يأس – أنه من المستحيل محو كل هذا فيها. أن تثبت لها أن العالم له نظام مغاير، ستعجز حتمًا، حتى لو كنت جيوردانو برونو[1] ذاته.

- من فضلك يا أمي، توقفي عن إصدار الأوامر.

- أنا لا أصدر أوامر.

- بل تفعلين.

- أنا أقدم النصح. البشر العاديون يستمعون إلى نصائح الكبار.

- البشر العاديون ليسوا بحاجة للنصائح على مدار أربع وعشرين ساعة.

أجل، بالطبع، أمك مجنونة. شكرًا، بني. عشت حتى أرى هذا اليوم.

تعهدت سفيتلانا إيفانوفنا ألا تفتح فمها، وأنها لن تقوم من مكانها فوق الأريكة، وعمومًا، ستختفي عن نظره. وعند وصول مارينا، قامت، في صمت شديد، مثل حارس، لتعطيها فانيا – وذهبت للبحث عن عمل.

---

(١) راهب، فيلسوف، رياضي، شاعر، عالم فضاء إيطالي (١٥٤٨ – ١٦٠٠).

مرت بالعديد من معاهد البحث العلمي، الفارغة الصامتة، مثل أطلال. لم تجد عملاً. علاوة على ذلك، لم يكن هناك عمل لمهندس في عمر ما قبل التقاعد. في آخر معاهد البحث العلمي، لم تسأل حتى عن الوظائف الشاغرة. نظرت إلى الغرفة، التي تتوسطها، بعيدًا عن النوافذ، مدفأة مشتعلة، وأمامها، كل على كرسيه، خنزيرة هندية وامرأة تصنع شيئًا بإبرة الكروشية. طرفت المرأة عينيها من الإبرة، حدَّقت بإمعان، كأنها تحاول التذكر، ولكنها لم تنطق بكلمة. وتطلعت سفيتلانا إيفانوفنا إلى الاثنتين، ثم قررت، أنه من المستبعد أن تصير ثالثة الصحبة أمام هذه المدفأة، خصوصًا أنها كانت تعتبر دائمًا أن الخنازير الهندية مجرد جرذان بدينة، وهذه الخنزيرة لم تكن بدينة على الإطلاق. لم يقبلوها للعمل كاشير في المتجر، غادرت مكتب "هيربالايف"، أدركت أنها قبل أن تحصل على عمل، أرادوا الحصول منها على مبلغ كبير. في النهاية، حصلت على وظيفة كمنظفة في بنك "يوجينفيست" الذي افتتح حديثًا. في نوبة المساء. تبين أن مرتبات عمال النظافة تزيد عن منحة الدراسات العليا ومرتبات مساعدي المختبرات، مجتمعة. نعم، حصلت سفيتلانا إيفانوفنا، على راتبها، على النقيض من ميتيا ومارينا، بانتظام سوفيتي - شهريًّا! وصارت تملك موردًا للرزق.

الانفصال الحاسم حدث، على وجه الدقة، خلال العطلة. ميتيا مع مارينا "في الحقل"، يأخذان عينات في نقاط المراقبة التي وضعها تريفونوف، مشرف المجموعة، بنفسه. في طريقه إلى القسم، فهم ميتيا على مضض، بشكل واضح، أنه يزعج نفسه بشخص لا لزوم له في حياته، مدفوعًا بطيبة قلبه. "الكيمياء الجيولوجية - مثل الطب الصيني. إذا اخترت النقطة الصحيحة، يمكنك الوصول إلى أبعد مدى." وبما أن " الكيمياء الجيولوجية،

مثل الطب، فإنها لا تهتم بكيفية الوصول"، توجَّب على ميتيا وMarina أن

يزحفا أسفل ماسورة المجاري، أو الحفر وسط حظيرة الخنازير. لم يذهب تريفونوف نفسه - في الآونة الأخيرة استغرق في عمله بالجمعية التعاونية، ونادرًا ما ظهر في الكلية. في ذات السياق، اختفت البطاقات في مكان ما، ولاستعادة نقاط المراقبة تلك، التي تمثلت في حجر، مميز بطلاء، أو ماسورة مدفونة في الأرض، كان عليَّ الاستعانة بالذاكرة. عند الظهيرة، انبعثت رائحة العيِّنات من الملابس، وسال الوحل من حقيبة الظهر. عادوا إلى البيت. القطار الكهربائي، الذي اكتظ بصيادين يحملون حقائب ظهر مماثلة تنبعث منها رائحة كريهة. في المنزل، وجدا جميع أقاربها، بما فيهم الخال السكير، يجلسون على طاولة فخمة من الطراز القوقازي. مفاجأة! ارتدى الخال حذاءً مطاطيًا، ورابطة عنق مكوية.

- أووه! مرحبًا أصحاب البيت! أننا هنا نشرب نخبكما.

لقد اتصلت بهم جميعًا. واتضح، حتى خلال الزفاف، أنها سجلت أرقام هواتفهم. لم يتابع. لم تفوت سفيتلانا إيفانوفنا أي شخص. والد ووالدة مارينا، ألجمتهم الصدمة أكثر من الجميع، فألهيا أنفسهما في اللعب مع الأحفاد في أحد الأركان. رأوا الأقارب خلال حفل زفاف ابنتهما، ولم يتوقعوا رؤيتهم قبل زواج جديد، ميلاد، أو حالة وفاة. بكى فانيتشكا، امتنع عن اللعب بالمكعبات، وهرع باتجاه الطاولة.

طال الاحتفال. كان والدا مارينا أول من انصرف، وهذا بمثابة إهانة قاتلة لسفيتلانا إيفانوفنا. قدمت سفيتلانا إيفانوفنا نخبًا وراء نخب، لم يسمع الناس، سألوا عشرات المرات، عن اسم أكلة من الأكلات، طلبوا موستردة بدلاً

من التكمالي[1]. وخرجوا إلى الممر للتدخين، أغرقوا الأرض بأعقاب السجائر، ودعوا الطلاب للنظر إلى "الشرر". أسعدتهم طالبتان من السنة الأولى بمشاركتهم الصحبة. امتنعوا عن قبول أي شيء طويلاً، ورمقتا المحيطين بنظرات ساخرة. أكلتا ما تبقى من طعام، أجهزتا على النبيذ وانصرفتا. انصرف معهما فيتيا وفلاد، أولاد عم مارينا. كان آخر من انصرف الخال السكير، الذي شرب نخب صداقة الشعوب خمس مرات على التوالي.

- فكرت في عمل احتفال، - بررت سفيتلانا إيفانوفنا، هامسة، حتى لا توقظ فانيا، - فكرت في عمل احتفال لكما. تقديرًا لمارينا. فهم أقاربها على أية حال!

كانت مارينا ترقد في مواجهة الجدار.

- لكن هذا غريب بلا شك! - صرخ ميتيا هامسًا بذات الطريقة. - غرباء يعيشون في بلد غريب، أتفهم! غرباء. في بلد غريب. كل هذا غريب!

- هذا الغريب، هو أنا يا ميتيا، - أجابت. - ومنذ متى أصبح غريبًا عنك؟ لا أعرف؟

عجز ميتيا عن أن يتخذ ساترًا، أن يضع حاجزًا، أو يعلن الاستقلال التام. ظل ذات الإنسان، من هناك. لم يتمكن من العيش باستقلال. داخل سور. لم يكن أقل من أمه، عجزًا عن استيعاب عادات المكان هنا، عندما تكون الأسرة - الزوج، الزوجة، الأطفال، والآخرين - على الضفة الأخرى. ما من أبناء عمومة، من الدرجة الثانية، أو الثالثة، الضجة الدافئة، صخب الأصوات، التي تؤكد كل دقيقة: أنك لست وحيدًا. هناك حلفاء، ولكن كيف

---

(١) صلصة حارة من ثمر البرقوق الأحمر.

يمكنك أن تثق في بشر نادرًا ما تراهم؟ تواجه العالم وحيدًا. حدث ذات مرة – تعدو بعيون أصابها الجنون، طلبًا للمساعدة. بحثًا عن عون. ما من أحد ملزم بتقديم المساعدة. نعم، شعر ميتيا بعدم الأمان في مثل هذا العالم، لكن على النقيض من أمه، لم يعتزم تغييره. هدأ التلفاز. غادرت سفيتلانا إيفانوفنا الغرفة بوجه إسمنتي صلب. قرر ميتيا هذه المرة ألا يداعبها.

– حسنًا – على الأقل بدا كل شيء واضحًا، إذن: لا شيء، فراغ.

اقتربت بوجهها الإسمنتي منه وأخذت السجائر، كما لو أنها نزعت مسدسًا، كما تفعل في كل مرة. تملك نظامًا. نظام غريب تمامًا. في كل مرة تنتظر الفوز. وفي كل مرة، لا تكسب روبلاً واحدًا، تسقط فريسة لليأس. في مثل هذا الوقت، مثل الآن – أسمع أزيزًا، – حال، كان عدد التذاكر المبيعة خمسًا أو ستًا. ستبقى حتى اليوم التالي، هكذا. سيتفتّق ذهنها عن فكرة ما، في الغد. على سبيل المثال، تقرر أن تشتري التذاكر من كشك مختلف. فقد هجر الحظ الكشك الأول، غادر. كسرب من سمك الماكاريل. تلمع نثرات من الفضة في الأعماق – أوه! – وتغرق، ثم تلقي سفيتلانا إيفانوفنا بنفسها إلى البحر. وتصير مجددًا شبكًا فولاذيًا، يطارد فريسة. تتدفق الأمواج وتعوي. يئن تحت وطأتها، ويتأرجح العتاد. تمنح العهود. سيكون الحظ خليفك.

اختيار الكشك المناسب – شامانية المساء المرنة. تلعب لعبة السوليتير لساعات، دون توقف. ألعاب سوليتير معقدة للغاية. تخمن عند كل كشك: هنا؟ عندما لا توفق في لعبة السوليتير: كلا، ليس هنا. الأماكن، التي توفق فيها في لعبة السوليتير، تشكل مستوىً جديدًا. وهكذا حتى الآن، حين لا يتبقى كشك واحد فقط، يختبئ فيه، الحظ الأحمق. هناك، تشتري التذاكر، تتعرف على البائعة، إذا تبين أنها اجتماعية. ذات مرة التقت بواحدة مهووسة مثلها

بالـــ"اللوتو الروسية". صارتا صديقتين لبعض الوقت. تعرف جميع أكشاك "اليانصيب". يعيش في عقلها، نظام ملاحة خاص: بيعت تذكرة في كوميونيستيتشسكي في الشهر الماضي، فازت بألف روبل، - من الأفضل عدم الذهاب إلى هناك. في سيلماش، لا يوجد ما يستحق العناء، ولكن كلما زاد عدد التذاكر، فُتح المجال أمام احتمالات أكبر لنيل التذكرة الفائزة. وإذا ما ظهر فجأةً كشك جديد، تبدأ سفيتلانا إيفانوفنا أولاً في تفحصه عن كثب من بعيد، وتذهب إليه تحت ادعاءات مختلفة: إما الصيدلية أمام الكشك رخيصة، وإما سوبر ماركت جديد. تحكم الدائرة، تضيقها - وفي اليوم الموعود: آن الأوان، هنا! تشتري التذاكر وتنتظر السحب. وأيام الترقب تلك، مشرقة، مثل عطلة، ثم يأتي يوم السبت، زمن الانهيار والأسى.

أصاب القلق ميتيا على نحو ما. بعد مرور ساعتين، كان على موعد مع أليج. عليه التأهب. لم يحلق ذقنه، لم يكن بنطاله مكويًا. الجينز غير مناسب هنا. "إنتورست" على أية حال.

- ألديك امرأة جديدة؟ - سألت سفيتلانا إيفانوفنا بذهن شارد.

- ومن هي "القديمة"؟

هزت كتفيها.

- ذات الشعر المجعد. عمومًا، أنا لا أعرف شيئًا. أنت لا تعرفني بهم. هناك شبشب حريمي مستعمل تحت الصوفا. لم أره من قبل. أعتقد، كان لدى عروسي مثلها.

ذهب ميتيا إلى الحمام.

- ميتيا، ألن تتزوج؟ أحقًا، ليس هناك فتاة واحدة مناسبة؟ كان عليك أن تدعوها؟ أقصد العروس. لنتجالس.

# الفصل الخامس

هذه الدقائق الأخيرة قبل خلع الزيّ الرسميّ، الوداع والرحيل، دائمًا ما تكون هي الأطول. الزملاء من النوبة التالية يرتدون ملابسهم، يوقعون في سجل التسليم – التسلم، يروون أحيانًا، شيئًا ما، بأصوات صباحية بشوشة. يستلمون السلاح، ويأخذون الذخيرة بحركات آلية، يسحبون الغطاء، ويُفْرِغون المسدس في حافظة الطلقات، ليشبه كتلة جوفاء على حامل. ويبدو دائمًا، أنهم يقومون بهذا ببطءٍ شديدٍ لإضاعة الوقت. في اللحظة الأخيرة، يصرخ الراديو، معلنًا قدوم ريزينكا، ومن ثم، إذا لم تكن الساعة قد بلغت التاسعة بعد، فقد آن الأوان أخيرًا أن يسرع أفراد الوردية وتيرة العمل – حينها يبدأ تحديد دور من سيتقدم الصف للاستقبال "أولاً"، يتشاجرون بعنف، ويتبادلون الألفاظ النابية.

– أها، ستتعرَّض للضرب بالسوط. ماذا تفعل بحق الجحيم؟

– في الواقع، لا يزال هناك عشر دقائق على نوبتك، لا داعي للعجلة.

– ها؟ حسنًا، سأجيب عليك الأسبوع القادم عندما أحلُّ محلك.

من فضلك. لن أضغط عليك أبدًا.

– حسنًا، سأتذكر هذا.

– حسنًا ، افعَلْ.

حلق ذقنه على نحوٍ سيئ، ترك بقايا، إما على خده، أو على ذقنه، هسهست الشعيرات الخشنةً القويةً تحت أصابعه. حسنًا، لا داعي للانزعاج، لستُ امرأةً على أية حال. على الأرجح، لن يَلْفِتَ الأمر نظر أحدٍ.

قرَّر ميتيا أن يبقى صرصورًا مجددًا. لن يكون الأمر أسوأ. فبعد أن ألقت تلك الفاشلة، ذات المكياج الصارخ، بالأمس بجواز السفر عبر الطاولة، أصبح الآن لزامًا عليه الذهاب إلى سير جي فيودريتش، لكن لم يذهب ميتيا إلى "إنتوريست"، ألغى اللقاء تحججًا ببعض الأعذار، بعد أن اتصل بأليج عبر الهاتف الجوال.

في الشارع، بعد المحادثة القصيرة، رأى كل شيءٍ مغايرًا. فورًا، وعلى نحوٍ ملتهب. لكن مع مرور الوقت، صار باردًا، وزحف إلى حفرته. فكرة اللجوء إلى زملاء دراسة سابقين، الذي لم يره منذ عشر سنوات، بَدَتْ مستحيلة في الوقت الحالي. الخروج من الحفرة، وتذكر اللغة، نغمة التواصل مع زملاء سابقين – من المؤكد أن يؤدي هذا إلى الإصابة بغصة النوستالجيا؟ ماذا لو قرر أليج أن يجرجر الحديث نحو الماضي؟ اختار ميتيا سيرجي فيودريتش. خمس دقائق من الذل، وما من ذكر للماضي. ثم كان عليه أن يجيب عنْ سؤالٍ حتميٍّ عن، ما آل إليه حاله في هذه الحياة. "حارس أمن"، – حينها، سيحاول ، كالمعتاد ، ادعاء نبرة ثباتٍ ذكوريَّةٍ. كما لو كان حلم أي رجل في الثالثة والثلاثين من عمره– أن يعمل كحارس أمنٍ." أعمل كنائب مديرٍ لشركة "إنتوريست". ماذا عنك؟ " – "بينما أعمل كحارس أمنٍ، حارس أمنٍ في أحد البنوك "يوجيانفست." – "واو، رائع!".

في عام ٩٣، في حفل تسليم شهادات التخرج، قال تريفونوف، منسق المجموعات البيئية والجيوكيمياء الأرضية التطبيقية، وهو يلوح بيديه من جانب إلى آخر على المنصة: "شهادتك – هي حسابك المصرفي في بنك سويسري" – ولكنه لم يقل في أيِّ بنك تحديدًا. بقي ميتيا في الدراسات العليا، كان عليه أن يعمل في معهد الفيزياء والكيمياء العضوية في مشروع، تلقى

منحة من الغرب، وأن ينهي رسالة الدكتوراه، وعلى ما يبدو، وبعد هذا مباشرةً سيذهب لسحب المال من حسابه في المصرف السويسري. تقاسم هذه الخطط المتفائلة مع مارينا. نفشت مارينا شعره وأطلقت عليه السيد نوبل. ضحك فانيا في سريره، وكرر وراء أمه، ونفش خصلات شعره الهائش. ولكن تبين أن العمل في مشروع حصل على منحةٍ غربيةٍ يختلف نوعًا، عما اعتاد ميتيا. في مقلب القمامة قبالة معهد الفيزياء والزراعة توجد مستعمرة المشردين. يقضي كل مشردي المدينة الليل هنا. أسفل جدران المعهد، بالقرب من الأرض، هناك أنابيب التدفئة؛ حيث يستقر المشرَّدون في صفوفٍ متقاربةٍ على مراتبَ وبطانياتٍ قديمةٍ، فوق شريطٍ أسودَ من الأرض الجافة، التي ينبعث منها البخار. قالوا إن الشرطة عقدت اتفاقًا ضمنيًّا مع المشردين: سمح لهم فقط بقضاء الليل هنا، بينما يُلقُون القبض عليهم، في أماكن أخرى، ومعاقبتهم بشدةٍ. في كل صباحٍ، شق ميتيا طريقه عبر المستعمرة المتعفنة، عبر مخادع هؤلاء البشر الترابيين، ودخل إلى الغرفة الباردة القذرة، التي حوَتْ جهاز قياس الطيف وطاولاتٍ مدرسيةً، تكدست بعينات تجفيف وأوراق. تدحرجت الزجاجات الفارغة تحت الطاولات. يظهر مدير المشروع، في المعهد، في سترة عسكرية، وحذاء مصنوع من الخيش. فني المختبر ناديا، هي المسؤولة عن جهاز قياس الطيف، ستة وثلاثون عامًا، بلا أطفال، وغير متزوجة. كل صباح، تحرق ميتيا بالدخان والذعر الجنسي في عينيها الشاحبة، الشهوانية. كان ميتيا يشعر بالخوف على الدوام من هذه الإشارة التي توحي بأنها سهلة المنال، التي لا روح فيها. كانت تشبه شيئًا وُضِعَ على الرف، يمكن الحصول عليه، دون النظر إلى اليد الممدودة إليها. ثم توقفوا بعدها عن دفع ما كان يسمى المنحة. انكسر جهاز قياس الطيف. واغتصب المتشرِّدون ناديا. ولم يظهر مدير المشروع في المعهد تقريبًا.

- آه. ما هذا الهراء؟!

أعاده ذلك التعليق المتبرم من زميله إلى غرفة الحراسة.

ما الأمر؟

- ما هذه القذارة أسفل الطاولة؟"

- أجل، هذا من حظك!

- لا، يا رفاق، هذا عبث! اتفقنا على تسليم حجرة الحراسة نظيفةً. سيأتي يوسكوف- ويجبرنا على تنظيفها.

- حسنًا، حسنًا، سأنظفها. ولكن، بعد الآن، أيها السافل، لا تغضب، عندما تسلمني الحجرة في المرَّةِ القادمة.

لن يتم تسليم غرفة الحراسة من نوبة إلى النوبة التالية نظيفة أبدًا. العقد شريعة المتعاقدين، ولكن لا يُوجَدُ جدولٌ زمنيٌّ متفقٌ عليه معلَّقٌ على الجدار. عندما لم يَعْثُرْ ميتيا على أي شيءٍ جديدٍ في غرفة الحراسة، قرر العودة إلى هناك؛ حيث خدعوه للتو. كانت مارينا تنام دائمًا نومًا خفيفًا. عندما يدخل أحد الطلاب إلى بئر السلم حاملاً جيتارًا في منتصف الليل، تستيقظ بمجرد أن يلمس الوتر الأول. وهذا يحدث كثيرًا. الشغف بجمال الموسيقى، التي تتردد أصداؤها في بئر السلم، سحر عازفي الجيتار. اضطرَّ ميتيا أحيانًا إلى الشجار. على مدار ثلاث سنواتٍ من الحياة الأسرية، كسر ثلاثة جيتارات، وسنًا.

علق ميتيا لوحة أصابع الجيتار المكسور والسن على الأوتار على الباب كعلامة تحذير للضيوف - من عشاق الموسيقى. انفتح الباب، ودخلت مارينا - بعيون أصابها خوف وذهول صدمة اللحظة الأولى: كانت مارينا شقراء.

- أوررااا! - صرخ فانيا، ركض نحو أمه التي تغيرت متفحصًا إياها من رأسها حتى القدم، كأنه كان يتوجَّبُ عليها ليس فقط تغيير لون شعرها، وإنما كل شيء آخر.

لكن ميتيا قال:

- لم أكمل القراءة!

عاد فانيا، حزينًا، إلى الأريكة. قرأ ميتيا لابنه "حكاية عن القيصر سلطان".

عادت مارينا في وقتٍ مبكرٍ. عادةً ما تقضي الوقت في السوق حتى موعد الغداء. لم يشترِ أحد الفستان الذي شغلته بيدها. اقترح عليها ميتيا ألا تعذِّبَ نفسها، وأن ترتديه هي بدلاً من بيعه. لكنها اليوم عادت دونه. على ما يبدو، هناك من اشترى الفستان. خلعت مارينا حذاءها، وعبرت الغرفة حافية القدمين. كانت مشيتها عارية القدمين تبدو شديدة الحميمية. قدمها جميلة. وهي تخطو برهافةٍ بالغةٍ. بخطوةٍ رقيقةٍ. تلامس الأرض. لن تتصور أبدًا، بينما تنظر إليها، وهي تسير على كعبها بصرامةٍ في خطٍّ مستقيمٍ على الأسفلت، أن بإمكانها أن تفعل. لكنها عبارة عن حفنة من المفاجآت.

دخنوا في الممر. كان موقع النزل رقم ٢، يسمح للروائح أن تتسرب إليه عبر الغرفة التي تقع في الزاوية. ونتيجة هذا العيب، يبدو الأمر مع هذه الروائح والأصوات، أنك تعيش بدون جدران، في قفص فوق سارية. كلا، لن يخرج للشجار في الممر. سينتهي من القراءة. قرأ ميتيا وشعر بأن فانيا لم يكن منتبهًا، لكنه واصل القراءة. كان يأمل في أن يستحوذ على انتباهه، قرأ بصوتٍ أعلى. ولأن الأمر في غاية الأهمية. فبوشكين يأتي في المرتبة

الأولى، ثم يأتي بعده الجميع. هكذا تحدث. وكلما زاد عدد الأسئلة الشائكة الناضجة التي يسألها فانيا، قرأ له بوشكين أكثر. قرأ، زاد شروده. وقفت مارينا عند النافذة، معقودة الأيدي، وهي تتطلَّعُ إليه. في وجهه مباشرة. على الأرجح، بالطريقة التي ينظرون بها بعد سنواتٍ عديدةٍ من الانفصال أو إلى الصور في مكتب المحقق، الذي أكسبته الخبرة القدرة على النظر من بعيدٍ، حينما يقف على مسافة عدة أمتار. على الطاولة - لم يلحظ على الفور - هناك حفنة من النقود. زاغت عينا ميتيا قليلاً عن الكتاب - ولكن توجَّبَ عليه بعد ذلك أن يلاقي نظراتها، وشعر بعدم الارتياح. شرد ذهنه، تراجع إلى الوراء، وعاد إلى القراءة سطرًا بعد سطر بإصرار.

بعد أن نزعت الساعة، بعناية، حتى لا تدق، وضعتها على الطاولة. لكنَّ الصوت لا يزال ثقيلاً خشنًا. قضت عطلة نهاية الأسبوع على مدار شهر ونصف الشهر في السوق. تأخرت المنحة. يدفعون فقط نصف الرواتب في المختبرات. رفضت مارينا أن تستدين من حماتها بشكل قاطعٍ. ولكن عندما نفد الطعام ولم يكن هناك ما يطعم فانيا، بدأت سفيتلانا إيفانوفنا في إحضار بقالة لهم. ما استطاعت أن تصل إليه يداها. ذهب نصيب الأسد مما تكسبه من الممسحة وقطعة القماش لإيجار البيت الذي استأجرته. ولكي تحضر لهم قطعة من اللحم، توجب عليها أن تقضي أسبوعًا كاملاً تأكل الشوفان[١] الكريه. أخذت مارينا الطعام، ورأسها منكسة.

- شكرًا لك، سفيتلانا إيفانوفنا، سنرد لك المعروف، بلا شك. - كتبت تكلفة كل منتج في عمود على ورقة خاصَّةٍ.

---

(١) طعام يصنع من القمح (طحين الشوفان) واللبن.

خلال تلك الفترة، لم يكن هناك بينهما تواصلٌ فعليٌّ، واستقبلت سفيتلانا إيفانوفنا كلمات زوجة ابنها بصمتٍ تراجيديٍّ.

كره ميتيا هذه الحياة الجديدة التي سقطت فوق رؤوسهم، وتوجب معها التفكير على نحو جادٍّ في أمر المال. ولا يعني هذا في العموم، إنما دون انقطاع، مثلما يفكرون في مرضٍ عُضَالٍ. كان المال في كل مكان. اصطبغت السحب بلون النقود، كان من السهل رصد أشكال الروبل والدولار في منحنياتها. نقود. مال. لافا. كرنب. جمعوا الكرنب، قطعوا الكرنب. ارتسمت النقود على الأسفلت، ولكن كلا - لا يمكن أخذها. إنها للمشاهدة فقط. كما على الصخور تحت الجليد. امتلك الآخرون القدرة - على الحصول عليه. استطاع أن يفعلها فاليري من الطابق الثالث. فاليري بتروفيتش القديم. كان يجب طرده منذ وقت طويل، لم يظهر في القسم للعام الثاني. بطريقةٍ ما يدير مدينة الطلبة مع المدير. يحمل الملابس والسجاد. قال عن نفسه: مضارب. "أنا مضارب".

قبل ذلك، لم يرَ ميتيا مضاربًا سوى مرةٍ واحدةٍ، في تبليسي. كان في الخامسة عشرةَ تقريبًا، صحبته أمي ذات مرةٍ. كانت في احتياجٍ إلى شراء هدية لزميلتها في العمل، التي أنجبت طفلاً. كان المنزل يقع في ساحة لينين. عبروا القوس أمام السوبر ماركت. كانا في عجلةٍ من أمرهما. توجَّب عليهما إنهاء الأمر في غضون ساعةٍ. يسمحون بالدخول كل نصف ساعة. بعد أن غادروا القوس، مروا من خلال أحدِ الأبوابِ، إلى غرفة انتظار مظلمة، حيث ساد الهدوء، ووقف الناس صامتين، يحاولون التنفس في سكون، دون أن تهسهس ملابسهم. وعند حلول الساعة الواحدة تمامًا، حدثت ضجةٌ عند الباب، حتى إن حديثًا سريعًا مع أحد الغرباء، صار مسموعًا من بعيدٍ، دخلتْ امرأة

جورجية شابة ترتدي معطفًا. صامتة، مبتسمة، وظلت تلك الابتسامة على وجهها. في وقفتها بفخذ مائل مكسو بحرير لامع، وحركة يدها، التي جعلتها تبدو كشخص مغرم بذاته، أعطَتْ انطباعًا كأنها تفوق جميع من حضر هنا. فتحتْ بابًا، حديديًّا، يؤدي إلى تجويف عميقٍ، ودلفتْ إلى الداخل. وراءها، طال انتظار الجميع. خلف الباب الحديدي، هناك مستودعٌ. اصطفَّتِ البضائع على الأرفف. اقترب الناس، واضعين أعينهم من بعيد بشكلٍ مبدئيٍّ على ما يرغبون في شرائه، حملوا الأشياء في أيديهم بحذر. "كم سعرها؟" فحصت ما عرضوه عليها، رفعت عينيها، وقرأت بصوت ناعم، بدا مرحًا جريئًا، جمعت وضربت الأرقام، وحدَّدتِ السعر. وضعت النقود في جيبها.

لذلك، عندما قال فاليري، فاليري بتروفيتش القديم، عن نفسه إنه "مضارب"، ارتجف ميتيا، كأنه اعترف صراحةً أنه كان مازوخيًّا. ولكنه جرَّب كل شيء. اشترى جوالاً من الكاكاو من متجر عادي يقع في سيلماش. في المتجر، كان سعر الكاكاو أرخص، من السوق. الكاكاو معبًّأ في أكياسٍ على الميزان لوزن العينات وحملها إلى السوق. تبين أن هناك كثيرين في السوق، أناسًا مثله، بأعين قلقة تحاول الاختباء. أمام المدخل مباشرة، اصطفوا في الممر، واضعين ما أحضروه معهم لبيعه، إما على صُحُفٍ، وإما فوق صناديق. يبيعون أشياء متنوعة. بدايةً من الكيك المُعَدّ في المنزل إلى الأحذية البالية. ومن وقت إلى آخر، تأتي حملةٌ من رجال الشرطة فيتفرقوا. تعلموا سريعًا: ببساطة يحملون بضائعهم ويذوبون وسط روَّاد السوق. ما إن ينصرف رجال الشرطة، حتى يعود ممر البائعين إلى سابق وضعه. ثم يأتي الفتوات الذين يركلون البضائع ويطالبون بدفع مقابل الأماكن المشغولة. أما مع ميتيا، فقد مر أمر البيع بأمان. مع نجاحه في الاختباء من رجال الشرطة،

ومن الفتوات، تمكن من بيع الجوال بكامله تقريبًا في حوالي ثلاث ساعات. تنفس مثل المصارع المنتصر، وما إن أعدَّ نفسه للعودة إلى المنزل، حتى ألقى فريق من الشرطة، برز من قلب الحشد، القبض عليه، ممسكين بيديه، قالوا له: "هيا". بعد أن فتش جيوبه، تركوا له أجرة الأتوبيس – تفضُّلاً من أفراد الشرطة.

حاول بضع مراتٍ أخرى، باع أحذية رياضية، كما حصل من فاليري على سجاد لبيعه، لكنه عجز عن التغلب على احتجاجه ضد هذا السباق المعلن من أجل الحصول على الروبل. هل هذا ما أعد نفسه له؟ هل حذره أحد في أي وقتٍ؟ شعر كأنه لاعب تنس، ذهب إلى بطولة جراند سلام – مضطربًا يعد نفسه لصراع، ليس من أجل الحياة، وإنما من أجل الموت، جلس في غرفة خلع الملابس، وعندما آن الأوان، نهض، قفز نحو صخب المدرجات – ليجد نفسه في ملعب كرة السلة محاطًا بزنوج بطول مترين.

تطلعتْ إليه مارينا. كان لديه رغبةٌ بالنظر إليها في المقابل، إلى شعرها الجديد ذي اللون الأشقر، لكنه قرأ "حكاية عن القيصر سلطان"، قرأ وشرد باستمرار. وضعتْ على الطاولة حفنة من النقود، عليه أن يأخذها إلى والدته – سدادًا للديون، لاحظ فانيا كذلك تلك النقود، وربما تخيل عشرات السيناريوهات للاحتفال. يملك هذه القدرة. إن فانيا على استعداد دائم للصراخ "أورا!!"، أن يضحك، يفتح عينيه اللامعتين. قالوا: "عليَّ أن أصحبه إلى السيرك" – قفز بالفعل فرحًا، في قمة السعادة، وهتف: "إلى السيرك! الى السيرك!"

– إيه، هيا.

وقف توليك فوقه بحقيبة حملها على كتفه.

– طلب توصيله إلى إدارة جوازات السفر.

لم يدرك ميتيا سوى الآن فقط أنه لم يبدِّل ملابسه بعد. بالطبع، لن ينتظر توليك. كلا، ليس لأنه كان في عجلة من أمره، إنما لن ينتظر على أية حال. من غير اللائق بين الشباب المحترم أن ينتظر بعضهم بعضًا.

- لماذا أنت ساهم هكذا، يا ميتيا. هل بالك مشغولٌ بشيء؟

- أجل، إنه يفكر طيلة الوقت في أمر جواز سفره،- تسرع فوفا- المهندس في إظهار قدرته على الملاحظة.

غادر توليك، بدل ميتيا ملابسه وسار إلى إدارة جوازات السفر والتأشيرات على قدميه في لينينسكي.

لم يقرر بعد لقاء أليج، لكنه احتفظ بورقة مسجل بها رقم هاتفه. ألقى بها، بالفعل، كأنها ورقة لا لزوم لها، على عتبة النافذة، لكنه يذكر جيدًا مكانها.

إدارة جوازات السفر والتأشيرات، التي يرأسها سيرجي فيدوروفيتش، في المركز. المباني هنا أفضل من مثيلاتها في منطقة فاراشيلوفسكي. إنه مبنى إداريٌّ كما يجب أن يكون، بأرضية حجرية وأسقف عالية. علق ميتيا مرة أخرى: يا له من سحر لا يقاوم ذاب في كلمة "المركز". القبالة السوفيتية[١]. هندسة الحياة بشكل نوعي: تتشكل أية مساحة من مركز، ونطاق مجاور، لاذع رمادي، تكمن ضرورته فقط في تأكيد وجود المركز.

امتلأت القاعة بأناس بائسين. يا ترى، فكر ميتيا، كم عدد من لا يحملون الجنسية بين هؤلاء؟ وقف طابور طويل أمام مكتب المدير. مشهد مألوف جدًّا - طابور متعب، غاضب، مذعور، مرهق من فرط اليأس ومن

---

(١) القبالة أو القبلانية أو كابالا بالعبرية، وهي عبارة عن فلسفة باطنية روحانية يهوديـــة، تمثل رؤية للحياة والكون، في هذه الفلسفة يمثل الله الحقيقة الخالدة أما العالم فهو شيء قابل للفناء.

ساعات الانتظار الطويلة. قيل إن عليَّ الحضور في الثالثة والدخول – ولذلك توجَّبَ عليَّ أن أفعل شيئًا، نادرًا جدًّا ما فعلته، بل بغضته، عندما قام به آخرون. ارتديت وجه البولدوج[1]، ثم وقفت بجوار باب المكتب، منتظرًا، أن ينفتح الباب، دفعت الجميع بأكتافي، ودخلت.

– أنا من طرف فالنتينا نيكالايفنا، لقد اتصلت بك.

سيرجي فيدوروفيتش، بغض النظر عن عمره، كان أصلع الرأس تمامًا. رسمت صلعته خيطًا من الشعر على مؤخرة رأسه، مثل الفلول – كحصن أخير. كان عابسًا. بشكل بدا أكثر قتامةً، من الواقفين في القاعة بالخارج. فعلاً، قرَّر ميتيا، أن أي انفعال عند رجل أصلع يكون مضاعفًا. يبتسم– يبتسم بصحبة صلعته. يكشر – تكشيرة تمتد حتى مؤخرة رأسه.

دخلت موظفة في أعقاب ميتيا، سيدة بدت كربَّة منزل من إعلان مسحوق غسيل. في يدها أوراق.

– هكذا. – وضعت الورقة على المكتب. – يستفسر كوليا. يجب أن نسجل هذا الرفيق على وجه السرعة. أين عليه أن يتوجه؟

قرأ سيرجي فيدوروفيتش بقرف، ورفع حاجبيه عاليًا لأقصى درجة.

– هناك شيء آخر ناقص هنا!

– هذا طلب كوليا؟

– ماذا إذن! هذا الحقير لن يحصل على شيء عندي هنا. تشاجر معي، هددني، صرخ في وجهي، أني فاشٍ، وأنا، عليَّ أن أسجله في أسرع وقت! امم، كوليا_ إذن، طلب هذا.

---

(١) نوع من الكلاب، ويعرف باسم البولدوج الإنجليزي.

- آه! لم أعلم هذا، أنا!

- صرخ هنا على نحو، دفعني لطلب الشرطة. لن يحصل على شيء بسرعة، افعلي اللازم حتى يأخذ جواز السفر في العام القادم. في الربيع، مع طيور السنونو. أو على نحو ... حسنًا، لقد فهمتِ ما أبغي.

- لم أكن أعلم هذا! فهمت، فهمت، سننفذ ما طلبت. سنعاقبه من أجل سيريوجيتشكا[1] العزيز كما يجب. سأخبر كوليا، ألا يتدخل.

أخذت المرأة الورقة وانصرفت.

- بسرعة، أترى! - شاركني سيرجي فيدوروفيتش سخطه بطريقة القصور الذاتي. - هممم!

أومأ ميتيا برأسه - قائلاً، أجل، أجل، نصادف مثل هؤلاء المثيرين للشفقة.

- هيا، أعطني جواز سفرك، - تمتم سيرجي فيدوروفيتش، وهو يحملق في الباب المغلق.

أعطاه ميتيا جواز السفر. وضع سيرجي فيدوروفيتش يده على المكتب: اجلس. جلس ميتيا على الكرسي الذي أشار إليه سيرجي، ثم أدار قرص الهاتف.

- نيكالاي نيكالايفيتش، - قال بمرحٍ مفاجئٍ في سماعة الهاتف. - هذا أنا سيرجي فيدوروفيتش. لا تعرف مدى سعادتي بسماعك، هذا أمر مبهج ورائع. أجل، المرة الأخيرة في عنبر المستشفى؟ فعلاً. إننا أجلٌ كثيرًا

---

(١) تدليل سيرجي.

وبمنتهى الجدية. العمل – بلا نهاية. أتعلم، لِمَ نبني بيتًا بحمام سباحة. متى ستدعونني للقاء؟ ماذا؟ متى سيكون جاهزًا؟ انظر، أوافق، أنا في الدفعة الأولى؟ حسنًا، سأعتبره وعدًا. اسمع، هناك أمر أود أن أحدثك عنه. عندي شخص هنا... – ثم تطلَّع إلى جواز سفر ميتيا. – فاكولا ديميتري نيكالايفيتش. أجل، يهمنا أمره... – هنا رفع عينيه للمرة الأولى إلى ميتيا، كأنه يتفحصه. – ظهرت لديه مشكلة مع الجنسيةِ. أجل، إذن، ربما يمر عليك. أها. نعم، هيا، احكِ لي، أسرارًا، ولم لا؟

لم يهتم ميتيا بسماع المزيد.

اقتربت لحظة الذروة في هذه الدراما، المحنة. قالت أمي: "ستشكرني لاحقًا، عندما يتم الأمر". ساور الشك ميتيا.

محاولاً إقناع نفسه، قال ميتيا: كلا، هكذا تسير الأمور في الواقع، لاحقًا، هذا أمر حتمي، لاحقًا، هكذا تجري الأمور. المعتاد. لا شك، أن الأمور هنا تجري على نحو مغاير. في جورجيا – الأمر على درجة من التهذيب. ليس بإمكانك أن تعرض المال على الجميع. هناك فروقٌ دقيقةٌ. إذا ما أرسلك – أوصى بك أحد أقاربه، أو ربما شخص ما هو ملزم أمامه بالمساعدة، فإنه لن يحصل منك على رشوة. سيشعر بالإهانة. مما يعني، أنك في إشارة على الامتنان، عليك أن تعد وليمة، وتدعوه مع ذلك القريب – أو الشخص الذي هو ملزم أمامه، – على عيش وملح. سيحضر إليك شخص ما يومًا، ويقول: "مرحبًا، أنا من طرف فلان". أما هنا، في روسيا، الأمر مغاير تمامًا. على النقيض جملة وتفصيلاً. تزيد التكلفة كلما كانت المعرفة أقرب. السعر ثلاثة أضعاف – لو كان قريبًا منك. تتجه إلى مكان ما حاملاً الكلمة المقدسة: "مرحبًا، أنا من طرف فلان،" – أي عليك أن تحمل روبلاً ضخمًا.

شعر ميتيا في البداية بالارتباك – كيف يُمْكِنُ أن يدفع المرء رشوة لقريب له؟ سيشعر بالإهانة! لكنه بعد فترة تمكن من إتقان قواعد اللعبة الجديدة.

أعطى له سيرجي فيدوروفيتش جواز السفر، وقال:

– اذهب إليه ، اليوم، لا يزال هناك متَّسعٌ من الوقت.

أخذ ميتيا جواز السفر. لم يتصور أن الحمرة ستكسو وجهه، كأنه لا يزال في سن السادسة عشرة. فشلت كل محاولاته في البداية لوضع جواز سفر في جيب المعطف الداخلي. لكنه أخيرًا نجح، استدار، شاعرًا بالحرج، ثم غمغم: "شكرًا، إلى اللقاء"، وخرج إلى القاعة. بدا له أن العرق يتصبَّب من إبطه، مثل الصنبور.

قال لنفسه: "لا مفر"، وهو يقف في الشارع ويفتش كالمجنون عن السجائر في جيوبه. أنقذه النسيم المنعش وضرب خديه. يفكِّر جديًّا في الاستعانة بـــ"محامٍ"، كما نصحت المفتشة المسؤولة عن شؤون الجنسية، لكنه لم يأخذ الأمر على محمل الجدية. من يدري ما مصير كل هذا! رغم أن هذه النصيحة قيلت على سبيل السخرية. على أية حال، عليَّ نسيان ما حدث. لست أول من يفكر في الدخول من الأبواب الخلفية. هل مر زمن طويل على تلك الأيام، حينما كانت عبارة "ممنوع الدخول منعًا باتًّا" المعلقة على لوحة، ذات سحر خاص، بينما تحاول الدخول من أحد الأبواب. اذهب مباشرة إلى رئيس إدارة جوازات السفر والتأشيرات، في منطقتك، وسيمتنع عن استقبالك، أما هكذا، من الأبواب الخلفية أترى ستفعلها. دخن ميتيا السيجارة في عدة أنفاس، بينما يتجه صوب "أبارات". في إدارة جوازات السفر والتأشيرات، مع

تحيات سيرجي فيودروفيتش، لم تكن لديه نية الذهاب اليوم، لم يفكر. هذا كثير على يوم واحد. أو التفكير في الدب الأبيض[١].

هذا يكفي! لا تتجرأ! لا تتجرأ على التفكير به!

من أجل استعادة رباطة جأشها، وحتى تشغل رأسها، قررت أن تعيد على نفسها جدول مينديلييف، لكن شردت ما إن بلغت الأرض النادرة. ظهر مجددًا من العدم، ظل شفاف، هب بنعومة على الخلايا باللاتينية، الغارقة في الأرقام. كما يبدو، مينديلييف كان منقذها دومًا، سواء بعد مبارزة مهذبة مع حماتها، أو عندما ترتجف ركبتاها، مع حدوث مشاجرات فجَّةٍ في الشارع.

لا تتجرأ! يا رقم ستة وعشرين. أتفهم، يا رقم ستة وعشرين!

مستلقيًا على أحد جانبيه، كان الأتوبيس رقم ستة وعشرين يتحرك صوب المحطة، متثاقلاً، مثل ماموث قذر متعب. أورا!! لن يفوتني هذا الأتوبيس. التحمت طوابير الحشد في صف واحد - تحركوا كموجة هادئة دفعة واحدة- أولاً في مواجهة مقدمة الأتوبيس، لكنهم، عندما لف الأتوبيس ووقف بمحاذاة الرصيف- تراجعوا متتبعين حركته البطيئة. وهكذا وضعت نهاية لهذا الانتظار المتوتر الذي طال، بانتظار آخر: كيف الحال داخل الأتوبيس؟ هل توجد أماكن خالية؟ هل بإمكانه الثبات؟ توقف الأتوبيس، وانفتحت الأبواب التي أصدرت صريرًا، وبدأ الركوب. رجل عجوز نحيف يرتدي قبعة رياضية "بيتوشك"، مطروحًا من الرصيف، يحاول الابتعاد عن الجانب القذر بيده، سحبها وهو مصاب بالغثيان، وصرخ قائلاً: "توقفوا عن

---

(١) أن تفكر في الأشياء المحرمة. ومن الأمور النفسية المعروفة أن تحريم التفكير في أشياء معينة يؤدي إليها دائمًا.

الدفع! أيها السادة، توقفوا عن الدفع!" فيما رد الحشد من وراءه بسخط: "إن السادة لا يفعلون شيئًا، لم يتحرك أحد هنا." وعندما سار الحشد، صرخت، الرؤوس التي حملتها الموجة المتجهة نحو الداخل، هناك شخص يعافر حتى، يمر: "دعوني أمر! أرجوكم!".

دهسوها في اتجاه الرجل العجوز نحو الأتوبيس، حاولت تفادي القطرات الزيتية البنية، لكنها نالت دفعة عنيفة من كف شخص ما، على ظهرها، لينسحق صدرها كاملاً. ابتلعت مارينا الدموع واستكملت رحلة الصعود، وألقت نظرة من فوق كتفها بحثًا عن السفلة. عمدًا، دفعوها إلى الأتوبيس، انتابها شعور بذلك. لمعت ذات الأوجه، وساد القلق بين الجميع في صعودهم إلى الأتوبيس. قد يكون السافل أيًا منهم. حتى الرجل العجوز ذو الوجه الشاحب، الذي يرتدي قبعة "بيتوشك". كادت مارينا تنفجر من الغضب، حين ابتلعها الحشد، بينما تحاول التماسك. الإفلات والفرار. فلتهنأوا بهذه الأتوبيسات! لو امتلكت القدرة على السباب، ولو حتى بهدوء، بينها وبين نفسها على الأقل، لكان الأمر أهون عليها. لو استطاعت المزاحمة، في سكون، رمزي، حتى هذا الظهر البلوطي الحقير.

في روحها، لا زالت تسكن راهبة غريبة لا تنام، عيونها شفافة، مثل رقاقات الثلج. استقرت الراهبة في روحها - ساكنة- حتى يمكنها مراقبة النوايا. كان من المستحيل أن تلقي سيلاً من السباب – أو أي ألفاظ خارجة. ربما، لم تدرك تمامًا، متى سكنت تلك الراهبة روحها. ولكن، على الأرجح، بعد أن أنهت الصف الثامن، أثناء حفل مدرسي تنكري. انزعجت عيناها من الفتيان في معاطف زرقاء مع صلبان – قاموا للتو بعرض "الفرسان الثلاثة". هناك كاردينال له زغب نادر على ذقنه- فالوديا فولكوف في المقابل –

والراهبات، فيكا وليكا تورتشيني، التوأمتان. راهبتان متشابهتان على نحو مثالي، تثيران بهجة صاخبة، وكان من الواضح منذ البداية، أن جائزة أفضل فستان ستذهب إلى هاتين الفتاتين. لعبت مارينا دور كنستانس. سمحت الأم بوضع مكياج بسيط على الجفون، لأول مرة. وبدايةً، حتى اعتادت الأمر، بدا لها أن عينيها ارتدت ملابس ضيقة مربكة. اختارت الأم لكونستانس، رغم أن مارينا نفسها كانت تخشى ربما، تلك التي سممتها ميلادي الشريرة الشقراء. وهي تخشى الشقراوات عمومًا. التقت، ذات مرة، إحدى الشقراوات في الشارع، اقتربت الأم منها وصفعتها على وجهها بقوة. كانت صفعة قوية لدرجة أنه، بدلاً من صوت الصفعة المعتاد، سمعت مارينا قرع جرس عنيف. تشنجت الفتاة الشقراء وأمسكت خدها القرمزي. دون كلمة واحدة، افترقتا، وسارت مارينا بجوار أمها، ونظرتا إلى الخلف، حيث تلك السيدة التي لازالت تمسك خدها بيدها. بلغت مارينا حينها حوالي تسع سنوات من العمر. حاولت أن توجه إلى أمها سؤالاً، ما إن استدارتا عند الزاوية، لماذا؟ قاطعتها الأم، لم تعطها فرصة أن تنطق: "لا تتجرئي على السؤال!" وهكذا، لم تتجرأ على السؤال أبدًا. لكن، بعد أن كبرت، صارت تخشى الشقراوات.

كان الحفلة التنكرية بمثابة حفل تخرج لأولئك، الذين أنهوا الفصل الثامن، وانتقلوا إلى المدرسة المهنية. كان عددهم قليلاً، ثلاثة أولاد وفتاة واحدة. بينهم أوليا، وهي فتاة غير جميلة، وكما هي الحال مع كل الفتيات القبيحات، اتخذتها مارينا صديقة. في تلك الأمسية، عاشت شعورًا بالذنب، كما لم يحدث من قبل، تجاه أوليا[1]. ستذهب أوليا لاستكمال دراستها في المدرسة المهنية. "لن نواصل حتى الفصل التاسع"– قالت أم أوليا. ستصبح

---

(١) تدليل أولجا.

أوليا شيف حلويات- بدينة، غارقة في مسحوق السكر. ستبقى كما هي، فهي "تذهب دائمًا للمركز الأول والميدالية الذهبية". لأوليا أنف مثل الساماور[1]، وأسنان صفراء. حسناء، وهي تعلم هذا. طيلة الصف الثامن، كانت مارينا تساعد أوليا في الدراسة، ولكن فشلت، للأسف، في مساعدتها في إصلاح أمر أنفها وأسنانها. كل، ما استطاعت أن تفعله، أن تظلل، تهندم، ترطب، جمالها. تتصنع، بأن هذا غير حقيقي. في التربية البدنية، تغير ملابسها، مثل الجميع، في رداء ضيق وقميص، تداعب الأولاد، تتظاهر أنها لم تلاحظ أعينهم التي تدور في كل الاتجاهات. ولمت شعرها في ضفيرة بسيطة. تجيب أثناء الدرس، واقفة أمام السبورة، في وضع محدب، حتى لا يبرز صدرها. كانت تشعر بالخجل من المزايا التي منحتها إياها الطبيعة. في الصباحات، تقول لها أمها، بعد أن تتفحصها من قدمها حتى الرأس، بعينيها الخضراء الفاتحة: "احذري أن تكوني غناجة".

جرت الحفلة التنكرية في البوفيه، وسط اللوحات المألوفة التي رسمت بالزيت منذ سبع سنوات: قنفذ أزرق العينين فوق ظهره تفاحة وردية، وسنجاب له ذيل مجعد، مثل كتان، كأنه عيش غراب وضع ليجفف. ذهب البالغون من حين لآخر إلى المخزن، ثم عادوا أدراجهم بابتسامة مرسومة على وجوههم، تفوح منهم رائحة. شرع الأب بسرعة في سرد نكات طويلة، والتعارف مع كل، من يمر بجواره. أما الأم فذهبت إلى المخزن أيضًا، ثم جلست تبتسم على نحو غير معتادٍ، ثم هوَّت نفسها بالمنديل. صارت الموسيقى صاخبة تدريجيًا، وكان الضوء خافتًا. بعد أن انصرف المدير أخيرًا، بعد أن تمنى، كل ما يراه نافعًا للرسامين وصانعي الحلوى في

(١) الساماور هو براد روسي تقليدي لغلي الماء وصناعة الشاي.

المستقبل، بدأوا بالرقص الهادئ. أثرت الموسيقى، أحيانًا، على مارينا لتبدو كالمنوَّمة مغناطيسيًا. ترتبك وتذهب دون هدى، دون إمكانية أن تستعيد رشدها أو تفيق: توقفي! إلى أين؟ هكذا كان الحال في الحفل التنكري. صار ساحرًا على نحو ما، بأنغام شرقية هادرة. مارينا، التي غرقت في الاستماع إلى تلك الموسيقى المتصاعدة، انتبهت وقالت: الآن. اقترب فالوديا فولكوف ودعاها للرقص.

"هيا بسرعة"، قالت، لم ترد الانتظار حتى يفك أزرار معطف الكاردينال الذي يرتديه، حينها وضعه حول رقبته في عجلة، مثل شال.

كان فالوديا فولكوف طويل القامة، عريض الكتفين – وسيم. لهذا السبب لم تصادقه مارينا، وعندما يوجه سؤالاً إليها، تجيب باختصار وحدة. لكن تحت تأثير ذلك اللحن الشرقي، اختلف كل شيء. أطلقت يداه المحيطتان بخصرها، تيارًا من التوتر المزعج. يملك فالوديا أكتافًا لينة، ربتت عليها مارينا من تحت المعطف. لم يكن حتى الزغب الموجود فوق ذقنه مضحكًا، مثل غيره من الشباب. امتنع جسدها بكامله عن تراخ محرم محتمل. صار من الواضح أن الجمال ليس بالأمر المخجل على الإطلاق، بل هو أمر رائعٌ. كما أنه من الجيد أيضًا أنت تكون الموسيقى بديعة. أمر يدعو للبهجة أن ترقص على هذه الموسيقى الفاتنة بصحبة هذا الشاب الفاتن فالوديا فولكوف. رائع، على العموم، أنه شديد التأنق. وهذا يجب أن يكون له معنى. ربما، هناك معنى خاص جدًا في هذه الخطوط الدقيقة وفي وجهه، في العيون الكبيرة اليانعة، في تلك القوة، الهادرة بمرح في كل أنحاء جسده، والتي تلزم بتحريك الرأس، رفع القدم، الابتسام. فجأة، أدركت مارينا أن هناك سحرًا غامضًا يكتنف رفقة فالوديا فولكوف – كأنهم التقوا مصادفة في مكان خاص،

محرم على الفقراء الهالكين. أسلمت يدها طواعية ليده، ليضمها أكثر وأكثر. فكرت، ربما لا، هذا اللحن الشرقي أحدث صدى في رأسها: "تمنيت لو كان بإمكاني أن أتذوق هذا معه. الآن! سيكون سرًّا. وسيغادر المدرسة". دنت بوجهها نحو وجهه. في تلك اللحظة، انعطفا مع الرقصة. مارينا، كأنما هناك من نادى عليها، رفعت عينيها – انغرزت عيناها، مثل رقاقة جليدية، من أسفل قبعة مثلثة عريضة. ارتجفت. قال فولكوف، الذي أخذ الأمر على نحو شخصي:

– آسف. دهست قدمك.

نظرت الراهبة إليها على نحوٍ، بدت معه مارينا في قلب هذا الهدوء المفاجئ كأنها تحكي في العلن ما، كان يجول بخاطرها الآن. هذا الخاطر المخجل كاملاً– بكل تفاصيله، – كما بدا في تلك الرؤية. بعد مرور ثانية، تعرَّفَتْ مارينا، بوضوح، أمَّها، وقد كانت تلك الثانية كافية كي تمنح حياة لهذه الصورة وتخلق وجودًا مستقلاً. رقصت حتى اكتفت، مثل دمية خشبية، في مدى مدبر ثم جلست على أحد الكراسي المتراصة على طول الجدار. توقفت أمها عن التطلع إليها، وأكملت نيابة عن أبيها نهايات النكات المنسية. تمسك غطاء رأس ساكن الدير في يدها الآن، وتعاملت معه كمحب عاشق. حملت الآخر مدرسة الجغرافيا، بينما تتفحص طريقة حياكته. شعرت مارينا بالحر، كأنها ابتلعت موقدًا مشتعلاً، ولكن عندما اقترب فالوديا وسألها، عما إذا كان كانت في حاجة لشرب الماء، أجابته بجفاء، كلا، وشكرته، ليست بحاجه لشيء، وكان رده بالحمد لله، وانسحب. كررت مارينا لنفسها وهي تشعر بالرعب: "كيف تجرأتِ– أن تفكري بهذا! .. " – وعندما تردد صدى الموسيقى الهادئة مجددًا، نهضت وذهبت إلى التواليت. الأنابيب الصدئة

المعوجة، الأبواب؛ حيث يتسلَّل الفتيان في أوقات الحصص، ينقشون كل صنوف البذاءات، القذارة، إضافة إلى روائح الحمامات الكريهة، كل هذا بدا لها لائقًا بفتاة مارقة. والمشهد الذي يعكس ببرودة ما، كل ما لم تكن مارينا تتمنى أن تراه، لكنه لاحقها حتى هنا. استقرت هناك، حتى تلحق بها أوليا، التي ظلت تسألها طيلة الأمسية بهمس تراجيدي:

- هل أساء لك؟

لم تقل لها أمها شيئًا.

بدأ موسم الإجازات- عقدوا العزم على السفر إلى سوتشي[١]. عند شراء المايوه، كان اختيار مارينا الأسوأ، يشبه معطف ديكولتيه[٢]، حتى إن أمها، التي شعرت بالصدمة، حاولت أن تثنيها عن هذا الاختيار، وعرضت عليها اختيار مايوه أفضل - أكثر مرحًا. على مدار أربع وعشرين ساعة، أرهقوا روحها بنظرات ثاقبة، باردة، قاسية. لم تتجرأ مارينا حينها على ارتداء مايوه مفتوح - ولم تملك واحدًا يومًا.

اليوم، بينما تقضي عطلة نهاية الأسبوع في سوق الملابس، غالبًا ما تتذكر حكاية شراء المايوه. في السوق، المعروف بين الناس باسم "زحمة"، هناك مكان مخصص لها قبالة بائعات المايوهات. سيدة، مثلها، لا تملك أن تدفع، أو بالأحرى لا تريد، مبدئيًا، أن تدفع مقابل مكان داخل السوق. الأمر مع مارينا مختلف، فبضاعتها من الفساتين المشغولة لا تُهِمُّ أحدًا، في حين تبيع

---

(١) مدينة شاطئية روسية على البحر الأسود.

(٢) كلمة فرنسية تتعلق بموضةِ الملابس النسائية، وتخص الجزء العلوي من الجسد، الرقبة، الأكتاف، الظهر، والجزء الأعلى من الصدر.

السيدات الأخريات بضائعة شعبية رائحة، و"سلطات السوق" المتمثلة في شباب أشداء يرتدون الملابس الرياضية ماركة "أديداس"، يطردونها من السوق على الدوام. يطالبونها إما بدفع مقابل شغل المكان وإما الرحيل لمكان آخر.

– كأن هذا ما ينقصني! رجال العصابات! عشت وسط من شملهم العفو رقم ٥٣، سأعيش، وأبقى بعد رحيلكم!

تملك رؤيتها الخاصة للأمور، ليس من السهل إقناعها. بمجرد أن ترى أحذية "أديداس" تتحرك صوبها، تلقي بالشماعات في حقيبتها وتغوص وسط طوفان البشر. تعود للظهور بمجرد أن يرحلوا، بعد أن يتطلعوا بتململ طفيف إلى التجار والزبائن، ثم يستقلوا سياراتهم التي كتب عليها "الإدارة". وقد درست مارينا منذ فترة طويلة بضاعتها، ومع كل زبونة تقترب منها بنية شراء مايوه، تنصح بموديل معين يناسبها. تتفحص الزبونة، أيضًا، المهتمة بالشراء الفستان المشغول الذي صنعته مارينا بيديها، لكنها لا تُبْدِ اهتمامًا.

– من الصعب أن تتمكن من بيع بضاعتها. قالت في إحدى المرات، في أغسطس. – انظري، ستظلين واقفة حتى حلول الخريف. لا يهون علي ما أنت فيه، أشعر بالأسف حين أنظر إليك، لو أمكنني، لاشتريت منك شيئًا، تقفين هنا بلا طائل طيلة العطلات. تطلبين ما هو غالٍ.

منذئذٍ، كلا – كلا، نعم، لا تكف عن الحديث عن هذا: في أغسطس، يقولون، إن البضاعة المشغولة لا تباع، وإلا كان بإمكاني الشراء، لكنها مرتفعة السعر. لو أن مايوهاتها تطير منها قطعتان في كل ساعة. ربما انتقلت مارينا إلى مكان آخر، ولكن هذه القطع ذات الألوان المبهجة – هي الترفيه الأوحد وسط هذا الهلام البشري المتأجج، الذي يحاصرها. عجزت عن الاعتياد. أمر يشبه كارثة عالمية. في الماضي، لم تلاحظ أي شيء

مماثل. على نفس المنوال، كانت تضطر إلى انتظار الأتوبيسات لأوقات طويلة، والانتقال بذات الطريقة، تتعرض للسحق والاختناق. ما لم يحدث أبدًا في السابق - قبل الانهيار- أن وصل الهوس إلى هذا الحد، أن يتغلغل انتشار الحشود على هذا النحو. كانت هناك طوابير متصارعة مخبولة، لكن كان بالإمكان تجنبها. صالات ديسكو مثل برطمانات الرنجة الراقصة، لم تكن ترتادها. كان من السهل التحايل على الحشود والسير بجوارها، وهز الرأس باندهاش. اليوم، الحشود في كل ركن - أكون في الحشد أو لا أكون، مسألة الاختيار غير مطروحة. إنها بلا نهاية. إجمالية. البشر كأنهم مجرد تسريبات من صناديق عالية السرية للوطن، تم اكتنازهم، بواسطة آلات تعبئة حشود خاصة وُضعوا في أنحاء المدينة في طبقات صلبة نادرة الانفجار. وبمجرد الانتباه إلى هذا الوجود المتواصل في حياتها لتلك الحشود البشرية المشوشة، أدركت مارينا بشكل واقعي، أن هناك أمرًا جللاً وخطيرًا جرى في البلاد. بدأت تتطلع فيمن حولها، - إلى كافة الوجوه، التي تكاثفت يوميًا حولها، حتى في الجامعة، رأت سمة عامة مدهشة. التهبت قلوب الجميع برعشة غريبة. انشغل الجميع بشيء ما، ركضوا في اتجاه ما، فاتهم شيء. تطلعوا، كقطيع بشري، تجمع للسير في طريق شاق خطير، يحفه صخب، استولى على أرقى المواضع في النظام العام، بإدراكٍ مبكر للهلاك المحتوم. حالة هؤلاء البشر، الذين يعيشون في انتظار لا نهائي، يعدون خططًا أبدية، بدت متناغمة على نحو كامل مع تلك الترانيم العاجزة لمستقبل قريب مشرق، أنجزته السلطات الروسية. إنها، مع مراقبتها لهم، عجزت أن تصدق بأي شكل، أنه من الممكن أن يكون لدى هؤلاء البشر المرعوبين المخدوعين بالحال، مستقبل مشرق. وامتنعت عن تأمل تلك الوجوه تحت دعوى عدم جدوى البحث ذاته. النجاة واجبة، مثل الجميع، لكن، أين اتجاه باب الخروج، عجزت مارينا عن

التوصل إلى إجابة. ظلت تنتظر، لبعض الوقت، إجابة من ميتيا، بكل عناده النبيل، رأى أن الانهيار مصير محتوم، مثل حال حشود الدهماء. وأدركت مارينا، أن عليها أن تخوض الصراع بمفردها.

حسب القوانين المصطنعة للحشد، كلما كان الحشد يابسًا، عاجزًا عن الحركة. الأسوأ على الإطلاق، أن يتوقف تياره عن التدفق. الأتوبيس الذي يتحرك بصعوبة بالغة، مكتظًا بالركاب، كانت أحشاؤه مفعمة بالحركة. هناك من تحرك نحو باب الخروج، مصحوبًا باللعنات، أو التنهيدات، آخر، فرد كوعيه وساقيه قدر ما يستطيع، محاربًا لتأمين مساحة ولو بسيطة للبقاء حيًا. تطلعت مارينا نحو النافذة عبر ثقب لاح من بين عظمة الوجنة لأحد الركاب وحقيبة تعلقت على العارضة.

انسابت نثرات من الشارع – طابور ممتد من أسطح المنازل، الأعمدة والأشجار. تصبب العرق من اليد الممسكة بالعارضة، ونملت الأصابع. تغيير الوضع بدا مستحيلاً، لأن راكبة على الجانب الآخر تمسك باستماتة شنطة بها فستان على ظهر المقعد. انسابت الأسطح. نملت اليد.

من بعد شاسع، مجددًا، لمحت الظلال البريئة بداية، إلا أنه مع العودة الكاملة البهية، طفا على السطح طوفان من الأفكار. "لا تتجرئي! لا تفكري في الدب! " هذه العبارة، التي قرأتها في كتاب عن الكيميائيين وفي البداية، قبل أن يحدث شيء، تذكرت ضاحكة العبارة المرتبطة به، ثم أصبحت بلا معنى، لم تعد تثير ابتسامة مارينا. إن تحول الرصاص إلى ذهب، وفق الوصفات الكيميائية، أمر محكوم عليه بالفشل حتمًا: ضع هذا وذاك، قس بهذا القدر، وذاك، امزجهما هكذا، وبهذه الطريقة، لاحظ لون اللهب واتجاه ضوء الشمس، الأهم – لا تنس بينما تقوم بكل تلك التحايلات، ألا تفكر في الدب.

ذكر أن اسم عائلته لو ترجم، لبدا هكذا، مثل ميدفيديف، ميدفيد، أما مارينا، في ذات اليوم الذي سمحت فيه لنفسها برغبة محرمة في هذا النرويجي، فكرت حينها: "كان من الأفضل أن أصير دبة؟ لا تفكري في الدب!".

ذهبت مارينا اليوم إلى السوق يحدوها أمل. اقتربت منها، يوم الأحد الماضي، عجوز تتمتع بصحة جيدة، تفحصت الفستان بهمة، قلبته، مرت على الخيوط بأصابعها التي غطاها طلاء أظافر أحمر اللون.

- سأشتريه يوم السبت المقبل، إن لم تبيعيه، - وعدتْهَا العجوز. سأحضر قرب ميعاد الغداء، عندي تمرينات أيدكيدو منذ الصباح.

اليوم، وربما لهذا السبب، رحلت إلى السوق متأخرة نسبيًّا، مفعمة بالأمل. فقد صرفها تذكر تلك السيدة العجوز التي كانت تضع طلاء الأظافر عن التفكير في الدب، وشرعت تعدد أوجه صرف عائد بيع الفستان. ربما، ستنفق النقود في ذات المكان، السوق. ستبتاع لفانيا قميصًا، صندلاً - أو يبدو أنه من الأفضل، شراء حذاء للخريف- يجوز، شراء بنطلون جينز، فقد ظهرت عدة موديلات من الجينز في السوق للأطفال. لم يعد لديها قدرة على إعادة تفصيل أو رتق الملابس. يرتدي الطفل ثيابًا مرقعةً. يقول ميتيا أنهم سيؤجلون صرف الراتب خلال هذا الشهر مجددًا. وهو ما يعني، أن الحصول على المبلغ كاملاً سيكون أمرًا صعبًا، وبالتالي سيحصل عليه على دفعات صغيرة وعلى مدار عدة أشهر، سيلتهم نصف المبلغ وحش غير مرئي، مثل فيروس، لا يعرف الشبع - التضخم. وفي الآونة الأخيرة، حقيقة، تنازعوا، على كيفية تسميته، على النحو السليم: التضخم أو التضخم المفرط. ربما، من مصلحتهم أن يسددوا الرواتب بهذه الطريقة - ويقولون، إنهم تمكنوا من تدوير أموالهم مرتين وثلاث مرات في أحد البنوك التجارية.

ميتيا، رغم هذا، كان على ثقة من أن هذا ليس سوى مجرد احتيال. "ماذا يعني - تدوير؟ إنها نقود، أموال، وليست لحمًا مفرومًا أعد لعمل الكفتة! من سمح بهذا؟ كيف هذا - استخدام نقودي نيابة عني، وضعها في البنك، ومن ثم إعادته إلى الخزينة- ماذا عن التوثيق؟" تحتم علينا مجددًا أن نقبل ما تأتي به أمي. فلا مفر، علينا أن نطعم فانيا. أجل، ميتيا، السماح يا رب، يملك الحق أن يتعصب، أن يصحو من النوم في وضع لا إنساني، حالة خلل تام في الشهية. مارينا ترفض أن تكون مديونة لحماتها. مستحيل. عليهم إعادة كل ما تقدمه لهم، في الوقت المناسب. لا تعلم مارينا إلى الآن، من أين لها بتلك النقود، الأهم - أن تعلم حماتها تمامًا، أن مارينا ستسدد هذا الدين، دون شك، حتى آخر كابيك، ولن تكون مديونة لحماتها. وبعد أن اكتشفت أنها فقدت كراسة الملاحظات، التي سجلت فيها مديونيتها لحماتها، انتابها الهلع، كأن روحها سرقت منها. مستحيل، لا ترغب لأي سبب أن تكون مديونة لتلك المرأة الغامضة، الغريبة.

عندما أخبرها ميتيا، أنه يشعر بالغربة في روسيا وأنه مختلف، "ليس روسيًا"، أنصتت جيدًا، ولكنها تصورت أنه ربما يلهو مع نفسه بلعبة خيالية. وربما يحاول المداعبة، ببراءة. قررت: فليكن، أي، ربما يجد في هذه اللعبة ما يسليه حقًا، هذا مهم. في الأخير، فهو يعيش واقعًا، قطع الحبل السري بينه وبين عالمه الذي اعتاده، منذ الطفولة. لاحقًا، انتقلت سفيتلانا إيفانوفنا للعيش بشكل دائم معهم، بعد أن باعت شقتها بسعر سيارة زاباروجيتس، وهكذا صاروا يعيشون معًا. سرعان ما لاحظت مارينا بقدر من اليأس، أن كل ما كان يقوله ميتيا، - ليس سوى الحقيقة. ترعرعت تلك البذور في حضور أمه، فقد صار "مغايرًا" تمامًا، أجنبي، غريب، غامض، يعيش هنا، لكن ليس

تمامًا، كأنه ضيف. لا يحتفظ بشغفه حتى النهاية، لا يصل للعمق. لم تعد لديه أية رغبة حقيقية في تحقيق شيء – كأنه في الغد سيغادر في كل الأحوال. أنكر كل ما حدث مع الآخرين، على نحو أكثر حدَّةً منها. أطلق على هذا مملكة بابل. وكأنه يريد الانتقام من شخص ما، فقرر ببساطة الوقوف على شاطئ الفوضى، عاقدًا يديه على صدره، وظل يراقب. الكتب فقط. الكتب الشيء الوحيد الذي لم يكن ممكنًا فصله عنه. انتقامًا، في مكتبة الجامعة، أحضروا صندوقين من الكتب، التي كانت محظورة قبلاً. قرأها جميعًا. حتى في ذلك اليوم الدموي، عندما قال فانيا الذي لم يتجاوز الخامسة: "أمي، هل من الممكن ألا نأكل اليوم الشوفان؟" – ذهب إلى مختبره بصحبة كتاب. فتح كتاب بونين واختفى في دروبه الظليلة[١]. تنهد سعيدًا: "نعم، ها هي الروسية الحقة". كان هذا بمثابة إهانة لها. ليس ضعف ميتيا. كان بإمكان مارينا أن تغفر لها. فهي تستوعب هشاشة ميتيا، لم تعتبر هذا مبررًا للومه. حتى في السرير– لو صحت التسمية– عندما حاولوا بهدوء، على طريقة الفئران (حتى لا يزعجوا فانيا وسفيتلانا إيفانوفنا من وراء الدولاب) الاستمتاع بنشوة الجنس، لكن شيئًا من هذا القبيل لا يحدث غالبًا، من جانبه. حينها: بعد أن تلتقط أنفاسها وترفع قميص نومها من الأرض، تهمس في أذنه: "ربما في وقت لاحق"، – بينما هو، مثل طفل، يضع رأسه فوق كتفه. لكن هذه السوداوية النبيلة ورعبه "الشخصي" من التدنس من هذه الحياة الجديدة، إهانة. الجميع حولنا نجوا، بقدر استطاعتهم، بحثوا عن عمل، عن مال، نقبوا في أكثر الأركان سوادًا. فلنفترض أن مارينا لا تؤمن بمستقبل كل هؤلاء، لكن من أجل يومهم، يجب منحهم ما يستحقونه، حاربوا باستماتة. حتى تريفونوف

---

(١) مجموعة قصصية لإيفان بونين ترجمها للغة العربية عبد الله حبة.

افتتح جمعية تعاونية لتوريد الأخشاب. لكنه لم يستدع ميتيا. لا يزال يهوى أن يحدث ميتيا، كما في السابق، عن تكلفة المؤهل الذي حصل عليه والطلب المتزايد على خبراء علم البيئة المؤهلين. حاول ميتيا جاهدًا أن يعثر لنفسه على مكان، لكن بدا جليًا، أنه يفعل هذا ببرود، فقط لأنه، بمثابة تأدية واجب، وهو ما لم يكن كافيًا، سوى لفترة قصيرة. في كل محاولاته، لم يخطُ أبعد من الخطوة الأولى. من المحتمل، أنه من أجل أن تبرهن لنفسها ولميتيا أن الوضع ليس بهذا السوء، قررت أن تذهب إلى السوق طوال هذا الشهر. تعود صفر اليدين يوم السبت، ويوم الأحد تستيقظ في السادسة والنصف وتقصد السوق أيضًا، إلى ذات الهلام البشري المتأجج.

طار الأتوبيس حتى محطة النهاية وانفتحت أبوابه كلها فورًا محدثة صريرًا يائسًا – محطة النهاية. كانت الأماكن أمام باب الخروج مشغولة. وقفت سيدة في مكانها المعتاد تحمل في يدها مايوهات. لوحت لها بيدها كرفيقة طيبة: تعالَ هنا.

– هل أحضرت الفستان معك؟ سألتها.

– نعم.

تنهدت السيدة، وقالت:

– هَل أشتريه بنصف مليون؟

تطلعت مارينا متعجبة. لقد حددت سعرًا للفستان لا يتجاوز مائتي ألف، وهو رقم كبير بالفعل. من النادر أن تجد مشتريًا يحاول أن يرفع السعر، بمقدار خمسة – عشرة آلاف. فاصلت السيدة لفترة طويلة، وقد نست أمر مايوهاتها، وذكرت، أنه حلم راودها منذ الصغر أن تمتلك مثل هذا الفستان.

لدرجة أنها تعلمت شغل الإبرة خصيصًا، لكنها فشلت، يدها لم تخلق لهذا. لكن مارينا رفضت أن تخضع بعناد رياضي حاسم.

توصلا إلى اتفاق، ستمائة ألف، أخرجت السيدة رزمة، من أسفل تنورتها، يبدو، أنها جهزتها سلفًا، وأثناء انشغال مارينا في عد المبلغ، أخفت النقود عن أعين المتطفلين. تصرف عاقل تمامًا. بجانب النشالين المحترفين، ممن يعرفهم جميع الباعة بمجرد النظر لكنهم يمارسون أعمال النشل بنسبة كبيرة مع الزبائن، في "التواليت" يتاجر الهواة المشردون، المخمورون لأجل في سبيل نيل الشجاعة، والأكثر توحشًا في "التواليت" - الغجر. الغجر هم الأبشع بين الجميع. بعيدًا عن "التواليت"، في سيارات فارهة كبيرة قذرة، يجلس الغجر يرتدون الذهب- في حراسة رفاقهم. لم يجرؤ حتى الفتيان الأشداء في الملابس الرياضية الذين يستقلون سيارة كتب عليها "الإدارة"، على طردهم من السوق. توصلت الغجريات إلى طريقة بسيطة وقاسية لكسب المال هنا. يقفن أمام تواليت السيدات، ينتظرن، حتى تأتي إحدى السيدات، وحبذا لو كانت بمفردها. إذ تسارع إحداهن للدخول في أعقابها إلى التواليت، تستوقفها وتخبرها أن جميع الأماكن في التواليت مشغولة: أترين، إننا أيضًا نقف في انتظار أن يخرج أحد. تفتش الضحية واضعة سكينًا حول رقبتها، ودون أية طقوس، تستولي على ما لديها من نقود، ذهب، ثم تتركها في هدوء، وأثناء وقوف الضحية المنتحبة عند المدخل، يختفي أفراد تلك العصابة. ذات مرة، رأت مارينا، كيف يقف الغجر أمام التواليت، وقد ارتفعت صيحاتهم المبتهجة، وتبادلوا العناق مع آخرين منهم - ربما، معارف مشتركة فرقت بينهم الأيام لفترة طويلة. انتهوا من مراسم تبادل التحايا، وشرعوا في الثرثرة. كان من السهل تخمين طبيعة الحوار، من خلال نبرات الصوت والإشارات. كيف حالك وماذا تفعلين؟ في كلام الغجر الهائج -

الصاخب المتباهي – تتكرر دومًا كلمة "الابتزاز". يقولون، إننا نمارس الابتزاز. مهمة جديدة. رابحة. انظر، كيف صار كل شيء.

بعد أن أصابت الدهشة مارينا، عدت النقود وخبأتها، طلبت السيدة منها مطلبًا جديدًا:

– اشتر مايوهًا من عندي. أعرف أنه أعجبك. سأعطيك سعرًا مريحًا.

فاجأت الضربة مارينا.

– سيستمر الطقس على هذا الحال طويلاً. ربما تسافرين لمكان ما. وفي الموسم القادم، من المرعب مجرد التفكير في، سعره! هل هذا يناسبك أم ذاك.

تطلعت مارينا في الحمالة الدوارة أمام عينيها، الأكواب، المايوهات البيكيني – سرحت مجددًا في أمر محرم: نظرته إليها وهي ترتدي المايوه، ابتسامته، كيف ستبدو، قطعة من الشوكولاتة على الرمال، ما قد يقوله شخص يقف بعيدًا: "يا لجمالهما". لكنها استعادت سيطرتها على نفسها، ودعتها بحسم، وتحركت صوب محطة الأتوبيس.

تذكرت، أنها حتى في بداية علاقتها بميتيا، وقت اشتعال جذوة الحب بينهما، لم تفكر أبدًا، بهذا الشغف، كيف يبدوان في أعين الناس، معًا، لم يجتحْ روحها مثل هذا الشعور قبيل استهلال الرحلة، ما إن تخيلت نفسها تقف إلى جواره. مع ميتيا، لم يكن الأمر هكذا، كان مغايرًا. كلا، لم تختره برأس بارد، مثل دزيرجينسكي[1]. شيء فاتن ومض وتلألأ في الروح، قررت

---

(١) فليكس دزيرجينسكي، الذي أطلق عليه دزرجينسكي الحديدي، وهو أحد القادة والثوار البلشفيين، توفي عام ١٩٢٦.

مارينا: أجل، إنه هو - وتحركت طواعية نحو تلك النيران. الآن، على نحو مفاجئ، بدت هذه المشاعر الهادرة باهتة مثيرةً للشفقة. أجل، أين ذهبت؟

ربما احترم كريستوف ذوقها. وصفت نفسها بالحمقاء، وذكّرت نفسها بابنها، وأسرعت الخطى، كأنها تحاول الإفلات من المراقبة.

- كفى!

لاحظت مارينا، عند المنعطف، وهي تقف أمام الترام، القادم تزفه أجراس وجلجلة، أن ثمة من يراقبها. تمشي في أعقابها غجرية عجوز بدينة من السوق، إضافة إلى فتاتين صغيرتين، في العاشرة من العمر، وقفتا ليس ببعيد، تتطلعان نحوها تارة، وتارة أخرى إلى العجوز التي تطارها لاهثة. تذكرت مارينا أنها عليها أن تعبر نفقًا مظلمًا تحت الأرض، سرت في ظهرها رعشة الرعب. هل تركض؟ خطر ببالها فجأة، أنه ربما يكون لهذا تأثير كارثي على حذائها المهلهل. استدارت جهة اليمين، نحو شارع مكتظ بالبشر، وعرجت على نحو غير متوقع، في مفاجأة لها شخصيًا، إلى محل الكوافير.

أهلاً بك، تفضلي، - دعوها للدخول. - ما طلبك.

أريد أن أقص شعري، قصيرًا، - قالت، بينما تجلس على الكرسي- وصبغت شعرها.

- أي لون؟

- أشقر. شقراء تمامًا، - وفكرت: "ترى، ماذا سيقول؟".

لا داعي للتفكير في هذا الأمر! ماذا سيحدث؟! ما مغبة كل هذا؟! ميتيا، فانيا، فانيا، ميتيا. الموقد؟ كان عليه أن يظهر في الأفق، بمجرد أن ذبلت نار الموقد وصارت أية أفكار متعلقة بإنقاذ ابنها غريبة، وتجمدت مثل

لعبة الأطفال "توقف، تحرك"[1]، نظرت إليهم، مذهولة، لا تصدق، أنها تملك الجرأة أن تقدم على فعل هذا بتلك اللامبالاة. لا تصدق عينيها، أنها صارت هكذا، التي في المرآة، - جاهدت مارينا حتى ترى نفسها من كل الزوايا. انقلب كل شيء رأسًا على عقب، وخرج عن السيطرة. وسط هذه الفوضى، شيء واحد ظل جليًا كالشمس: إنها تريد أن تبقى معه. ذهبت إلى الكلية قبل نصف ساعة من بدء يوم العمل، مشت بلا هدف على طول الأرفف التي تراصَّت فوقها المجاهر التي تقوست رقابها غير القابلة للصدأ، بدلت القوارير، التي انسكبت عليها، شمس الصباح الزاهية، وفق قواعد علمية صارمة. ألقت عند قدميه صينية عليها زجاجات وحذرته ألا يجرؤ على التحدث معها حول هذا الموضوع. في كلية الجغرافيا، تحدثوا معها، ليس بخصوص هذا الأمر، ولكن مارينا لم تكسر الزجاجات. وقف كريستوف، واضعًا راحتيه فوق رأسه: "أستسلم، أنا أستسلم" – ثم ابتسم. ابتسامته، ساطعة، مثل كشاف ضوئي، ذات نفوذ عليها. جذبتها دائمًا تلك الابتسامات- أسنان، جديرة بالجنة. في الماضي، كانت تنال إعجابها في الأفلام. أدركت – من يملك مثل هذه الأسنان، يبدو إنسانًا جديرًا بالثقة، شريفًا: أترين، أنا شفاف، ما بي من شيء، أخجل منه، حتى في فمي. بصرف النظر عن عدم رضاها عن كريستوف، إلا أن ابتسامته لا تقاوم.

على صخب ارتطام الزجاج المكسور المتطاير، دخل سي سي، عميد الكلية الدائم. نظر إلى كريستوف، إلى الشظايا، رفع حاجبيه القصيرين.

---

(١) لعبة يشارك فيها مجموعة من الأطفال الصغار، يختار الأطفال قائدًا للعبة، ومثل المدرس أو المدرس في دار الحضانة. يقول القائد "تحرك"، فتبدأ حركة الأطفال، ثم عندما يقول "توقف"، على الجميع أن يتوقف فورًا، من لا يتوقف، ويواصل الحركة، سيخرج من اللعبة، تنتهي اللعبة بعد خروج الجميع من اللعبة، ويفوز بها آخر شخص.

- عذرًا، سأنظف المكان.

- أجل، على شخص ما أن يفعل. ثم تطلع عميد الكلية إلى مارينا. القارورات ليست بالقليلة.

لم تحرك مارينا ساكنًا. وقف عميد الكلية لبعض الوقت، يحدّق باهتمام، كيف يجمع منسق المشروع، البروفيسور، النرويجي، الزجاج على الجاروف، بينما تفحص فنية المختبر شيئًا على المجهر، ثم انصرف مشغول الذهن.

راجعت مارينا صامتة الكتل الفيزيائية وتكافؤات اتحاد الذرات وفحصت بتركيز في عدسة المجهر، الشمس المنغمسة في المستطيل، الذي ترصع بدرجات ألوان مختلفة، إبر، مكعبات من البلورات. جلس كريستوف يقرأ على مكتبه، ومن وقت إلى آخر – ترى مارينا صورته المنعكسة في مرايا المجاهر الأخرى – تبتسم. ساد صمت هش ضاعف من صدى أبسط الأصوات الذي تردد ليملأ الغرفة: حفيف الصفحات، طرق صوت الشرائح الزجاجية على المعدن، خطوات متثاقلة على طول الممر الطويل – الممتد في الطابق السفلي. العمل أعانها على النسيان. لاحظت مارينا، على أية حال، أن العمل بصفة عامة، الذي يجري حولها، كان ضروريًا، ممن يقومون به، كنموذج أساسي، كي تتبعه، لتشغل نفسها بشيء. دفعت الكلية الرواتب من وقت إلى آخر، ولكن واظب العاملون على الحضور كل صباح. تبدأ المحاضرات كل يوم في الصباح، وفي المختبرات، تجدهم يزنون شيئًا، يقيسون آخر، شيء يتحلل، شيء يطحن ليتحول إلى مسحوق. تدحرج كل شيء من تلقاء نفسه. الجميع في حالة انتظار. لديهم خطط لا نهاية لها. خطط إكلينيكية نابوليونية. أما كريستوف، الذي لا يحكي أبدًا بأعين ملتهبة، عما ينوي فعله، كي يصير غنيًا، يقوم بعمله كما ينبغي، بذكاء وثبات، بدا في

أعين زملائه في القسم تافهًا تمامًا. صور حية ترسم قانون القصور الذاتي، تُدفع نحوها بفتور أسود. وبسبب هؤلاء البشر في ملابس هالكة، السائرون في الممرات الشتوية، المتكلمون بكلمات عبثية، لا قيمة لها، المنشغلون بأعمال لا طائل منها، ولا تفيد الآخرين من البشر، لم يقود الطريق سوى إلى سرداب. خشيت هذه السترات المتدلية والكعوب البالية. الركض كان مرعبًا لمجرد التفكير بأن هناك من دفعك ذات مرة. في منتصف الليل، خاصمها النوم، فقزت كأنما سقط حجر على رأسها. اختفت خيوط الضوء.

تطلعت مارينا إلى صناديق العينات، والدواليب المكسورة، وعظام الأركيوبتركس[1]. أغلقت وفتحت عينيها. بقيت الصناديق، الدواليب، عظام الأركيوبتركس كما هي في أماكنها. سيغادر في غضون شهر، أما هي فستبقى وسط كل هذا. تفتح وتغلق عينيها - ستصل حياتها إلى محطة النهاية. أما هنا فسيبقى كل شيء، كما كان من الماضي: صناديق العينات، الدواليب المتهالكة، وعظام الأركيوبتركس. ستبقى العظام ولن يصيبها شيء. فقد مرت بأكثر الأحداث بهجة وأكثرها رعبًا منذ ملايين السنين.

كان الأمر في البداية مغايرًا. شعرت، أنها الأفضل، عند الخروج للطريق، محاطة بالغرباء. وهو ما جعلها تشعر بقلق شديد. لكن عندما أعطوها إشارة البدء، تمكنت فجأةً من رؤية، شخص ما لاح في الأفق على خط النهاية، شخص ما يمشي بامتداد المدرجات، رافعًا يده تعبيرًا عن الانتصار، بشر يصعدون بثقة فوق المنصات. وما إن عبرت، بخفة ورشاقة، خط النهاية، دفع الريح في المدرجات، الجرائد المهملة، ونظف الحارس الممرات.

---

(١) تعني الجناح القديم، وهو ديناصور يشبه الطائر.

- اسمحي لي أن ألفت نظرك، ماريا سيرجييفنا، فقد تصرفت بطريقة غير حضارية، قال وهو يغلق الكتاب. - كلا. غير متحضرة، أليس كذلك؟

- ماذا تريد، كريستوفر مايكلوفيتش، إذا كان نطقك هذه الكلمة باللغة الروسية يبدو إشكاليًا. بالنسبة لك ، كريستوفر مايكلوفيتش.

- تفهم الدعوة للذهاب إلى مطعم على أنها أمر شائن! ومن المؤكد أنه لا يجب إخفاء شيء عن زوجها.

- الدعوة الثامنة والأربعون، بعد رفض سبع وأربعين دعوة سابقة، يبدو تصرفًا غير لائق، كريستوفر مايكلوفيتش، حتى لو كانت هذه الدعوة لمجرد الجلوس على الأريكة.

لم تكن هناك أية متعة. فقط سخط.

أنهت الدراسة في المدرسة حاصلة على تلك الميدالية الذهبية اللعينة، التي تطلع إليها الجميع بشغف. كما درست في كلية الجغرافيا بإعانة مالية كبيرة. في مستشفى الولادة، مارينا، المحاطة بتأوهات وأنفاس نساء في المخاض، استدارت نحو الجدار وغاصت في الأحلام. لم ترد أن تسيطر عليها هذه الحالة المزاجية، وهي تسمع تأوهات وسط الغم. وقفت الأحلام في أقواس النصر. نظارات بأذرع ذهبية وبدل مهنية صارمة. "ماريا سيرجييفنا، هل ندع السائق يرحل؟" أم شابة تتأبط ذراع ابنها الشاب البالغ الفاتن. كل ما كان حولها يوحي بقدوم انتصار. تحطمت براعم النصر على الأسفلت وتناثرت بنعومة. من بين كل الكلمات، التي جاهدت أن تفسر بها تلك الحياة الجديدة، انتقت مارينا كلمات كلاسيكية، بسيطة، واضحة، تناغمت على نحو جديد، مثل خاتم أزيل عنه التراب: نجاح. عالم ناجح. سياسي ناجح. رجل

أعمال ناجح. شركة ناجحة. رجل ناجح. عائلة ناجحة. نجاح نادر، لكن لا يخلو من سحر: امرأة ناجحة. كان تصورها، بالتأكيد، عن طبيعة النجاح بالنسبة لها غامضًا، لكنها كانت على استعداد لخوض معركة كبرى.

ماريا سيرجييفنا، أعدك ألا أطلب منك بعد الآن الذهاب إلى مطعم- قال بعد ساعة من صمت ثقيل- اسمحي لي علامة على المصالحة أن نذهب لشراء التورتة.

- هذه حقًا محاولة صريحة مُرضية لإغرائي بالطعام، كريستوفر مايكلوفيتش.

كان بإمكان، هذا الأستاذ النرويجي الشاب، أن يخمن أنها كانت لتوافق أن تصحبه للمطعم، لولا أنها لا تملك شيئًا مناسبًا ترتديه. كريستوف، بدا بالتأكيد، مخادعًا، عندما قال إنه ما من شيء هنا يمكن إخفاؤه عن زوجها. يملك درجة كبيرة من الدهاء. تعيش في هذا الجسد الخالي من الدهون شخصية الراهب تاك[1]. بينما تخيلت هي أن الأوروبيين الشماليين ريفيون. من الغريب أنهم ريفيون وصامتون.

ذهب كريستوف إلى المتجر لشراء التورتة. فارت الغلاية في هذا الهدوء المحكم. سحبت درج الطاولة، وفيه كما هو الحال دائمًا في المطابخ جلجلت الشوك والملاعق، وتدحرجت الأكواب.

- تعرفين، أفكر في عدم القدوم إلى روسيا بعد الآن ، و...

لماذا؟

---

(١) أحد رفاق روبين هود.

- خطر. خطر. خطر. لكني عثرت عليك و... الآن من ينقذني؟ حسنًا، لا تقاطعيني. أجل. سأظل أتذكر هذا الصندوق طيلة حياتي.

- هكذا؟ صندوق الأطباق؟

- هذا يليق بشيطان. بلا، تفاصيل. أتفهم؟ يجب الاعتراف. ها هي القارورات، أجل. هذه المجاهر، التي صُنِعَتْ عام ١٩٣٢، صحيح. كل ما تراه حولك: المراجع، العينات، أليس كذلك؟ عظام الأركيوبترکس، أليس كذلك؟ .. ثم تفتح الصندوق، الذي يصدر صوتًا، كما في المطبخ! هكذا يجب أن يكون الأمر هنا، رغم أنه مستحيل دون شك. ليس لديَّ في المطبخ مجهرًا، كلا. في روسيا، هكذا يجب أن يكون الحال. فجأةً. أجل. دون سابق إنذار. فجأةً. في اليوم التالي، بعد أن صارت شقراء، بصحبة جوال من البطاطس لا يتغير وحفنة من النصائح الصارمة الجديدة، حضرت. تحضر أمي دومًا دون سابق إنذار: تتقصى. أوصلها سائق تاكسي، حمل الجوال إلى الدور الذي نسكن فيه، مقابل مبلغ منفصل؛ إنها لا تتسبب في أي إزعاج لميتيا، مطلقًا: "ما الداعي؟ هل أبخل بالمال، لا حاجة لي أن أفعل. لا ننفق الكثير من المال، أنا ووالدك، كل هذا إنتاج منزلي، من حديقتنا". تطلعت الأم بنظرات باردة إلى شعرها الأبيض القصير.

ما الداعي؟ الشقراوات - مثل كلب أشعث.

نقلوا البطاطس إلى الغرفة، ضغطت الأم بخدها المتعرق على خد مارينا، وقالت: "مرحبًا، يا ابنتي،" وشرعت تحكي لها، عن تعرُّضِ أرضٍ نائيةٍ للسرقة، أخذوا البطاطس بالكامل، وكمية من الطماطم، أقل مما دهسوا. ذهب ميتيا وفانيا إلى الاستاد. أما سفيتلانا إيفانوفنا فهي في أيام السبت تذهب

إلى صديقتها لمتابعة سحب "اللوتو الروسية"، رغم أن إرسال قناة أر تي أر سيئًا. غالبًا تعود في المساء: حتى لا تزعج الشباب. أمي تتعجل الرحيل – فهي تستغرق ساعة ونصف الساعة بين الأتوبيسات، وفي غضون الساعة ونصف الساعة عليها أن تعرف الأخبار، وتنهي الاستجواب. بعد أن انتهت من الحكي، مشت في أنحاء الغرفة، فحصت الأرفف، وقرأت كعوب الكتب. مسحت بإصبعها على الرف العلوي، ورفعت إصبعها أمام أعين ابنتها، لتريها التراب الذي ترسب على إصبعها. بعد أن كررت مارينا على مسامع أمها كيف يعيشون للمرة الرابعة، وعن صعوبة العيش في وجود حماتها، أشاحت بيدها.

– هراء. في أسوأ الأحوال فإن حماتك لا تسبب الهيستريا. أجالايا ستيبانوفنا، ليرعاها ملكوت السماوات، فهي ترفس أسبوعيًا على الأرض، وتصرخ، مدَّعِيَةً أني وضعت لها السم. تلتهم صحنين من حساء البورش، وتأكل سندويشات – ثم تسقط الأرض.

مع كل قصة من القصص التي ترويها عن إتقانها لعلم البقاء على قيد الحياة، تكتفي الأم بهز رأسها علامة على الرضا: أحسنت، أحسنت، لو كنت مكانك، ما كنت لأتصرف هكذا. هنا انتاب مارينا شعور بغضب غير عادي بلغ عشرة أضعاف الغضب المعتاد، حتى كادت تضرب مزهرية وضعت على الطاولة في الحائط– ربما أثرت عليها التجربة العلاجية الأخيرة مع القارورات. استوعبت، أنها قطعًا، بلا أدنى شك، غير راضية عن هذه الرؤية للحياة، حيث وفق تلك النظرة، كلما كانت العقبات شاقة وعصية على التجاوز، وكلما كانت الحياة هادفة وأكثر استقامة، توافرت المبررات، الكافية أن تخبر نفسها في المساء: رائع، حسنًا فعلت ".

أبدت الأم رغبة في الذهاب إلى حفيدها وصهرها في الاستاد، لتشاهد، كيف يركضون خلف الكرة هناك، وفجأة سرحت مارينا، وتذكرت - آخ! - نسيت شيئًا في الكلية – أن تغلق جهاز العزل، - عليها أن تركض سريعًا، وإلا انفجر.

- أتعملين أيام السبت؟

- ليس على الدوام. مرسوم حكومي.

تعرف أن كريستوف هناك، أنه يسجل البيانات التي حصل عليها من نقاط المراقبة في جهاز الكمبيوتر الخاص به. تأخرت البيانات لمدة أسبوعين، كان ينبغي الحصول عليها بالأمس، في الوقت الذي كانت تذهب فيه إلى سوق الملابس. ينبغي الانتهاء منها في صباح الاثنين، وسوف يبقى كريستوف هناك حتى وقت متأخر. هزت أمي كتفها: أسرعي، ما دام الأمر ضروريًا. "يبدو، أنها مستاءة" - فكرت مارينا. ستتجه من الاستاد مباشرةً إلى محطة الأتوبيس، وهي تحب، أن يصحبها أحد لهناك، في وداع يليق، وبالترتيب، ابنتها، صهرها، وحفيدها.

هب نسيم عليل بارد داعب مؤخرة رأسها العارية، وانتابها ذات الشعور الذي أصابها خلال العام الدراسي الثاني بالكلية عندما قصت شعرها قصيرًا بنفس الطريقة: خفيفًا وعلى استعداد للسعادة. اكتست الشمس باللون العسلي. استدار نحوها كريستوف مبتعدًا برأسه عن شاشة الكمبيوتر، وتلاشت ملامح التركيز الحجري لتتحول إلى ابتسامة.

- يا لها من مفاجأة غير متوقعة! - أومأ إلى قصة شعرها. – رائع على نحو مفاجئٍ، بالروسية – وعرض أوراقًا ملقاة على الطاولة. – لكن هذه

البيانات ليست دقيقة بلا أدنى شك! مستحيل، أن تكون هذه الضلالات صحيحة. يبدو أنها منقولة من...

- من رؤوسهم البلهاء، ربما، - ردت مبتسمة.

"فهم تمامًا"، خمنت مارينا. ظلت واقفة في الباب المفتوح. كانت في حاجة لثوانٍ معدودة، بينما ظل كريستوف صامتًا في صبر، دون أن يرفع عينيه عنها. شعرت بالامتنان له جراء هذا الصمت الصبور، لذوقه. كريستوفر ميدفيديف. رجل وسيم، وموهوب. رجلها. أم أن كل هذا لا يتجزأ: الجمال والموهبة - شيء واحد، طالما ظلت تلك الكلمات غير مألوفة لها. أجل، هذا مؤكد، بوسعه أن يضع ساقًا فوق أخرى، ويبتسم ابتسامة واسعة، فهو بروفيسور شاب يتمتع بالوسامة، إنسان حرٌّ ومستقل. لم يعد، بالنسبة لها، شخص أجنبي. لم تعد في حاجة إلى اعتبار نفسها ذليلة خاضعة، مضطرة إلى قتل جمالها، في حين أنها تعرف على وجه اليقين أن الرجال من حولها يصابون بالسعار على نحو طائش ليصلوا سريعًا إلى نقطة حرجة. نظر كل منهما للآخر، في صمت.

بعد تجوال طويل وصلت إلى ذويها. هنا مكانها.

احتاجت لمرور بضع ثوانٍ. بعد أن مد يده لها، لوحت مارينا له: إلى اللقاء، وانصرفت. وظلت على مدار ساعة تتجول حول مدينة الطلبة، تحاول جمع شتاتها والاستعداد، قبل أن تعود إلى النزل.

رحلا، بعد مرور شهر.

# الفصل السادس

كان الجوُّ هادئًا، بدت الشوارع بفِعْلِ الشمس والثلوج الطازجة مثل الماس. وقف ميتيا بصحبة توليك على درج البنك. غرق توليك في ممارسة هوايته المفضلة:

- أتذكر، كيفَ سقط ميشا بالسيارة "الفولفو" البيضاء في النهر. انبعثت من الصالون رائحة كريهة!

في الحديقة قبالة الكلية الفنية، الجزء الذي كان مرئيًا لميتيا، بين حوض الزهور الذي يشبه كوبًا من الأيس كريم وبين ظهر أحد جنود الجيش، ظهرت سيدة ترتدي فراءً فخمًا بدلاً من المعطف، تتنزَّه بعربة أطفال.

- أتذكر، قفز في أول مرة "يرتــدي فيهــا النظــارات" فــوق بقايــا الشجرة البارزة.

- أذكر.

- أجَلْ! حاولوا انتشالها! كما يقولون، عجزوا عن فعل ذلك بأنفسهم، أحضروا رافعة. تلك السيارة "المرسيدس" اختفى أثرها، أما بقية الشجرة، فبرزت من الثلج. إنها الحياة!

سارت السيدة التي تدفع عربة الأطفال عبر الحديقة في تؤدة. لفتت انتباهه من بعيد عبر الفروع التي تتلألأ ببريق الماس، توارى وجهها. مجرد سيدة تدفع عربة أطفال. ضبابية. سيدة مجردة. من المحتمل أن تحمل أية صفةٍ، بدينةٌ،

نحيفةٌ، جميلةٌ، قبيحةٌ، قطةٌ، نمرةٌ – أي شيء، كل الاحتمالات واردة. صلصالية. تمثال منحوت، إن أردت. بإمكانها أن تكون مارينا ببساطة.

كانت مارينا تتجول مع فانيا بين الأطلال قبالة كلية الفيزياء. معهد الأبحاث العلمية الفيزيائية والكيماء العضوية يقع خلف كلية الفيزياء مباشرة. أحيانًا يراهم ميتيا أثناء خروجه من المعهد، بدت مارينا من بعيد ضبابية كالمعتاد، تلوح له ما إن تراه. تصور أنها هي التي هناك، في الحديقة، وينتظر حتى اللحظة التي تراه وهو يقف في الشرفة وبإمكانه التواصل معها: "مارينا! أنا في الطريق!" حتى إنَّهُ رفَعَ يَدَهُ. حينَها استدارَ تُولِيْكْ بَعْد أن لاحظ تحركه، في حين جلس ميتيا متظاهرًا أنه يحك رأسه.

"حسنًا، سأذهب إلى المتجر سريعًا". خطا توليك فوق الرصيف.

"هيا، وأنا ذاهب إلى عائلتي " – كأن ميتيا قالها وهبط على الدرج. أعتقد أن الاستمرار في هذه اللعبة لا يستحق العناء. هذا يكفي.

كما هي العادة، بالصدفة البحتة، بدأ شيء ما. منذ بعيد، قبل أن تعود لوسيا إلى حياته مجددًا. بدل ميتيا مرة أخرى الشقة. صاحبة الشقة الجديدة عجوز واعية، مفعمة بالمبادئ الصارمة. استقرت تلك المبادئُ في روحها بقوة، مثل قضبان الحديد في الخرسانة المسلحة. ظهرت صاحبة الشقة في أول ليلة على نحو مفاجئٍ لتجد رداء مارينا معلَّقًا على حبل في الحمام. (سكب الشاي على الحقيبة التي احتفظ فيها بمتعلقاتها).

– لمن هذا الرداء؟ – سألت صاحبة البيت، رافعة حاجبيها الملونين باللون الأزرق.

أجاب ميتيا على الفور، بفعل المفاجأة، بأول إجابة تبادرت إلى ذهنه، – الحقيقة:

– إنه لزوجتي.

وضعت يديها على بطنها، كمن تقف على منصة، وتطلعت العجوز إلى ميتيا بنظرة عدوانية طويلة.

– أخبرتني أنك وحدك. لقد سألتك. أجبتني: وحدي، غير متزوج. وكنت مترددة في أمر تأجير الشقة.

– أجل، متزوج، متزوج.

– لماذا كذبت، إذن؟ – فتحت ذراعيها ثم أعادتهما على بطنها.

– كذبت؟ حدث شجار. تفكير في الطلاق.

– هل غيرتم رأيكم؟

– أجل.

طافت الغرفة، نظرت حولها. لم تجد المزيد من الآثار، عادت إليه.

– جواز السفر من فضلك.

بدت السيدة كمن تحمل أثرًا من عام ١٩٧٣. نيرانًا رعديَّةً، بريقًا صلبًا متأجِّجًا. أعطاها جوازَ السفر.

– يا للهول! ألديك أطفال؟ كيف تسكن هنا بحق السماء؟ ما كان ينبغي أن أسمح لك بالسكن هنا، لو كان لديَّ علم.

– ليس هنا! إنه خارج البلاد. يدرس، يدرس خارج الحدود. أنا هنا مع زوجتي.

– واو!

فحصت جواز السفر صفحة بعد أخرى، صارت السيدة العجوز لطيفة مثل بوكيه من زهور الزنبق.

- إذن اسمها مارينا، لكن أين هي الآن؟

- أها! إنها في العمل. في الجامعة، تعمل بأحد الأقسام هناك. عندهم الآن، اممم... عمل طارئ. مراجعة.

غادرت الغرفة سارحة، وهي تؤرجح أصابعها البدينة بدلال فوق الباب.

- لم يكن الأمر يستحق الكذب. قال هراء لا يعلمه سوى الشيطان. تأففت، وأدارت ظهرها: - أمر عجيب. يقولون: إنهم فكروا بالطلاق.

مزق ميتيا الرداء المشؤوم وألقاه في سلة المهملات، وبحلول المساء شرب حتى الثمالة. طار اسم تلك السيدة العجوز من الذاكرة دون رجعة. كم من سيدات عجائز، يؤجرون الشقق والأجنحة الملحقة! لا يذكر سوى اسم العائلة. بروكوفييفا. المواطنة بروكوفييفا.

تفتيشات صاحبة المنزل تجري بانتظام أيام الاثنين من كل أسبوع، وكان على ميتيا ترتيب كل شيء، بانتظام كل يوم اثنين أيضًا. ورغم ذلك، أثار الغياب المتواصل لزوجته، الشكوك: "متى تظهر، إذن؟ على الأقل كي نراها". لم يكن هذا الاهتمام البليد لشخص غريب أمرًا مريحًا. لكن ميتيا تورط بالفعل في اللعبة. كان الأمر في البداية عسيرًا، أن تكسر نفسك، ثم تحول بعد مرور الوقت إلى الهدوء، وأخيرًا ، وصل إلى مرحلة الإثارة.

إن إخماد يقظة المواطنة بروكوفيفا، بدا، على نحو ما، مهمة غير محتملة. صار أمرًا محتومًا، على ميتيا أن يجرب قوة غضبها الصالح. نزعة الرقابة عندها كانت استثنائية، وابنها كان شرطيًا.

- لست سوى رجل معتوه، صرخت المواطنة بروكوربيفا بصوت سمعته الباحة بأكملها.

- أمي، هيا إلى المنزل، دعينا نتفاهم هناك، - قال ابنها، قائد الشرطة، متذمّرًا.

تسربت رائحة اللب الساخن منه. بينما في الطريق، يجلس بالقرب من ميتيا في المقعد الخلفي لـــ"سيارة الشرطة"، بصق قشر اللب بحماس على ركبتي ميتيا. في حجرة الاستقبال، كما هي العادة، هناك نوافذ عليها أسياخ حديدية وطاولة حكومية ضخمة، وبطول الجدار، لسبب ما، مقاعد تشبه مقاعد صالات السينما، مكتوب عليها بعض الفلكلور. الشرطي، مسؤول النوبة، المهتم بالموضوع، والذي كان غارقًا في الضحك، قلب صفحات جواز سفره، بغلظة، كأنه يريد تمزيقها تمامًا، ثم سأل، وسأل، صارخًا باشمئزاز:

- امم... ماذا - ماذا؟! ابصق. من فمك، تحدث بشكل طبيعي. أين زوجتك، ماريا أناتوليفنا فاكولا، الصبية، هاا؟ كيف؟ فالودين؟ أقتلتها؟ مزقتها؟ أين أخفيتها، تكلم؟!

احمرَّ وجه ميتيا، وسعل.

- ماذا - ماذا؟! ارفع صوتك!

في غرفة الاستقبال، حيث يركض أناس، بين الحين والآخر يقدمونهم، يصرخون بأسماء عائلاتهم، من الممر، ويضيفون إليهـــا ألقابًـــا، وإضـــافات بذيئة، حكى ميتيا كل شيء. الحقيقـــة. حكـــى للكـــابتن المنـــاوب المتـــوتر الحقيقة بالتفصيل.

مع التفاصيل البروتوكولية البغيضة، التي لا تجعل أي شيء واضحًا مطلقًا، تلقى أسفل أقدام الجمهور ملابسك القذرة ويتركونك عاريًا في منتصف المكتب.

- ورحلت معه؟ .. أي سنة كان هذا، تقول؟.. اممم... أي أنها هجرت الصانع الأصلي. تشاو تشاو تشاو... عزيزي!

اشتهر الكابتن، ذو البقع الوردية، الثرثار بسمعة الرجل الضحوك.

- وكيف أخذت الطفل؟ .. اممم... ارفع صوتك!

- طلبت رؤية ابنها، كي يرى موسكو. ذهبت معه إلى هناك.

- بنفسك؟

- أجل.

- حسناً، وكيف خرجت به من موسكو؟ حال كانت بالفعل، كما فهمت، أجنبية؟

- بإمكانك أن تتحرى الأمر لدى زملائك بموسكو.

كلفته هذه العبارة ليلة، قضاها في حجز القسم. في الركن، هناك رجل متقاعد رزين يرتعد، كانوا يضربون شخصًا في الممر، وميتيا يتطلع إلى الجدار المظلم ويتذكر دون عجلة، ما حرم على نفسه أن يتذكره منذ أمد بعيد. ربما، في تلك الليلة، شعر ميتيا بكره مطلق لا رجعة فيه للحقيقة. ماذا أصابه منها، من تلك الحقيقة؟ أن ينزع من الحياة القشرة الناعمة الجميلة، ويضع الثمـــار المقطوعة، طــازجة شاحبة، على الملأ. تفضلوا، أيها المواطنون، تذوقوا. ها هي الحقيقة - دومًا من أجل الكثيرين، للكل. واحدة -

من أجل الذكي ونصف الأحمق. انطلقي، نحو من يتحرق رغبة! عاشق الفضاء والجمهور بآلاف العيون. فتاة شعبية، صنعت مهنة ثورية. الحقيقة؟ أحيانًا، القلق منها. لأغراض علاجية. مع عدم نسيان، أن الأمر غير أخلاقي بالأساس.

من المؤكد، أن ميتيا، عاد إلى صوابه مع مرور الوقت. لكن اللعبة الضارة سببت له هوسًا لا يمكن علاجه. ما حدث أن قصته الغرامية مع الشبح نفخت الحياة في روحه. صار يرقد بصحبة أحد. وضع خاتم الزواج. يحلق ذقنه يوميًا. في الثامن من مارس، يذهب إلى "إيف روشي"[١]، ثم، بعد أن يشمها حتى الشعور بالانقباض، لترتجف البائعة، يشتري معطرًا عصريًّا. إلى أي مدى كان ليطول هذا، أمر غير معلوم، لكنه التقى لوسيا وسط صراعه مع تلك الأوهام.

- ميتينكا[٢]!

- لوسكا[٣]!

التقى لوسيا في بهو المسرح. لقاء جديد - بعد اللقاء، الذي جرى على سلالم الباستيل ليلاً - كأنه أعاد له الزمن المبتور.

- يا إلهي، مررت عليك، قالت والدتك: إنك رحلت.

- ألا تزال على قيد الحياة؟ أجل، انتقلت إلى منزل آخر. منذ فترة طويلة.

---

(١) ماركة أدوات تجميل فرنسية عالمية.

(٢) تدليل ميتيا.

(٣) تدليل لوسيا.

- عزيزتي: يا لها من مفاجأة، تبدين رائعة! أنا في غاية السعادة لرؤيتك!

- أين مارينا؟

لم ينطق بكلمة، وسرعان ما اكتسى وجهه بتعبير محايد وانتقل بالحوار إلى موضوع آخر.

توقف ميتيا عن زيارة لوسيا مباشرةً بعد الزفاف. حضرت لوسيا حفل الزفاف، ولكن ليس بصفتها صديقة: بدت خطة ميتيا لرفاق الزفاف كأنها حفلة تنكرية غريبة. وجرت مراسم الزفاف بالقصور الذاتي، لدرجة أن الصداقة بعد إتمام الزواج اتجهت نحو المنحدر. وكلما شعر بالحنين، كان ميتيا يزور براتسكي، ولكن سرعان ما اكتشف هو ولوسيا، أنهما تجاوزا الصداقة القديمة، وأنها بلا أمل في المستقبل. النقطة (أ) خالية من المعنى. (ب). تمزق الخيط. ثم، كما هو الحال عند العديد من البشر، حل الشقاء، وبسرعة غير متوقعة لم تعد الفطرة السليمة هي أولوية الحياة التي لا غنًى عنها. تكبدت فطرة الوصل هذه الخسارة في المقام الأول. وفي خضم ذلك البؤس، كان ميلاد فانيتشكا[1]. تذكر ميتيا لوسيا بمجرد أن غادر فانيا إلى أمه في أوسلو. استيقظ في صباح أحد الأيام، ولم يكن قد تناول وجبة الإفطار بعد، كمن تأخر عن ميعاد، هرع مضطربًا متعجلاً، إليها. لكنها لم تعد تعيش في براتسكى. يلينا بيتروفنا، أمها، التي سقطت بلا رجعة في براثن الكحول، لم تكن تعلم عنها شيئًا. فصار عاجزًا عن الوصول إليها.

- أنا سعيد للغاية، لوسيتشكا!

وصلت لوسيا إلى المسرح وحدها. شأنها شأن ميتيا. شيء ولد من اليتم. شعر فجأة، أنه يريد أن يحكي لها كل شيء- الآن، أن يمسك ذراعها،

---

(١) تدليل فانيا.

أن يسحبها خلف ستار غرفة الملابس، وهناك، بين صفوف الفراءات الخالية، والمعاطف، يحكي لها كل شيء. حياته بأكملها. عن مارينا. عن فانيا.

- تصورت، أنني فقط هنا، الذي يذهب إلى المسرح وحيدًا.

- واو، وأنا تصورت، أني - أيضًا.

ولأن، هذه الكلمة "واو"، التي بقيت من تلك الآونة، كان ميتيا على استعداد لتقبيلها: على الأقل هناك شيء بقي على حاله، ولكنه لم يفعل.

لم يحكِ لها شيئًا- ربما، لأنها، لم تطرح مزيدًا من الأسئلة. طيلة فترة الاستراحة، ظلوا يتحدثون عن أشياء تافهة، عن ملاءات العمة زينا التي احتفظت بها في حالة جيدة، عن عادات الباستيل. كأن تلك الأشياء العتيقة وصلت بينهما. في وقت لاحق، تلاشت لديه الرغبة في مشاركة كل شيء مع لوسيا، كل شيء، جرت الأحداث، كما أراد القدر. كان من المؤسف أن يدمروا ذلك الوهم الممتع، الذي شُيِّدَ فوق مكان عارٍ، في وسط فراغ لا يمكن اجتيازه. ولأجل ماذا؟ لأجل تلك الحقيقة البالية. قال ميتياه للوسيا، إن مارينا في مأمورية عمل.

بعد وقت وجيزٍ من لقاء المسرح، وببساطة شديدة، كأن كل شيء ترتب من تلقاء نفسه، صاروا عشاقًا. في ذلك الوقت، على قدر ما تأقلم مع السراب الذي شيدَّه بنفسه، فقد تعامل معها ببساطة وثقة - على مقربة من خطر غائب، أن يُضبط عائدًا إلى مارينا في ساعة غير مواتية، عبر المسارات المربكة لزنى خيالي. لم يكن من الصعب إقناعها بأنها عشيقة. إن تشكيل إنسان من قلب فراغ بدا على كل الأصعدة أمرًا يسيرًا. إن متعلقات مارينا، التي ترحل معه من شقة إلى شقة، معلقة في الدولاب. نعالها البالية في الردهة. في المطبخ، هناك مريلة محترقة من أطرافها، في الحمام فرشاة

أسنان مكسورة، وحقيبة مستحضرات تجميل. إنها هنا. غادرت لتوها، ستعود غدًا". "ما هذه الرائحة؟ "أعدت في الصباح يخنة. هلا أكلت؟" آثار عديدة هنا وهناك – اكتملت الخديعة. قصتان، انتقلتا من الماضي إلى الحاضر. هذا هو، السراب: علق بلوزة على يد الباب، ألقى أحمر الشفاه الذي كان يومًا المفضل عنده في المطبخ، نسي أن يخلع الجوارب الطويلة التي نشفت منذ زمن طويل من فوق المدفأة. لم يخلُ الأمر، بالطبع، من أشياء بالية، كيف يستقيم دونها. أكثر تفاصيل السراب صعوبة كان الدولاب، بالذات.

– اسمع، هل هي جنية.

– كيف؟

– كيف أقولها لك؟ أين أشياؤُها، مثلاً؟ الملابس الشتوية، على سبيل المثال.

– تضع ملابسها الشتوية دومًا عند أمها. أقول لها: لماذا تحملين ملابسك مجددًا إلى بلاد بعيدة؟ لكنها لا تعير الأمر أي اهتمام. تجيب، إننا نعيش في الحقائب الكبيرة. ثم، أتعرفين، إنها طيلة الوقت على سفر. تحتفظ بكل شيء في الحقيبة. كل أصناف الملابس: من الجينز، حتى المرايل. أتعجب، كيف تفعل هذا؟ لا تفرغ حقيبتها قط، لا تتوقف. جيولوجية بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

– يرجع هذا لأنه ليس لديكم أطفال، وليس بسبب الجيولوجيا على الإطلاق. ومنذ زمن، أردت أن أسأل ... – فتحت لوسيا أبواب دولاب الملابس. – انظر هذا السارافان[1]، التنورة. كانوا يرتدونه قبل الفيضان بعام. هل فعلاً كانت، ترتديه؟

---

(١) رداء روسي.

تمتم ميتيا بشكل ذي مغزًى:

- أشياء مفضلة، هذا وارد، ربما ترتديه، وربما لا.

- لكنه أحب التحدث مع لوسيا عن مارينا.

- مؤخرًا، كادت أن تحرقه، - قال ميتيا، وتنهَّد على نحو تراجيدي، مبتعدًا بعينيه.

- فعلاً.

- هل اتصلت بأحد، هناك رقم تليفون مسجل على الجريدة رأته. سألت، خط من هذا؟ كان عليها أن تقول، أن صاحبة البيت مرت بها، وأجرت اتصالاً.

- ماذا لو سألت صاحبة البيت؟

- ربما، تنسى. وهي لن تظهر قبل مرور شهر.

- هل هي غيورة؟

- لا يمكنني قول هذا. وأنا، فضلاً عن هذا، لم يحدث أني فعلت ما يستدعي الغيرة. هذا يحدث معك فقط، للمرة الأولى في حياتي.

أطلقت لوسيا ضحكة.

- أوه ميتيا! حسناً، أنت مثل فتاة تلعب دور العذراء: أول مرة، المرة الأولى.

كان هناك، بالطبع، أشياء بالية. أمام مكتب مدير إدارة جوازات السفر والتأشيرات فاراشيلوفسكي، هناك طابور منفصل، مكتنز. وصل الرئيس متأخرًا. كانوا في انتظاره، في سربٍ قريبٍ منَ الباب المزدوج الضيق. كان

الطقس دافئًا جدًا عن يوم السبت الماضي. من أنفاس البشر، صار الدهليز ذو الأرضية الخشبية غير المطلية مثل الساونا بفعل البخار وسرب رائحة خشب لاذعة. هناك عجوز تنفخ وتلوح بالمنديل تهوي نفسها. امرأة أخرى تضرب خدي فتاة باكية.

حضر المدير بعد ذلك بقليل. وتحرك في ذات الوقت مقدم يرتدي نظارات مغبشة نحو الباب، فهم الواقفون في الطابور الأمر: المدير – أفسحوا الطريق بسرعة. بدا مهلهلاً بشكل مدهش. أشعث أعرج. بدت شرائط المقدم عليه مثل أشجار اليولكا في العام الجديد. "ها هو ذا– فكر ميتيا بجدية – رجل بقلم أحمر. ها هو ذا، الشخص الذي يمنح الجنسية".

– هل الدخول مسموح؟

– حتى أنا لم أدخل بعد! يا للعجب! سأستدعيك، في الوقت المناسب.

أغلق الباب خلفه، تنهد الطابور. انتظروا وانتظروا، ولم يصدر أي صوت من وراء الباب.

– أيمكنني الدخول؟ سأل ميتيا من في المقدمة.

لم يكن أحد ينوي ترك الطابور، لكن لم يكن لدى أحد رغبة في الوقوف حتى وقت الغداء. قال أحد الواقفين في الطابور: إنه بالأمس بدأ في استقبال الجمهور قبل ميعاد الغداء بنصف ساعة. ظلَّ الطابور صامتًا دون اهتمام. ممسكًا بجواز السفر جاهزًا، انسلَّ ميتيا إلى المكتب.

وقف المدير وجانبه نحو ميتيا، بينما يظهر من قميصه الرسمي بطنه المشعر. وقف أمامه رقيب شرطة، يحدِّق في الأرضية بابتسامة واهنة. بدا عليه التوتر.

- وأين عثرت عليه؟ - سأل نيكالاي نيكالاييفيتش بمرح.

- ما الفرق؟

- على سبيل الفضول.

- أين وجدته، فقد نفذ من هناك. - حاول الرقيب أن يواجهه مباشرةً، لكنه عاد ليخفض عينيه في الأرض على الفور، وابتسم كأنه يريد أن يعض أحدًا.

- كلا، لكن، هكذا، لماذا إذن، لا يجوز أبدًا، لا يجوز. يجب إحكام السيطرة، - همس نيكالاي نيكالايفيتش، محركًا نظارته المغبشة، مثل كاميرا فيديو، ونخر كالخنزير، ومن يدري؟

اتضح على نحو ما، موضوع حديثهما. كان ما دار في المكتب ليس جزءًا من حوار، إنما حدث مباشرة. والأهم، كان هناك قدرٌ غير معلومٍ المصدر من الثقة، أن أمر اختفاء المسدس والعثور عليه يتعلق على نحو ما بنيكالاي نيكالايفيتش. لكن وفقًا للابتسامة المرصودة، بدا أن الرقيب يملك تلك الثقة.

- أجل، يا أخي، كنتُ مصدومًا.

خلع الرقيب القبعة، ومسح جبينه.

- كلنا هذا الرجل.

- لكنك من أضعته.

طبعًا، لاحظ الجميع دخول ميتيا، لكنهم لم يشعروا بأي حرج. كانَ بإمكانهم أن يطردوه، ولكن لم يفعل أحد منهم ذلك. سرعان ما غادر رقيب الشرطة إلى المكتب الآخر. وظل نيكالاي نيكالاييفيتش في حالة معنوية

رائعة، وواصل الضحك مع نفسه، وهو يضع الأوراق على الطاولة. وأخيرًا أومأ إلى ميتا.

ما الأمر؟

- اتصل بك سيرجي فيدوروفيتش بخصوصي.

- مشكلة الجنسية؟

دون أن يستمع إليه، مد نيكالاي نيكالاييفيتش يده، موجهًا أصابعه في الهواء.

- أعطني جواز السفر.

لم يتفحص جواز السفر طويلاً. فتح الصفحة المطلوبة، أغلقه وألقاه على الطاولة.

-اللعنة!

- عفوًا!

- اللعنة! أقول! لا يوجد ما يمكنك فعله هنا. حضرت بلا طائل. ألم يكن بمقدور سيرجي نفسه أن يخبرك؟

- لا يوجد ما يمكنك فعله هنا.

- لا شيء.

- و لماذا؟

- بسبب القانون الجديد الذي صدر، لا يمكنني فعل أي شيء هنا. حسنًا، هيا، أسرع، هناك طابور ينتظر.

- وداعًا. أتمنى لك حظًا سعيدًا.

- هيًا، انصرف. عندما أمسك ميتيا بمقبض الباب، قال نيكالاي نيكالاييفيتش على نحو مفاجئٍ: أتعرف، نصيحتي لك: انتظر قليلاً. إنهم يدرسون إصدار بعض الإضافات. ربما يكون هذا في صالحك.

- شكرًا. لكني في عجلة من أمري.

فرد نيكالاي نيكالاييفيتش يديه.

# الفصل السابع

في لقائه مع أليج، وصل ميتيا كأنه صُعِقَ بالكهرباء. كان مُحْبَطًا بشكلٍ كاملٍ. كان مثل عصا الأبنوس التي تآكلت فوق الكرة الأرضية. أغضبه كل شيء؛ خاصَّةً الأشياء الصغيرة – علب البيرة. علب البيرة – المتناثرة في أنحاء بالشايا سادوفايا، تجوَّل في زاوية شارع كريبستنوفا كلب بول تيريير، نكز برأسه أبواب المحلات التجارية، وأعمدة الإنارة. رآهُ ميتيا من قبل في المنطقة. كلب بول تيريير المتجول في الشوارع الرئيسةِ. كانت عاداته المزعجة تليق تمامًا بكلب هجينٍ، جلد قذر بدا مشدودًا مثل الملابس المعلقة بعد الغسيل. كيف يعيش في الشارع؟ في مجتمع من أولئك، الذين اعتادوا على النباح مثله. ومع ذلك، يَجِبُ أنْ يَعيشَ كلب بول تيريير في كل مكان بشكل جيد. أفضل من صاحبه. إنه قيصر الكلاب في الشارع. ترى ما الذي يجعل كلب بول تيريير سعيدًا؟

في بهو شركة "إنتوريست" يجلس أجانبُ آريون ضخام بشعر فاتح على الأريكة، بينما وصلت ركبهم حتى الطاولة. بدوا على نفس الصورة، صورة علب البيرة. "أيها الآريون، ما داعي تناثر علبكم تحت قدمي؟ الصناديق ذاتها ألوانها متنوعة من أجل تنوع القمامة. لماذا لا تقدمون الصناديق مع العلب؟ الصناديق، الزبالون في زيٍّ جميل، أولئك البشر الذين يُلقُونَ العلب في الصناديق المناسبة".

تأخر أليج- بأناقة- خمس دقائق تمامًا- انسلَّ عبر سلم العمل، وتحدث في الهاتف أثناء المشْيِ. وضع الهاتف في جيبه ومد فجأةً يده من أجل المصافحة:

- مرحبًا!

في استجابة لتحيته، صافحه بحماس ضاربًا كفًا بكف. نظر الآريُّونَ الغارقونَ في الأريكة الجلدية لا إراديًا تجاههم. "تطلع إليهم ميتيا صامتًا، اجلسوا مكانكم، لن تفهموا شيئًا".

- عذرًا، انشغلت. أرهقوني حد الهلاك! هز كتفيه بعدم رضا. لا يمكنهم اتخاذ خطوة دوني. مثل الأطفال الصغار!

لدى ميتيا على الدوام بشر رائعون، يعتذرون عند تأخرهم. خاصةً عندما كان في استطاعتهم عدم الاعتذار. بدا أليج ناضجًا. يرتبك من الفزع ولا يعرف الفارق بين الدولاب والتواليت، دون أثر. قرر ميتيا أن يدخل في الموضوع. وضع ملفًا على طاولة القهوة، عرضه: هنا، كل شيء.

فلننظر إلى ما أحضرت. ثم جلس أليج على الكرسي.

بعد أن فحص الأوراق، نقلها من كومة إلى أخرى. تحول انتباهه بعصبية نحو صوت خطواتٍ على سلم الخدمة، نظر عبر زجاج النافذة المطل على الشارع. "في انتظار أحد"، فكَّر متيا.

- نسخ جواز السفر، الهوية العسكرية، الطلب. ألديك طلب؟ أرى طلبَ تقاعُدٍ، وإيصالِ دفْعِ رسوم. على ما يبدو كل المطلوب.

- هل جواز السفر نفسه ضروري؟

- يا لغرابتك! هل يمكن تسليم جواز سفر!

- أتساءل فقط.

أبعَدَ جواز السفر عنه، ووضع أليج الأوراق مجددًا في الملف. اشترى ميتيا الملف بثمن باهظ. مع الشعار.

اسمع أيها العجوز - قال أليج بصوتٍ معتذِرٍ-: لن أستطيع الجلوس معك للدردشة. من الضروري أن أتوجه إلى الإدارة. تخنقني أمور الضرائب - هكذا الحال! - ثم ضرب بيده تحت حنجرته.

كان أليج متعجلاً. ركضت أصابعه الرقيقة فوق البلاستيك الأحمر للملف، كأنه على وشك أن يهرول إلى مصلحة الضرائب.

- طبعًا، طبعًا. دقيقة واحدة - يريد ميتيا أن يتفق على الموضوع الرئيسِ. - كم يتكلف الأمر؟

- نقود!، رفع أليج حاجبيه، لا تتعجل أمر المال. سيتضح كل شيء هناك. لا تتعجل. أنت بحاجة إلى جواز سفر جديد.

- كيف؟

- سنتفاهم. هيا، ها. أخشى التأخر، سيارتي تحت الصيانة. "المرسيدس" اللعينة! تتعطل بشكل ربما ليس أسوأ من سيارات "زاباروجيتس".

أجل، ويعتبرونها سيارة سوبر كلاس.

- لا جدال! على طرقهم وببنزينهم.

- حسنًا، أيها العجوز، سأتجه يمينًا.

وقفوا أمام الإدارة الإقليمية.

– في انتظار مكالمتك.

هيا! سألتقي غدًا الجنرال فوميتشييف. نائب وزير النظام العام. بخصوص موضوعك.

– رائع!

– ما داعي اللجوء للصغار؟ فهذه الأمور من الأفضل أن نتعامل معها من فوق. في قسم جوازات السفر والتأشيرات، يمكن أن يسقط جواز السفر من بين يدي أي تافه، أليس كذلك؟

– بلى.

– إذن، كلما صعدتَ إلى أعلى، كان ذلك أفضل.

– أنت أدرى.

– أجل، إلى اللقاء. بالمناسبة، أهنئك بعيد ميلادك.

شعر ميتيا بصدمة، ما إن أدرك، أن أليج يتذكر يوم ميلاده من أيام الدراسة، ولكن فهِمَ بعد ذلك أنه تفحص جواز سفره. استعاد نفسه، وصل إلى مسامعه ما يدور في الداخل. الأجواء في الداخل هشةٌ وخطِرةٌ على نحو ما، كأنها فوق جليد رقيق.

تذكر ميتيا كيف أنه عام ١٩٩٢، ذهب إلى مركز الشرطة، إلى مكتب الجوازات من أجل "إضافة الجنسية". أشبه للغاية بزيارة فاراشيلوفسكي في قسم جوازات السفر والتأشيرات قبل أسبوعين. لاقيت في مكتبه نفس مُولد الكراهية. نفس السيدة ذات الفولت العالي، لكنها كانت أكبر سنًا. ولم يكن المكياج بتلك الكثافة. نظرت إلى الطاولة وتحدثت بصوت خفيض، وامتد

شعرها على ذراعيها وساقيها. "لديك إقامة مؤقتة. لا يمكن إضافة الجنسية. دع التالي يدخل". كان واضحًا أن الشخص، الذي جاء للتقدم بطلب الحصول على الجنسية لا يستطيع هكذا بسهولة، دون طلب واحد، أن يدير كتفه الأيسر ويخرج؛ لكنها قالت بالضبط: "غير مصرح به. هيا! دع التالي يدخل". كانت على أية حال تنتظر أسئلته تلك، الرعب، اندفاع مثير للشفقة في يديها وصوتها. من خلال إحساسه بهذا كله، تصرف على نحو لم يكن يخطر لها على بال: استدار ناحية اليسار وانصرف. تكرر هذا معه بعد سنوات عشر – في مكتب آخر، في بلد آخر أنكر الماضي السوفيتي، لكنهم الآن تخلصوا منه بالكامل: حياء ذليل وقبول ضمني للتطفل الساخر الأفّاق. صار هذا وضعًا دائمًا. خالدًا. وفروا له الحماية من هيرماجيدون الروسية، حتى يصير بإمكانهم خلق إمبراطوريتهم الخفية التي لا تقهر بالتبعية – إمبراطورية حماة. وما يجري مع الجزء المرئي من العالم، وما يرتديه اليوم، أية شعارات يصلي لأجلها، لا يهم. الشعارات مثل عيش الغراب: يقطعه جامع الفطر التالي، ويترك خلفه بقايا صغيرة.

ذهب في النهار لزيارة أمه. لم يكن في الإمكان الامتناع عن تلبية رغبتها: اليوم يوم عطلة. أهدته وشاحًا أبيض اللون. لطالما أحبت الأوشحة البيضاء. شربوا نصف زجاجة من "موكوزاني" مقلدة. وبالتأكيد حضرت بعض الكاتسيفي، وكعكة جوز مع شوكولاتة مجمدة، والتي وصفها ذات مرة حين كان طفلاً بالـــ "القذرة". في تلك اللحظة، حين وقفت أمه وجدته، بينما تقفان في الصالة والنوافذ على مصراعيها، انتفخت الستائر وطفت في الهواء، فجأةً ضجُّوا بالضحك عندما سأل: "هل الكيكة القذرة جاهزة؟" أول ما تذكره على الإطلاق، هو ما بدأت الذاكرة ادخاره للمستقبل. كان في

الخامسة من عمره. احتفظ حتى بإحساسه بجسده الصغير والأصابع الناعمة الضئيلة، التي تعلق بها على الباب. تعد أمه "الكيكة القذرة" يوم عيد ميلاده كل عام. الآن طبقة الشوكولاتة الباردة اللامعة التي أضيفت بالملعقة، الطعم، كل ما هو مألوف، منذ زمن طويل، بدا أنه طعم الزمن ذاته، وهذا يثير في ميتيا حزنًا غريبًا لا يعرف الهدوء. حزن يُوجِبُ تصرفًا فوريًا، تغييرًا، إصلاحًا، الإعادة من جديد. شعر أحيانًا بالأسف بفعل ذلك التذكر التفصيلي، الذي لم يعد له مكان الآن، لم يعد ضروريًا بأي حال - مثل النقود قبل الإصلاح.

جلسوا قرابة الساعة. حاولت سفيتلانا إيفانوفنا أن تجعل عيد ميلاده مبهجًا حيًا. لم تغادر الابتسامة وجهها، أغلب الوقت، بكثافة، وبسعادة بالغة، على نحو ما. حكت عن طفولته، تذكرت كيف كان يختبئ منها في الدولاب وكان يرتعد من معاطف جدته الفرو. وعززت حكاياتها من حيرته: إذن، لمن، ولماذا تحكين هذا الآن؟ كل هذا؟ ركضت بأصابعها فوق مفرق شعرها، الذي صفَّفته بهذه المناسبة مستعينة بملمع، وساوت الكتلة العاصية في الجانب الآخر من الضفيرة.

- حسنًا، لماذا تبدو انطوائيًا هكذا؟ احكِ لأمك شيئًا!

استقرت فوق الثلاجة تحت المنديل قطعة من الكيك. إنها من أجل ساشا. "ترى، أين هو الآن؟" - فكر ميتيا، لكنه لم يطرح أية أسئلة. في الواقع، انتظر أن يكن ساشا في صحبتهم على الطاولة. وصلت ضحكات المراهقين الصاخبة من تحت النافذة. "ربما في صحبتهم"، - قرر ميتيا، بمجرد أن لاحظ كيف تراقب أمه من النافذة. راقبها بينما تمسك سيجارة بين أصابعها، تحاول جاهدة أن تؤلف النسخة التالية، دون أن تمنع ابتسامة ارتسمت على وجهها. إنه يفعل هذا من أجلها. إذا لم تخبز "كيكة قذرة" في عيد ميلاده، ربما هلك العالم،

وستتحمل هذا اللوم؛ أنها سيدة عجزت عن صنع كيكة عيد ميلاد. توجَّب عليها أن تفعل. لديها التزاماتها الخاصة تجاه العالم، وقد حضر ميتيا إليها، ليجلسوا خلف إحدى طاولات تبليسي لساعة أو ساعتين.

- أتذكر، كيف أهْدَوْا جدك في العمل ديكًا روميًا حيًّا؟ كيف وضعت ورق الحائط في المدخل من أجلنا!

تملك مجموعةً من الذكريات التي لا مفر من سماعها.

أثناء وداعها، قبلها على خدها. أمسكت برأسه وشدتها نحوها، لكنه رفع رأسه ليحررها.

- عندما كان صغيرًا، كان لا يكف عن الرضاعة، لا ينزل عن ركبتيها، - قالت سفيتلانا إيفانوفا، وهو ما تكرره دائمًا، عندما يقبلها في خدها الرخو، ويعتدل سريعًا.

ارتدى ميتيا وشاحًا أبيضًا حول رقبته، محاولاً أن يغرق على عمق أكبر في المعطف، دون أن يكون ذلك ملحوظًا، بينما هي عدلت هندامه بطريقتها الخاصة، وأخرجته من تحت الياقات، وفردته بشكل رائع وأنيق.

استغرقت رحلة الأتوبيس وقتًا طويلاً بصحبة عدد كبير من المسناتً اللواتي شَرَعْنَ في الثرثرة، على غرار حوارات النمل الذي يعدو إلى جوارك. فتى مخمور تمامًا في السادسة عشرة من عمره يجلس في المقعد الأمامي. يحمل في يديه رغيفًا، وكتابًا به سيدة نهداء، ونقودًا، ولَيثًا له قرون وحقيبة بها كبد بني طازج. الفتى، دون أن يفتح عينيه، تمتم بشيء غاضب، بينما اهتزت رأسه. أمسك بالكبد والكتاب جيدًا، لكن سقط الخبز - رفعته من الأرض سيدة عجوز، نفخت فيه ثم وضعته تحت إبطه. سقط الخبز مجددًا.

وقرروا، أنه من الأفضل أن يعهدوا إلى أحد الأشخاص بحمل الرغيف ويعطيه له عندما يهم الفتى بالمغادرة. أخذت رغيف الخبز سيدة عجوز تجلس بجانبه، حينئذٍ توقفت الثرثرة في جميع أنحاء الأتوبيس وبدأ حوارًا عامًا: فكروا، أين محطته. سمعوه يسأل السائق إذا كان سيمُرُّ بكامينكا. سألوا السائق. لم يتمكَّن السائق من الإجابة، بدأوا التحدث في أذن الفتى بحنان وصبر: "أيها العزيز، أين ستنزل؟ أين، ها؟" - "أجل، ادفعوه، ستفوته المحطة" - "ادفعه رجاء، لقد نام" - ادفعه، ادفعه بقوة". جاهد شخص خلف ظهر ميتيا للمشاركة في المشاورات، ونهاية دفعوه بحدّة بشيء صلب، ربما بمقبض عكاز: "واضح أنه استيقظ، مثل تمثال!" بعد محطة، فرغ مكان أمام سيدة عجوز تمسك قصبة، حينها قرر ميتيا الجلوس. منعته. تأوَّهت وتطلَّعت غاضبة إليه من تحت الشال، دفعته نحو المقعد بجوار النافذة، وجلست على الحافةِ. الآن لا شيء يعطلها عن مواصلة متابعة المخمور، ونكزت الفتى على سبيل الاحتياط بعصاها.

نزل ميتيا في محطته وتقدم نحو السور الحجري في المحطة الفرعية، ليقرأ النقوش الجديدة بشكل آلي. لم يكن هناك داعٍ للعجلة. أخبر لوسيا مسبقًا أنه سيبقى في المنزل مع مارينا. أهدته لوسيا كولونيا باهظة الثمن، ودعوة لقضاء المساء بأكمله في "أبارات"، ستغني له كل الأغاني التي يتمناها. كانت ذات الكولونيا التي اشتراها لنفسه كهدية من مارينا. على نحو ما بدت هذه المصادفة له نذيرَ شؤمٍ.

انتظر ميتيا المساء. حلق ذقنه، ارتدى بدلة وجلس على الكرسي. هناك تليفون على الأريكة في الجهة المقابلة. على الطاولة بين الأريكة والكرسي هناك زجاجة من ذات المشروب "موكوزاني" وكأسان. كان عليه أن يتصل

بفانيا. مارينا لا تتحدث معه على الهاتف. لا يتعدى الأمر الصيغة الرسمية "تهديك أمي تهانيها". لذلك – كأسان. ومن أجل إضافة بعض المصداقية، سكب ميتيا النبيذ في الكؤوس، وجلس على الأريكة، بقيت على الملاءة القديمة هناك تموجات ونقر – تمامًا كأن هناك من نهض للتو من هذا المكان. سيستهل الشرب فقط بعد أن يحادث فانيا في التليفون. هذا النبيذ المزيف، قطعتان ماثلتان من الثلج، تلمعان في الكؤوس، بدا مغايرًا كليًا، حقيقيًا.

في تلك اللحظات شرع يتذكر ليفان. كان كفيفًا، يجلس تحت شجرة التوت القديمة، كي يحرس الربيع، كما أخبر شخصًا، لم تعده الذاكرة جديرًا بأن يسكنها: "أعرف، البشائر، أم لا، العشب ، النبيذ، الأحمر مثل الدم". شعر ميتيا، أنه على نحو ما، توحَّدت هاتان اللحظتان اللتان تفصل بينهما فجوة زمنية، أمنيتان. توحد أقوى، مع يوم غد، من مساء اليوم.

عشق فانيا الحدائق. أخبره ميتيا أنه أيضًا عندما كان طفلاً عشق الحدائق. أسعفه الوقت ليخبره بهذا. يا ترى، هل هناك في أوسلو حدائق جميلة؟ عندما بقي مع فانيا بمفردهما تركا النزل، وظهر حينها حديقة خاصة بهما – في طريق فانيا للمدرسة. بدا الطريق من هنا أطول، من الطريق المباشر عبر السوق، ولكن ميتيا أصر على الذهاب من هذا الطريق. غادروا المنزل في وقت مبكر. سارا بعيدًا عن نهر الطريق، وعبرا الدرب ببطء. خرج فانيا عن الطريق، ليصل إلى كومة الأوراق المتساقطة. "هيا نلهو بالأوراق يا أبي"، وقف ميتيا بالقرب منه، ثم ساروا وهم يركلون أوراق الأشجار الجافة التي تحدث حفيفًا صاخبًا بأقدامهم. من الرائع أن يذهب فانيا إلى المدرسة مارًّا بهذه الحديقة. ممتع أن تلاقي مثل تلك الأشجار الكبيرة في طريقك كل صباح. ميتيا أيضًا فعل ذات الشيء، كان يمر بأشجار كبيرة في

الطريق إلى المدرسة، بالقرب من شجرة الصنار، التي تحجب في الصيف رؤية القمم عبر العشب. تساقطت منها، بعد هطول أمطار، قطرات كبيرة وحيدة، لفترة طويلة، وفاحت رائحة الأوراق المخدرة. وفي الربيع، تحت أشجار الصنار، تمتد سجادة حمراء سميكة. أثناء العبور، يمكنك نزع القشور البنية الداكنة من جذوع الأشجار، تشبه، تلك التي تنزعها من الجروح على الركبة أو الكوع، دون أن تنتظر سقوطها وحدها. الآن يسير ابنه بصحبته. أما الأشجار ، فهي شيء آخر. إنما أحيانًا، تصدر ذات الرائحة.

– أبي، قال الأولاد في الحمام أمس كلمات غير لائقة.

– وأنت؟

– كلا، قلت لهم، كما تقول: لا يصح قول مثل تلك الكلمات، ستنبعث من الفم رائحة مثل تلك التي تخرج من سلة المهملات.

– أحسنت، هذا تصرف سليم.

– أحد الصبية سبني ولكمني في بطني. هربت.

عبس متيبا وتطلع في صمت إلى رأس ابنه.

– أبي، كم سنة يدرسون في المدرسة؟

– ألم أخبرك أن الدراسة في المدرسة أحد عشر عامًا.

– هذه مدة طويلة.

أصدرت الأوراق حفيفًا تحت أقدامهما، بينما أعلى الفروع، تخرفش ورقة ساقطة، ثم تقفز في الفراغ الذهبي للدرب. في مطار روستوف، حيث قالوا وداعًا قبل الرحيل، كانت هناك شجرة مرسومة. من بلوط كبير

غضيض فوق لوحة إعلانات. إعلان للبنك. بداية، لم يكن لدى فانيا رغبة في رؤية أمه، ولم يرغب في السفر معها إلى موسكو. عارضت سفيتلانا إيفانوفنا سفره بشكل قاطع. هدَّدت بالانتحار على عتبة الباب، لكن مارينا توسلت، اتصلت عدة مرات في الأسبوع. لقد وعدت بالاحتفال بابنها بمناسبة بداية الدراسة. أخذ عليها ميتيا عهدًا أنها ستعيد الولد، وتحسبًا للظروف أخذ عهدًا من فانيا، أنه سيعود. نظر إليه فانيا حينها مرتبكًا.

- طبعًا، سأعود، يا أبي.

وعندما انتظر ميتيا اتصالاً من جهتهم، في اليوم الأول من اليومين المتفق عليهما، لم يتصل أحد. انتظر في اليوم التالي، محدقًا بهدوء في التلفاز، ثم إلى السجادة العارية المصمَّمة بخطوط ماس أسود وأصفر، ثم هوى في بئر مربع أسود بلا قاع وانتفض في الساعة الثالثة صباحًا مع رعب بشع: "لن يعود". استيقظ ميتيا متيبسًا. استنشق رائحة الجليد في النافذة المفتوحة. كان عليه القيام ببعض أشياء بسيطة. نهض، وأغلق النافذة، وأطفأ النور، ورفع الهاتف من على الأريكة واستلقى، دون أن يخلع ملابسه أو يفرش ملاءة. استدار ورقد على جانبه ثم تطلع إلى كؤوس النبيذ، التي ابتلعت الظلام ولمعت حافته المستوية. بدايةً جلس يائسًا في انتظار، اجتياح الحزن، لكنه امتنع عن الحضور، كما خلت روحه من أية شفقة مأساوية على نفسه، يتيمًا في يوم عيد ميلاه. هاجمته نشوة مفاجئة عند سماع دقات الساعة، ورؤيته صور الكؤوس الظليَّة، ليفكر أنه كان ليشعر بالسعادة، لو كانت لوسيا ممددة بجواره، والتهمت الحلم بشهية، ولاستمع الآن ببساطة لصوت أنفاسها، كما يسمع صوت الساعة. سعيًا خلف هذه الأفكار الحية تراكمت كالمعتاد العبارات، التي كان يحكيها لها، عن جلوسه مع أمه ومارينا، لتناول

الساتسيفي، ومغادرة أمه، وكيف قضوا المساء أمام التلفاز، وتذكره لها، لوسيا ذاتها، حتى إنه فكر أن يسترق فرصة كي يتصل بها عبر الهاتف، وقت انشغال مارينا في الحمام، ولكن عطله صديق قديم في الجامعة اتصل به.

صباح اليوم التالي، بدا شاحبًا مبعثرًا، تمامًا مثل رجل يعاني من صداع مؤلم من أثر الخمر. استقبلته في العمل عبارات مبهجة: "من الواضح، أن يوم أمس كان رائعًا." لم يشتروا له هدايا. أومأ ميتيا على نحو يحمل الكثير من المعاني، أنَّ توليك نصحه بشرب بعض الماء.

- لكن الماء المالح هو الأفضل دون شك، فالبيرة محظورة.

ربما، أنسب إجابة هي: "من أين لي به؟" الحصول على ماء مالح؟" كان يشعر بكسل تامٍّ أن يلعب دور الحارس.

- قال فوفا خبير الألغام ثملنا أنا وأخي في الأسبوع الماضي بشكل رائع، أغرق أخي الباحة بأكملها بالقيء، ولم ينجُ حتى الكلب المسكين من هذا.

- وماذا عنك؟ - قال توليك مبديًا اهتمامًا.

- ماذا عني؟ عن نفسي لا أتقيأ أبدًا.

- ولو مرة واحدة في حياتك؟ في حياتك؟ ألم تتقيأ في حياتك؟

- أبدًا.

- ولو مرة واحدة؟!

- كلا، حسنًا، بالطبع، لقد أُصبت بتسمم ذات مرة، إنما تسمم بفعل الفودكا؛ كلا لم يحدث مطلقًا. هكذا أنا. أتناول كل شيء، لكني لا أتخلص من شيء.

- كيف يمكنك معرفة، إذا ما كان هذا التسمم بسبب الفودكا، أم لا؟

شرع فوفا يشرح، كيفية تحديد السبب بدقة، سبب التقيؤ، بينما ذهب ميتيا إلى المدخل لتغيير وردية الأمس. وقف عضو جديد فوق الدرج، عجز ميتيا عن حفظ اسمه للأسبوع الثاني، وقد بقيت بعض الشعيرات من حلاقة الأمس على خده، وعيون حمراء بفعل نوم أمس السيئ، حرم النوم ليلاً: دق جرس الإنذار في البنك، - حظر استخدام الأسرَّة القابلة للطي، والمراتب واستعمالها على هيئة مقاعد مفروشة في المكاتب. وبناء على الحظر، لم يبقَ للنوم سوى الكراسي والمقاعد الناعمة في صالات استقبال العملاء. الأعضاء الجدد عادة يلجأون في الأشهر القليلة الأولى للكراسي. الباقون في الزوايا الهادئة، المخابئ، مثل: لوحات الحرائق، خلف الدواليب، تحت السلالم - مخفية خلف شيء ناعم. بغض النظر عن، ما هون من ساعات الليل - سترة أو مرتبة فعلية بقيت من أيام الخدمة العسكرية، وهذا ما أطلق عليه "القشرة". لكن، كما في تلك الثكنات الحقيقية، عليك أن تؤمن لنفسك "القشرة" والمخبأ.

أومأ ميتيا للوافد الجديد- هيا، ذلك الذي كان يحاول التدرُّب على اليقظة محدقًا في "سيارة جازيل" متجهًا نحو مفترق الطرق عبر الزجاج الداكن: لم يغادر أحد السيارة، ولا زال المحرك يعمل.

وجه ذقنه مشيرًا إلى "السيارة الجازيل"، عقد الوافد الجديد حاجبيه تمامًا متأهبًا لقول شيء، لكن، كما يبدو، أنه أدرك، أن تأثيره سيكون فعالاً دون كلام. وربما يخبره ميتيا، أنه يعرف هذه "السيارة الجازيل" جيدًا، وأنها حضرت لأجل مدير المتجر، يعيش في المنزل المجاور، إذا لم تكن هذه الجدية المبجلة، فليست نظرة راعي البقر الجاهزة طيلة الوقت تلك. لا يجوز لأحد أن يحبط إنسانًا يملك هذا الشغف نحو عمله.. بعد أن عقد حاجبيه هكذا،

أومأ ميتيا على نحو بالكاد يمكن ملاحظته، وركع على ركبتيه، وتحرك قليلاً ناحية اليسار، وبسلاسةٍ، فتح جراب مسدَّسه، بإبهام يده الكبير.

- ينبغي أن يخرج "الأول" سريعًا.

مرت نكتة ميتيا، بالطبع، دون أن يفهمها أحد.

- السيارة واقفة في الباحة، واصل الوافد الجديد: لم يصلحوا البوابة، لذلك فهي تُفْتَحُ يدويًا. سيطلقون صفارة التنبيه، هكذا... - وتخيل، كيف سيفعل السائق هذا عندما يخرج ريزينكا إلى السيارة.

- هل أقف معك؟

كان هذا أكثر من اللازم.

"اذهب، انصرف، - قالها ميتيا بصوت، بدا مثل الأفلام، حين يقول شخص لآخر: "سأغطيك".

ما كان منه إلا أن نزع الحزام الذي يحمل جراب المسدَّسِ وانصرف، واستنشق ميتيا هواءً ثلجيًا بضع مرات، تفوح منه رائحة غاز العادم، ودلف للداخل، إلى الدهليز الرخامي الضيق. هنا في الركن، حيث غطت ثلاث شرائط زينة بالفعل ست دفايات، تمكن من الاستمتاع بوحدة ممتعة لعدة دقائق، في أجواء دافئة، ولا داعيَ للعب أيٍّ دور، أو إظهار وجه كاوبوي. مثل هذه الدقائق، خاصةً في مكان كهذا. المدفأة، والسجادة التي اكتست باللون الرمادي بفعل الأوساخ، والباب المنقوش؛ حيث تظهر جليًا عن قرب شقوق دقيقة، ربما ساحرة. إنها سكينة في الهرب، تتشكَّل في أول مكان تصل إليه، حب جندي متعجل، ومئات من ظلالٍ متنوعة من مشاعر الإنسان في محطات السفر.

على السلالم الحجرية أثناء الهبوط من الطابق الثالث إلى الطابق الثاني، دقَّت مطارق متعجلة، تباطأت لسبب ما لكن دون تغيير، وهي تنتقل إلى أرضية الباركيه. بدأ خلف الباب الزجاجي الداخلي يوم عمل البنك. العاملون، دون ملاحظة العملاء، الذين جاءوا مبكرًا، أولئك المزعجون، مثل ذباب الصباح، ثرثروا من خلالهم بطول صالة الانتظار. جلس العملاء في تريُّث في جميع أنحاء الصالة، انتظارًا، حتى تعمل جميع البرامج على أجهزة الكمبيوتر، تهدأ الفتيات، ويطلقن الابتسامات، ثم تذهب كل لمكانها. يعمل بنك "يوجانفيست" بنظام عمل معتاد في سعي أنيق نحو تحقيق الأرباح. فاحت رائحة العطور الغالية من الجميع. صارت رواتب العاملين، منذ بعيد، على النحو الذي يُحتِّمُ إخفاء الروائح المنبعثة من الأرجل المعوجة، بشكل لا يقل سوءًا عن الرائحة التي تنبعث من رؤسائهم.

لم تكن أحوال البنك على ما يرام كما كانت في البداية. تغير الكثير من الأمور، ولم ترتفع الرواتب، مثلما كانت في السابق، زيادة ربع سنوية بمقدار عشرة إلى عشرين دولارًا، لم يدفعوا مكافأة ربع سنوية تعادل نسبة الزيادة، ولم يُقِمِ البنك وليمة غداء في مطعم فندق "روستوف": كفتة بطريقة الكييف، قهوة –مثلجة. لقد تغير الكثير منذ ذلك الوقت الأسطوري، عندما كان الفارق بين رواتب الرؤساء والمصرفيين العاديين يعادل مائتي أو ثلاثمائة دولار، وكان الحديث مع الرؤساء بصيغة "أنت" بمثابة لغة جيدة. ثمة خللٌ حدث. اختلف الحال في البنك. ارتفعت رواتب رؤساء الإدارات للضعف، بينما انخفضت رواتب المصرفيين العاديين للنصف. تم استدعاء جميع الرؤساء إلى اجتماع خاصٍّ. بعد انتهاء هذا الاجتماع على أعلى المستويات، صاروا يكررون الشعار الأساسي للحياة الجديدة في كل قسم – حياة جديدة – جديدة

تمامًا: "من لا يعجبه – عليه أن يتقدم باستقالته ". كان هناك بديل آخر: "عليكم أن تقارنوا من حين إلى آخر رواتبكم مع رواتب العمال"، ولكن لم يتخلَّ أحدٌ عن متطلبات الأناقة، لذا فقد انبعثت من جميع الموظفين (باستثناء الحراس) روائح عطور غالية، ولو أهمل أحد فجأة وتحت ضغط الظروف هذا الالتزام المعلوم بالضرورة الخاص بالعطر أو شرع يرتدي ملابسَ رخيصة الثمن، بشكل واضح، فإن الرئاسة تنظر إليه باحتقار.

من الخلف طرق شخصان بكعبيهما بشكل متعجل.

– في الخزينة، هناك، أحضروا الملابس. رأيت حمالات صدر لا تضاهى.

– أية حمالات؟

– مطياعة، معك حيث تكون، ربما مطاطية. هذا بالضبط ما أحتاج.

مستديرًا نحو الحوار الدائر خلفه، بنظرة ساخرة، سَعلَ ميتيا بصوت مرتفع، لكن لم يعره المارة أي اهتمام. ربما، لو دخل أي حارس آخر أو هو شخصيًّا إلى الخزينة، حيث يجري فحص الملابس الداخلية التي أحضرتها الموردة الدائمة، التي تعمل في الفرز، هكذا بالضبط لم يكن لأحد أن يقوم بردٍّ فعلٍ من أي نوع تجاهه. وواصلوا فرد سراويل الدانتيل، حمالات الصدر، بأصابع اليد، وتقليبها، وفحصها في الضوء. مثل هذه العلاقة بدت أحيانًا لميتيا ساخرة. الحراس – أغلبهم ذكور مميزون – لم ينظر إليهم أحد هنا بصفتهم رجالاً، وهذا بالطبع أمر مؤلم.

مد ميتيا ظهره بطول المدفأة، أغمض عينيه وتخيل نفسه جالسًا على طاولة في "أبارات". جلس بعد أن وضع أمام كل شخص بعض الفودكا

والتونيك. كان الجو صاخبًا في "أبارات". موسيقى أرمينية في جهاز التسجيل. احتفل أقارب أرسين: في يرفان، صار لابن عمه ولد. لم يحبوا موسيقى البلوز كثيرًا، رغم تأكيد أرسين أنه من الممكن عزف المؤلفات المعتادة. طلبوا أغنية، لكن الرفاق لم يعزفوها كما ينبغي - لذا قرروا، "ألا يستكملوا ما ورد في قائمة مجموعات البار المجهولة"، كما قال هاينريش، وبعد أن عزفوا عددًا من الألحان خرج الموسيقيون إلى القاعة، ولهذا السبب نفسه- حتى لا يعزفوا قائمة مجهولة - لم يعرف للمجموعة تسمية بعد.

- سأشرب اليوم، - أعلن ستاس. وإذا طلبوا العزف، عليكم أن تضعوا في اعتباركم، أنا لا ألعب سوى "فالس الكلب ".

بدا مهمومًا: من المُستَبْعَدِ أن يدفع أرسين ثمن هذين اللحنين أو الثلاثة التي لعبوها.

- هلا بدأنا العمل، - اقترحت لوسيا دون أيٍّ حماسة.

- هيًّا عزيزتي! - علق ستاس. - أخبروك: شيئًا مفهومًا.

- "موركا" هيًّا، "موركا"، - تمتم فيتيا - فارينيك، ملمحًا إلى مشهد من فيلم "لا يجب تغيير مكان اللقاء".

أومأت لوسيا متسائلةً في اتجاه الثنائي، الجالس على طاولة غير مريحة أمام المنصة. ووفق، الطريقة المندهشة التي نظروا بها إلى القاعة والمنصة الفارغة التي وقف عليها ببيانو مغلق وجيتار مغلف، حضر هذا الثنائي لسماع موسيقى البلوز.

- من أجلهم، - رمش ستاس بعينيه، محدقًا في الزوار عبر الضوء الخافت وضباب الدخان. وضع الرجل -بحرص شديد- سيجارة فوق

الطاولة، وولاعة، وطفاية سجائر بجدية في الوسط. رفعت سيدة ذقنها، وأدارت رأسها قائلة: هل يجلبون الطلبات إلى هنا أم علينا أن نفعل بأنفسنا؟

- كلا، - قال ستاس، وهو يتفحَّصهم - عشاق بلا سبب.إنهم لا يثيروني.

وضع هاينريش مرفقيه على الطاولة. اتضح أن هناك فكرة تدور برأسه، وهو أنه عمومًا لا يشعر بعدم الاكتراث، وهذا في حد ذاته بمثابة إنذار. تجادل مع ميتيا في كل مرة يصدر رأيًا في هذا الشأن. أجل، هكذا جرى الأمر. إنه هاينريش من قرر أن يجادل.

قال لميتيا: "أنت غير محق على أية حال".

طلب الجميع منه في وقت واحد السكونَ، حتى فيكتور - فارينيك، هوى في كوة، وعلامة على الاحتجاج هز رأسه.

- توسلت لوسيا، - من فضلكم. لم تتفقوا على شيء حتى الآن.

عادةً، خلال مثل هذه الشجارات، تجلس لوسيا في سكينة قرب ميتيا، دون أن تنطق بكلمة. تعذر فهم، ما إذا كانت تستمع أو أنها تكتفي بمتابعة الشجار، كمن ينظر إلى النيران أو إلى عمل غريب. هاينريش كان متأهبا للقتال، رفع إصبعه إلى أعلى.

- لحظة! عليَّ أن أحسم الأمر.

- مثلما حدث في سان بيتربرج، - قال فيتيا- فارينيك، وهو يهتز على الكرسي.

أوقفت عبارته العراك الذي كان على وشك أن يبدأ.

يعلم الجميع عما يدور الحديث. تذكر فيتيا- فارينيك هذه الرحلة إلى مهرجان البلوز، وقصة سمك الشبوط، في الوقت الذي صار اسمه فيتيا-

فارينيك. حينئذٍ، في الفندق، حين قرر هاينريش أن يسأل الشباب المفتول العضلات الذين احتلوا غرفتهم المحجوزة، ما الذي دفعهم للتصرف على هذا النحو، كأن الأمر بسيطًا، مثل شعلة ولاعة بعد طلب التدخين، بدأ العراك الذي كان أشبه بمذبحة أبرياء. وفي اللحظة الحاسمة، خرجت طباخة الفندق من المصعد المفتوح تمسك بصينية ضخمة من الفطائر في يديها الممدودة. ماذا جاء بها إلى هذا الدور، أين تتجه ومن أين ظهرت ببضع مئات من الفطائر النيئة، كان لغزًا بلا حل. كان الأولى بها أن تعود إلى المصعد وتهرب، لكنها، مع الصينية التي تحملها، دخلت في قلب المعركة، ثم صرخت بكل عزمٍ:

- ما هذا، توقفوا!

أجهز الموسيقيون على سمك الشبوط، في تلك اللحظة. نزف هاينريش، حاول فيتيا الزحف من تحت كنبة مقلوبة، سقطت فوقه، ولكن دون جدوى: قفز فوق الأريكة رجل من الحجم الكبير، يقف فوقه، ودفع فيتيا مجددًا أسفله. وحده ستاس بشكل أو بآخر صارع صورة نزعت عن الحائط من "بنات يحملن البرتقال"، نثرت في كل اتجاه قطعًا طائرة من الزجاج. دفعت صرخة الطباخة الصاخبة الجميع إلى الالتفات والتجمد في أماكنهم. قفز فيتيا في تلك اللحظة، ليتخلّص من أسر الأريكة وانتزع الصينية من الطباخة، وهاجم العدو. طارت الفطائر مثل نافورة في القاعة، لتتعالى سحابة من الدقيق، ترجرجت الصينية مثل درع أخيل.

- إلى المصعد! - صاح فيتيا.- إلى المصعد!

أنقذوا أنفسهم حين لاذوا بالفرار. أوقف فيتيا سيارة تسير في الشارع على مقربة منهم، وانحنى ليدخل في الصالون وطلب، وهو بالكاد يلتقط أنفاسه:

- أيها السائق، إلى محطة القطار.

ظل السائق صامتًا، وهو يتطلع إلى فيتيا بعيون مفتوحة عن آخرها.

- إلى محطة القطار، - ها هو من يعطيني الأوامر.

هنا صاحت لوسيا، ما إن سمعت وقع أقدام قادمة من الفندق، أسرع:

- فيتيا، فارينيك! - وأشارت إلى جبهته، التي تلطَّخت ببقايا الفطائر من أولها إلى آخرها. يبدو - أنه يذكر كل فرد من الموسيقيين هذه القصة - أول وآخر محاولة قاموا بها للدخول في المجتمع الراقي.

- أجل، فيتيا، - قال ستاس: "لقد تصرَّف بشكل رائع".

أشعر بالأسف على الساكس.

لكن لم يكن هاينريش لينشغل بالنكات.

على النحو الذي جلس به بجلال على الكرسي، بدا كأنه وضع كنوع من الاستعراض يده اليمنى على الطاولة، ممتدة من الكتف إلى الأظافر الملساء، يتطلع عابسًا إلى أعلى الرؤوس، عبارة، ذات تفاصيل مجردة تمامًا، أشارت بوضوح مجددًا، إلى أن هذه صورة ابتكرها الخيال، أصلاً، بإيحاء من كون لوسيا تجلس على الطاولة. شرب هاينريش بروية من كوبه. فودكا - تونيك - إنه مزيج لا غنى عنه أثناء معاركهم. يجب إعلان حرب جديدة، وكما قال أحدهم: "توقف. سأرحل". أو يقف صامتًا ثم يذهب إلى البار. بينما ينتظر المتصارعون، مثل الملاكمين المتباعدين في زوايا الحلبة. كان ميعاد الحلقة الرابعة اليوم، لكن العراك توقف وهدأ، ولكن ليس بوسع هاينريش أن يترك الأمر دون تسوية نهائية. هاينريش - ثوري دون ثورة. في كل

إيماءاته وتعبيرات وجهه، يتجلَّى السخط العارم ضد العالم المحيط به. ضعه في قلب البركان، أوج الصراع، عبر الجدار، لكنه يلعب البلوز.

- ها أنت تقول، أن كل شيء نتج عن أننا لا نملك تقاليد متحضرة، أليس كذلك؟ – وجه هاينريش يده مثل الكمساري. – أن تقاليد الاتحاد السوفيتي، كما تعرف، قد تهاوت، ولم يعثر للتقاليد الروسية على أثر تحت الحطام.

- أجل، – قال ميتيا باختصار، مؤيدًا، كأنه يجيب عن سؤال المعلم. – أقول.

لكن، حتى مع كون هاينريش عازفًا للبيانو وأحيانًا مؤلفًا موسيقيًا، يتمتع بالكاريزما والأظافر اللامعة، فإن لوسيا لم تجلس إلى جواره، إنما بجوار الحارس ميتيا.

– ما التقاليد الروسية؟ من شعر بها ومتى؟

– أنا، – بدأ ستاس المسئوم. – يوم السبت الماضي. أتصدقون، مرة أخرى حتى الساعة الثالثة والنصف. فاجأ نفسه. تلك التقاليد، كما تعلمون، جبارة؟ – لقد صور هذا الجبروت من خلال الأكواع المفرودة.

لكن هاينريش لم يرمش. تمسك بهدفه بعزم. لم ينظر إلى لوسيا. وبقدر ما كان هذا هو الاتجاه الأوحد المتاح، تجنبته عيناه المثارة على غير العادة، ملأ ستاس وفيتيا تلك الفجوة، وتطلعا بدلاً منه إلى لوسيا بعد ملاحظاته الأفضل على الإطلاق. بدا أن لوسيا لم تعد تعر سمعًا لشجارهم. تطلعت لوسيا إلى مراسم الاحتفال بالميلاد في يريفان البعيدة لطفل، أسموه جيورجي. الآن يطوفون بين الضيوف، بصينية؛ ليضع عليها الضيوف نقودًا، كلَفْتَةٍ رائعة، وهدية للمولود.

قال هاينريش: – يمكنك مشاورة راديتشيف في أمر التقاليد الروسية. – اقرأ رواية بونين "القرية"، على سبيل المثال. السكر على حافة الكارثة – هذا

هو حالها، التقاليد الروسية. في غياب التقاليد. هل من المعقول أن تصير الكارثة هي التقاليد؟

- كلا، بالطبع، - قال ستاس محتجًا، ثم تحول فجأة إلى لوسيا. - ماذا عن الأمومية؟ المجتمع؟ الكونت ليف نيكالاييفيتش؟!

- الأسطورة الخاصة بالمجتمع، والكونت ليف نيكالايفيتش - الروائي. - هاينريش الذي نشِطَ بفِعْلِ الفودكا- التونيك، نسيَ نفسه، وشرب بصوت مرتفع، كأنه يشرب الشاي. - هكذا علمونا أن نفكر. في الواقعِ، أصدر بيوتر قرارًا واحدًا، يقضي بانضمام التجار الروس إلى التعاونيات، لأجل الأجانب، ولوَّحَ في اتِّجاهِ المحتفلين، كان الاحتجاج يسيرًا. دون جدوى! أين مجتمعك؟ ماذا عن الأمومية. تقليد جيد، أليس كذلك؟ لأنه منا، ارتدى بالأمس فتيان البيرة زي القوازق، علقوا الصلبان على صدورهم. لوبو! لوبو! التقاليد!

دار الاحتفال في القاعة: قام الأب السعيد بنخب عرفان وتحت صرخات نشطة جفف البوق الكريستالي، الذي ما إن ارتفع بحافته إلى السقف، حتى فقد لون الياقوت المعتَّق المشرق به.

- هنا تدخل ستاس مجددًا: لا داعي للتحريف! بدا عازمًا على تولي دور الحكم. كان عليك يا هاينريش، أن تتذكر الهنود الروس. شاهدت برنامجًا مؤخرًا، رأيتهم، أتصدقون، يضعون الأكواخ وسط أشجار البتولا، وريشًا على رؤوسهم.

- توقف أنت وهنودك! - قال هاينريش مقاطعًا.

تنهد ميتيا، وقال مثل حكم: جولة أخرى.

- قال: فكر بنفسك، هذا حكمك أنت. من الآن، وبعد مرور قرون يمكنك أن تحكم. الأمومية هي تصورك الساخر، الكاريكاتوري – لن يمكنك رسم غيره. هذا ما قلته: هل يمكن اعتبار التقاليد الخارجية جيدة أم سيئة. فقط على المستوى الخارجي يمكن الحكم عليها، لكن بالنسبة للشخص الموجود في الداخل؛ فهي مجرد شيء ممنوح. ليس بحاجة إلى التحقق من كونها جيدة أم سيئة. لا يمكنك أن تقرر، هل يشعر الجنين في رحم الأم بالراحة أم لا، هل الرحم ضيق عليه هناك، أليس الرحم مظلمًا. دون تقاليد، الحياة سيئة لأن في غيابها، تكون الحياة فارغة.

تطلع هاينريش إلى ميتيا، كأنه يهذِي.

– ولماذا؟ ما الشيء الثمين الذي فقدناه، على سبيل المثال، نحن الروس؟ ما هو؟ ما الذي كان علينا أن نتمسك به دون تفريط؟ سأخبرك! تراجع إلى الخلف – كما كان الحال قبل اللحن الأخير– لم نخسر شيئًا، لقد تحررنا. أخيرًا، تمكنا الآن من التخلص من كل شيء. أخيرًا؛ نحن بصدد صفحة جديدة فارغة انفتحت أمامنا. اكتب، افرح– لو تحررت من العقائد البلهاء– من المحظورات الغبية، من الأوامر؛ فهذا يعني الفراغ!

– لحظة من فضلك! – طرح ستاس يده. – أتتحدث عن الروس من حقول ليف نيكالاييفيتش أو السوفيت من مقالات ليونيد إيليتش؟

– أهاَ! التفت إليه هاينريش بضجر: سواء، سواء"، قال ساخرًا: وما الفرق؟! كان أولئك مكممين، أكثر من هؤلاء. هذا سيد، هنا الحزب. وها أنت حر، واصل، ثم تطلع إلى ميتيا، اذهب حيثما شئت! ما المزعج في الأمر، أين ذلك الفراغ؟

نظر فيتيا وستاس إلى لوسيا. بينما تضع قدميها على الكرسي المجاور، تركت كوبها ووجهت نظرها بعيدًا إلى الراقصين من أقارب أرسين، راحات اليد التي دارت فوق الرؤوس، كأنها صفحات من الورق قذفت في الريح.

- أين السبيل؟ إلى أين نذهب؟ أنت مثلاً- أين أنت ذاهب؟ إذا خلت الروح من وجهة معروفة؟ تعرف، كيف تعثر الطيور المهاجرة على المكان المناسب على بعد آلاف الكيلومترات. في أية ظروف مناخية؛ إنهم يملكون شعورًا بالوجهة. هكذا الحال مع التقاليد. لا توجد علامات على الطريق، جهنم في كل مكان، محض ضباب، والإنسان ربما يشعر، أين عليه أن يتوجه. كلنا عشوائيون، تمامًا مثل قول طبيب في عيادة محلية: "ما الضرر، لو جربنا المحاولة بهذه الطريقة؟" خلت أنفسنا من الإحساس بالوجهة. لذا، يدفعوننا أمامهم، مثل قطيع من مرعى إلى آخر.

- هل كان له وجود في أي وقت مضى؟ ذلك الشعور بالوجهة؟

هز ميتيا رأسه.

- ربما، ربما، لم يكن له وجود، لا أعلم، ليس بوسعي أن أفهم. أعرف فقط، أن شيئًا حدث اعتباطيًا تحوّل إلى كارثة: سواء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، أو اتحاد الدول المستقلة!

انتظر! أذكر كل هذا! الزهور الورقية في المظاهرة، والرضا العالمي؛ أليس هذا هو التقليد؟ هذا، وفق رأيك أفضل، ذلك الذي لدينا الآن؟

- من الغريب أنك لم تستوعب! ما دمت تتحدث عن التقاليد السوفيتية. آه السوفيتية! زجوها في أرواحنا عنوة، لكنها حقيقة لم تترسخ في أنفسنا.

- اللعنة! أنا لم أعرف شيئًا سوى كل ما هو سوفيتي، أحاول فقط أن أنبهك. لا أعرف! فأنت تعلم! ماذا يعني التقليد الروسي، أخبرني! في كلمتين فقط، دون ثرثرة، تعرف، دون أي ثرثرة.

- أمر صعب، تعصب ميتيا بشكل ملحوظ، كما هي العادة، يفقد الإنسان الإيقاع بحثًا عن الكلمات المناسبة، وعندما يعثر على الكلمة التي يحتاجها تفر هاربة، مرة بعد أخرى، ويتوجب حينها أن يعثر على كلمة أخرى، أسوأ وأضعف، ليدس يائسًا ملاحظة فاسدة، ويرتبك نهاية بفعل تلعثمه. لكل رؤيته الخاصة، هاينريش، عن التقاليد الروسية. يمكنك أن توجه سؤالاً إلى رجل مثقف من الماضي في محطة القطارات، لديه أيضًا رؤيته الخاصة. ربما، في كلمتين. لا أنا ولا أنت نملك تلك الرؤية على الإطلاق. ربما تعرضت الرؤية التي كانت في طريقها إلينا للبتر.

ضرب هاينريش على فخذيه.

- صديقي، لست بحاجة، إلى أية تقاليد، خاصة تلك الروسية، التي تعتبر بمثابة رؤية خاصة لكل فرد، تلك التي تعرضت للبتر، ولم يكن لها وجود في أي وقت، أنا، ولله الحمد، مواطن العالم، ولا أحتاج شيئًا، أيًّا كان، من شأنه أن يقيدني.

بعد أن أخذ هاينريش هدنة، وضع بهدوءٍ، ساقًا فوق أخرى، عدل من وضع رجل بنطاله، أمسكه وشده بحرص عند الثنية. بداية، ظل ينظر إلى لوسيا في المساء، وسرح في ركبتيها، وفي ذات الوقت انشغل بالهجوم على ميتيا بحماس كبير.

قال: "إنك إنسان غريب يا متيا". أنت تخترع روسيا وفق رؤيتك

الخاصة، رؤية حكاء. ابتدعت ما يسمى بالتقليد الروسي، تندد بيلتسين، كأنه بصقك في حساء البورش. خرب البلد، أفسد الأخلاق! هل هذا بجديد؟ متى اتصفت بالحكمة؟ أو لم تكن كسولة؟ أو دموية؟

– أرادت دائمًا.

– لكنها كانت عاجزة، أليس كذلك؟

– ما الضرر في هذا، إذا كان هذا بالضبط هو التقليد الروسي؟ في هذه الرغبة؟ في محاولة الانتصار على الذات؟

فرد هاينريش يده من فرط الدهشة، في حالة تأهب لقول تعليق قاتل، لكن لوسيا دفعت ميتيا في كتفه.

- ها هو صديقك أليج ظهر.

توقف الجدل. لم يتمكن ميتيا أن يعثر عليه بعينيه لوقت طال، رغم أنه كان يقف عند المدخل. رآه أخيرًا، نهض ولوَّح له بيده. أسرع أليج الخطى نحوهم. خطر على بال ميتيا فجأةً: "لم يزل يحمل أثرًا من تلك القرية تشوتشي"، متطلعًا لخطواته، وهو مشدود كوتر مربوط في مسطرة كبيرة على ظهره، ذراعاه يتأرجحان ميكانيكيًا.

– حلال مشاكلك، – قال هاينريش ضاحكًا. – تقليد آخر.

رفعت لوسيا قبضة يدها في وجه هاينريش اعتراضًا، وأشاح ميتيا لذات الغرض.

– اللعنة عليك، هاينريش، أومأ ستاس، ضربة تحت الحزام!

عرف ميتيا أليج بالجميع، وحاول الكل بلا طائل أن يمسك كفه الرشيق

بقوة، نهض ستاس من أجل مراسم التعارف، لم يجلس مجددًا إنما سار نحو البار بصحبة تعليقه المتوج:

- من - أي مشروب - الكمية؟

أراد الرجال شرب الفودكا، بينما طلبت لوسيا كولا. امتنع أليج عن الشرب بشكل قاطع.

- بعد إذنكم، ثانية واحدة، - قال ستاس وشد شفتيه بقوة: - سنتحدث، ثم أرحل. العام الجديد على الأبواب، وبعد ذلك! تبدأ الانتخابات بيريوكاف سيدخل سباق الانتخابات.

لحظة توقف سخيفة. كان وقع كلمات "الانتخابات" و"الترشح" كضيف حضر في وقت غير ملائم - ارتسمت على وجه هاينريش وفيتيا - فارينيك ولوسيا علامات التوتر. كأن هناك من تحدث إليهم بشكل مفاجئ بلغة غير مألوفة. حدق أليج في وجه ميتيا على نحو يحمل معاني كثيرة. نهض ميتيا من مكانه، وأليج في أعقابه، وذهبا إلى المخرج، أعطته لوسيا المعطف.

- الجو بارد هناك.

جلس اثنان على الطاولة أمام المنصة يحتسيان النبيذ الأحمر، حاول الرجل التحدث. طفاية السجائر كانت مملوءة عن آخرها.

الجو بارد في الخارج، لكنه كان هادئًا. آتت اللحظة المباركة، بعد انقضاء ساعة الذروة المسائية، تبدلت الهمهمة والجلبة بصوت خرخرة منتظمة. استنشقت الرئات الهواء البارد بشراهة.

- عمومًا، سيكون الأمر هكذا، - قال أليج - سيصير كل شيء جاهزًا في غضون أسبوع. سنذهب بعد أسبوع من أجل جواز سفرك في الأفير[١].

---

(١) مصلحة الهجرة.

تنفس ميتيا الصعداء. "الآن، اسأل عن التكلفة".

– كم يتكلف؟ سأل محاولاً أن يتحدث على نحو، بدا كأنه "حل" مثل تلك المشاكل مرات عديدة.

– أربعمائة، – قال أليج – لكن في الحقيقة بسعر اليوم، الأمر اليوم يتكلف ألفًا. منذ أن تقدمت بالطلب.

– أعرف، أعرف، تعجل ميتيا محاولاً أن يصدق على كلامه– ألف روبل، فهمت.

خشي ميتيا، أنه عقب المشادة الحامية مع هاينريش، وذلك التعليق الساخر "حلال مشاكلك"، تعسر أمر مناقشة مثل هذه الأمور مع أليج. ولكن، لحظه السعيد، لم يشعر بشيء من هذا؛ لذا كان من السهل عليه أن ينتقل من مناقشة التقاليد الروسية إلى حديث حول مبلغ الرشوة. كان أليج مقنعًا، اختار كلماته بعناية، كبنية معقدة، تعكس التصميم الذي وضعه برأسه.

– هذا يقتضي أن يكون المبلغ جاهزًا في الغد. ينتظرني خلال ساعات النهار لأحضر مع النقود.

أومأ ميتيا بالقصور الذاتي.

- موعدنا في الغد.

قال أليج مؤكدًا:

- موعدنا في الغد.

أومأ ميتيا مجددًا.

- اسمع، – قال ميتيا، شاعرًا بشيء من الحرج: هل في الإمكان أن أحضر النقود بعد أن ننهي الأمر، أي: في الصباح المائدة، وفي المساء النقود؟

لم ينطق أليج بكلمة واحدة، هز رأسه ووقف صامتًا، يحدق في عين ميتيا مباشرةً. زاد إحراج ميتيا، وعجز عن أن يرفع بصره في وجه أليج. هل عليه أن يعترف، أنه لا يملك أربعمائة دولارٍ، ولا يعلم من أين له بها حتى موعد الغد، هذا مستحيل.

– رد أليج بطريقة جافة.

– كلا، كلا! قال ميتيا: هل أنت واثق في هذا الرجل؟

– أنا! مئة بالمئة. دس يديه في جيوبه بعصبية. لست الأول، تعاملنا مع هذه المشكلة من قبل؛ أتفهم قلقك، لجأ إلينا أفراد عانوا من ذات المشكلة بالضبط. قدمنا لهم المساعدة. أتعجب، ما الذي جعل الأمر مبالغًا فيه على هذا النحو!

برزت يداه من جيوب البنطلون، وزحزحت طية صدر السترة للخلف، ليسحب جواز السفر، نظر ميتيا بذهن مشوش إلى جواز السفر المفتوح أمامه. وفي غسق المساء الأزرق، رأى حواف الختم المستطيل.

– زوجتي، مثلك، تأخرت، – قال أليج، وهو يخبئ جواز السفر: كان عليَّ تسوية الأمر. موعد حفل زفافنا كان في السابع عشر من ديسمبر، صدر جواز سفرها بعد أسبوع، بتاريخ قديم، السادس عشر من ديسمبر. تم ترتيب كل شيء. دفعت الرشوة مقدمًا بنفس الطريقة؛ هز أليج كتفيه، ثم وضع مرة أخرى يديه في جيوبه، وقال فوماتشييف: "عذرًا، أليج، لا مكان للصداقة في مثل هذه الأمور. لم أضع هذه القواعد، وليس بوسعي إلغاؤها". وهو محق: النظام؛ مثل هؤلاء الناس لا يؤمنون بفوارق بين الأصدقاء والأغراب. وأنا أعرفهم حق المعرفة. أنت هنا لست بصدد شراء كراسٍ، أليس كذلك؟ تركض

من طاولة إلى أخرى، سيدات تم استئجارهن لهذه المناسبة، ممن يغسلن الأطباق. تقرع الأطباق والكؤوس المكدسة في أكوام، هنا وهناك.

حدقت لوسيا في المشهد الجانبي لوجه ميتيا. لفت هذا انتباه ميتيا، لكنه ظل جالسًا، يحدق في القاعة. الإنسان الوحيد، الذي بإمكانه أن يقرض ميتيا مالاً، كانت لوسيا. لديها المال تدخره لشراء شقة.

في كل مرة يتحدث فيها إلى أليج، يدفعهُ كل شيء للشعور بالإثارة. إن إمكانية الحصول على جواز السفر تجعله يتحرق شوقًا، مثل شبق جنسي أصاب شابًا: هل كان من الأفضل، إذا اقتضى الأمر، لأجل إتمام تلك المهمة، الركض، الزحف، التسلق، الدخول في مسابقة ترياثلون، أم ماذا؟! بدا هذا للجسد أمرًا طبيعيًا. وهكذا أيقظت الرغبة في الحصول على جواز السفر في نفسه ذات الدوافع، إذن، كان من الأفضل، إذا اقتضى الأمر، لأجل إتمام تلك المهمة الزحف، التسلق، إلى مكان ما.

– ماذا قال؟ – سألت لوسيا، وهي تقترب من كتفه.

– كل شيء على ما يرام.

في أعقاب هذه الأفكار الخاصة بجواز السفر تولدت أفكار جديدة – لكنها تخص فانيا. لعله يملك الآن قدرة كاملة على المصافحة كالرجال. آخر مصافحة عندما أمسك فانيا يده كانت في مطار شيريميتيفا، ضغط يدي أبيه بقوة، كأن أصابعه تجمعت في كتلة واحدة، جفل فانيا بعينيه. "وداعًا يا بني". – "وداعًا". – "انظر، لا تنسَ أن تتصل بي، وتخبرني متى أستقبلك". – "اتفقنا يا أبي". وقف فانيا إلى جوار أمه، كمن يقف إلى جوار سيدة غريبة. صافح ميتيا مارينا. تطلعت إليه بنظرة شديدة العناد محاولة أن تسترق النظر

إلى وجهه، لكنه لم يلتفت إليها. ربما كانت تنوي أن تقول شيئًا. يشعر الآن بالأسف لأنه كان يوجه نظره للأرض.

أحضر ستاس الفودكا والتونيك. شرعا في الجدال حول ما إذا كنا أوروبيين أو آسيويين.

- إذن؟ - سألت لوسيا مجددًا، وهي جالسة بالقرب منهما. - أجبني ماذا قال؟

- قال، إن عليَّ أن أدفع المبلغ مقدمًا بعد ظهر الغد.

جلسا في صمت لوهلة. صارت الأجواء في القاعة هادئة تمامًا، غادر الضيوف.

- عليَّ الانصراف، ميتيا، أريد النوم. - مسحت لوسيا على ركبته. - ما من غناء اليوم.

وقفت، وأشارت إلى فيتيا - فارينيك: رجاء ترتيب الآلات.

- انتظري- أمسك ميتيا أصابعها، قام على إثرها - فلنذهب إلى بيتي؟

- أين زوجتك، على سفر مجددًا؟ رفعت حاجبيها في دهشة. - على ما أذكر، أنها عادت فقط يوم الجمعة. هل غادرت مرة أخرى قبيل رأس السنة؟

- أجل، أرسلوها في مهمة. انفجرت محطة التنقية في مكان ما في المنطقة الشمالية، أسمعت بهذا؟

- كلا.

- تعاقدوا مع مختبراتهم لأخذ العينات. هذا ما في الأمر.

أومأت لوسيا.

هيا! تبدو بائسًا جدًا. أو ربما مرهقًا.

استدار ستاس فجأة ناحيتهم.

- أوه، ستضبطك زوجتك يومًا ما. هؤلاء الجيولوجيون، أتعرفين، حاسمون. أشداء!

استدارت نحوه لوسيا واضعة كوبًا فوق رأسه. سحب ستاس رأسه فورًا، لكن تبين أن الكوب فارغ. فقط قطرتين يتيمتين سقطتا على رموشه.

- أنت إنسان فظ، - قال ميتيا. - والأغرب أنك عازف ساكسفون!

- فظ، - وافقه ستاس. - وهذا فقط عندما أكون ثملاً. لكني سأشعر بالخجل يوم الغد. وسأسعى لطلب المغفرة منكم. لكني لن أفعل، ولم هذا! سألعب مثل إله.

- سآتي خصيصًا لسماعك.

ارتدوا ملابسهم وانصرفوا. أمسكت لوسيا ذراعه:

- هل لي أن أفعل؟ لن يلاحظ أحد، كما حدث آخر مرة.

وضعت لوسيا يديه عبر نهدها، وضغطت معطفها على مرفقه. يتصاعد من جدران المنازل عن اليسار وعن اليمين، في قلب السماء المعتمة، درب طويل مستقيم، غارق في منظور أسود. ماذا لو كان ما بينهما حدث بشكل مغاير، في الواقع، دون تلك النوستالجيا الطفيلية التي أصابت حياته. تدافعت الأفكار المجنونة في رأسه: إنهاء اللعبة الحمقاء، خطفها وإخبارها بالحقيقة، الاعتراف أن حياته بلا أي مارينا، إخبارها عن فانيا، عن كريستوف، عن أوسلو. ضغط ميتيا ذراعها بمرفقه أكثر، فكر: لوسكا، لوسكا، سامحيني. لقد ضللت تمامًا. حتى الوصول إلى التاكسي الذي يقف عند الزاوية، المسافة قريبة. قالت بعد أن سرنا عدة خطوات، فجأة:

– ميتيا، يمكنك أخذ المبلغ المطلوب مني. صباح الغد، سأصرفه من دفتر التوفير.

بلوز لوسيا.

– عاهرة! – تنطق هذه الكلمة حيثما اتفق – بقسوة، وليس بغضب أنثوي.

ومض الفانوس مجددًا ليسقط شعاعًا باهتًا أصفر اللون. القبو بدوره، ذلك الملثم بجدران وظلال سود، غاص في الظلام. تفرغ البطارية – عندما تكون في أشد الحاجة إليه. أوقات غير مناسبة على الإطلاق.

- أوي – أوي – أوي، – تنهّدت كأنها تغني.

أمسكت بطرف ردائها الخاص بالحفلات – رداء العمل، كما أطلقت عليه، – نزلت لوسيا الدرجات الأسمنتية العارية. قال أرسين شيئًا، بخصوص السؤال عن سبب تعطل المصابيح في الممر بعد الترميم، تردد صدى الشتائم الأرمنية إلى مسامعه. أعجبتها تلك العبارات، التي تشبه طبل علق في الحلق. هوت الاستماع إلى الشتائم الأجنبية. بدت لها تلك التعابير الفائرة مضحكة: شتائم فارغة، شتائم خالية من محتوى قذر، – مجرد دفقات طاقة عارية من الكلمات النابية.

كان ضوء المصباح خافتًا، تناثرت منه أشعة سائلة على الأطراف، لإرهاب الفئران. ومع غرق درجات السلم خلفها، واصلت الغناء.

"دون أن يخلع المعطف، أو تضع المظلة المبتلة، أو تعري الروح".

ربما حان وقت البلوز. تغني لنفسها على مدار اليوم. في مثل هذه الأيام، كان التشتت يصيبها أحيانًا، يطلق عليها ميتيا "نصف – لوسيا" وينزع

من يديها الأواني الزجاجية. حان أوان البلوز، مجهدًا، هائمًا في الرأس، مثل تفاحة ثقيلة، على وشك الانفجار. أعجبتها تلك الحالة. عندما تسيطر البلوز على الرأس. من قديم الأزل، عندما كانت مع هاينريش، تقاسمت معه ما يشغلها. كانا يرقدان، ويتطلّعان إلى القمر في النافذة المفتوحة، ويدخنان. كان شعورًا جيدًا، أن ترقد، تدخن، وتنظر إلى القمر. بينما يتطلع القمر بذهن شارد إلى الراقدين فوق السرير، ينظر الناس إليه بذات الشرود. وغنت لوسيا لهنري أغاني البلوز المفضلة لديها. وهو يستمع صامتًا، وألقى "عقب السيجارة" من النافذة، ثم قال:

– كيف يمكن غناء البلوز باللغة الروسية، هذا غريب، من حيث المبدأ؟ بالتأكيد، هناك بعض الاستثناءات، ولكن؟ رجاء المعذرة.

امتنعت عن العودة لهذا مجددًا. ربما غير الآن موقفه تجاه غناء البلوز باللغة الروسية. قال ذات مرة: "ربما، نجرب أغانيك؟" أجابت، بأنها لم تكتب شيئًا منذ فترة طويلة، والقديم واراه النسيان. نجحت بالفعل في نسيان الكثير.

من بدأ أغاني البلوز الخاصة بها مواطن، على الأرجح، متقاعد وحيد، يتجول قبل النوم. حافظ على نفسه جيدًا – في حالة متقاعد لا يطاق. يأخذ المظلة ويتجول في الشوارع. يحافظ على مستوى نظافة في المطبخ كما في المختبرات، يمسح الأثاث بمنظف له رائحة الخوخ، يصف الأحذية في صف واحد، ينتظره حتى يعود. على الأرجح، هكذا كانت تراه. جلس المواطن وهو يرتدي معطف المطر، بينما يتكئ بذراعه على مقبض المظلة، التي تتساقط منها قطرات المطر، وهو يحاول ألا ينخر بحذائه في الوحل الراكد أسفل الطاولة. كان مباشرًا ومحل ثقة، لا ينحرف عن الطريق ولو من قبيل المصادفة. رأته كجنرال متقاعد. اقتربت لوسيا من الميكروفون، وتطلعت إلى

القاعة، رصدته عيناها – توجب عليها أن تلوح لهاينريش، حتى يلعب أغنية "Dead Road Blues" مرة أخرى: سرحت.

جلس في "أبارات" خمس دقائق فقط. نظر إلى الوحل تحت الطاولة ثم خرج.

"دون أن تتعرَّى الروح؟" نسيت الكوبليه التالي والذي يليه.

– هل تحب الفئران؟

في كثير من الأحيان، يكون مستمعوها الأوائل من الفئران. تلمع ظلال الذيول تحت المواسير، تعدو عبر الممر تحت بقع الضوء الصفراء. من الضروري التماس أن تُسمم تلك الفئران. فقد زاد عددهم في الآونة الأخيرة بشكل ملحوظ. ربما توفر عاملة النظافة في السم، أو أن الفئران اعتادت عليه. ورغم هذا، فإنها، من ناحية أخرى، تشعر بالتوتر الدائم بفعل ظلال الذيول هذه.

"دون أن تتعرى الروح". عجزت عن تذكر المقاطع التالية. كانت تحفظها عن ظهر قلب، كانت في رأسها – وتحبها. كتبتها بالأمس، وسط دخان السجائر، مع رشفات الفودكا المرة بالتونيك، أثناء شجار ميتيا وهاينريش. طال الشجار بينهما؛ لذا شربت من الفودكا كمية كبيرة. بعدها ظهر المدعو أليج. يبدو أنه خسيس، ولكنه لسبب ما قرر أن يمد يد العون لزميل دراسة سابق. رحلت بصحبة ميتيا، ذلك لأن زوجته الجيولوجية اللغز لم تكن في المنزل مجددًا، وتعالى صوت دقات قلبه المرتبكة، وبالطبع لأن وجه ميتيا بدا متهالكًا مرة أخرى، كأنه لم يلحق بقطاره في محطة الترانزيت.

– عاهرة! – كررتها مرة أخرى، لكنها كانت تائهة حزينة هذه المرة.

بعد أن اجتازت البرك الداكنة؛ حيث تساقطت قطرات المطر من السقف، حاولت أن تضيء تحت المواسير، خلف ظهرها، لذا لم تتبين، أين تضع قدمها. انخدش كعبها أثناء سيرها في حيرة فوق الخرسانة. اختفت البرك أخيرًا، وصار بإمكانها السير، وهي تتبيَّن موقع قدمها بفعل الضوء. إنها راضية، من حيث المبدأ، بهذا القبو. الوصول إليها هنا ليس بالأمر اليسير، في الواقع. الفئران في كل مكان. شيئًا فشيئًا تعلمت لوسيا العيش بصحبة الفئران. إنهم يشتمون رائحة الرعب – بإمكانهم الهجوم، وهذا ما علق بذاكرتها بكل قوة. يا للهول! تلك هي كلمات الأم الوحيدة التي سكنت في الذاكرة. كانت تبلغ من العمر ست سنوات، تلهو مع دميتها كاتيا بالقرب من السلم، عندما قفزت العمة زينا بشكل مفاجئ من قبو الفحم بصرخة مفزعة، في سحابة بيضاء من الكلور. لم تتعرف إليها لوسيا من أول وهلة، بنبرة صوت غير متوقعة، على غير العادة، حيث صوتها يخرج مجلجلاً، يشبه الأزيز، القرقرة. ركضت العمة زينا عبر الباحة. غادرت سحابة الكلور جوالاً نصف فارغ، والذي طرحته في كل الاتجاهات – ربما لم يخطر على بالها أن تتخلص منها. بعد أن رفع الفأر ذيله عاليًا بسرعة، كما يفعل الكلاب، فوق ساقين مختالين، هرب. كان عددهم خمسة أو ستة، ولكن بدوا كأنهم ملأوا الباحة بأكملها. أصدروا أصواتًا دقيقة بأسنانهم، ومن حين إلى آخر، باندفاع، كأن هناك من أطلق النار عليهم، يتقافزون إلى أعلى. حينئذ، وبخفة حركة غير مفاجئة، ركضت العمة زينة بعيدًا عن ذلك الطوفان. يعودون أدراجهم. ركضوا هنا وهناك، بينما تهتز شواربهم، وتطلعوا إلى زبلهم الأسود جهة البوابة، الذي تسبَّب في ملاحقة وابل لعنات العمة زينا الشرسة لهم، وسارت إلى البدروم. لمع المسحوق الأبيض، فوق ظهورهم المنحنية، في ضوء الشمس. وقفت الأم على السلالم، ولوحت بيديها المبتلتين للعمة زينا عبر الباحة:

- إنهم يشتمون رائحة الرعب - بإمكانهم الهجوم! ما رأيك؟

عند حلول الليل، رأت لوسيا في الحلم، الفئران تتجول في الباحة في وضح النهار، وتتسلق السلم، وهم يضحكون لسبب ما، تجمعوا في دائرة محدودة، يدخنون ويفتحون البيرة فوق الدرابزين الحديدي.

لم يكن من الضروري أن نمشي مسافة كبيرة، حتى صمام الغاز والاتجاه يميناً. غاز المصباح، وعندما هزته سقط على البقع الصفراء القاتمة على السوداء.

- كفى أيها الفئران، انتهى الحفل.

لمع ضوء باب كبينة سابقة خافتاً عبر نافذة صغيرة في طريق مسدود على اليسار. اخترقت النافذة الرصيف مباشرة تحت الفانوس، هاجمت ظلال المارة الداكنة النافذة مثل كسوف عابر. ومثل أفلام هوليوود عن عالم الاستعراض، على الباب - نجم ذهبي كبير. رسمته بيدها، ليبدو معوجًا قليلاً. أمسك فيتيا - فارينيك علبة طلاء وهز رأسه. "لوسيا، إنك متطرفة!" أمام الباب، علق على الجدار، كما في عربات القطار، لوحة بارزة منقوشاً عليها كلمة غامضة "ديفيكتوسكوب"[١]. أحد أقدم وأحب النماذج في مجموعتها. وفي ليلة من الليالي، بينما ترتدي ملابس سوداء، مثل النينجا، تسللت إلى محة القطارات، حيث تعبر الجسر الحديدي كل صباح في طريقها إلى الكونسرفاتوار، نزعت ذات مرة هذه اللوحة التي سحرتها من عربة القطار. سقطت اللوحة، لتبدو خرقاء، لأن الصوت أيقظ الحارس، الجالس في الطرف البعيد من المحطة. هرع الحارس إثر سقوط اللوحة، وسقط على قدم

---

(١) كاشف الخلل.

واستدعى المدعو بيلكا. ولحظ لوسيا السعيد، لم يظهر بيلكا في الأفق؛ أما هي فهربت من فتحة في السور الحجري. لم تكن هذه الواقعة هي المغامرة الأكثر خطورة لتحقيق ميدالية، لسبب ما تعثر الحارس وسقط. ربما الرعب المفاجئ الذي أصابها من جراء سقوط اللوحة، أو قد يكون شفقة على الحارس المسكين، الذي كان يطاردها، وسقط بشدة على ساقه، أو ربما يعود السبب إلى التغير الحاد في الروائح: رائحة المازوت النافق في محطة القطارات. - رائحة زهور الليلاك في الحارة، التي غاصت فيها، ثم خرجت.

في حجرتها، كان الضوء مبهرًا بشكل قد يسبب ألمًا حادًّا للعين. مثل ذلك الألم الذي يصيب مريض الأسنان في فمه وهو جالس في صالة استقبال المرضى عند طبيب الأسنان. إنها تشتري أقوى المصابيح. تتلألأ كل أصناف اللوحات الممكنة، المنتشرة فوق جميع الجدران، وعلى الطاولة دفاتر وقواميس لغة إنجليزية – لغة روسية. امتلأ ذلك البوفية البالي ذو الأبواب الزجاجية بالأحذية. غطت لوسيا الباب بشكل محكم، ووضعت لوحًا من خشب الأبلكاج مكتوبًا عليه "احذر، ميدان رماية". برز لوح الخشب نحو البوفيه، لكنه، على أي حال، بقي مستلقيًا في وضع غير مريح بالمرة. أطفأت، أخيرًا، المصباح ذا الضوء المبهر وسارت نحو التكعيبة. خفضت رأسها ببطء وتطلعت إلى عيني صورتها المنعكسة على المرآة – عابسة، جادة، كأنها توقعت أن ترى شيئًا ذا أهمية.

- النجاة من المطر، كحلم خبيث، أشاحت بوجهها عن المرآة مبتعدة بعد أن تذكرت فجأة.

بالضبط! في تلك اللحظة تطلعت إلى ميتيا ولا تعرف سببًا مقنعًا يبرر تذكرها، أنها رأت حلمًا بشعًا في الليلة الماضية: يصلون إلى بيته، حيث،

لسبب ما، هناك في الدولاب تجلس مارينا، في ثوب غريب من الكانافا، زوجته! يركضون عبر أقطان النوم، بينما مارينا تحاول اللحاق بهم. قال ميتيا صارخًا: "هذا لأنها تركض دائمًا في الصباح"، - وعندما تدركهم في النهاية، يستديرون، ليتبين أنها لم تكن مارينا التي كانت في إثرهم، بل إنها أم لوسيا، اللئيمة، التي تضع طلاء شفاه أحمر اللون، وقد لطخ يدها كذلك، حاملة في إحدى يديها سكين مطبخ، وفي الأخرى بطاطس لم تنته من تقشيرها بعد.

تمامًا: "النجاة من المطر، كحلم خبيث". تبقّى مقطع رابع. "دون أن يخلع معطف المطر، أو يخفي المظلة المبتلة، أو يعري الروح. النجاة من المطر، كحلم خبيث، في انتظار الحياة، مثل تمهل المساء".

"هل عليَّ أن أسجل، أم ماذا؟" - فكرت مجددًا، لكنها كسابقتها لم تفعل.

بعد أن عادت أمها من الشارع وطردتها، استقرت لوسيا هنا في بدروم "أبارات". لم تغادر لأن أمها طردتها. عندما حملت أمها سكين البطاطس، اختبأت في الغرفة - "اخرجي من هنا... يا ابنة الأفريقي!" - كانت لوسيا تقف بالفعل عند الباب حاملة حقيبة سفر، وشنطة يد، وفي الأسفل، انتظرها فيتيا وهاينريش مع مقتنياتها التي وضعت في كراتين. سقطت من السكين بقايا قشر البطاطس على الحقيبة. ربما ناقشت على طاولة المطبخ التي غطتها أوراق الألومنيوم، مصير المسكن. فاحت رائحة البطاطس المحمرة، وتعالى صوت طقطقة الزيت المغلي. هناك عند مدخل باب المطبخ، همهمات مهتاجة متسائلة: هل ستطعنها أم لا؟ أصاب الذهول لوسيا: إنها، في الواقع، لا زالت تحتفظ بها في بيت النمل الحجري.

طقطق الزيت – يوميًا يطقطق الزيت: من يقلي البطاطس أو يعد البيض المخفوق أو السجق أو اللانشون. كأنها قفزت في هواء نوفمبر البارد ونظرت من هناك إلى أسفل، عبر الأسطح الشفافة. صارت المصابيح بفعل الغبار أحجارًا رمادية أمام النافذة المتعكرة، تطفو ذبابات صغيرة باهتة، ومن حين إلى آخر تطن ذبابة زمردية كبيرة بقوة، تخترق السرب الناعس وتتوارى خلف المنعطف. يحاول أحد الأشخاص الذي يرتدي معطفًا جميع أزراره مفتوحة، أن يهرب زجاجة بالقرب من المطبخ دون أن يلمحه أحد من الجيران. خلف الباب المفتوح، فاشل آخر يبكي ويسيل المخاط من أنفه، الذي وجد نفسه من مواليد الباستيل، في حارة براتسكي، رقم ٢٤.

قالوا في الممر: "السكين بارد. اللعنة، من يعرف ماذا سيحدث". أضافوا: بإمكان لوسيا أن تقيدها، بالفعل".

– انصرفي، في داهية، أيتها العاهرة، عاهرة بمعنى الكلمة.

ارتبكت لوسيا قليلاً، ذلك لأن أمها سدت عليها الطريق. حبست أنفاسها حتى تشم، تلك الرائحة الحادة، التي تشبه رائحة حيوان، رائحة الغجر التي تفوح من أمها، مرت لوسيا بجوارها، ثم سحبت حقيبة السفر التي تسير على عجلات. اصطدمت الحقيبة بركبة أمها.

– في داهية!

– ابتعدي، أفسحي لتمر الحقيبة.

– ماذا تريدين مني؟ أيتها العاهرة؟!

– الحقيبة، أقول لك، لا تمر.

– أها....

ساعدتها أمها في تمرير الحقيبة عبر العتبة.

وهكذا كان وداعهم.

قال ستاس: "فقدت عقلها، يا لوسيا. لماذا لا تستأجرين شقة؟". امتلأ قلب كل منهم بالشجاعة، انطلقوا للشرب والضحك أغلب الأوقات. في ملهى "أبارات"، كانت حفلتهم الموسيقية الأولى على الراديو. وضعوا الخطط وقرروا الذهاب إلى موسكو. لمعت النجوم أمامهم برقة وزجاجات أنيقة بظلال ناعمة. ذكريات الصافرات والتصفيق في ملهى "أبارات"، عند افتتاحه، كان من اليسير أن يساورهم الحلم بحياة ناعمة رغدة. حياة ناعمة رغدة على أنغام أغاني الجياع المريرة.

حتى أرسين، عندما فسرت له، أنها تريد أن تسكن في البدروم، لف أصابعه على كأس الويسكي. قال فيتيا – فارينيك: "بالتأكيد، هذا أمر جدير بالاهتمام، أختي العزيزة، لكن لماذا عليك أن تفعلي هذا بحق السماء؟" ثم انتقل الجميع، وخاصة فيتيا – فارينيك للحديث عن موسيقى البلوز، كأنهم يتحدثون عن دين اعتنقوه لتوهم. ستاس وهاينريش، المعتقلان، حيث فقد كلاهما مكانه مؤخرًا في رباعي جاز نتيجة لتلك القصة الصاخبة، عندما لكم عازف الترومبيت المخمور، الذي فشل في العزف، بآلة النفخ، التي وضعها تحت مرفقه، خلف الكواليس: آلة النفخ يملكها مدير الفيلهارموني. وهب فيتيا – فارينيك، عاشق الجيتار نفسه لموسيقى البلوز بصدق: "لماذا لا تستأجرين كوخًا، وتعيشين مثل باقي البشر. عاشق البلوز – ليس بمجنون، أتفهمين؟ ربما يحيا حياة سيئة؛ لكنه يحلم بحياة أفضل، أتفهمين؟" امتنعت عن تفسير شيء له. لا مفر – يسألون، لكنهم هم أنفسهم لا ينصتون. ينصتون إليها فقط عندما تغني؛ حيث إنها، مبدئيًّا: تترجم كل أغنية بلوز جديدة وهو ما يستغرق

وقتًا طويلاً وتستخدم دستة قواميس، للبحث عن كلمات زنجية بعينها، وبالكاد تعثر في كل مرة على شخص أو اثنين بين المستمعين ممن يعرفون اللغة الإنجليزية.

وهي في أوقات كثيرة تضطر إلى سماع آخرين. إنهم يحفزونها، يحاولون إقناعها، تعليمها أسلوب حياة لإنقاذها من خطأ فادح جديد. تستمع بأناة. تستمع – بينما العالم، الواضح المفهوم، يقف أمامها رزينًا دون أن ينحرف جانبًا، مانحًا لنفسه الحق في النظر واللمس. "لوسيا، – يقول هاينريش على انفراد بحق كونه عشيقها السابق. – "توقفي عن التجريب في نفسك، لست ضفدعًا. أتريدين أن نمرِّر التيار الكهربائي من خلال جسدك– لم تريدين العيش في البدروم؟" وبما أن هاينريش، الحبيب السابق، مثاليًّا. غير مسموح بالألغاز مع الغرباء، التحرشات الناجمة عن الفراغ مرفوضة. حتى ستاس وفيتيا – فارينيك، اللذان ظهرا في ملهى "أبارات" بعد، أن وصلت قصتهما إلى الصفحة الأخيرة، دون أي إشارات تشي بما كان بينهما. هاينريش – رجل نموذجي، ربما ليس لها أن تهوى رجلاً مثاليًّا. أمر محزن، أنها لم تشعر معه بما شعرت به مع متييا.

قبل عودة ميتيا بعد غياب طال، دخل حياتها العديد من الرجال. حياة هائمة، فرار متواصل، ومتاعب، كانت بمثابة تسلية لها. علقت في قصص لها العجب، واعدت رجال غريبي الأطوار. ذات مرة، مارست الجنس مع زائر من العاصمة يعمل دي چيه، لكمها صباح اليوم التالي في عينها، بعد أن استفاق، حيث اتهمها بسرقة ميكروفون. "آه، لوسكا، هل يعقل أن تكون الأمور على هذا النحو العشوائي؟ – ستاس يتحدث. – هل يعقل أن تمارسي الجنس مع دي جيه؟! ربما يكون الأمر مقبولاً لو حدث مع عازف ساكسفون،

كملاذ أخير. لكن مع دي جيه!.." مر أسبوعان حتى زالت الكدمة. زارها ستاس في الخندق (البدروم)، أحضر لها طعامًا، صنع لها كمادات، وقضى لها بعض الحاجات. "آه يا لوسيا! تعيشين حياتك، كما اتفق.. اللعنة! – ثم أضاف لسبب ما: – رأيت ذات مرة مثل هذا المشهد البشع: حاول ضريران الشجار أتصدقين؟".

لم تعتقد، أن ميتيا سيغيب لفترة طويلة. بعد مرور سنوات عديدة، بعد أن احترق كل شيء منذ أجل بعيد، انتظرت لوسيا من الرواية التي جمعتها بهذا الصديق القديم نهاية مغايرة تمامًا. في المطبخ الدافئِ، في صباح غائم، حمل حزنًا خفيفًا، تحت هسهسة المصابيح والأفرع في النافذة. ربما الهدوء الذي يسبق العاصفة: احترق كل شيء، كل شيء احترق، لكن لا داع للخوف، لن تحترق. ممارسة الجنس مع شخص، جمع الحب بينكما، للتأكد، أنك لم تعد تحمل له أي مشاعر، كان قرارًا صائبًا. كانت متيقنة، من أن ما حدث، كان كما توقعت. أنها لو أمسكت وجهه بين يديها، ستقول له، مثل طفل سيئ السلوك، سامحته: "أوه، بغيض". لم تقلها.

– لوسيا، فلنذهب عندي؟ في؟

– أتقصد، في السرير؟

– في ضيافتي؟

– أوه، ميتيا، يبدو على وجهك الحماقة.

صحبت ميتيا للبيت ببساطة، وظلت تسخر من خجله الذي بدا كقيد، حتى إنها قررت ألا تلغي ميعادها مع الشاب سلافا في اليوم التالي، ولكن في اليوم التالي، عجزت لوسيا عن تصور أنها ستذهب لموعد غرامي مع الشاب

سلافا، ولذا قررت عدم الذهاب. ظلت حتى المساء في البدروم، تلعب على الجيتار. داعبها الأمل لفترة من الزمن، أحست، دون أن يساورها شك، بركضه الرشيق، الذي دفعها مثل سيارة تسير بأقصى سرعة على الطريق السريع – ما إن تغفو، ثم تفتح عينيك، ترى في النوافذ صورًا ظلية ممزقة قذرة، تدرك: أنهما لم يصلا بعد – ثم تعود مجددًا للنوم. كان ينبغي عليهما إلغاء تلك المسافة التي عزلت أحدهما عن الآخر على مدار سنوات عديدة. ما اتضح في الواقع أن ميتيا لم يذهب بعيدًا، لكنه ظل واقفًا هناك، في ذات المكان تمامًا، حيث افترقا ذات يوم. في ذلك المساء، عندما وقف أمامها عاريًا، ممسكًا بيدها تملأ عينيه نظرة ساحرة، سرت رعشة في جسدها: إنه هو ميتيا ذاته، ذلك الفتى المضطرب في ظلام مدينة غريبة. بدت لوسيا إلى جواره، على عهدها، ذات الفتاة، التي جفت حياتها في انتظار عودته، ولم يعرف، كتبت له خصيصًا قصائد شعر حمقاء تتنهد بما في صدرها من مشاعر تجاهه، لكنها لم تطلعه عليها قط.

– إنك تحبين الرجال بتجرد. أنت امرأة شبقة، لكنك تملكين إرادة فولانية.

ها هو هاينريش، ثملاً. كلا، لا يمكن أن نعتبرها امرأة شبقة. امرأة شبقة مثل مفتاح الكهرباء: ما إن تلمسه ينير المصباح. لا، لو كانت شبقة، لم تكن لترفض أرسين. أو حتى تستخدم رشاشة الفلفل. آنذاك حزن آرسين للغاية، عندما جلس، مغلق العينين: بكرش كبير، وشارب، أصابه العمى – مثل حيوان الخلد في الشمس – يعطس بين الكلمات، كان مصدومًا:

– اسمع؟ لماذا؟ هكذا بسرعة؟ اللغة الروسية؟ ألا تعرفها؟ الشرح؟ أعجزت عن الشرح؟!

بعد أن قل معدل العطس، مسحت عيناه بالزيت، ثم قالت:

- والجينز؟ لماذا تمزقه - بهذا الشكل المتسرع؟! اللغة الروسية؟ ألا تعرفها؟! ألم يكن بإمكانك أن تسأل؟

- أها، حتى لو سألت، هل ستمنحيني ما أريد؟

- كلا.

- إذن؟ عادت مجددًا للمرآة ونظرت بجدية لصورتها المنعكسة. أرادت أن تمشط شعرها، لكن هذا تطلب توافر الرغبة. شعرها - قصة تمرد وضيعة غامضة، تستهلك من الوقت والأعصاب الكثير. هذا الشعر لا يقهر. تتسحب ببساطة من مشابك الشعر، وإذا قصته، وبعد أول استحمام بعد قصه، يقف متجعدًا فوق رأسها مثل انفجار كستنائي. في كل مساء تخرج لملاقاة الناس بشعر ممشط سلس، رأسها - تشبه رأس عود الثقاب. بعد مرور ساعتين، إذا لم تغادر لبعض الوقت، لإصلاح شعرها، يصبح مثل ليف الاستحمام فوق الرأس. تذكرت المدرسة الابتدائية، تلك الأوقات العصيبة، عندما لم يكن شعرها قد خضع بعد لأي نوع من "الكيمياء"، لفتت انتباه الأولاد السمج. وقبل أن تخلد للنوم، تزيل عن شعرها العلكة، الزغب الشائك، وتفرك وتزيل رقاقات الجبس من شعرها وتقسم في المرة القادمة أن تنتبه وألا تسمح لأحد أن يقترب منها مرة أخرى.

عندما اصطحبتها أمها للمرة الأولى إلى مصففة الشعر، لم تتوافر لديه وسيلة لفرد الشعر.

- كلا؟ ولماذا؟

- ما الداعي؟

- ما تقصد بما الداعي؟

– تريدينه مجعدًا – على الرحب والسعة. رجاء التسجيل. الميعاد بعد أسبوع.

– نريد تسويته. ماذا بك، ألا ترين؟

– أرى، كان الأولى بك التفكير في وقت سابق.

وبالنظر في المرآة إلى شعرها الذي يشبه "صوف الخراف"، تمتمت مصففة الشعر في أعقابهم: "يفسدونه، ثم يبدأ الحفل: نريد تسويته، تخفيفه". تظاهرت أمها أنها لم تسمع شيئًا. وبينما تغادر لوسيا، نزعت لافتة من فوق الطاولة مكتوب عليها "أنت في أيد أمينة مع البارعة سوشكوفا اس. ايه" وشعرت وكأنها ساحرة بارعة قامت بسرقة اسم مصففة شعر قميئة. بعد تلك الزيارة إلى مصففة الشعر، بالغت أمها في الشرب، في واحدة من المرات التي شربت فيها حتى الثمالة. ولمدة أسبوع كامل، عاشت لوسيا مع العمة زينا في شقتها.

صندوق لامع، ربطت فوقه سيدة سمراء جديلة من الحرير السميك، وبعد مرور ستة أشهر، "نزعتها" أمها بصعوبة لتعلقها على "شجرة البتولا".

- تنهدت، – سأمنح تلك المجنونة نقودًا، بعد أن فتحت وأغلقت محفظتها. – ربما تجرب حلاقته.

لم ينقذ لوسيا سوى العمة زينا.

- إلى الجحيم يا ليسكوفا، – قالت لأمها ما إن علمت بخطتها بعد أن سمعتها في المطبخ تفكر أن تحلق رأس ابنتها صلعاء. – سينمو الشعر بشكل مختلف عما هو عليه.

تلك السيدة السمراء صاحبة الصندوق، ذات الشعر المجدول، التي وضعت فوق كتفها بحرص حبلاً سميكًا وأنيقًا، شهدت بشكل قاطع لا شك فيه

بأن لوسيا ليست بيضاء، ولأجل أن تعيش بين البيض، لا بديل عن بعض الإجراءات الإضافية. "مولاتكا"، - فكرت للمرة الأولى بشكل مختلف في نفسها. شرعت تتذكر الأغاني التي غنتها عن المولاتكا. تواردت إلى ذاكرتها العديد من أغنيات القراصنة والرعاة، وفي كل تلك الأغنيات عن المولاتكا هناك شيء عظيم، حينها أقرت لوسيا بحقيقة تؤمن بها، أنه أمر أكثر من رائع - أن تكون مولاتكا، لكن عليها أن تسوي شعرها، حتى لا يلقي عليه الصبية الجبس.

من المؤسف، أن أغلى المستحضرات "الكيميائية" لا تكفي سوى لمدة شهر.

وضعت الجيل على المشط، بحركات آلية، جفلت وهي تسحب شعرها من جبهتها نحو مؤخرة الرأس، ممسكة بشعرها الممشط بيدها الأخرى، وضغطته بقبضتها.

"ما الجدوى، مبدئيًا، من غناء البلوز باللغة الروسية"، - قال هاينريش. لماذا اتجهت لغناء أغاني البلوز من الأساس؟ ربما، بسببه. غنتها للمرة الأولى لأجله، لنيل إعجابه، أثناء زيارة لأصدقائه. في الكونسرفاتوار، لم تهتم مطلقًا بأغاني البلوز. حاولت، شأنها شأن الجميع، نفخت لتدريب الأذن، وتعلمت تقنية إخراج الصوت. ولكن، أحيانًا في المحاضرات الصوتية، بعد أن سمع بيوتر ميفيستوفيليفتش صوتها لبضع دقائق، يضرب بقدميه ويهمس (آثار ضيق تنفس): "ستوب! ما هذا العواء؟ في هارلم! أم في الحانة!" - ويلوح بيديه بشكل مسرحي، ويخرج مسرعًا من القاعة. لم يحب الفتيات مطلقًا ويصرخ في وجه الجميع. "إلى السوق! إلى تجارة الرنجة! من قبلكم هنا؟ من فعلها؟" لكن في الحقيقة لم يعره أحد اهتمامًا كبيرًا. العديد من المحاضرين بمنتهى البساطة كانوا يتجنبونه ويغلقون على أنفسهم بالقفل بعيدًا

عنه. أما ما يخص هارلم والحانة، فقد اختصها هي بالتحديد بهذا. عنده بدأ كل شيء.

تذكرت الكوبليه الثاني. "والقلب – حمل هالك، ممتد، سير ليلي طويل. ابصق على كل شيء: هنا تباع موسيقى البلوز. والفودكا".

تتذكر، لسبب ما، كل شيء يحيط بها في تلك اللحظة، عندما يأتي في رأسها بيت جديد. هطل المطر من جديد في ذلك اليوم طويلاً. رقدت فوق الأريكة، وألقت قدميها داخل الجوارب الدافئة على المرآة، أوحى المطر المسائي ذات مرة أن أمها لن تأتي للبيت للمبيت. لم تكن تحب أن تعود من العمل تحت المطر. هنا، تحت الأرض، بدا صوت المطر جافًا على نحو غير عادي، كأنه تشكل من حبيبات رمل. لا ينهمر، لا ينقط، أو يتمتم، لم يقرع كالطبل، كما هو الحال أغلب الأوقات مع هطول المطر في الأغاني، – إنه يخشخش في رتابة. لم تلحظ لوسيا قبل ذلك، كيف أن صوت المطر هنا يبدو غير عادي. خشخشة المطر تحت الأرض بدت مغايرة لصوته فوق الأرض، وهو في العادة معبر للغاية، ويبدو في الحقيقة رفقة ليست بالسيئة. ألفت لوسيا مثل هذه الرفقة مرارًا. أثناء الليل – صنبور يتسرب منه الماء، إيقاع مفاجئ يطرق على الحوض بانتظام دقيق، الهواء في الغلاية، يمزج بصعوبة بين الصفير والهمهمة. في الصباحات – يسمع صرير أرجوحة صدئ، تجلس عليها تلك الفتاة، التي أحبت بشدة أن تتأرجح قبل الذهاب إلى المدرسة، قبل أن تبدأ جدتها في الصراخ من الشرفة: "هيا إلى المدرسة!" تمنت لوسيا لفترة طويلة أن تصادق تلك الفتاة. مصعد متهالك، يهز جدران كابينة المنجم، التي يمكن رؤيتها، من النافذة. رافعة، تنفذ أعمال بناء مباشرة فوق رأسك في مكان ما، يأتي إلى مسامعك من هناك، خلف الجدار، صرير سرير، جار من

رجال المرور نظر خفية قبل استهلال عمله لجارته، وبالطبع، أحدثت عجلات العربة ضجة.

بينما تمسك ضفيرتها بإحكام بقبضة يدها، أخذت بيدها الخالية دبوس الشعر المعدني من فوق الطاولة. ضغطت على الدبوس- صار الشعر ملمومًا. شغلت لوسيا مجفف الشعر، وبدأت تسوي أطراف شعرها لتصير مستوية ناعمة، وقد أصبحت لامعة ملبدة بفعل الچل.

بعد أن تفرغت من تصفيف شعرها، أخذت لوسيا الجيتار من على الحائط. أخرجت من بين أكوام من الفكة في زهرية صغيرة الحجم ريشة العزف. تبين أن ريشة العزف اعوجت، وما كان من لوسيا إلا أن أعادتها مكانها، ثم بحرص حتى لا تفسد طلاء الأظافر، بدأت تلعب على الأوتار بأصابعها.

"أدمنت بيع الحزن. مهتاجًا - أليس كذلك - من أثر تلك الأصوات. تنتظر، قدوم قواد البيانو ليقدم خدماتي للجمهور".

قد تكون هذه هي البداية. الكوبليه الأول أداء منفرد دون الآت، بصوت خفيض. ثم صعود، وما إن يتصاعد الصوت قليلاً، حتى يبدأ البيانو العزف. على الرغم من أنها لن تغني هذا البلوز على البيانو أبدًا. وبالمثل، لن تفعل مع أي أغاني بلوز أخرى.

ضبطت لوسيا نفسها، مرة أخرى، وهي تتأمل انعكاس صورتها في المرآة. صارت صورتها في المرآة مزعجة بشكل لا يحتمل. آن أوان فعل شيء ما. ربما عليها أن تغادر المدينة. بعيدًا. أجل! موسكو. لم لا؟ لن يلحق بها شوروب في موسكو. قالوا إنه صار رجلاً عظيمًا في السجن، قائدًا، أقسم

أنه سيأخذ بثأره منها. هكذا مر أسبوعان، على ميعاد إطلاق سراح شوروب، ولكن لم تصل إليها أخبار عنه حتى الآن. ربما لم يقسم بالانتقام منها كما يدعون. محض كذب من جيرانها السابقين، أو مجرد تسلية لا رحمة فيها. لكن في كل الأحوال، عليها أن ترحل، وأن تبدأ حياتها من جديد. هذا هو أنسب وقت لفعل هذا. ربما، يتوجب عليها أن تبني حياتها على أسس صامدة.

قامت وتجولت في الحجرة، إنها الآن في حاجة إلى أسس صامدة في حياتها أكثر من أي وقت مضى. سقطت اللوحة "احذر، إطلاق نار" تحت قدميها، ركلتها، دون شعور بالأسف على حذاء الحفلات.

طارت اللوحة لتسقط تحت البوفيه.

على الحذاء ظهر خدش عميق، واكتشفت أنها ترتدي حذاءها المفضل ذا الإبزيم.

لن تغادر إلى أي مكان.

# الفصل الثامن

إن نسيان فانيا أن يهنئه بعيد ميلاده، كان بمثابة الطريقة الوحيدة التي من شأنها أن تكسر خاطر ميتيا؛ لكن يبقى الشيء الذي حرمه على نفسه إلى الأبد، والأولوية بالنسبة له – ألا يغضب مهما حدث من فانيا وأن يبادر بالاتصال به بنفسه. استبد به الرعب على مدار يومين، ربما حدث مكروه في العاصمة النرويجية، أو تعرضت مدينة أوسلو الحمقاء إلى إعصار فظيع، أطاح بأسطح المنازل مثل أغطية البيرة، وجدران القرميد الهرمة. ولكن هذا احتمال بعيد، ففي الأخبار الواردة عن أوسلو والنرويج عمومًا، تلك البلد الباردة المملة– ما من كلمة. قرر حينها، أن هناك احتمالاً أن يكون مكروهًا قد أصاب عائلة أورسوس مباشرة، وبعد أن فقد السيطرة على نفسه، طلب رقمًا دوليًا طويلاً، رفع كريستوف مبتهجًا مهذبًا، بينما ميتيا العاجز عن انتزاع كلمة واحدة من جوفه أغلق السماعة. مر وقت لكنه لم يتلق اتصالاً من فانيا، وبدأ القلق يساوره، أن ابنه كلما تأخر في تذكر عيد ميلاده زاد ألم نكزة الخجل في نفسه، وأنه كان من الأفضل، لو قرر نهاية، إذا لم يتذكر فانيا: سيراه قريبًا على أية حال، سيأخذه بين أحضانه، آلاف الأحاسيس– وستتوارى هذه القصة في العدم. اتصل فانيا في الصباح الباكر يوم الحادي والثلاثين من ديسمبر.

كان ميتيا يتأهب للذهاب إلى العمل. وقعت وردية العام الجديد من حظ توليك؛ لكنه حل محله– حتى يتوه عقله في الانشغال بكيفية قتل هذه الليلة، ولا مفر من إصابته بحمى الأعياد.

- تهانيَّ بالعيد! خشيت ألا أجدك، ربما ذهبت للاحتفال في مكان ما.

- تهانيَّ لك أيضًا بالعيد! كيف حالكم؟ هناك في أوسلو، تحتفلون كما ينبغي، أليس كذلك؟

- بلى؛ تحتفل أمي دائمًا، ولا يفعل الجيران بالطبع.

- أحسنت أمك. لا توجد أعياد لا ضرورة لها، أليس كذلك ابني العزيز؟

- آه. بلى.

- ماذا ستهدي أمك؟

- أنا؟ كلا، هدايا عيد الميلاد والعام الجديد؟ لا أعتقد.

- حسنًا، يا ولدي العزيز، عليَّ الذهاب الآن. لا تنسَ إبلاغ أرق أمنياتي لأورسو، بإدراك- إكمال، الوصول إلى المراد.

أبي: انتظر! ألو! قل لي متى ستأتي؟ لم تجب. سأل كريستوف على أي حساب ستحول النقود؟ لم ترسل بعد رقم الحساب. هل فتحت حسابًا وحصلت على بطاقة بنكية؟ متى ستأتي، في مارس؟ تعلم، أننا سنسافر بعدها، أتتذكر؟ سنغادر المنزل.

- سأفعل ما بوسعي، فانيا. لديَّ مشاكل هنا.

- أية مشاكل؟

- سأخبرك في وقت لاحق. عندما أصل. عذرًا، عليَّ الانصراف.

- سنة جديدة سعيدة، يا أبي.

- سنة جديدة سعيدة، يا بني.

لم يتذكر شيئًا عن عيد ميلاد ميتيا.

طالت عطلة رأس السنة الجديدة. غنت لوسيا مع فرقتها في الملاهي الليلية، أما ميتيا فقد اختبأ من حمى احتفالات العام الجديد في البيت.

مع اقتراب اليوم، الموعود لاستلام جواز السفر في الأفير[١]، انتظر في انفعال شديد. ولهذا، أثناء العمل، تشاجر مع سابر، ووصل الأمر إلى أن عراكهم جرهم إلى أركان الحجرة، لدرجة أن صخب الشجار وصل إلى مسامع يوسكوف الذي طلب منهما كتابة تفسير لما حدث.

بحلول المساء، بدأ ميتيا في الاتصال بأليج. لم يجب "أما أن يكون التليفون مغلقًا أو غير متاح"، عاود ميتيا الاتصال بإصرار مرارًا. أخيرًا رن جرس الهاتف، رد أليج:

– أحسنت يا فتى، باتصالك. تعطل هاتفي الخلوي، سقط، أتتصور هذا، مباشرة فوق حجر، أصلحته لتوي.

– اتفقنا، الميعاد في الغد، أتذكر؟

– طبعًا أتذكر، أيها العجوز". اتصلت لتوي بالأفير، لكني ربما أسبب لك بعض الإحباط، لن نحصل على جواز السفر في الغد.

– لماذا؟

– سافر رجلنا في مهمة عمل لمدة أسبوع. في رحلة عمل في الشيشان. تجرى هناك انتخابات أيضًا – أرسلوه للتفتيش. لا يمكننا فعل شيء الآن، علينا بالصبر حتى نحقق ما نبغيه.

– أحتاج جواز السفر على وجه السرعة.

---

(١) مصلحة جواز السفر والتأشيرة والإقامة في روسيا.

- ما الداعي للعجلة، أيها العجوز؟ ماذا سيفوتك؟ سيعود الرجل في غضون أسبوع، لنحصل على جواز سفرك. سأل بيريوكاف عنك منذ فترة وجيزة.

- وما الداعي لسؤاله؟

- من باب الفضول، عمومًا الآن انتخابات، أي أنه في حديقة الحيوان. عليك أن تلتقي به بعد انتهاء الانتخابات مباشرة، تتحدث معه. كيف حالك؟

ودعه أليج على عجل، مع وعد أنه سيتصل به بنفسه.

اتصل مبكرًا في صباح اليوم التالي، وطلب مني أن أحضر إلى مقر بيريوكاف في المساء. كان ميتيا في عطلة وظل في انتظار المساء بفارغ الصبر.

كان المقر عبارة عن صالون فيديو استأجروه مؤقتًا لأجل الحملة الانتخابية. الغرفة التي دخلها ميتيا، ضيقة مثل ممر، هناك حامل عليه شرائط كاسيت وملصقات الحملة الانتخابية. في المكان الذي أعتقد أن مدير الصالون كان يجلس فيه عادةً، على طاولة الكمبيوتر، استقر الحارس في "زي مدني"، يحمل هراوة مطاطية فوق ركبتيه، وقد رسم بقلم جاف دراجة نارية ماركة "هامر". رسمه بأدق التفاصيل - فرش معلقة على مقود الدراجة، وإبر لامعة على العجلات- رسم شديد السوء. لا يحب ميتيا الاحتكاك بالحراس؛ لكن بالتسلل بالقرب منه بمظهر السارح المنشغل، كما يفعل البعض، لم يحاول أبدًا. لكنه لم يلتقط النداء غير المكترث الذي لاحقه: "أيها الشاب!" هو نفسه تصرف على هذا النحو، بداية يسمح للزائر السارح المنشغل بالمرور، ثم يستدعيه لسؤاله عن المكان الذي يقصده، ولكنه هنا في وضع مغاير كليًا،

ليس كما في المرات التي حضر فيها - زاحفًا مثل حشرة - إلى مكاتب خدمات جواز السفر. بدا له أن ليس ثمة فارق يذكر: أحضر ميتيا مبلغ الرشوة المخصص لموظفي قسم جوازات السفر، تغير كل شيء بشكل جذري وشعر أن الأمر سينتهي على نحو رائع. سيفعل ما يتحتم عليه فعله دون ضجة: ولا داعي للتطلع إلى تلك الوجوه بالمكتب. حتى الحارس، راسم الدراجة النارية، ذلك الذي تظاهر بأنه لم يره، بادره ميتيا بالتحرك نحوه.

- أيها الشاب، أين يمكنني مقابلة أليج؟

الشاب، ودون أن يرفع عينه عن الرسمة، أشار بإبهامه الضخم خلف ظهره.

على عكس المتوقع، بدت الغرفة متشعبة. انبعثت منها رائحة طعام. وفي الغرفة التي تليها، تلك التي تفحصها ميتيا، تنبض روح مرحلة ما قبل الانتخابات. صخب في كل ركن، مثل عنبر في أحد المصانع. خمسة أو ستة أشخاص جالسون وهواتفهم الخلوية على آذانهم، من أحد الأبواب لباب آخر، ركضت فتاة على كعوب حذائها، ممسكة بورقة مضغوطة بكلتا يديها. قال شخص ما يقف خلف ظهر ميتيا شيئًا، وتعالى صوته وهو يتحدث عبر هاتفه الخلوي، مطالبًا أن تتحرك "سيارتان" فورًا. مروا بجوار ميتيا حاملين أكوامًا من الملصقات. تملكت منه الإثارة ما إن رأى ذلك الصخب الموجه. حتى إن رغبة انتابته بالمشاركة بفعل شيء، ليؤمن مكانه في هذا الفريق المفعم بالحيوية. سأل الرجل الجالس على الطاولة الأقرب بعد أن غطى سماعة الهاتف براحة يده، فجأة، مثل رقيب:

- من أنت؟ - كأنه لم يكن ممسكًا بسماعة الهاتف بيده، إنما ساعة توقيف: أوب! لم يسعفه الوقت. لم يسعف الوقت ميتيا، على ما يبدو، كان الرجل عابسًا بشكل ملحوظ. بدا كرجل عسكري تمامًا. حتى الكلمات التي

استعملها بدت أسرع بكثير من المعتاد، بغزارة بندقية رشاشة. - من أنت وماذا تريد؟

- أيمكنني رؤية أليج؟ - سأل ميتيا محاولاً أن يتصرف بكياسة قدر استطاعته.

أي أليج؟

نسي فجأة اسمه عائلته، انتظر الرجل الذي أمسك سماعة الهاتف بيده بصبر فارغ.

- لاجودينا، تذكر ميتيا. - أليج لاجودينا.

- أليج! - هنا استدعاه الرجل ضاغطًا سماعة الهاتف على أذنه.

ظهر أليج من خلف الباب، الذي انطلقت منه منذ قليل الفتاة التي ترتدي الحذاء وتدق بكعوبها. يهرول، يناور بين الطاولات والبشر بأكوام الملصقات، نجح في الوصول إلى ميتيا.

- قال: هيا، ثم دفع الباب.

دسَّ ميتيا يده في جيبه الداخلي ما إن وصل للشارع.

= قال ميتيا: أحضرت المبلغ، وأخرج الدولارات.

أخذه أليج دون عده.

- اسمع، أيها العجوز، هل أنت بحاجة إلى وظيفة؟ إليك الأمر. باختصار، إننا الآن بحاجة إلى رجل للعمل هاوسكيبر[١].

---

(١) مدبر شؤون منزلية.

- ماذا - ماذا؟

- هاوسكيبر. بالأسلوب القديم - إدارة التنظيم والشؤون الاقتصادية.

- الأسلوب القديم، ليس أفضل على أي حال.

- حسنًا، المشتروات، أتفهم؟ مسؤول الإدارة الاقتصادية. مسحوق الغسيل - المناديل. إذن، ما هي تلك الشؤون الاقتصادية على وجه التحديد؟ بإيجاز، أوصيت بك، إذا لم يكن لديك مانع. - دسَّ أليج المبلغ في جيب بنطاله. - لا يمانع بيريوكاف في منحك الفرصة. تملك مؤهلاً. ضمنتك.

- قال ميتيا بتأثر: واو!

- وظيفة دون غبار. سيارة تحت إمرتك، مكتب خاص. ولكن، كما تعلم، "إنتوريست" - كيان له نظام. يجب استخراج جواز السفر أولاً. إذن، بعد أن نتسلم جواز السفر، ستقابل بيريوكاف على الفور. بعد انتهاء الانتخابات. كنت أود تقديمك له الآن، لكنهم جلبوا له الغداء، وهو الآن مشغول بتناول الغداء.

- وصلت إلى الباحة سيارة "لادا" قديمة من باب مقر الشركة، خرج رجال واتجهوا نحوها، أفرغوا أكوامًا من الملصقات من شنطة السيارة.

- قال أليج: هناك أمر آخر، طلب فاديم فاسيليفيتش أن تقدم له مساعدة الآن، اليوم. لو كنت مكانك ما امتنعت.

- ما المطلوب مني؟

شعر ميتيا بارتباك من تحول الأحداث، باختصار وظيفة "مسؤول شؤون داخلية"، ومن حيث المبدأ، كان متأهبًا لأداء أية مهمة.

– الآن ليس هناك عدد كاف لنقل الملصقات. هل بإمكانك المساعدة؟

تبين أن المهمة ليست صعبة. راود ميتيا سؤال، هل سيدفعون مقابلاً لهذا العمل أم لا، ولكن، بعد تفكير، قرر أن هذا أمر لا يحمل أية أهمية، وأن "إدارة الشؤون الداخلية"، وظيفة، تستحق العناء. غادر أليج وسرعان ما أحضر له كيسًا ملونًا به مجموعة من الملصقات، غراء وفرشاة.

– هيا، – قال أليج، وأعطاه الكيس– سأعرفك بالمنطقة الخاصة بك. يتحتم علي زيارة شخص ما هناك.

ساروا عبر الطريق نحو الباحات. حل الظلام سريعًا. تطايرت الرايات الملونة باللون الأسود والأزرق فوق الأسطح. ظهر في الأفنية في مرمى الرياح، تلك التي أحاطتها مجموعة من ناطحات السحاب، أناس في عجلة من أمرهم، مصادفة.

– قال أليج: ما يهم الآن أن أترك لديه انطباعًا إيجابيًا– إنه الآن في حديقة حيوان حقيقية، يحاصره عشرات من البشر. ومع هذا لا يفوته شيء. وبعد أن ينتهي من كل هذا، لن ينسى ما رآه. بعد أن حملت الملصقات، سألني: "هل عثرتم على عاملين جدد؟". كان ردي: "إنه صديقي، الذي أريد تعيينه هنا، تطوع بالمساعدة".

– سبق وأخبرتني أنه من طلب.

– أتعتقد، أنه يتذكر كل شيء! ها قد وصلنا. – توقفت أليج أمام اللوحة قرب الجراچ، امتلأ بملصقات المرشحين.

– اسمع، ماذا لو تم انتخابه، ألن يكن عليه حينها أن يتقاعد.

تطلع إليه أليج كأنه يؤنبه.

– عليك التقليل من قراءة الجرائد، – وتحرك خطوات نحو اللوحة.

تحرك ميتيا بدوره. نظرت إليه وجوه المرشحين من على الملصقات مشرقة نزيهة تمامًا. ادعى الجميع دور خادمي الشعب باستثناء بيريوكاف: رجل أعمال شاب في لون قرمزي يستدعي الحنين إلى الماضي، في سياق خلفية قلقة، وعقيد غارق في تفكير عميق عن القدر، – شعار مكتوب بأحرف تجمع بين الأحمر، والأزرق، والأبيض، يقول الشعار: "قدر الوطن – قدري". بدا فاديم فاسيليفيتش بريوكوف خبيرًا مفعمًا بالحيوية. جوسار. لم يحظ ميتيا بلقائه في الحقيقة بعد.

– من هذه الباحة، ستذهب مباشرة إلى الباحة التالية، ثم تتجه إلى اليسار، على الطريق، ثلاث لوحات. ستراها. هذا ما في الأمر. يمكنك ترك الغراء. ضع عددًا أكبر، ثلاث قطع. أجل، الأهم؟ انزع صور المرشحين الآخرين، اتفقنا؟ هناك مختصون سيحضرون، للمتابعة.

– نزعها؟

– أجل. اقترب من اللوحة ونزع ملصقًا، يتطلع فيه عقيد عجوز في المساء. نزع ملصق الكولونيل الذي لم يتبقَّ منه سوى نثرات، ليحتل فراغ أبيض خشن المكان من الأذن إلى الأذن. ألقى أليج بنثرات الورق تحت قدميه، بينما ينظر ميتيا إليه بعصبية: هكذا، عليك أن تفعل، وداعًا. صافح أليج ميتيا. – اتصل بي يوم الاثنين، صباحًا، سأحاول أن أرتب لك لقاء معه.

– ستخبرني، حينها عن ما تم مع جواز السفر.

– ماذا أقول؟ – هز أليج كتفه.

انصرف، وبدأ ميتيا يمزق ما تبقى.

لا يمكن القول، إن طلب أليج أن ينزع ميتيا ملصقات المرشحين الآخرين أزعجه؛ فقد سبق له أن شارك في مثل هذه اللعبة في عام تسع وتسعين. حينها ترشح فيرتي، جنرال الشرطة. في عام أربع وتسعين، عندما ترشح ريزينكا نفسه لمجلس الدوما، لم يشارك ميتيا. ضموا في ذلك الحين أفضل العناصر إلى "الفرقة الخاصة"، عمل الكثير منهم في وقت لاحق في "الحراسات الخاصة". حزن ميتيا في ذلك التوقيت على نحو ما، أنهم لم يضموه إلى "الفرقة الخاصة". انتقل الرجال على متن سيارات جيب و"مرسيدس" عبر المنطقة وقاموا بالتصويت بدلاً من المتغيبين. أكلوا شيش لحمة الطريق، سمحوا لبعضهم بقيادة السيارات، واشتروا للجميع بعدها زجاجات بيرة. خسر ريزينكا الانتخابات حينها، وقد كان هذا بمثابة صدمة للجميع، بما فيهم هو ذاته. لم يرشح نفسه بعدها مطلقًا. وفي عام تسع وتسعين، وضع فيرتي "فرقته الخاصة" تحت تصرفه. الأمر برمته كان مغايرًا تمامًا. ببساطة، استدعوهم للعمل في فترة المساء أو أبقوهم لما بعد وردية النهار. قالوا لهم: "المعترض عليه أن يستقيل". على العموم، هذا ما يقولونه الآن لأي سبب. وزعوا على الحراس ملصقات، غراء، وفرش. معدات معتادة. جلسوا في قاعة العمليات الهادئة حتى حلول الظلام، في انتظار اتصال من يوسكوف، الجالس في الطابق العلوي، في مكتب ريزينكا. تحتم الذهاب في وقت لاحق، بعد أن، يغادر الفتيان المداخل، بعد أن يصل العائدون من العمل إلى مطابخهم. أعادوا كتابتها، وخصصوا لكل واحد مكانًا محددًا. "احذروا، سنجري تفتيشًا". جلسوا وعلى وجوههم كآبة، وتبادلوا الشتائم، من حين إلى آخر. نفدت السجائر والنكات تدريجيًا، كلمات السباب الموجهة إلى فيرتيا وبنك "يوجانفست". وما سبب الغضب؟ "ما دام قد عاد الاغتصاب ليصبح أمرًا لا مفر منه، – قال الزملاء، بطريقة فلسفية، –

عليكم التعود على رؤية الأمر، مثلما تنظرون إلى الجنس". ولا حتى أكثر الفلاسفة سفالة، كان بمقدوره إلى الآن، تطبيق هذه الصيغة على نحو سليم. إنها سيئة على أية حال. دقت الساعة إكس، لسبب غير معلوم، أصدروا لهم الأوامر: "إلى السيارات"، – تمامًا مثل الجيش، واتجهوا إلى الأماكن المحددة. عندها طلب ميتيا من السائق أن يوصله حتى محطة الأتوبيس، خرج، ألقى الملصقات في أقرب سلة مهملات، ثم رحل إلى المنزل. لا يملك السائق الرد، حتى لو طلب منه أحد، لكن لم يفعل أحد. أتم الباقون مهمتهم بضمير يقظ: وضعوا ملصقات فيرتيا، ونزعوا ملصقات المنافسين. وفي وقت لاحق، عند لقائهم في مقر العمل، سيصبون اللعنات مجددًا على الجنرال، والبنك، وانخفاض الأجور، وارتفاع الأسعار، وتعجرف القيادة، والدولة، يلتسين أو الشيوعيين – حسب المزاج.

مع أنه الآن، يقوم بما لم يرغب في فعله، فإن ميتيا لم يغضب مطلقًا، أو يشعر بالارتباك. على العكس تمامًا. انتابه شعور غريب. يشبه تلك حالة الرضا التي تنتابك أثناء خروجك من المتجر، بشرائك أخيرًا، متى حلمت به من قديم، لكن لم يتوافر لديك ما تحتاج من مال. شعر ميتيا أن قلبه معلق بالأمر الأهم، ذلك الذي يعد بأشياء كثيرة سارة. تحولت قصة جواز السفر إلى نجاح ليس في الحسبان. أحس ميتيا أنه نال قبول العشيرة.

"هذا ما يجب أن يكون"، – قال لنفسه، وهو ينزع الملصق الكولونيل الراكع على ركبتيه، وهو يقبل العلم – هذا ما يجب أن يكون هنا، في روسيا. انظر إلى اليابان التي تحيا بعشائرها، تعيش حياة جيدة. ولو كانت تعيش بطريقة مغايرة ربما لم يتحقق لها ما أرادت. وفي أمريكا أيضًا، عشائر. وفي أماكن كثيرة! ليس هناك من يمكن قوله عن إيطاليا. ليس هناك ما يدعو

للخجل. على هذا النحو فقط، بانضمامك إلى عشيرة ما، يمكنك تحقيق إنجاز. ليس ثمة فارق إلى أي عشيرة تنتمي. يبقى الأمر الأهم – من تكون.

عدد الناس في الباحات قليلاً، لكن متييا كان حريصًا ألا يقع في مرمى نظرهم. "ولم لا؟ – عارض ذهنيًا أي نقد محتمل. – "الحرب هي الحرب". اشنغال تفكيره إما بالنظام العشائري في روسيا، أو بالوظيفة المحتملة كهاوسكيبر، انتزع ميتيا الملصق ووضع الملصقات التي يحملها. وضع ملصقات بيريوكاف في جيبه الداخلي، والنثرات وضعها في كيس. حتى لا يترك مخلفات. عند الغسق، دهن يديه بالغراء، شد الغراء أطراف أصابعه وصار شكله بشعًا.

بدأ بشكل تدريجي يلحظ أن ملصقات الكولونيل كانت تنزع بسهولة مثيرة للريبة، كاملة، مثل ملصق مبلل على زجاجة. استولى عليه التفكير فيما، إذا كان ممكنًا، من حيث المبدأ، الوصول إلى بنية فعالة مختلفة للمجتمع، غير العشائرية، تمامًا لدرجة أنه لم يعره اهتمامًا. أدرك، أن هذه الملصقات حديثة، عندما سقط أحدها على البنطال الجينز وعلق به. أمسك ميتيا بمنديل، ليمسح به الغراء. حينئذٍ تذكر، أنه لم يسقط من على اللوحات الثلاثة الأخيرة سوى ملصق الكولونيل.

- ما هذا، أيها المسخ، سمع ميتيا صوتًا جاء من خلفه، – ماذا تفعل هنا؟

استدار ميتيا. وقف قبالة باب الصيدلية رجل عسكري، قصير نحيف، برأس تشبه طير صغير الحجم تحت قبعة ضخمة. حمل على كم قميصه شريطًا أحمر باهتًا: دورية. تطلع ميتيا إلى الشرائط على كتف معطف المطر الذي يرتديه. "ضابط صف، أم ماذا؟" كان الظلام حالكًا، تسرب ضوء عصبي، مهتز من مصباح فوق الصيدلية. وقف بعيدًا عن ضابط الصف

بقليل ثلاثة جنود. مسرحين من الجيش – استطاع ميتيا من خلال وقفتهم المهيبة وأيديهم الغارقة في جيوبهم، أن يحدد. هناك سيارة "أواز" تقف في الحارة، بأضواء باهتة.

- حسنًا، أجب!

وبدون ضرورة لتفحصه عن قرب، كان واضحًا أن ضابط الصف ثملاً من فرط دهشته، حيث لم يخاطبه أحد منذ فترة من الجيش على هذا النحو، تسارعت أنفاسه. جاهد أن ينظر بتمعن للجنود، لكنهم فضلوا البقاء جانبًا، وربما، لم يكن لديهم حماس مثل قائدهم العسكري.

- وأين هذا الهزيل الذي كان هنا بالأمس؟ ها؟ أنا–اااا، اللعنة، أسأل. – عندما استهل عبارته، بدأ ببطء يصعد بجسده على أطراف أصابعه، وما إن نطق آخر كلمة، حتى هبط فجأة على كعبيه. – ماذا؟ تفعل هنا؟ أين هو ذاك الهزيل؟ أرسلوا اليوم رجلاً أنيقًا، ها؟ جسورًا؟ ماذا؟ ماذا ابتلعت؟ هل أكسر رأسك على هذه الفعلة، ها؟ أكسر رأسك. حسنًا، سافونوف، – أمر عبر كتفه فجأة بصوت ساكن هادئ. –ضعوه في السيارة. سننقله إلى مكان منعزل، لنتحدث.

يبدو أن ضابط الصف قد تصرف كما ينبغي: سبه صراحة، بصوت مرتفع، كما يجب، دون أن يمنحه فرصة أن يفيق من الصدمة، وقف ثم سقط على كعبيه، إنه جذاب بدرجة كبيرة. كله عبث. لم يشعر ميتيا لا بالغضب أو بالرعب، لكن أصابته دهشة كبيرة. دهشة حادة مخدرة – وهذا الانزعاج المؤلم، الذي ينتابك، عندما يتحدث شخص، وبثقة، بنغمة مزيفة.

ترددت في كل كلمة من كلمات ضابط الصف نغمة مزيفة غير معقولة، حتى تكاد تشعر برمل يسد أذنيك بينما دماغك تصدر صريرًا. "أحقًا

ما تقول؟" - كاد يسأله ميتيا. ولو ثبتوه الآن على جدار صيدلية "تريفارما"، المنقوش بجرافيتي محلي، ثم أطلقوا عليه الرصاص على دقات الطبول، عندها لن يكون في مقدور ميتيا أن يصاب بالدهشة، أكثر مما يشعر الآن.

- أيها "الرفيق ضابط الصف"، - قال أحد الجنود. - دعه وشأنه.

- ماذا - ا - ا - ا؟! - استدار نحو الجنود، وقد أثار زوبعة من الحصى والتراب من تحت قدميه. - ماشكين، سافونوف، هل سمعتم الأمر؟ خذوه إلى السيارة!

لم يحرك أي من الجنود ساكنًا. استدار أحدهم بغضب جانبًا وبصق تحت قدميه. من صوت هذا البصاق، وارتطامه بالأسفلت، شعر ميتيا كأنه استعاد وعيه.

- إلى السيارة ، قلت! هذا أمر! - دخل ضابط الصف في حالة غضب ثمل دون أن يخفي حالة النشوة التي يشعر بها. تصلب ظهره فوقف "انتباه". - ستحالون إلى الاحتياط! ستذهبون إلى منزلي عند حلول العام الجديد! صرتم لي.

هز ميتيا كتفه ومشى نحو الشارع.

- قف عندك! - سقط ضابط الصف فوقه تقريبًا، لتبنعث منه أنفاسًا ساخنة بروائح الدخان واللب، وأمسكه من كتفه.

- ماذا تريد مني؟ - قال ميتيا عابسًا.

- ماذاااا؟ - وشده ضابط الصف بعنف، ليتعالى صوته في نهاية الكلمة. - سأريك، ما أريد! - ترك كتف ميتيا ثم دفعه في صدره. - سأريك!

نظر ميتيا إلى صدره، إلى ضابط الصف، - وكأنه يستقوي كي يستوعب حقيقة ما يجري - وحدق في وجهه بتركيز أكبر: نائب القائد العام للشؤون السياسية، الكابتن ترياسوجوزكا، الذي تدنى في المراتب وصار ضابط صف. ربما فسر هذا ما يجري بعض الشيء. عجز ميتيا ببساطة عن تصديق أن كل هذا يحدث جراء ملصقات الانتخابات، لأن لعبة انتخابات ديمقراطية بريئة، عمومًا، بإمكانها أن تصير على هذا المستوى من الإثارة - ومتى، قرابة نهاية عام ٢٠٠٣!

- لا شأن لي بهذا؟ قال أحد الجنود. - أنا مجرد سائق. لا شأن لي. - أشاح بيديه الممتدتين على اتساعهما واتجه إلى السيارة.

اقترب ضابط الصف مجددًا ودفع ميتيا في صدره.

- سأريك ما أريد، أيها المسخ!

انتفض ميتيا بفعل هذه اللكمات وارتد للخلف، ولاختلاف حجم كل منهما، ارتعش ضابط الصف بدوره وارتد لذات المسافة، لكنه تمكن من إمساك القبعة وأعادتها إلى وضعها. وما إن سمع الخطوات المنسحبة خلفه، استدار.

- سافونوف، إلى أين أنت ذاهب؟ سافونوف، تعال هنا! أنت تحت إمرتي.

هكذا ومع شك ميتيا في مدى صدق ضابط الصف هذا، أمسكه ميتيا من كتفيه، وأداره ناحيته، وضربه بركبته بين فخذيه. صدر حينها صوت قصير، يشبه عطسة مكتومة، ثم ألقاه على الطريق. نظر ميتيا متسائلاً إلى الجنود. وقف الجنود، بأعين ساخرة تتطلع إلى ضابط الصف، الذي انقسم نصفين. تبادل أحدهم النظرات مع ميتيا، بوجه خال من أي تعبير. استدار ميتيا وانصرف، وما إن توارى الجنود والجسد المتكور أمام اللوحة في

الظلال الليلية، قرر ميتيا أن يفر هاربًا تحسبًا لأي شيء. في أعقابه، لاحقه سيل من اللعنات بصوت مبحوح. انتظر ميتيا طلقات نارية. كان لزامًا أن يطارده دوي الطلقات النارية. وهكذا بلا طلقات نارية، فقد كل شيء معناه تمامًا. انهمرت الملصقات من تحت الأرضية لتسقط تحت قدميه مباشرةً. توقف، ليلتقطها، ثم أدرك، أنه لا يجب أن يفعل هذا على الإطلاق: إنه يقف في رقعة خالية، وسط الساحة المفتوحة، التي احتلها ضوء القمر الساطع. ركض ميتيا ليحتمي بشجرة، في الظلام. هنا علق الكيس المملوء بقصاصات الملصقات والغراء على فرع صنوبر، وبعد أن حمل ما تبقى من ملصقات بيريوكاف من تحت الأرضية، ثم ألقاها على الأرض. لم يصل إلى مسامعه سوى صدى السباب الموجه له، إضافة إلى سافونوف وماشين. توقف ميتيا، استمع ثم تحرك نحو ناطحات السحاب، يتعثر ويغلق عينيه بشكل متكرر، حتى لا ترصد عاهرة مثيرة. بعد مرور فترة وجيرة، هدأ كل شيء بما فيها السباب. ما إن دخل الباحة، توقف وتطلع خلفه. الرقعة الخالية، بقدر ما كانت مرئية في النور بين منزلين، لمعت وانطفأت الشجيرات في سلام. لم تكن هناك مطاردة. "لا مطاردات"، فكر، وجلس على المقعد أمام المدخل.

مر إلى جواره عجوز تفوح منه رائحة سلة مهملات، وتردد صدى ضحكات شابة في الظلام كأنها جاءت من جوف بئر.

"واو! ضابط صف مخبول. وأين؟ في الخدمة المدنية! مرت سنوات عديدة! ربما، هذا قدري".

# الفصل التاسع

عزف هاينريش، جلس ميتيا بصحبة ستاس وفيتيا – فارينيك، ينتفض بعصبية في كل مرة يصدر فيها صوتًا من باب الدخول. لم تأتِ لوسيا بعد، وما من أحد يجيب على الهاتف الخلوي. خلت القاعة من الرواد، مثل حديقة خريفية، وذات الضوء الخافت المنبعث من الأباجورات القصيرة. أحب هنري العزف في قاعة خالية، يعزف بـــ"مزاج" في قاعة خالية، هكذا وصف الحالة. ومع ظهور الجمهور يتباين رد فعله، كان بإمكانه أن يقطع العزف بمجرد سماع صرير الباب، في منتصف الجملة الموسيقية، وفي نفس الثانية أن يشعر جسده، كجدار من طوب خشن، تعثر عنده في الظلام بصمت تام. ما حدث كان على العكس من ذلك؛ فقد واصل العزف، ولو تصرف الحاضرون بشكل مهذب، ولم يحدثوا جلبة بالكراسي أو ثرثروا، يبدو هاينريش كمن صعقه تيار كهربائي، وتخرج من بين أصابعه موسيقى حية– ارتعش صداها، ليس فقط في هيكل البيانو الأسود القديم المتهالك، إنما هناك، حيث مرساها، – في أرواح المستمعين الهادئين الجالسين بمهابة. ومن ثم، في النهاية لو تردد حتى ولو تصفيق يتيم مفاجئ، لم يكن ليلتفت، إنما يكتفي بالتلويح بيده وينهض من خلف البيانو بنظرة راضية تمام الرضا.

عزف جيرشوين[1]. وفي كل مرة يعزف فيها هاينريش لحنًا لهاينريش، لو تصادف وجود أرسين في هذا الوقت في البار، يخرج إلى القاعة، ويتمـــدد

---

(١) مؤلف موسيقي وعازف بيانو أمريكي.

على طاولة السيد بجوار الجـدار البعيـد، ليـستمع. اسـتمع بأنـاة عاقـدًا جبينه بحدة. في لحظة من تلك اللحظات، يلقي ميتيا، أثناء مـروره، بتحيـة قصيرة، لا تستدعي جوابًا، ويمسكه أرسين من رجل بنطاله، ويجلسه علـى الطاولة، ويقول:

– اسمع، أخبرني، هل ارتكبت خطأ ما؟ فتح ذراعيه. – انظر، هل الموسيقيون عندي يبلون بلاء حسنًا؟

– رائعون.

– هاينريش يؤدي بشكل جيد، أليس كذلك؟ لودا – واو، لك العافية[1]، قطعة شوكولاتة! أملك بارًا رائعًا. – منحت كلماته الأرمينية وجيرشوين نكهة أرمينية مفعمة بالحيوية. – أتراه كذلك؟ – سأل، دون أن ينتظر تأكيدًا.

– أليس كذلك؟

– اسمع، لماذا تمضي الأمور واهنة هكذا؟ أعرف في موسكو ذات الناس. نذهب معًا هنا وهناك. يصحبونني لزيارة أماكن مختلفة. وما من شيء مميز هناك؟ أتعرف؟ التار[2]؟ يقف هناك بيانو أبيض، بينما يجلس الناس مثل الملوك. يستمعون إلى الموسيقى، يشربون. بالمناسبة، هذا ما يدفعون المال لأجله – هذه هي الحقيقة! أردت أن أفعل نفس الشيء في روستوف. وضعت المال! – ضرب بيده على رأسه، محاولاً تذكر المبلغ الذي وضعه بالتحديد. ثم ماذا؟ الأسعار مقارنة بموسكو – اللعنة، إنها في متناول عجوز متقاعد. يأتي شخص ونصف في المساء، يطلب كأسًا واحدًا،

---

(١) تعبير أرميني وليس روسيًا.

(٢) آلة وترية.

ثم يظل جالسًا حتى الصباح... – ثم سب باللغة الأرمينية. – هذا عجيب؟ ألم يعجب المكان سوى هؤلاء المتسولين، ها؟ ألا يوجد في روستوف أثرياء؟ أقسم، ليس أقل، من موسكو، بأي حال. فلنذهب إلى أي كازينو– سنجده مكتظًا بالرواد. يأتي أهل الليل، وينفقون مالاً كثيرًا. أما الجلوس، كالملوك، والاستماع إلى البلوز؟ – هز أرسين رأسه بأسف: هل من الحكمة الاحتفاظ بهذا المكان – لا شيء سوى خسائر، كان يجب إغلاقه منذ بعيد، وفتح بار عادي.

جلس أرسين اليوم أيضًا في القاعة واستمع إلى جيرشوين. كانت هيئته الناعمة أشبه بتفاحة محمصة، سقطت فوق كرسي. أما حالته المزاجية المطبوعة على وجهه فبدت غامضة، كحال تفاح محمص. لم يرَ ميتيا أبدًا مثل هذا الوجه أثناء عزف موسيقى جيرشوين.

- لن يغلقه، قال فيتيا – فارينيك موجهًا كلامه لستاس على نحو مفاجئ.
– لم يفعلها حتى اللحظة، وهو ما يعني، أنه لن يغلقه، عنيد، يريد أن يكون أفضل، من البيض الشجاع[١].

عندما ينطق فيتيا – فارينيك في المرة أكثر من عبارة واحدة، يسكن المحيطون ما إن نطق نصف كلمة، حتى لا يفوتهم هذا الحدث النادر. تطلع بتجهم ناحية أرسين.

– لن ألعب موسيقى حثالة الحانات. لا أريد اللهاث في حفلات الزفاف كل أسبوع.

---

(١) اسم فيلم كارتون.

- لن أفعل! لا أريد! ياكا تساسا[1]! لا مفر، يا صديقي. - دفعه ستاس بصموت مسموع في ركبته. - أتريد أن تأكل كل يوم؟ إذن، لا مفر من العمل في حفلات الزفاف. "خاتم الزفاف؟ الماكياج الصارخ".

نظر فيتيا - فارينيك بتجهم أكبر إلى أرسين.

- لن يغلق أبوابه.

لم يكن حديثًا مثمرًا، نظف ستاس الساكسفون بسائل غسل النوافذ، بينما شرع فيتيا - فارينيك يتأرجح على كرسيه، متراجعًا إلى الخلف حتى استند على الجدار، أما ميتيا فقد تهيأ للانتظار حتى يغلق ملهى "أبارات" لينصرف بصحبة لوسيا إلى بيته. وهو ما تكرر مرارًا في الآونة الأخيرة. ومع كل مرة تضيق الدائرة أكثر، لتقرب ميتيا من لوسيا. الروح الحائرة، مثل التجارب، تصل في كل مرة بسرعة أكبر إلى قرار أفضل. إن انتظار اليوم المؤجل باستمرار، اليوم الذي يمكن الذهاب فيه إلى الأفير لاستلام جواز السفر، يزداد صعوبة يومًا بعد آخر - صار جليًّا أن هذا الفراغ النهم الذي خلقه الانتظار لن يملأه سواها؛ أما عن ما سيصير بعدها، عند تلاشي الضغط العصبي، وقتما يستلم جواز السفر بعد طول انتظار، ويستصدر جواز سفر دولي، وبعد أن خدعها بثلاثة صناديق سيسافر إلى ابنه - والأهم، لم يشغل ميتيا باله - بالمصير، ما إن يعود.

"سامحيني، لوسيا، - فكر ميتيا - ليس بوسعي التوقف".

رواية عليلة- مشوقة مثيرة ظاهريًّا، وفي حقيقتها رتيبة وفقيرة ومريرة، خيبة أمل ممتدة، - تركض بلا نهاية. نشوات حزينة، مكرسة

---

(١) عبارة تشير إلى شخص يهوى أن يحظى باهتمام بالغ.

لآخر، لم تمس القلب. لكنها صرفت الغم. لم يكن ثمة شيء يشبه الهيام، حتى في البداية. ما حدث، أنهم ذات صباح، ببساطة، استيقظوا ليجدوا أنهما على الفراش معًا – دون أي اندهاش، وبلا أي تفسير. كأنهما عاشا معًا لسنوات عديدة. ما إن وضعت الإفطار، شعر ميتيا بامتنان كبير تجاه لوسيا، أولاً وقبل كل شيء، لأجل هذا الصمت الهادئ الذي أعفاه من إلزام لا داعي له بقول كلمات فارغة بالية. أزالت لوسيا مسمارًا مكسورًا وتطلعت في النافذة إلى العصافير المنتشرة فوق الأفرع. فكر: "يبدو ذلك جيدًا، أعني، أنها قسمة"، – ومن جديد، كما يحدث ليلاً، لم يشعر بشيء، سوى الثقة ملتبسة، أنها قسمة.

تضاءلت علاقتهما إلى مجرد علاقة أشبه بعلاقة عشيقين. لم تقف مارينا بينهما. لم يتم كل شيء كما خطط له ميتيا: في حضور امرأة حية، حتى إن لم تكن حبيبة، تلاقيك في الصباح براحة يد حانية وابتسامة دافئة، – وبدلاً من أن يمتص الشبح الحياة، مثل بعوضة ترشف الدم، تلاشى على نحو كارثي. بدا أن ميتيا بدد جهدًا كبيرًا في هذه المسرحية. وتألم حقًا، كمجرد مخرج. نظرًا إلى أن عمله لم يحقق الأثر المنتظر. عجز أن يستوعب، سبب ما حدث: فقد وثقت لوسيا في كلامه عن زوجته الغائبة، صدقته، لكنها لم تصبح الضلع الثالث في المثلث لعبت دورًا، غير مكتوب في مسرحيته. كأن مؤامرة مؤلمة لم تكن ولم يتفرقا كل في اتجاه، كأنه أجبرها على تجنب تحقيق استفادة من الجانب الآخر، لتتسلل في أعقابه نحو المدخل بعد بضع دقائق؛ خلال تلك الدقائق القليلة توجب عليها أن تتنحى جانبًا، دون أن تجذب انتباهًا، – إنها، المولاتكا. مضت لوسيا في تنفيذ كل هذه الحيل، لم تكشف عن أية مشاعر، ولم ترَ فيها عيبًا – كأن هذا هو الطبيعي.

كلما مر الوقت تعقد أمر إخبارها أن مارينا لا وجود لها بالمنزل– مجددًا، قبل أسبوع مضى، أو منذ ثلاثة أيام، أو حتى أول أمس، لا فرق. استنزف كذباته المعتادة منذ زمن بعيد، وهي سافرت في مهمة عمل لأخذ العينات، في زيارة والديها في ميليروفا. اخترع بالأمس كذبة جديدة:

– أتعلمين، مرضت خالتها. أنفيسا. هكذا اسمها، إنها شقيقة أمها على أية حال، لا أطفال لها، تعيش وحيدة. وضعوها في مستشفى الطوارئ، في قسم المسالك البولية. سقطت منها الرمال؛ ونظرًا إلى عدم وجود من يرافقها، ذهبت مارينا، للمبيت معها في المستشفى. وقد وعدت أنفيسا أن تتنازل لنا عن الشقة، نحبها بشدة. وذلك رغم بشاعة السيدة. لا تطاق، كحرب عالمية ثالثة.

استمعت لوسيا إلى هذه القصة دون أن تنطق بكلمة وشدت الطوق على شعرها. في مثل هذه المواقف، يسحب المدخنون سيجارة ويدخنونها على مهل.

- ألن تعود في منتصف الليل؟ – سألت لوسيا، وهي تتلع إلى رأسه.

– لماذا؟

– ربما تحتاج السيدة المريضة شيئًا.

هذا ما لم يتوقعه ميتيا. على كل حال، فإن المهمة والرحلة إلى ميليروفا شيء، ومستشفى الطوارئ التي تبعد مسافة نصف ساعة – شيء آخر. هدأ. ظهور نادر للفانتازيا بشكل أخرق. كان يملك في وقت ما القدرة على الإفلات. ذات مرة، بينما لوسيا عنده في البيت، فتح الدولاب لسبب ما، ولمحت لوسيا شخشيخة فانيا على الرف.

ما هذا؟

ماذا؟

– هل تنتظران مولودًا؟

- كلا، فقدنا الأمل، انتظرنا لبعض الوقت على أمل، لكن الأمل ذهب أدراج الرياح. لم نعد ننتظر.

عمومًا، مارينا لا يمكنها إنجاب أطفال. أجل، وبصراحة، لا مفر. نعم وأنا. ما داعي رعاية الفقر، أليس كذلك؟

- ماذا عن الشخشيخة؟

- ماذا عنها؟

- ما داعي وجودها؟

- الحقيقة. آن أوان التخلص منها. أو إهدائها لأحد.

تعرَّق وانكمش من تلك الكذبات المفرطة في التهكم، ولوسيا، ربما للمرة الوحيدة في فصول روايتهما الفصامية، تتطلع إليه على نحو، بدا شبيهًا بطريقة طبيب يحدث مريضًا، يزعم أنه بخير.

لذا بالأمس، بعد أن استمع لافتراضها، بأن العمة أنفيسا ربما تحتاج إلى شيء بشكل عاجل في منتصف الليل، شعر ببرد بغيض، مرهق: تذكر رأي لوسيا الطبي. العمة أنفيسا التي لا وجود لها صارت حية بشكل، فاق ما خطط له، ومع مرور الوقت غدت أمرًا مزعجًا. على أية حال، إنها جريرته، فهو من صنع منها عاهرة. فعادة الإفلات حتى ولو مصحوبة بصوت صرير، نجحت بالأمس. هز ميتيا رأسه شاعرًا بالذنب.

- أنت على حق، يا لوسيا أنا آسف، غاب عقلي. كل ما أردته أن أكون معك. اتبع القاعدة الأساسية للكاذب: العودة للحقيقة بأسرع وقت. - ولكن ربما للقدر رأي آخر.

البقاء هنا، في غرفة لوسيا، لم يكن ممكنًا. وقف الحراس لحماية البار، حذر أرسين كل فرد منهم، قبل قبوله للعمل، أن في الطابق السفلي، في البدروم، تبيت فتاة اسمها لوسيا، أي محاولة للتحرش بها، عقابها الإقالة (لم يرهب هذا العقاب الجميع)، وفي المقابل طلب منها أرسين "ألا تدعو أحدًا إلى سكنها". "لو حذرت الناس من الاقتراب منك، - شرح أرسين، - عليك ألا تظهري أن نيلك أمر ممكن".

- أنت على حق، يا لوسيا، - كرر ميتيا مقرًّا بذنبه. - لقد تصرفت اليوم كسوقي أناني.

ابتسمت:

- يا رجل، منذ بعيد لم أنظر من نوافذ. لو تطلب الأمر، علينا بتنشيط مهاراتنا.

عندما تقول ذلك تمط شفتيها لتشكل ابتسامة، فيفقد ميتيا حينها تركيزه، ويفلت منه خيط الأكاذيب، وفي تلك اللحظة، لو وجهت إليه سؤالاً عن أي شيء، يتطلب إضافة كذبة جديدة، فعلى الأرجح، لن يتمكن من قول كلمة.

- على الأرجح لم يكن أي منكم على حق، - قال ستاس ليقطع استرسال أفكار ميتيا:

- ماذا تقول؟ - ميتيا، الذي انقطع حبل أفكاره، رد بالخطأ بلغة، بالأحرى تليق بسياق مغاير، بين الحراس في "يوجانفيست"، حاملاً مسدس "أي جي - ٧٣" بجنبه.

نخر ستاس من فرط الرضا:

- "ماذا تقول"! رائع!

تنهد ميتيا.

- آسف، تأثير الموسيقى. ها، عمَّ تتحدث؟

- كنت أتساءل عن الشجار مع هاينريش. كلاكما مخطئٌ.

نظر ستاس في اتجاه البار، كمن يتساءل، هل أحضر فودكا بالتونيك أم لا. لكنه لوح بيده. بدت عليه مسحة من الحزن. وفي لحظة ما، قالت لوسيا: "أترى، دائمًا ما ينتاب الحزن ستاس، عندما يعزف هاينرش. ربما، - قالت هامسة، - يحسده". تمنى دائمًا أن يعزف على البيانو، لكن والده عارضه، مصرًا على أن يتعلم ستاس الساكسفون. لم يحب ستاس الساكسفون في أي وقت، رغم أنه يعزف عليه بشكل مذهل. صُدم ميتيا عندما عرف تلك التفصيلة، لدرجة أنه لم يستطع الاستماع إلى عزف ستاس لفترة طويلة، ودائمًا بدقة قناص، وبطريقة آلية محكمة، عند الضرورة. حتى هيئته الرياضية وذيل الحصان على رأسه، الذي ينمو أسفل رأسه الأصلع، بدأت تتسبب في نوع من السخط لدى ميتيا. لم يتغير في هذا الإنسان شيء. كما لم يعلم عنه ميتيا شيئا سيئًا. ومع ذلك لم يعد لديه قدرة على التعامل معه، كما في السابق. بدا لميتيا أن كرهه لشخص، يلعب بهذه البراعة على آلة موسيقية، نوع من الرياء.

- تقول إننا بحاجة إلى تقليد.

لم يكن لدى ميتيا رغبة في الحديث بمواضيع جادة.

- لم أقل، إننا بحاجة إلى تقليد. ما قلت ببساطة، إن العيش في عالم، قائم على التقاليد، أصلح وأمتع. أتصور، أن التقاليد بمثابة حجر الزاوية.

- هكذا؟

- والعالم، المبني على نحو تجاهل حجر الزاوية، - هو بمثابة سكن مؤقت. ليس أكثر.

- لقد عبر بشكل جيد.

لوح ستاس بيده الثقيلة، بينما اتجه نحو البار ليحصل على الفودكا والتونيك. عادة ما يشربون قبل بداية العمل فيتيا - فارينيك مع لوسيا. لم يشارك ستاس وهاينريش. لكن تأخرت لوسي، ولم يكن الأمر كالمعتاد. بمجرد العودة، وضع الأكواب في هدوء، حتى لا يعوق قرع الأكواب صوت الموسيقى.

- إنه على حق: أين هي تقاليدنا؟ - ثم لوح ستاس بأصابعه الخمسة ناحية ظهر هاينريش، ذلك الذي تجمد ببهاء عند البيانو. - ألن ترتدي سترة؟ بدا الأمر ساخرًا في حضرة ليف نيكالاييفيتش، لكنه تسبب في أشياء، غير مضحكة على الإطلاق. حسنًا. أتعرف، اسمع ما سأحكيه لك. كان والدي إنسانًا، مجنونًا بالغرب. كل شيء، كما ورد في يومياتهم: أسطوانات الجاز، الجينز ماركة "ليفايس" طلبوه من البحارة وانتظروا نصف عام، حتى عودتهم من الرحلة. أتفهم عمَّ أتحدث؟

- نعم، بشكل عام.

- لقد كبرت في هذا السياق. تعلم الجميع عزف "سوركا"[1]، وأنا - "كل شيء على ما يرام، ماما". - بإصبع واحد. - وعرض، كيف لعب بإصبع واحد. - فعلاً.

عندما انتصفت الفودكا، بدا ميتيا مرتبكًا إلى حد ما. لم يحب أن يبقى هدفًا أخرسَ لحوارات الآخرين. ظل مشدوهًا. تابع ميتيا مناقشات ستاس لكنه سرعان ما توقف عن الإجابة. ما إن رصد في ميتيا مستمعًا هادئًا حكى له بشيء من التفصيل:

---

(١) لحن لبيتهوفن.

– بشكل عام، فالعالم الفنتازي للغرب السوفيتي – يبدو، ممتلئًا بتقاليده الخاصة، وهو في الحقيقة، عالم بالغ الدفء. كان أبي يدرس اللعب على الأكورديون في حلقة قصر الرواد. امتلك أبي بكل معنى الكلمة مثل هذا الهدوء، وجنون تام؛ من منا لم يصب به! كنت حينها بالغًا، أذكر هذا جيدًا. جاءت بعض الشخصيات الغريبة، مزيج من الهيبيز والغجر، يرتدون سترات مبطنة وجينزًا. أمي، أذكر، دعتهم لشرب الشاي، طلبوا شوربة البورش. اتضح أنهم من عاشقي الفنون، أجل. أوه! "مترفي الروح" – دعاهم أبي بهذا الاسم. ادخر مترفو الروح هؤلاء من رواتبهم من الهندسة لشراء زجاجة من الويسكي على مدار أشهر عديدة – للحصول على زجاجة من الويسكي المهرب المثير للشك إلى حد كبير – ونصبت وليمة. يرجع تاريخها، على ما يبدو، إلى أحد أشهر أكتوبر. فعلاً، كان هذا في الخريف. ميتيا! قاموا ببعض الشعائر، عندما فتحوا الزجاجة! كان حدثًا مشهودًا! هدوء، أعين لامعة. دار نقاش طويل، هل هناك ضرورة لوجبة خفيفة مع الويسكي. أحدهم اقتبس مقولة لهيمنجواي، والآخر لريمارك أو لا أذكر على وجه الدقة. تشاجروا – أتصدق، تشاجروا لهذا السبب. ركضت أمي نحو أحد الأشخاص على السلم، أصلحت بينه وبين آخر. سحب الأب سيجارًا حقيقيًا من المخبأ، سميكة مثل الخيار. من أين حصل عليه؟ ثم كيف استهلوا بعدها شرب هذا الويسكي! هشموا الثلج بمطرقة لقطع صغيرة. أذكر هذا! تعرف، هذه الوجوه، التي رسم عليها عربات قطار – أوراق، خططًا سنوية، وأشياء أخرى. طوابير لأجل الكتاكيت الزرقاء. حسنًا، لا يهم – ها هم يتجرعون الويسكي، فعلاً، أجهزوا على الزجاجة بأكملها، وتناقلوا السجائر من يد إلى يد. ومثل قبيلة الأباتشي – غليون السلام، أقسم على هذا. والحقيقة أن أحدًا لم يعترف أن الويسكي كان سيئًا. نوع من أرخص أصناف الويسكي. صمت تام. يحدث

... – ابتعد ستاس عن الكوب، وابتلع الرشفة، ربما تذكر، شيئًا مهمًا جدًا، لذا انتظر بصبر فارغ أن تمر الرشف من حنجرته. – أنا، على سبيل المثال، كنت مؤمنًا حتى وقت قريب، أن أغنية التمساح جينا تغنى هكذا: "على كل واحد، على كل واحد، أن يتقاسم الأفضل"، قال، وفرد ذراعيه. – وعلى مدار سنوات عديدة! ما إن سمعتها بشكل خاطئٍ في المرة الأولى، ظل صداها على هذا النحو في أذني طوال الوقت. هكذا.

طرق الباب، ولم يكد ميتيا، يستوعب بعد لماذا تذكر أغنية من الطفولة، نظر في الاتجاه المقابل. لكن، لا، ليست هي، لوسيا. بدا الجمهور في التوافد إلى الصالة بالفعل، وبينما هاينريش، بعمله أن لوسيا لم تصل بعد، بدأ في العزف، على ما يبدو، حتى لا يلفت نظر أرسين إلى غيابها.

– في عام ١٩٩٥، عندما حضر بي بي كينج[١]، بدا والدي كمن أصابه الطاعون. لم أعثر على مكان لي. "ربما تغير الزمن! ستاس، كيف تغير الزمن! " حتى ذلك الوقت – قبل رحلة بي بي – كنج – لم يكن الزمن، قد تغير بعد. لا مفر، لا بد أن يذهب إلى هذا الحفل. يذهب – ويموت. هذا ما قاله. يذهب ويموت، اللعنة. كان حينها عاطلاً. تطلعت– اختفى الأكورديون الخاص به. كان دائمًا فوق الدولاب، لكنه اختفى فجأة. والأهم، لم يحركه من مكانه منذ قديم الأزل. يدخل. قال، لقد بعت الأكورديون– إنه أكثر عبوسًا من سحابة. أهدته أمي هذا الأكورديون، كان ستالين لا يزال على قيد الحياة. حرمت نفسها، ادخرت. تركة عائلية، أتفهم؟ أسهمت ببعض المال لأجله، اشتريت له تذكرة ذهابًا وعودة. باختصار، استطاع الذهاب. لا أعرف؟ هل أخطأت في مساعدته في الذهاب. ربما تفادينا هذا المصير. وواصل العيش

---

(١) مغني بلوز أمريكي.

في حكايته. لم يبق له سوى القليل بمرض الكلية الذي عانى منه. عمومًا، عاد من هناك فارغًا، مثل زجاجة فرغت من محتواها. أبي، ماذا حدث هناك؟ كيف كان الحفل؟ لم تكن إجاباته متماسكة. قال، الحفل، رائع، بي بي كينج - عظيم. أصابه المرض في اليوم التالي، تهاوى. مزقه الألم على مدار أسبوع. حكى لي كل شيء بالتفصيل. غابت أمي، فاختصني بكل الحكايات. ولا زالت أمي لا تعرف شيئًا - حسنًا، قال: إنه ذهب حينها، رغم أنه في النهاية توصل في النهاية إلى أن الحياة مجرد هذيان. لم يكن هكذا على الإطلاق. وصل إلى موسكو، ولم يعثر على تذاكر في إم دي اف، بالطبع. حصل المضاربين عليها في اليوم الأول. وتساوت أسعار المضاربين مع مثيلتها في نيويورك. اقترب منه رجل يرتدي نظارات سوداء، في مثل عمره، أشيب مثل صقر هاريير. "قال، - أنا كذلك، - انسحبت، من الجيد أني تمكنت من شراء تذكرة لدخول النادي"، - وعرض أمامه التذكرة. "أي نادٍ؟" - " نادي بي بي كينج"، قال، - بالتأكيد. - سيغني هناك بعد انتهاء الحفل". - "أين يمكن شراء تلك التذكرة؟" - "لكن، لن يعطوك تذكرة هناك". باختصار، أعطاه أبي كل ما لديه- يمكن، طبعًا، استنتاج الباقي. لكن رأسه انشغل تمامًا بكيفية التسلل إلى داخل النادي؛ لذا تعرض للضرب من رجال الشرطة على كليتيه بالعصي، مرة واحدة، وكانت كافية؟ رقد عند الزاوية حتى انتهاء الغناء في النادي. يحكي، رأيت، بي بي كينج أثناء خروجه، وجلس داخل السيارة. نعم، رأيته وهو يجلس داخل السيارة.

شرب ستاس كأسًا وأخذ واحدًا لميتيا.

- أرى، أنك لا ترغب في الشرب، على أية حال.

- اشرب، اشرب ، طبعًا.

لم يبد على فيتيا – فارينيك أية علامة واحدة على الحياة، غرق تمامًا في ظل رمادي وراء أحد الأعمدة. هل استمع إلى الحكاية التي رواها ستاس أم لا؟ لم يكن واضحًا تمامًا، ربما كان غارقًا في أفكاره، جلست لوسيا على الطاولة، – عابسة، بخد متورم، ولافتة غريبة مكتوب "حذف" في يديها. مرت من خلال الباب الخلفي. وضعت اللافتة على الطاولة بين الكؤوس. ألقت التحية، موجهة راحة يدها لكل منهم.

– حضرت للتو من عند طبيب الأسنان. كدت أضع مولودًا. ليس سوى جزار! هكذا، قررت أن أزلزل الماضي القديم، – ثم أشارت إلى اللافتة.

كانت الساعة السابعة والنصف. من طاولة الخدمة أمام العامود فاحت رائحة هم لاذعة.

في الثانية عشرة والنصف ليلاً، حيث استقرت فوق طاولة الخدمة غيمة من طيات دخانية أصوات مخمورة متعددة. الموسيقيون، الذين عزفوا بشكل رائع بمناسبة امتلاء الصالة عن آخرها، شربوا البيرة من الحلق مباشرة حتى لا تتسخ الأكواب المغسولة. بيعت التذاكر بالكامل في "أبارات" للمشاركين في ندوة خاصة بصناعة الغذاء، قطيع مرح يتدفق من فندق مجاور. غنت لوسي كل صياغاتها من "Summer time"، ونال الستة استقبالاً حافلاً، طلبوها مرات ومرات، وضعوا أوراق البنكنوت في حذاء لوسيا، الذي استقر على حافة المنصة.

حينئذٍ، بعد حديث مقتضب مع هاينريش، غنت لوسيا برفقة عزف خفيف لبيانو واحد فقط، بلوز روسي، لم يسمعه قبل ذلك في "أبارات"، – اسمه "بلوز السجق".

"في الساعة الواحدة ليلاً، الجائع بردان يبحث عن دفء. وفي واجهة المتجر، الزرقاء، يرقد إله السجق، بدينًا، وجميلاً ".

كان المشاركون في ندوة صناعة الغذاء يصرخون من فرط الاستمتاع. بدا الجمهور مثل الذهب. كان مفعمًا بالحياة. صفق، طلب الشمبانيا، غنى، سند أفراده خدودهم، عيونهم ذاهلة. طلب المايكروفون أحد المشاركين في الندوة – أصلع، مستدير، مسن – ناعس إلى جوار النافذة خلف الستارة، قال إنه عمل لفترة طويلة في أفريقيا، حيث جرب كل شيء، آه، تقريبًا، كل شيء: القرود، الظباء، الثعابين، – ثم أعلن قراره القاطع، لن يغادر المكان، ما لم توافق لوسيا أن تتجول بصحبته في ليل المدينة. باختصار، كانت الحفلة رائعة. نسيت لوسيا أمر أسنانها منذ فترة طويلة، وتلألأت. كانت الموسيقى بديعة: تصفيق حاد، استكمالاً لمقطوعة "بلوز السجق" وفي النهاية– حفنة من البنكنوت التي أحصوها، ترقد فوق غطاء البيانو. أحب ميتيا مشاهدة الطريقة التي يحصون بها هذه النقود. "البيرة"[١]، – أسموها هكذا، بدلاً من "الشاي"[٢]، وكان عليهم أن يشتروا زجاجة على الأقل من البيرة. كانت أوراق البنكنوت فئة الخمسين والمائة مكرمشة بطريقة خاصة. مرتبة في كومة، تشبه تورتة "نابليون".

وضع أرسين نصيبه في جيبه الصدري، وانصرف راضيًا. قال مودعًا: "أحسنتم! أديتم عملكم مثل عمال المناجم. كان هذا مديحًا بالغ الروعة. سافر أرسين مؤخرًا إلى شاختينسك، رأى هناك كيف تلطخت وجوه

---

(١) البيرة هنا تعني البقشيش، وهو مسمى استثنائي قرره الموسيقيون.

(٢) يشير الشاي إلى البقشيش، وهو مسمى معتاد في روسيا، مثلما هو الحال في بعض الدول العربية.

عمال المناجم بالفحم أثناء خروجهم للسطح، كأنهم خرجوا لتوهم من قلب الليل، تطلعت إلى زيه المشحم عيون غريبة. ترك هذا المشهد عليه أثرًا كبيرًا، للحد الذي جعله يصف أي شخص يقوم بعمل في سبيل المجد، كما يقول - "مثل عامل منجم".

في "أبارات"، لم يبق سوى الأصدقاء، وبعض من أولئك الذين لا غنى عن وجودهم، علقوا بين الطاولات الخالية، مثل صدفات رست وسط الحجارة، بعد انحسار المد. استقرت في أعين الموسيقيين نظرة، مثل نظرات عمال المناجم، عاملة النظافة، التي أحدثت صخبًا أثناء ترتيبها المقاعد، الحارس، الذي يقترب من الموسيقيين تارة، وأخرى يذهب نحو الباب، سيدتان شابتان مخمورتان، رفيق ناعس خلف الستائر من محبي الحيوانات الأفريقية، وأليج.

ظهر أليج على نحو مفاجئٍ، بينما كان المكان ممتلئًا بالمرح، القاعة نظيفة، انتصبت فيها أرجل الكراسي الملقاة في وضع مقلوب. بدا كمفاجأة غير متوقعة تمامًا في هذا المساء.

- أهلاً، أهلاً! أوه! مرحبًا!

ألقى التحية على الجميع، مثل صديق قديم طيب، صافح الرجال بحماس كبير، ولم يكف عن الحركة. قبل أيادي كل النساء بشكل مسرحي. أطلقت السيدات المخمورات بدورهن ضحكات ساخرة على تصرفه، وبدت الضحكات كأنها بفعل دغدغة. حتى هو نفسه، شعر أن كل ما يفعله مثيرًا للسخرية. وبغض النظر عن ذلك، كانت شفاهه المفعمة بالحيوية نشيطة على نحو لا يصدق: تباينت الابتسامات، بين ساخرة، وغامضة، ومنكمشة، أو ممطوطة، ابتسامات عاشت حياة مستقلة. ارتسم على قسمات وجهه تعبير

مأساوي نوعًا، كأنه كان يعلم شيئًا مبهجًا ويرغب أن يحكيه، ربما لاحقًا. وفي الوقت ذاته بدا مشدودًا بفعل توتر أصابه. لم يكن مظهره متماشيًا مع أسلوبه العملي المعتاد، لم يكن ذلك العجول- المتجمد.

- فلنستمتع ، أيها السلافيون؟

"هل أفرط في الشراب؟" -، فكر ميتيا ثم توصل، إلى أنه ربما انفكت شفرته. هو الآن في جنة الأبله.

- هل أفرط في الشراب؟ - قال هاينريش مندهشًا بصوت مرتفع، ولم يشعر بأي حرج من احتمال سماع أليج لما يقول.

كان تحولاً تامًّا. بدا أليج كعروس ماريونيت تحركها يد شخص موتور، أطلقته تلك اليد في حركة عبثية، مثل رغوة، تقبض وتبسط وجهه. وفي لحظة ما، تعرف ميتيا على ذلك الفرج[١]، الفتى الذي كان يقطع الممر في النزل حاملاً الأواني في يديه: "طوارئ على السفينة!". منذ أيام الخدمة العسكرية القديمة، وهو يخشى البشر الذين يتغيرون- البشر، الذين يتحولون في لحظة ما إلى غرباء، تكتشف فجأة أنك لا تعرفهم.

- في صحتكم، في صحتكم، من أجل هذا الجاز!

رفع ستاس حاجبيه بشكل يشي بدلالات عديدة. تعجب الجميع من سلوك أليج إلى جانب ظهوره المفاجئ. أكثر الناس ذهولاً كان بالطبع ميتيا. اتفقا على الالتقاء في صباح اليوم التالي في ساحة جفارديسكي، ومن ثم الذهاب أخيرًا إلى أفير. عاد الموظف المعني من مأمورية العمل في

---

(١) لقب أليج أيام الدراسة.

الشيشان، بينما استقر جواز سفر ميتيا في خزينة خاصة، في الانتظار– جواز سفر جديد، تفوح منه رائحة طلاء الشعار الرسمي.

– ما أخبارنا؟ – قال ميتيا مستندًا على أليج.

تطلع أليج إلى أولئك الجالسين على الطاولة مليًا، على مهل، كأنه يتفحص صورًا فوتوغرافية. لم يعر أحد اهتمامًا لنظراته. انصرف الجميع عن الاهتمام بالوافد الجديد إلى النشاز المبهج. تردد صدى الأصوات معًا في وقت واحد. حاولت إحدى الشابات إلقاء نكتة بتأنٍّ عن ذئب وغزال.

– حسنًا، هيا، هيا! – طلب ستاس من لوسيا، وهو يميل برأسه برفق، مما جعل الجزيرة الصلعاء البراقة تتكشف بشكل كامل، بتلالها ووديانها.

كانت لديه رغبة شديدة أن تغني لوسيا "جلس جندب على العشب". لبت رغبته وغنت على طريقة الجاز. كان غناؤها رائعًا. جلست لوسيا مرتدية "سترة" جلدية تخص فيتيا – فارينيك فوق رداء مسائي، وقد غطى ذراعيها، بينما تعانق بأصابعها زجاجة رست فوق الطاولة.

- أنا متعبة، – قالت لوسيا، سأخفض صوتي.

لكن ستاس لم يتراجع. انحنى ميتيا نحو أليج مرة أخرى.

– إذن سنذهب في الغد؟

ما إن سمع أليج غناء لوسيا عن الجندب، كست وجهه ابتسامة.

- أنا جائع، – قال أليج. – هل من شيء يؤكل هنا؟

نهض ميتيا، مر من أمام البار، أخذ من فوق الرف كيس فول سوداني.

– هل كل شيء على ما يرام؟ – كرر بصوت مرتفع. – هل سنذهب في الغد للحصول على جواز السفر؟

بعد أن وضع حفنة من الفول السوداني في فمه، قال أليج:

– كلا. لن نذهب، مضغ، ثم وضع حفنة أخرى. وهذا داعي حضوري إلى هنا. علمت أني سأجدك هنا. لذا تركت السائق يرحل فور وصولي. فكرت أنه من الطبيعي أن أعثر عليك هنا ما دمت غير موجود بالمنزل.

مع كل كوبليه تغنيه لوسيا، تنفجر موجات صاخبة من الضحك. أكثر تلك الضحكات صخبًا صدرت من الفتيات الغريبات. إحداهن، تلك التي لم تستطع أن تتلو نكتة عن الذئب والغزال، ظلت تترقب المقطع التالي بفم مفتوح بنصف ابتسامة.

– ماذا جرى مجددًا؟

تصور ميتيا، أنه كان محقًا في خوفه من أولئك الذين بإمكانهم التغير– تكمن في هذه العبارة كارثة محورية. لا يجب على الإنسان أن يتغير، لا ينبغي أن يصير "لاعبًا" بديلاً عليه أن يبحث عن سبيل من خلال الاستبدال. أوليغ تحول على نطاق واسع في اتجاهه.

– أتتصور، لقد أرسلوني إلى الإقليم. هناك مسألة تحتاج إلى حسم، أمور مالية – أتفهم؟ فعلت ما بوسعي وتوسلت لبيريوكاف أن يرسل شخصًا آخر نيابة عني، لكن – فتح يديه على اتساعهما، وكاد يلمس فيتيا – فارينيك. – ما من أحد غيري بإمكانه أن يفعل. أنت! هل تريد، يقول، أن نعاني هنا؟ عمومًا، أيها العجوز، هذا ما في الأمر. أمور مالية. أرجو المعذرة، بالطبع؛ أتفهم الأمر برمته، لكن هذا ليس بيدي.

استطاع وجهه أن يعمي ويثبت كل مشاعر، تعبر عن نفسها في ما ينطقه من كلمات. في تلك اللحظة، انضم هاينريش إلى لوسيا كصوت

مصاحب، بينما ستاس على الكونترباس، الذي أحدث دويًا في الأنف. لم يكن ميتيا يعرف ماذا عليه أن يقول الآن. شعر بشيء انشفط بداخله، لينسحب أنبوب ويتحرك بسرعة نحو العمق. حتى ساقيه، تنملت بعض الشيء. وكي يضع حدًا لهذا كله، قال أول شيء تبادر إلى ذهنه:

- أمور مالية؟

- أجل. الانتخابات - أمر مكلف. ضغط أليج كيس الفول السوداني، وهناك أمر آخر؟ أنا جائع. الانتخابات، تعلم ماذا تعني الانتخابات. على الدوام لا يسعفك ما تملك من المال؟ وكل شيء على حسابك وأن تملك المقدرة على الخداع.

- ألا يمكنني الذهاب إلى هناك وحدي، فكل ما هنالك أن أستلم جواز السفر.

أن تذهب وتستلم جواز سفرك، ها؟

هز أليج رأسه بأسف.

- لو كان هذا ممكنًا، لأخبرتك بالطبع. وحدك، لن يتحدث إليك أحد.

- لماذا؟

- ربما تحمل جهازًا لتسجيل الصوت تحت قميصك؟

- وبصحبتك؟ ما الفارق إذن؟

- معي- أنا مسؤول عنك. لو جرى شيء، تستطيع حتى مؤخرتي أن تتحمل المسؤولية. هكذا الأمر، ماذا تعتقد؟

- أنتظر؟

قاطعه التصفيق الموجه إلى لوسيا، انتهت لتوها من غناء أغنية "الجندب". انفعل دون أن يشعر، وكان على وشك أن يسكت من حوله، تحول ناحيتهم، لكنه استجمع نفسه في الوقت المناسب. ودون أن يلتفت، صفق ميتيا بدوره- وقد انتابته نوبة غضب ضاحك، وكأنه اعتذار عن تصرفه، الذي يمكن للوسيا أن تلاحظه. وفجأة هدأ تصفيق الجميع.

- لا تقلق! - دفعه أليج برفق بمرفقه ثم قال: لقد تحملت الكثير، لم يبقَ سوى القليل. عاجلاً أم آجلاً سنحصل عليه، الأهم أنه صار جاهزًا. اسمع، اسمع، أنسى دائمًا أن أسألك: كيف حال ولدك خارج البلاد، ابنك فانكا؟ لعله صار رجلاً بالغًا؟ أذكره حين كان صغيرًا، عندما حضر معكم إلى الكلية. ألديك صورته كي أراه؟

مستحيل! تصبب من ميتيا عرق بارد وخاز، صار مبتلاً، كأنه خرج لتوه من الماء. حاول بكل ما أوتي من قوة أن يحتفظ بتعبير هادئ على وجهه، أخذ نفسًا عميقًا استعدادًا للقضاء على أليج بأسرع ما يمكن - تساءل كيف علم بأمر فانيا؟ - ثم شعر بشكل مفاجئ بجميع أجزاء جلده المبتل كجلد ضفدعة، وأن الصمت عم المكان من حوله. انتابه إحساس باختراق نظرات وُجهت نحو خده ومؤخرة رأسه. لمح لوسيا، ونظرتها المرعوبة، التي تتطلع بها نحوه، في صورة ظليلة عن يساره على مقربة من العمود. وصلت أصوات طرق الأواني من المطبخ إلى مسامع الجميع، وخطوات خفيفة لفتيات يتهامسن وهن متجهات نحو التواليت، وقال الحارس بينما يغلق الباب بالمزلاج: "تبيت جميعًا هنا ليلاً. إشارة انتهاء اليوم بعد خمس دقائق"، - لاذ الجالسون على الطاولة بالصمت. إنه له، لميتيا، هذا التصفيق الساهي الأحمق هو ما جذب انتباههم، لكنهم صمتوا ما إن قال أليج: "كيف حال فانيا خارج البلاد؟ ربما صار رجلاً بالغًا".

فاته الأمر. لو فكر في الوقت المناسب أن هناك احتمالاً أن يعلم أليج بأمر فانيا، وأنه سيثرثر، ما كان ليدعوه للحضور إلى "أبارات" أبدًا. ميتيا! أيها الأحمق – الغبي! سمع الجميع كل شيء.

لوسيا – هل وصل إليها شيء مما قال؟ لازال بإمكانه أن يمسك بالقشة: ربما، سيمر الأمر على خير؟ وقد يكتشف كذبة جديدة؟ ليست المرة الأولى على أية حال. اعتاد ذلك، بإمكانه أن يفعل. يتقن الكذب. انتابه تعب لا يمكن مقاومته، دهسه، عصر عقله، أعجزه عن فعل أبسط الأشياء: تخيل أي شيء، أن يقول مثلاً: " من محض خيالهم!". بدا كأنه تصدَّع.

– أين ابنك، في فرنسا؟ يبدو أنه في فرنسا؟ أوو، أخي! إلى أي سن بقي معك؟ أذكر، ربما، حتى الصف الرابع، متى ولد؟ كانت مارينا تذهب إلى التدريب العملي ببطن منتفخ، وتشغل مقعدين في الأتوبيس. أجل، حتى الصف الرابع. أذكر أن تريفونوف وضعكم كمثال أمام الجميع. قال: إن في الغرب، كما يقولون، إن شباب المتخصصين، ممن لديهم طفل، عليهم طلب متزايد! عليهم طلب متزايد! يا له من حكواتي! أراه أحيانًا قبالة منزلي.

لم يعد الأمر يعني شيئًا الآن. أجل، فقد درسوا معًا– ما الغريب إذن أن يعلم أليج عن حياة زميلة دراسة بعض التفاصيل؟ أن "المساعدة الفنية بالمختبر مارينا غادرت مع كريستوف، وتخلت عن عائلتها"، فقد نما الخبر إلى علم هيئة التدريس بالكلية قبل أسرتها، ومن المحتمل، قبل مارينا ذاتها. وعندما بقي دون فانيا، فإن استمرار القصة بتلك القسوة أثار قلق الزملاء في كلية الجغرافيا، وكل دارسي الدكتوراه في النزل، كما أن التليفون يوجد في مكتب الحراسة. وتنتقل الأخبار من نوبة إلى أخرى، من حارس إلى زميله، أن فاكولا الساكن في الحجرة رقم 502 – الشخص الذي هربت منه زوجته

مع أجنبي، - ينتظر اتصالاً من ولده، وقد ظل جالسًا حتى منتصف الليل بالأمس، هذا الأحمق، الذي ترك ابنه لزوجته - أكد على أن يتم استدعاؤه حال جاء الاتصال. ماذا إذن! حتى عندما أخبره ابنه والدموع تنهمر من عينيه، في محادثة قصيرة، قصيرة بشكل لا يصدق، أنه لن يعود إليه، وقد مرت هذه المحادثة عبر نظرة دافئة لشخص ما من تحت نظارات خاصة. لاحظ تلك اللفتة عدة مرات، أثناء مروره بالقرب من مكتب الحراسة: ارتدت النساء نظارات، لتفحصه. خلال الأسبوعين الأخيرين، حيث إقامتهما في النزل، عجز ميتيا تمامًا عن إدراك هذه الشفافية الزجاجية العارية في النزل، الذي عاش فيه لسنوات عديدة. نظرات، ومشاهدات وزوايا رؤية مغايرة - ماذا عساه أن يفعل الآن؟ جلس ميتيا بشكل، بينما لوى رقبته في وضع غير مريح. انهمر الكلام من فم أليج، وانهمر، استطاع أن يتذكر النزل، مديرة النزل، التي حرمت عليه الوجود في النزل بعد ما فعله من لهو بريء، تجاه مارينا، التي كانت أكثر من بالنزل وسامة، - ومجددًا، بدا أن هذا تسبب في شعوره بالقلق طويلاً، - لذا دفعه فضوله أن يسأل ما إذا كان فانيا يكاتبه أم لا. احمر وجه ميتيا بدرجة، بدت كأن خدوده تعرضت للدغة، كما يحدث وقت الجليد الشديد. لم يجرؤ على الالتفات نحو لوسيا بوجه كهذا. لمح أليج قطعة من الحلوى بين علب السجائر والزجاجات، أخذها بيده النحيفة الشاحبة، مثلما ينزع مالك الحزين ضفدعًا، فتحها ثم وضعها في فمه. ما إن رفع عينيه، حتى رأى النظرات المبتهجة للجالسين على الطاولة تحاصره، ثم ثبت عينيه على ميتيا مرة أخرى.

- قال أليج: أتمنى أن تنتهي تلك الانتخابات في أسرع وقت ممكن! محاولاً أن يبدو جادًا إلى أبعد حد، لكن محاولته بدت فاشلة بسبب قطعة الحلوى. - يضيع اليوم بأكمله في المعاناة، ولا وقت لتناول شيء.

بعد عودتهن من التواليت، جلست الفتيات محدثات جلبة، متأهبات لإلقاء النكات ومواصلة إطلاق الضحكات. انتهت لوسيا من تناول زجاجة "توبورج" عبر حلقها ثم نهضت من مكانها.

- حسناً، أيها الفتيان، آن أوان قول باي - باي، - تحدثت بصوت هادئ، متوازن. - تنعس عيناي من مشروبكم "توبورج". عليكم بالحذر، اعتنوا بأنفسكم.

- رد ستاس، - سنكون مهذبين.

وأنا أيضًا سأنصرف، - قال ستاس ونهض هو الآخر، ولوح بيده "إلى اللقاء"، فعل هذا بسرعة حيث لم يسعف أحد الوقت لوداعه - تحرك سريعًا نحو المعطف، المعلق على الحمالة خلف البيانو.

- إلى اللقاء.

بدا أن هذا الوداع كان موجهًا إليه. رفع ميتيا عينيه نحو لوسيا، لكنها في تلك اللحظة كانت قد ابتعدت عن الطاولة، وتمشي بحذر ناظرة نحو قدميها حتى لا تطأ قدمها أحدًا.

- هل هذا يخصك؟ - قالت إحدى الفتيات، التي تراجعت إلى الوراء عبر ظهر كرسي، وأعطتها لوحة.

- أجل! شكرًا!

تجاهل الحارس كل ما يجري ونعس فوق الكرسي واضعًا رأسه على صدره. غادر أليج عابسًا. وصلت حالة الانتعاش إلى نهايتها، سيطرت عليه سريعًا أفكارٌ سوداوية مزعجة مثل هاينريش، نهض بعزم، وانصرف دون مقدمات.

- عليك بالحضور إلى المقر يوم الجمعة، سأعود يوم الجمعة.

لم يرافقه ميتيا، لكنه اكتفى برفع يده لوداعه. اليوم، غادر الجميع، كممثلين لعبوا أدوارهم في مسرحية سيئة، رغب ميتا، أن يقفز ليجلس متربصًا في ركن ما هادئ، كمخرج طويل الشعر، يصرخ في الجميع، ويجبرهم على إعادة المشاهد، لكنه تذكر بوضوح: أنه ما من شيء يمكن إعادته مرة أخرى أبدًا، مهما كان سيئًا. من المستحيل إعادة شيء.

جلس ميتيا في "أبارات" حتى النهاية، إلى أن انصرف الجميع. استمع إلى أحاديث ستاس المرحة مع فتاتين من صديقات المصادفة، بينما يدخن علنًا سجائر تخص شخصًا ما: أخذها من هذه العلبة، أو تلك. لم يقم ستاس، ولا فيتيا - فارينيك بأي رد فعل - كأن ميتيا صار مخفيًا. لم يسأل أحد عن شيء، رغم أن ميتيا كان مستعدًا للأسئلة، وقد كان مؤهلاً ذهنيًا للإجابة عنها عشرات المرات على التوالي، يعدل في كل مرة، ويضيف تفاصيل مكملة. كان لديه أمل، أن يطرح فيتيا- فارينيك، الذي يجلس بالقرب منه، ما دام ستاس مشغولاً إلى هذا الحد. مر زمن على صداقتهم، أمر غريب ألا يثير الأمر فضولهم، ما قاله أليج. لم يرفع فيتيا- فارينيك عينه من على الفتيات، ربما هذه النظرة الثابتة، كمرساة، حافظت على مشاركته في الجلسة.

في نقاش حول سبب عدم لحاقه بلوسيا في البدروم حيث تعيش، فسر ميتيا الأمر أن حالة من الإرهاق الشديد أصابته، إلى جانب عجزه عن الكلام مؤقتًا.

"في الغد، أكد ميتيا لنفسه: سآتي في الغد وأقص عليها كل شيء، وأقدم لها اعتذارًا".

تحولت الجلسة حول الطاولة مع مرور الوقت إلى دوامة تسير ببطء، كرروا ذات التعليقات عن يوم العمل التالي (اتضح أن الصديقات تعملن معًا)، عن الساعة المتأخرة، عن شوارع الليل الخطرة، كرروا الإيماءات والتعابير، هي ذاتها التي دارت في الدوامة ببطء. نقل ستاس الآلات إلى المخزن. حاول فيتيا - فارينيك مواصلة الحديث على نحو أخرق أثناء غياب ستاس. انصرف الأربعة معًا. تطلع الرجال، أثناء مغادرتهم، إلى جبهة ميتيا، ولم يتعجبوا على الإطلاق لبقائهِ في البار الخالي المغلق، ولم يغادر معهم. لم يودعه سوى الفتاتين اللتين تعرف عليهما مصادفة، نسي اسمهما، وكان الوداع مرحًا ودون مبالاة، ارتسمت على وجههما ابتسامة بشفاه "التُهمت" حتى حافتهما.

انتظر ميتيا بعد مغادرتهم لبضع ثوان. انطفأت الأنوار عند المدخل. كل ما تمكن من سماعه، صوت كعوب الحارس وهي تدق على الأرض بصوت عال متعمد، - وهو ينظر حوله باحثًا عن طريق نحو الطاولة الوحيدة المضيئة وسط الظلام، محاطة بخيوط من الماس، مثبتة بمسامير من أعلى. اكتسى البيانو المضلع المغلق بالسواد وانعكست منه بقع ضوء عابسة. تحدث إليه الحارس، كما لو كان ثملاً، وهو يدعي أنه لا يعرف اسمه:

- أخي، ألم يحن الوقت كي تذهب إلى بيتك؟

شعر ميتيا وللمرة الأولى بالأسف لأنه أخفى عن حراس "أبارات" عمله الذي يكسب منه قوته. ربما كان من الممكن أن يسمح له زميله بتدخين سيجارة أخرى قبل انصرافه. لن يحدث هذا بالطبع مع شاب جلس حتى وقت متأخر في بار خال، الشيطان وحده يعرف لماذا.

- إذن فلنذهب، ثم صافح ميتيا الحارس باليد على نحو غير متوقع، حتى بالنسبة له شخصيًا. - أتمنى لك نوبة حراسة هادئة.

# الفصل العاشر

أثناء محاولته اختيار جزر صغيرة جافة سار ميتيا فوق العشب العاري الموحل، ثم توقف عند جزء ضخم من ماسورة تهوية خرسانية بارزة في منتصف الباحة. في تلك اللحظة، خرج بيريوكاف من السيارة، سيارة "فولفو" قديمة مضلعة، عززت على الفور تعاطف ميتيا مع فاديم فاسيليفيتش. بدا أضخم بكثير، مما تصور ميتيا، بالنظر إلى الإعلانات. عمومًا، هناك الكثير من الأشياء التي يمكن أن تقال عن بيريوكاف – بدا أنه انتزع لنفسه مساحة في المستقبل تفوق قدرته على أن يملأها. من الممكن وصفه بالبدين، ما لم تكن تحيا في تلك الكيلوجرامات قوة هادئة كسولة. هناك رغبة في تدوين إحدى الأدوات الحقيقية في كل لفتة من لفتاته: مطرقة، منجل، أو محراث؛ رأى ميتيا أن المحراث يناسبه تمامًا بعد أن تأمل يده، وهي تميل نحو مقبض الباب البالي، تصور ميتيا أن من الأحرى بمثل هذه اليد أن تمسك بمحراث؛ عندها، وبعد صورة المحراث، ارتسمت على الفور صورة أخرى لظهر ثور رخو فوق الجبل، وخطرت فكرة، أنه من العبث تمامًا ألا يصوروه على أوراق الإعلانات كفلاح – فلاح يرتدي قميصًا أبيضَ ورابطة عنق تحلق في الريح: "نحرث. حياة جديدة. نماء". في الآونة الأخيرة تواردت الخواطر البليدة واحتشدت في ذهن ميتيا، لتشغله بسماتها الباهتة؛ لكنه قاومها محاولاً أن يبعد نفسه عن أي شيء يمكنه أن يشغله باستثناء جواز السفر ورحلته لرؤية ابنه – وربما، العمل الوشيك في "إنتوريست". حتى في أمر أليج، القائد المنفذ لمغامرة جواز السفر، فكر بها على نحو تجريدي، لكن خطر بباله، ليس كوجه، أو كلمات قالها، إنما اختصر في يده الشاحبة الهزيلة، التي ستعطيه جواز السفر الذي طال انتظاره. إن تلك اللوحة، يداه، التي تمنحه

جواز السفر، هي التي نسجت العلاقة. تسلم ميتيا جواز سفره الأول السوفيتي، عندما كان في السادسة والعشرين من عمره، من أيدٍ مغايرة. استلمه في مركز الشرطة وربما لم يطلب منه أحد شيئًا سوى أن يوقع فقط، هكذا ببساطة، لا يذكر ميتيا على وجه الدقة. لكنه يذكر جيدًا مساء ذات اليوم، حين عاد الجد فانيا من عمله، وأخبروه:

– حصل حفيدك على جواز سفر.

قال: "أووه"، كأن ما سمعه لم يكن متوقعًا.

– دعني أره.

أعطاه ميتيا جواز سفره، الذي كان غلافه لا يزال جديدًا نديًّا، أمسكه الجد، وفر صفحاته، ثم أعاده لميتيا قائلاً:

– أهنئك. أتمنى أن تحمله دومًا، دون أخطاء، أتفهم؟

ميتيا، البالغ من العمر ستةً وعشرين عامًا، عجز عن تفسير ما رمى إليه جده بتلك الكلمة : "أخطاء"، وسرح ناظرًا إلى أسفل ليديه العجوزتين ذات العروق الأرجوانية المشدودة، التي انكسرت في الحرب لقطع صغيرة، عندما سقطت طائرة تعرضت للقذف في الغابة لينحشر إيفان أندرييفيتش ويدفع عنه عجلة القيادة العاصية؛ بل وألقى الموت الذي أسرع الخطى نحوه بعيدًا، وهو يتناول جواز السفر من الجد، خمن ميتيا ما كان يرمي إليه جده. "الأخطاء" – إنها تلك التسجيلات، التي تعلن عنها الدولة في صفحات جواز السفر حال خروج أي مواطن عن قواعد الحياة الصحيحة: الطلاق، والأحكام القضائية.

- أجاب ميتيا مبتسمًا، حسنًا، سأحاول.

ما باليد حيلة، حاول قدر استطاعته، أضعف الإيمان، ما من أحكام جنائية مسجلة في جواز سفره، لقد عاش في حالة سلام مع القانون. لكن الدولة هي من تقرر، مع من تعيش في حالة سلام، ومن ستعادي من اليوم فصاعدًا؛ ولكي تنضم إلى الخارجين عن القانون، لست مضطرًا، على أية حال، لانتهاكه؛ فاللعبة أعقد من هذا بكثير، ليست كما تبدو، وفي لمح البصر ربما تكتشف أنك قد جاوزت الخط المحرم؛ لتقع كلاعب كرة قدم غافل سقط في مصيدة التسلل. اللعبة حقيقة أعقد مما تتصور.

دلف بيريوكاف إلى المقر الرئيس، وفي ذات الوقت خرجت سيدة، تشبهه تمامًا، ضخمة، في عقدها الخامس، تدق كعبيها بقوة فوق الأسفلت. اندفعت ساقاها الجامدتان بنشاط، لتتقافز على الرصيف، مثل أطراف جذوع الخشب الساقطة. دخلت سيارة "لادا" تقف عند الباب وأمرت السائق في عجالة، ونظرها بالفعل تجاه الطريق الذي كان عليهم أن يسيروا فيه. خطرت على بال ميتيا، مجددًا، تلك الفكرة التي تقضي بانضمامه إلى هذه العشيرة الحضرية، وهو ما قد يترتب عليه، أن يتعرف على تلك السيدة الضخمة التي تستقل السيارة "اللادا" وفي طريقها للمغادرة. أتساءل من تكون، محاسبة؟ أو رئيسة أحد الأقسام؟ "مديرة منزل، كررها على نفسه. مديرة منزل أفضل على أية حال من حارس، ألا يسمونها بالروسية مديرة أو بالسوفيتية مراقبًا، هذا نذير خير".

دخن ميتيا سيجارة. قرر أن يقف لبعض الوقت في الباحة، عليه الانتظار، قد يخرج أليج. قال: إنه لن يحضر سوى يوم الجمعة، لكن ميتيا رآه من نافذة الأتوبيس صباح اليوم، وقت انصرافه من العمل. ربما عاد مبكرًا. هاتفه الخلوي لا يجيب، لسبب غير معلوم، لذا قرر ميتيا الذهاب إلى مقر الشركة. ولهذا السبب، لم يعرف ميتيا ما عليه أن يفعله بالضبط.

طيلة هذا اليوم – كأن الأمر نكاية فيه، عطلة – قضاه ميتيا في كسل تام، رقد متطلعًا إلى السقف، نظر إلى النقرة الدائرية التي أحدثتها قذيفة الشامبانيا. كانت لوسيا هي من فتحت زجاجة الشمبانيا: اختلست الزجاجة وأدارتها حتى انفك السلك وأزالت السدادة، لتصطدم السدادة بالسقف محدثة جلبة كطلقة مسدس، لترتد وتضرب أحد المسامير في المزهرية. من الآن فصاعدًا، ربما من أجله ردودًا، خدوشًا تحت الجمجمة، على سبيل الذكرى. ليفكر بها دائمًا، ولا ينساها، ويذكر كيف كانت تمشي وتتكلم، وما إن ترقد إلى جواره، تتسلل شهية إلى أحلامه. ها هو شبح امرأة أخرى يظهر في حياته. شبح بديل. "يا له من ضلال عجيب؟ النساء الحقيقيات يستبدلن غيابهن بذكريات لا يمكن محوها. وربما لا يكون الأمر على هذا النحو – قد يترتب كل شيء بشكل مغاير تمامًا. كان لزامًا أن نفكر بحزم، هناك حاجة ملحة للتفكير بجدية في كل شيء.

لن تغفر له لوسيا، أمر لا يحتاج إلى تفسير.

عليه أن يطلب منها المغفرة، وهذا أيضًا ليس بحاجة إلى تفسير.

إذًا، ما العمل الآن؟

ها هو سقف آخر غني بالتفاصيل، مثل جدول الضرب، كل صدع، كل سنتيمتر من الوصلات كثيرة النتوءات في موضع تلاقي الألواح. أضيف إلى ذاكرته مستطيلاً آخر ذا لون أبيض، حين النظر إليه، يحاول دون جدوى أن يعيد النظر في حياته الخاصة. الخاطر الأوحد الذي برز في ذهنه، ما إن نهض من فوق الأريكة: "لو كنت رسامًا، لرسمت مثل ذلك المستطيل الأبيض. مجرد سقف: تصدعات، نتوءات. ليس أسوأ من مربع أسود". هنا تكتب نهاية محاولته التالية في إمعان النظر في كل شيء.

استقر ميتيا على أنه صار لزامًا عليه أن يترقب الغـرق فـي حالـة خمول وبلاهة.

ها هو يقف بالقرب من مقر بيريوكاف ودون أن يعوزه الرضا بدأ يشعر أن الأفكار العادية الجلية، ترددت مجددًا في رأسه؛ إنها تلك الأفكار الخاصة بجواز السفر، كيف سيمسكه في يده، وأن يوجه الـ"الشكر" لشخص ما، ويرفع جواز السفر نحو وجهه، ويشم على مهل رائحة الطباعة النفاذة. وحتى لا ينفصل عن حالة الصفاء المثيرة تلك، ألقى ميتيا السيجارة التي لم ينتهِ منها بعد وتحرك نحو المقر.

ها هو ذات الحارس، الذي كان يرسم في المرة الأخيرة بقلم جاف دراجة نارية، جالسًا على طاولة أمام الكمبيوتر، ينظر إلى المنشورات الملصقة على الجدار. لم يكن ميتيا متعجلاً هذه المرة، كالعادة، مبعدًا ناظريه عن الحارس؛ لم يحدث، لكنه، على العكس، تطلع إليه، ليدرك أنه نفسه سيهجر يومًا عمله كحارس أمن، لكنه لن يخفي أنه على مدار عشر سنوات، كان يعمل بالحراسة، وسيتواصل مع حراس شركة "إنتوريست" بطريقته الخاصة، وأنه سيدخن سيجارة مع هذا الحارس في الأمسيات قبل الذهاب للبيت: "حسنًا، وداعًا، أتمنى لك نوبةً هادئةً".

قاطع أحلامه البعيدة الهاربة هذا السؤال الإشكالي:

- ماذا تريد؟

- هل أليج لاجودين هنا، ألا تعرفه؟

إنها المرة الأولى التي يخاطب فيها ميتيا أحدًا بصيغة المفرد "أنت"، ردًا على خطابه بصيغة الاحترام "أنتم". ظل طويلاً منزعجًا من هذه العادة السائدة،

التي لا تحمل سوى الخنوع، الذي يجسد عطشًا خالدًا لدى الخادم الخانع أن يعلو على الآخرين. بعد التحدث بصيغة الخطاب "أنت" ردًا على "أنتم"، استشاط ميتيا غضبًا وصار يغلي صامتًا؛ حيث لم يكن هناك أية جدوى من القيام برد فعل. لكن صار جليًا الآن أمامه، أن الأمر لا يستدعي أي غضب، كلا – أما عن استعداده أن يخاطب شخصًا بصيغة المفرد "أنت" لا يبدو له صفة خنوع. على أية حال، استقر ميتيا على التفكير في هذا الأمر لاحقًا.

– رد الحارس، – لا أعلم، وهو يتطلع إلى ميتيا، مقررًا، على ما يبدو الطريقة المناسبة التي عليه التصرف بها مع ميتيا. – من يكون؟

– هل تبحث عن أليج؟ سأل صوت قادم من خلف بندقية آلية مألوفة.

استدار ميتيا.

أجل.

– ما الداعي؟ ثم استطرد، دون أن ينتظر رده، معززًا سؤاله الأول. – على أية حال ماذا تريد منه؟

شعر ميتيا بشيء من الحرج. يبدو جليًا، أنه ليس من اللائق في كل الأحوال أن يدفعه هذا الفتي بأخلاقه التي تليق بحارس تافه في شركة، إلى سرد الأمر الذي يجمعه بأليج. بإمكان ميتيا هذه المرة أن يتطلع إليه عن قرب، بوجهه المضلع، فكه الثقيل، وأنفه الكبير، وأذنه الحمراء اللحيمة.

– قال ميتيا – ربما، أليج الذي أريد مقابلته غير أليج الذي تقصده. أريد أليج لاجودين، نائب السيد بيريوكاف.

تبادل الفتي النظرات مع الحارس، وأخذ ميتيا تحت مرفقه واصطحبه إلى الممر.

- إذن، – قال الرفيق الذي يحمل البندقية – يبدو أن في الأمر إثارة.

دخل كلاهما إلى الغرفة المجاورة؛ حيث، كما في زيارة ميتيا الأخيرة، جلس أناس، كأنهم لم يغادروا مكانهم، مشغولون بسماعات الهواتف. تحركوا بين الطاولات، عابرين الغرفة حتى وصلوا إلى مكتب واسع به كراسٍ جلدية. عدد الكراسي حوالي خمسة أو ستة، انشغلت جميعها. توجه نظر ميتيا، بوضوح، إلى الركن الأقصى، باتجاه شخص ضخم لا يرتدي سترة، وقد شمر عن أكمام قميص أبيض. وقف بيريوكاف تحت الأباجورة، وبدت تحت إبطه بقع سمراء مبتلة. حمل بين يديه وثيقة، مال نحوها، وبعناية، بدأ يحرك شفتيه، ويقرأ.

– فاديم فاسيليفيتش، ألا سمحت لي بدقيقة من وقتك. – لم يفلت الفتى ميتيا من يده، كأنه أحضر شخصًا مقبوضًا عليه.

الأمر بسيط، فكر ميتيا، الآن سأشرح لبيريوكاف، من أكون. لا داعي للجلبة، وسينصرف هذا الرقيب محلي الصنع. أطرق هذا الرقيب محلي الصنع سراح ميتيا أخيرًا، وتنحى جانبًا لمسافة خطوتين.

- انفجر قائلاً – كرر، ما قلته لي.

ابتعد، بريوكاف، دون أن يرفع رأسه بعينيه عن الوثيقة التي كان يقرأها.

– أهلاً بك، اسمي ديمتري فاكولا. بالتأكيد، حدثك أليج لاجودين نائبك عني. أنا، في الواقع، حضرت كي ألتقي به، لو كان موجودًا هنا بالطبع. هاتفه الخلوي لا يعمل.

وقف بيريوكاف فاردًا قامته. ارتفع حاجباه حتى وصلا إلى جبهته، ثم تجمدا دون حراك. تبادل النظرات مع ذاك الرقيب الذي أحضر ميتيا، ومع

شخص آخر من الجالسين على أحد الكراسي، ثم ألقي بالوثيقة فجأة على طاولة ثابتة تفصل بينها وبين طاولته مسافة كبيرة. سقطت الورقة فوق مصباح على المكتب، ثم على الأرض.

- أيها السافل! - قال بيريوكاف.

ذهب باتجاه النافذة ثم عاد مجددًا.

- أيها السافل! كوستيا، - التفت نحو "الرقيب"، - ما هذا الهراء! كيف تجرؤ على هذا الإهمال؟ هذا؟ - وفرد ذراعيه، لتظهر البقع تحت إبطه.

- هذا ذنبي، فاديم فاسيليفيتش، - قال الرقيب كوستا، معبرًا عن ندمه.

- اللعنة، ما هذا السافل! - مد بيريوكاف ذراعيه باتجاه الحاضرين، كأنه يستجدي مشاركة الجميع له هذا الغضب. - طلب منه الأب لأجل الصداقة القديمة أن يساعد ابنه الفاشل في العثور على عمل، أي عمل، حتى لو كان عمله مجرد أن يلصق الإعلانات؛ لكن! للأسف! - لوى بيريوكاف إصبع يده اليسرى الأصغر في راحته اليمني. - لقد استولى على نقود فالنتينا إيفانوفنا.

الآن أدرك من يكون على وجه اليقين. - قال مجهول. - حضر بالأمس، تنبل. - قال من يجلس في الوسط. - إذن، هكذا يتضح الأمر، يدعي أنه نائبي! أليس بسافل، هاه؟!

تعالت ضحكة أحد الأشخاص خلف ظهر ميتيا:

- الشيطان الموهوب.

استدار بيريوكاف نحوه.

- ميخاليتش! ألم تلحظ هذا منذ وقت بعيد، هاه؟

بدأ ميتيا يتأمل ما يسمعه من كلمات. وعلى الرغم من أنه سمعها بوضوح كامل، فإنه لم يستوعبها على الفور - كأنه ترجمها من لغةٍ أجنبية.

- ميخاليتش! أفهمت، هاه؟

كل شيء حوله الآن - الطاولة الكبيرة في المنتصف، عليها أكوام من المستندات، كراسٍ، مجموعة من البدلات تجلس على المقاعد، وجه بيريوكاف المذهول - تطلع ميتيا حوله بنظرة جائعة كئيبة. كل هذا لا يعني سوى أنه سيبقى غريبًا. مثل قطعة أثاث في مكتب شخص لا يملكها، وملابس يرتديها غرباء، ورجال ساخرين - هذا كل ما رآه. رجال يشبهون إلى حد كبير صغار المديرين السوفييت، أذكياء، شرسون. "يا للعجب، ماذا أطلقوا على مثل هذا اللقاء في ما بينهم؟ ربما، أسموه جلسة تخطيط". كانت بدلاتهم، التي نظر إليها ميتيا بشكل آلي، تبدو رخيصة بشكل مذهل، شاحبة على الطراز السوفيتي، أما الأحذية - فكانت بسيطة يغطيها التراب. بدا هذا مثيرًا. لا سيما مع ارتداء فاديم فاسيليفيتش نفسه لملابس مناسبة. "هل حقًا يُحتجز الجميع في جسد أسود؟" - أضاف ميتيا إلى أفكاره فكرة جديدة فارغة - لم يسمح لأي منها أن تكبر؟ من المحتمل، أنه حملها معه من هناك، من العصور الاشتراكية القديمة. ما الداعي إذن، بعد أن صار برجوازيًا، طبيعيًّا، طيبًا، يتولى قيادة ذات المشرفين وبالمثل المهندسين في أحذية بالية؟ ربما يشعرون بالراحة فيها". ولكن لم يكتب له أن يعرف الإجابة، مثل كل شيء آخر، له علاقة بالسلم الوظيفي أو ممارسات تجري في شركة "إنتوريست"، - وكذا تلك السيدة الضخمة، التي ركضت على سيقان، مثل جذوع الأشجار، نحو السيارة "اللادا" المتهالكة، ورحلت على متنها في الفراغ، والحارس، الذي يهوى رسم الدراجات النارية، الذي لن يشاركه تدخين السجائر في نهاية

يوم العمل، وكلا، لن يصبح عضوًا جديدًا في تلك العشيرة باسم رياضي إلى حد ما – مسؤول خدمات.

وداعًا، حياتي العشائرية العقيمة! رائعة أنت، ربما، مثيرة شهية، مثل فقدان العذرية،– ولكنك لست لي، لست لي. يملك الحمقى عشائرهم الخاصة، التي تليق بهم.

في الوقت ذاته، اعتدل ميخاليش في جلسته، وقال:

– هل تذكر سافتشوك، فاديم فاسيليفيتش، عام ١٩٩٥؟ الذي عقد كل الاجتماعات لدينا في الردهة. كوستيا، هل حدث هذا عام ١٩٩٥؟

– في نهاية عام ١٩٩٤، – أجاب كوستيا. – كان يعمل ببساطة، وبفاعلية أيضًا. اجتذب عددًا كبيرًا من الناس! لم يكتشفوه بسرعة، كما أن زوجته كانت تعمل خادمة. ظن الجميع، أن هؤلاء الناس يقصدونها.

اقترب بيريوكاف، سحب كرسيين، واحدًا له والآخر لميتيا.

- اجلس، – ثم جلس بدوره في كرسيه، وتنهد بقوة.

ترتبت كل قطع الموزاييك الحقيرة تلك في رأس ميتيا في لوحة نهائية. بدت اللوحة بدائية، فقيرة – بينما هو، ميتيا الفقير الأحمق، تمامًا في مركز اللوحة، يدفع يديه نحو كتاب قرمزي، يحيطه نقش توضيحي: "الأحمق – مواطن العالم!" تردد ميتيا، حائرًا، هل عليه أن يجلس، أو يعتذر ويلوذ بالهرب على الفور.

– ماذا بك، اجلس، اجلس.

ما إن جلس ميتيا أمامه على الكرسي، لم يقرر من فوره أن ينظر في عينيه.

- أخبرني.

فرد ميتيا راحتي يديه، ثم ضمهما في قبضتين، ووضعهما على ركبتيه، تسارعت دقات قلبه. قال أخيرًا:

- إيه - فتح قبضتي يده مرة أخرى ثم واصل: ماذا أقول؟ ربما خمنت الأمر. قدم نفسه كنائب لك، وعرض المساعدة في الحصول على جواز سفر. لقد كان زميل دراسة، لكن... باختصار شديد، لقد نصب عليَّ.

- كم أخذ منك؟

- أربعمائة دولار.

- ام - ام... - أومأ بيريوكاف، كأن الرقم سقط في الشبكة المناسبة.
- تقول إن هناك مشكلة مع جواز سفرك، أية مشكلة؟

توجب عليه مجددًا أن يشرح، الكيفية التي لم يعد بها مواطنًا روسيًا، أن يحكي عن القانون الذي يحمل مفاجأة. من قديم صار لديه حكاية ثابتة، مختصرة، لكنها تحوي تفاصيل كثيرة. كم مرة اضطر أن يحكي تلك القصة لأناس كثيرين، مختلفين، في أماكن وأوقات متباينة من اليوم، وفي حالات مزاجية متغيرة. فجأة، أدرك ميتيا، أنه ليس باستطاعته أن يعيد رواية قصته مجددًا، ولكنه حاول على أية حال:

- أعيش في روستوف منذ عام ١٩٨٧، ولدت في جورجيا، عندما كانت إحدى دول الاتحاد الفيدرالي، - لكن كلا، تأكد، أنه لا يجب، أن يتعثر في وصفها بالـــ"الجمهورية". ولو كان هناك احتمال أن جواز السفر يرقد في درج مكتب بيريوكاف الكبير الأنيق باسم ديمتري نيكالايفيتش فاكولا فلا يحتاج الأمر سوى تهدئة كل شيء، كقصيدة شعر في حديقة، واستلام الجائزة المستحقة، لم يفلح.

نهض ميتيا. من النظرات التي أطلقها في جميع أنحاء الغرفة التي تحاصرهم من كل اتجاه – أيًا كانت درجة تباينها، جادة أم هزلية، – برز من وقت إلى آخر ذات الشعور بالامتياز. تجلى في هذه النظرات بوضوح أسوأ اتهام في الحياة الحالية. " "أجل، اعترف ميتيا بهدوء. – أنا أحمق".

- ربما، – قال ميتيا، – سأنصرف.

أصدر الكرسي الذي يجلس عليه بيريوكاف صريرًا، كأنه يشاركه الاندهاش.

– كيف ستنصرف؟ ألا انتظرت قليلاً، يا عزيزي؟! لقد جئت إلي بمحض إرادتك. قال "إيه"، تكلم يا "ب". لزم أن أعرف ما يحدث في شركتي. – وأشار إلى الكرسي الذي نهض من فوقه ميتيا للتو – تفضل بالجلوس، أخبرني بما حدث على مهل. سنتصرف وسأساعدك. علينا أن نمد يدن العون له، – أصدر الأوامر إلى كوستيا. – فهذا السافل يتاجر باسمي! سنجرره إلى هنا، لنتحدث.

أومأ كوستيا بالموافقة. قال بيريوكاف لميتيا مرة أخرى:

– سوف أمد لك يد العون؛ لكن ليس الآن، اتفقنا؟ انتظر قليلاً حتى تنتهي الانتخابات. وسأتصرف مع أليج هذا.

ألقى ميتيا نظرة أخرى على الغرفة. طاف أمام ناظريه مشهد آخر أخرق، في هذه المرة بأسلوب "شيكاجو في الثلاثينيات": ها هو يرتدي معطفًا واقيًا من المطر بياقة مرفوعة، يرتدي قبعة كبيرة، مدفع رشاش من طراز "طومسون" على ركبتيه، يستقل سيارة سوداء لامعة، تتحرك على مهل نحو أليج الذي يمشي على الرصيف. وعلى رأس كل حارة، يقف عجوز في

بدلة سوفيتية مكوية، متكئًا على الحائط بكتفه، يرتدي حذاء ملمعًا، متهالكًا، متظاهرًا بقراءة "رأس المال".

ابتسم ميتيا لذات الشخص، الذي تخيله بنفسه للتو في المشهد، وقال:

- أعتذر لسوء التفاهم،- ومشى باتجاه الباب. الآن إلى اللوتو الروسية.

انتهت سفيتلانا إيفانوفنا من آخر لعبة سوليتير، تعرف الآن تمامًا أين عليها أن تشتري تذكرة على الأرجح، فإن التذاكر على قدر ما لم يتحقق من فوز طيلة فترة طويلة جدًا، فإن احتمالات الفوز في هذه المرة كبيرة، وتطلب هذا شراء عدد من التذاكر. تشير الخرائط إلى أحد الأكشاك، يقع في ساحة السوق.

كانت سفيتلانا إيفانوفنا في حالة معنوية رائعة. نجحت في لعبة السوليتير بشكل مدهش، وبسرعة غير معتادة. كان هذا بمثابة فأل حسن. أحصت المال المتوافر لديها، ترددت للحظات، ثم أضافت نقودًا تكفي لشراء تذكرتين إضافيتين، ووضعتها في جيب معطفها. "في حالة الخسارة، سنعيش على نظام غذائي لا يحتوي سوى الشوفان"؛ لكنها نهرت نفسها، لتطرد تلك الفكرة السيئة.

- ساشا! - نادته، وهي تتطلع إلى الممر. - ساشا!

ركض ساشا نحوها هابطًا درجات السلم من مكان ما، وقد أمسك بكلتا يديه علبة بيرة منبعجة، غرس فيها بالفعل ما يشبه الصاري - قلم رصاص بسيط في السابق. نظر بريبة إلى سفيتلانا إيفانوفنا، حتى ظنت أن عينه الحولاء تنظر إليها من جميع الاتجاهات في الوقت ذاته.

- لن يبحر، - قالت سفيتلانا، وهي تشير إلى مركبه غير المكتمل.

ردًا على ما قالته، هز رأسه بشكل غير مهذب، وقال عابسًا:

- سيبحر.. فعلناها من قبل.

وبالمثل هزت سفيتلانا إيفانوفنا رأسها بانفعال.

- نعم؛ لكننا صنعنا الساري من سلك رقيق، ولم نثقب العلبة. وفي ذات السياق، لماذا طبقت العلبة؟ على هذه الحالة، لن يمكنها الطفو.

لكن ساشا لم يعلن استسلامه.

- سيبحر! - كان غاضبًا. - ولماذا لا يطفو؟

وأنا بصفتي مهندس تصميماتك السابق أقول لك: لن يطفو، - قالت سفيتلانا إيفانوفنا، والابتسامة على وجهها من عناده وثرثرته.

سرح، على ما يبدو، استهواه من بين ما قالت تعبير "مهندس تصميمات".

في الآونة الأخيرة، شعر ساشا بالسعادة من حديثها المتدفق السلس أنها تستدرجه لحوارات طويلة، وربما حوارات لا تصدق، وهو ما يغمر قلبها بسعادة بالغة، وفيض حنان، وصل حد الألم. خشيت أن ينفضح هذا الشعور على أي نحو؛ خافت أن يلحظ الجيران ويطلقون موجة جديدة من الحوارات البذيئة القذرة: "سفيتكا[1]، في القريب العاجل، سيطلق عليك ماما. سفيتكا، هل ستظهر أمه؟ يقولون إنهم رأوها في المدينة". كانت تخشى حتى في أوقات انفرادها بساشا أن تستسلم لذلك الحنان الموجع، رغم أنها عندما تمر بجواره وتنظر إلى رأسه: ما العمل لو أثار هذا الحنان في روحه مشاعر مقابلة سيعبر عنها في مكان ما للناس، فيسكن إليهم، ويحتضنهم؟ كلا، لا يمكن إطلاق سراح مثل تلك المشاعر. على الأقل الآن لا يزال كل شيء هشًا على هذا النحو.

---

(١) تدليل سفيتلانا.

كانت سفيتلانا إيفانوفا تجلس القرفصاء.

- سأعود، سننفذ، بكل شيء كما يجب، اتفقنا؟

- إلى أين؟ - سأل ساشا.

عقدت حاجبيها في غيظ.

- ها هو يسأل مجددًا أين أنا ذاهبة ممسكًا بيدي؟ كم مرة قلت لك: لا تسأل هذا السؤال! - ووضعت قبضتها تحت أنفه.

خفض ساشا عينيه ناظرًا إلى قبضتها، بترقب حذر، - بدا كأنه لم يستوعب، أن هذا قد يكون على سبيل المزاح.

- أوه، حسنًا، أصابته الدهشة!

ابتسمت سفيتلانا إيفانوفنا وسحبت يدها. لم تعتد بعد التجاعيد في وجهها، وحاولت أن تتخيل وجهها، وهو ما يجعل ابتساماتها أحيانًا تبدو جامدة، كما في الصور الفوتوغرافية.

- الآن، ماذا ستفعل؟ - وبرفق وجهت إليه سفيتلانا إيفانوفنا ضربة خفيفة إلى بطنه المنتفخ. - هل ستجلس هنا أم تركض بين الطوابق؟

سأل ساشا:

- هل ستقومين بحبسي؟

- سأفعل بالتأكيد. ردت عليه، ونهضت فاتحة ذراعيها. - سيحضر اللصوص، ويسرقون كل شيء ويحملونه بعيدًا.

- إذن لن أذهب، سأبقى هنا.

أشارت إليه.

- اذهب.

ركض ساشا، وفي وداعها احتضنها بنظرته التي تحاصر على الفور من جميع الاتجاهات.

- سأبحث عن علب بإمكانها الطفو! - صرخ ساشا، حين وصل إلى السلم، واثقًا، أنها لا زالت واقفة تتابعه.

عندما جاءت سفيتلانا إيفانوفنا من تبليسي، كان فانيا تقريبًا في سن ساشا. لو تفتت الزمن نثرات، لصارت تلك النثرات أوقاتًا منفصلة، مستقلة داخلك، حينها من السهل أن تتوه وسطها. هذا ما حدث معها. ذات يوم نهضت في منتصف الليل، أيقظها صوت طرقات الشراعة المفتوحة بفعل الريح. تمكن الريح، الذي لم يكن قد انسحب بعد، من كل شيء، أسقط من عتبة النافذة كتاب الحروف، وبعثر المناديل؛ عادت مسرعة إلى السرير، الذي يرقد عليه ساشا؛ حيث لم يسعفها الوقت للاستفاقة من النوم على نحو كامل بعد، ما إن سحبت البطانية على جسدها المنكمش، وهمست: "نم، عزيزي فانيا، نم". ارتعشت ولما استوعبت ما قالته للتو، ونهضت من الفراش - بحركة حادة، ذهبت إلى المطبخ لتدخن؛ هناك قرع الريح الزجاج المتصدع مواصلاً الطيران نحو الشارع الأشعث. حلق دخان السجائر في أنحاء السقف. جرَّره الريح نحو النافذة المفتوحة. كانت تدخن في ذلك الوقت بشراهة، دونَ حصر، تشعل سيجارة من الأخرى، وفي تلك الليلة الممطرة، وصل التشوش في روحها إلى خط النهاية. "هكذا صار كل شيء في مكانه"، - فكرت، لكنها لم تستوعب بعد: كلا، ليس تمامًا، لم يصر كل شيء في مكانه. هنا يكمن لب المسألة - يجب إصلاح كل شيء. هل هو شيء محرم - أن نصلح، شيئًا سيئًا؟ ما ذنب ساشكا، لأنه سحب تذكرة سيئة الحظ؟ الإصلاح، هناك ضرورة لإصلاح الأمر. لم تفعلها مجددًا، لم تنادِ ساشكا بفانيا.

إن حبَّ طفل غريب، بدا أمرًا محرمًا، مرهقًا، مثل مثقاب في جوال، حاصرها بشكل كامل. هذا الشعور العنيف، والذي استقر على نحو مؤلم في القلب، لكنه عجز أن يفعل في الحياة حولها، ومن الصعب أن يطلق عليه أحد شعورًا مبهجًا. توسل لإطلاق سراحه، مهددًا أن يلاحقها في كل خطوة، ولكن كان من الضروري إخفاؤه. يتوجب الآن توفير الاستقرار في المستقبل البعيد، حينما يصير ميتيا، رجلاً بدينًا أصلع الرأس، أما ساشا – سيغدو طالبًا وسيمًا في معهد اللغات الأجنبية – يجلس على الطاولة، يناقش أمرًا ما (مثل رجل عادي، يبحث عن الحقيقة محدثًا جلبة)، تغطي العشاء، بينما يهطل المطر خلف النافذة (أو تلهو الريح مع فروع الأشجار)، ويتكاثف الليل، ولا ينوي أحد الذهاب إلى أي مكان؟

ارتدت سفيتلانا إيفانوفنا ملابسها، وحملت علبة السجائر. أخرجت من الثلاجة زجاجة الفودكا وخبأتها في جيب معطفها الداخلي، صعقت الزجاجة خيوط البرد عبر السترة المبطنة المحبوكة. ما إن أغلقت الباب، عبرت الممر نحو السلم – ولكنه ليس السلم المؤدي إلى باب الخروج، إنما إلى الطابق الثاني، في جناح الطوارئ. هنا، نزعت قطعة من فتات الجص، ثم صعدت طابقين، وغاصت في الممر الذي تموج فيه تيارات الهواء وانحرفت من فورها إلى اليسار، إلى غرفة، بلا باب للعبور، إنما مرت من ستارة معلقة على مسامير، تصفق منتفخة. عبرت الستارة لتتوقف أمام دولاب يسد الغرفة، مثبت عليه علامات: في نقطة الاستقبال مقابل زجاجات الخمر، الخالية من العلامات، قدموا المزيد.

– هل من أحد هناك؟ – تحدثت قاصدة شخصًا وراء الدولاب.

أتى صوت صرير سرير وصوت رجل ناعس:

- أجل، أنا هنا، أنا هنا.

وبحرص شديد، عبرت سفيتلانا إيفانوفنا الدولاب، حتى لا تصادف مشهدًا إيروتيكيًا، كما في المرة السابقة. لكن فيودور، هذه المرة، لم يكن عاريًا، ارتدى سروالاً وسترة، ولو أنه كان بلا قميص. جف القميص ورقد مصلبًا فوق السرير، برزت ثقوب على قبعات مثبتة على الجدار بمسامير. جالسًا فوق سرير مضغوط حتى أرضية الحجرة، رأسه تكاد تلامس ركبتيه، يرتشف الويسكي بذهن شارد.

- ها هي أخرجت الزجاجة ووضعتها فوق الطاولة القذرة.

أومأ فيودر. التفتت سفيتلانا إيفانوفنا في اتجاه باب الخروج، لكنها لم تخطُ خطوة واحدة، أدهشها أن الصدع في واجهة الجدار اتسع بصورة كبيرة، واقتربت لتحصل على رؤية أفضل. في تلك الأثناء، أخرج فيودور مشطًا من جيبه الخلفي، ودفنه في شعره.

- ماذا؟ ألاحظت؟ - قال فيودر، ثم سحب المشط ليمشط شعره. - إن الصدع يزحف.

تطلعت سفيتلانا إيفانوفا في سكون إلى بقية الجدران والسقف، وثبتت ناظريها على الجردل البارز من تحت السرير الثاني، الذي وضع فيه فيودور متعلقات زوجته المفقودة.

- لم ينهر بعد، الـــ...؟ - ابتلع كلمة بذيئة، محاولاً أن يضع مكانها كلمة نباتية. - ما دام لم ينهر بعد إلى الجحيم، ولم يلقَ شخصان مصرعهما، لن أغادر المكان، ها أنا أقول لك!

ربما، بدأ الاستسلام للترويض. تتطلع إليه، تجده يمتنع عن الكلام البذيء. أومأت، دون هدف: إذن، لقد سمعتك، عليَّ الانصراف - وتأهبت للرحيل.

- حسنًا، إيفانوفنا! - صرخ فيودور، ثم قفز من السرير ذي الصرير المجلجل. فلنشرب إذن.

حينها، قال لها، وهو يحدق متجهمًا نحو ركن الغرفة:

- حسناً، إيفانا، لنشرب معًا.

- ما الداعي هكذا فجأة؟ - كانت مندهشة.

- اشربي، اشربي. - زاد تجهمه. - أرجوك، بكل ود. يقول الناس: مهما كان الأمر بالنسبة لك، لست أنا من يسمم، عجوزًا لعينة! حينئذٍ، سيظل الفتي معك دون أية مشاكل. سيبقى كل شيء في طي الكتمان. اشربي.

صار لزامًا عليها أن تصب وتشرب. ومنذئذٍ، يجبرها فيودور أحيانًا أن تشاركه الشرب؛ وهكذا تؤمن نفسها.

- أنت في غنى عن هذا. - رمقته بنظرة حادة. - لا داعي لمزيد من هذا الهراء. لا داعي للشرب، إذا كانت الأمور ستصير على هذا النحو.

- إذن لا تقتربي من ولدي، - قال فيودر بشكل مسرحي ثم صفع مؤخرته - آه؟! لن أعطيك أية أوراق، إذن.

طبعًا، إنه يحاول ببساطة أن يكدر صفوي، يخيفني، لكن إلى أي مدى يمكنه الذهاب؟ يحاول إرهابي. ترتعد فرائس ساشا منه. أحيانًا، يأتي ثملاً، يأخذ ابنه إلى حجرته، ويلقي عليه الأوامر: "لن تخطو خارج الغرفة!" - وهكذا يجلس ساشا طيلة اليوم دون حراك، حيث أمره، بين السريرين على الأرضية. يلهو بدمى السيارات. يستيقظ الأب يمسح رأس ولده بحنان: "كم أنت رائع! تحرس أبيك، أليس كذلك؟".

تطلعت سفيتلانا إيفانوفنا إليه بتمعُن، واتضح لها، أنها مشغولة به الآن، لكنها على أية حال لا تنوي أن تشاركه تلك الخاطرة.

- سأدفع لك مقابل هذا كما اتفقنا، قالتها على نحو، بدا كأنها تحدث نفسها، بينما تدير ظهرها له.

- أها، ومن أين لك بالمال؟

ودون أن تستدير، انفجرت في وجهه:

"ليس من شأنك، - ثم انصرفت".

- إيه! انتظري! - صرخ في أعقابها. - لم تجبني في المرة السابقة. فلتحضري لي زجاجة كل يوم! زجاجة يومًا بعد يوم قليل جدًا، ليس من الإنسانية!

ابتزاز جديد، هذه المرة أصرت سفيتلانا إيفانوفنا ألا تستسلم. اتفقت معه أنها مقابل ثلاث زجاجات في الأسبوع ستستبقي ساشا عندها، لكن في الآونة الأخيرة حاول فيودر المساومة للحصول على المزيد. ربما تفتق ذهن ذات الصحبة، عن فكرة السم في المرة الأخيرة. قالت بحزم، لا مزيد من الزجاجات، ما دام وصل الأمر إلى، أن بإمكانه أن يأخذ الطفل عنده - ما لم يشعر بالأسى على ابنه، ما لم يخشَ أن ينهار الجدار في الغرفة في أي وقت، لا سيما أنه لم يبق من الوقت الكثير ليذهب الطفل إلى المدرسة، ولا زال عاجزًا عن الكلام، من سيذاكر معه الدروس؟ هذا اختيال في منتهى الخطورة. تمكن فيودر بحدسه أن يدرك أنها تحاول خداعه، تقاوم، تجاهد للصمود حتى الرمق الأخير، حينئذٍ لو أخذ ساشا عنده، فلا بد أنها ستنهار، - ومن أين لها بالمال إذن حتى تفي بتموين فيودر بالزجاجات يوميًا؟ يتوجب

عليها أن تدخر المال من أجل الجميع. لا بدَّ أن تجد عملاً. الآن لو أن ميتيا يقدم لها يد العون. يجب أن تستجمع شجاعتها وتتحدث إليه دون مواربة. عليها أن تذكر نفسها وللمرة المائة أن عليها أن تجري مع ابنها حوارًا لا مفر منه، للمرة المائة تشعر ببرودة اليأس: لن تنال هذا الحوار. لم يكتب لها التوفيق قط في هذا الشأن، وسيكون مآله الشجار كالعادة، وسيتوارى خلف الباب ويبتلع الباب ظهره، لكنه سيظل بالنسبة لها الوحيد الذي يمكن أن تتحدث إليه.

في الشارع، تمكن البرد من قدميها سريعًا، لتتذكر، أنها نسيت انتعال قفازات القدم داخل حذائها المتهرئ. ولكنها لم تعد للمنزل - خرجت لشراء التذاكر! وحتى لا تتجمد في محطة الأتوبيس أمام النزل، حيث تأتي الأتوبيسات كل نصف ساعة، قررت أن تذهب إلى الشارع المجاور، الذي ينبض بالحياة. أصدرت تهرؤات الحذاء صوتًا عاليًا؛ لكنها لم تعر الأمر اهتمامًا، وحاولت ألا تطأ قدمها الطين. في شبابها، لم يكن مقبولاً نهائيًا أن تخرج إلى الشارع دون مكياج - حتى لو قصدت المتجر لشراء الخبز يوم عطلة، ثم انشغلت في تربية ميتيا. حينها، أثناء رعاية طفلها، لم يعطلها شيء: لا اللفافات، أو الكراسات منعتها من الاعتناء بنفسها. كبر ميتيا، بدت ملامح الرجولة تظهر عليه بوضوح، وفي أحيان كثيرة، استحضرت وهي تتناول فنجان قهوة على مهل، كيف ستصير يومًا عجوز مفعمة بالحيوية، محاطة بأحفاد حسني التربية - حتى إنها ابتاعت لنفسها أريكة فاتنة من البامبو لتجلس عليها وتدخن السيجارة من المبسم، شال فوق كتفيها، ومانيكير ذهبي بسيط. ها هو الشباب قد رحل، تبدل العالم بعالم آخر، وفي هذا العالم الجديد تبين أن الشيخوخة بائسة وضيعة، تنتعل فيها حذاء متهرئًا. دُمرت

حياة ابنها الأسرية بخيانة وكارثة، بينما تلك الشيخوخة التعسة جعلت كل شيء بلا معنى. ما الفقر، أدركت ماهيته من قبل. وفي الواقع، بدا فقر ما بعد الحرب باهتًا في ذاكرتها – لأنه كان في طفولتها المبكرة، حيث الذاكرة، مثل النظر من زاوية جانبية، لا تخطف سوى بعض التفاصيل الملتبسة: كاشا[١] من دقيق الذرة لا تصلح للأكل، معطف أم ببقعة سوداء من أثر المكواة، دموعها التي تسقط فوق المكواة، هسهسة صاخبة لسطح طاولة مثبت فوق صناديق خضراوات متشظية في وضع رأسي. الفقر، ذلك الغريب بما يكفي، تخلله ضوء من شعاع حياة دافئ.

- لا عليك يا سفيتا، ربما ليس قدرًا محتومًا أبدًا، كررت أمي على نفسها.

لكن، الآن، يبدو أنه إلى الأبد، لا مفر.

بداية، ذكرت أن، كل هذا ذنب اقترفه روستوف- بابا[٢]، فهو خسيس، سكير، فظ، أصابها بالحسرة، كما فعلت الشيخوخة الكئيبة. قبل حضورها إلى هنا، لا تذكر عن روستوف سوى شيء واحد لا غير: فتاة لم تتجاوز العاشرة سافرت مع أمها إلى فاسيورينسكايا[٣]، في زيارة لأخت والدها الكبيرة. حدث هذا منذ زمن بعيد. بيريا كان جاسوسًا، ظهر في المتاجر بونبون رائع. أطلق وابور القطار نافورة من الدخان كريه الرائحة في السماء، ومرت مفتشة القطار في العربة، وقد ربطت أزرار سترتها الكبيرة اللامعة، ثم صاحت:

---

(١) أكلة روسية من الأرز باللبن.

(٢) اسم أطلق على مدينة روستوف، كما أطلق على أديسيا اسم أديسيا ماما. ويشير الاسم إلى الجانب المظلم في مدينة روستوف، من إجرام وسرقة وفساد.

(٣) إحدى قرى القوقاز.

- أيها المواطنون! رجاء إغلاق النوافذ، نحن نقترب من روستوف!

لكنهم تمكنوا، على أية حال، من سرقة شخص واحد على الأقل. تعلقوا بسقف العربة، قفزوا من النوافذ المفتوحة، ألقوا خطافات الصيد وسحبوا ما علق بها.

عندما انتقلت للعيش هنا، كان عليها أن تقر أن عبارة روستوف - بابا لا تعني شيئًا - فالمدينة ليست أكثر لصوصية أو سكرًا من غيرها. ومن يدري لو قدر لها أن تعيش في مدينة أخرى، ماذا كان سيحدث؟

تبقى أمل وحيد، في ورقة لوتارية مستطيلة ملوَّنة، استقر فيها ما تبقى في الحياة من إثارة. عليك فقط أن تؤمن. هكذا روت أمي، كان لديهم أثناء الحرب إيمان بتحقيق النصر، حتى في الأيام التي بلغ فيها اليأس أقصى مداه - كان لديهم إيمان بتحقيق النصر. امتلكت ذات الإيمان. عاجلاً أم آجلاً، ستصيب كل الأرقام الهدف بدقة، وستنطلق صواريخ الاحتفالات بالنجاح. حينئذٍ، يمكن إعادة كل شيء، خلقه من جديد على طريقتك الخاصة.

في الباحات التي عبرتها، مر يوم أحد شتوي بطيئًا. شخص ما يسخن سيارة أمام الجراج. تعثر شخص آخر أثناء سيره أمام مدخل أحد المباني؛ حيث انشغل بعد النقود، في انتظار أن يصل المبلغ وعدد البشر إلى الحد الأدنى المطلوب.

بدا الحصول على موافقة فيودر للتوقيع على تلك الورقة البشعة أمرًا ليس بالسهل على الإطلاق. تصدت له، لكنها، بشكل ما، وجدت نفسها فجأة أمام وابل من سباب وحشي، نهاية استغلت تلك اللحظة لصالحها، واستطاعت تهدئته، بوصف ما ينتظر ساشا، لو بقي معه، وعرضت خمسة عشر ألفًا حتى يتخلى عن ساشا. تشنج فيودور، انقبض وجهه في حزن، وطالب

بالحصول على خمسة وعشرين ألفًا بدلاً من خمسة عشر – ثم وافق. سمى هذا "تنازلاً كاملاً"، ثم بعد أن بدأ السكر يأخذ رحلته العصيبة نحو الزوال، الآن، سب سفيتلانا إيفانوفنا، وأطلق عليها لقب "الحية اللعينة". لكن هذا لم يمنعها من المواصلة. عليها الآن الذهاب إلى مكان ما. أين – لا تعرف على وجه التحديد، لا يهم إلى أين، ما عليها الآن هو أن تنتظر المبلغ المطلوب من "اللوتو الروسية".

لم يساورها أدنى شك أنها ستربح. مهما سخر منها ميتيا، في هذا الأمر، أحيانًا – كما الآن، على سبيل المثال، تملك شعورًا أن النجاح يكاد يطرق بابها. ليس بالتأكيد كشعورها بالشبع أو البرد. لكنها، عمومًا، تحيا في حيز اللوتارية الساخن، لو تحقق الحلم، ستتخلص من طرق اليأس في أذنها، وتتحكم في هذه التيارات المجنونة، تراقبها، وفي اللحظة الحاسمة، تنأى بنفسها عن فوضى النهار الصاخبة، وتخطو نحو الشباك المكسو بملصقات الإعلانات، وتسحب من بين تذاكر عشاق اللوتارية، تلك التذكرة الموعودة، حيث النصر، صواريخ الاحتفال، وحياة أخرى.

وجدت الأتوبيس الذي تقصده في انتظارها على المحطة، ركضت نحوه عبر وحل ثلجي، لتفاجأ أن السائق أغلق الباب في وجهها. تطلع إليها من النافذة المفتوحة في باب كابينة السائق ثم بدأ التحرك على مهل. لم تطرق باب الأتوبيس المغادر، أو تلوح وهي تحاول اللحاق به، ولم تطلق السباب في وجه السائق المتغطرس. فردت كتفيها وتحركت نحو المحطة. انسحق حذاؤها بعد السباق الذي خاضته للحاق بالأتوبيس، لكن هذا لم يؤثر في حالتها المزاجية. بغض سائقي الأتوبيسات للمتقاعدين المساكين أمر عجزت عن استيعابه كوضع، لا يفرق معه، تشاجرت أم لم تفعل، النتيجة واحدة. سيدفعك، وقتما يشاء.

أخبرها أحد الجيران عن إمكانية حصولها عن تنازل خطي من والد ساشا عن حقوق الأبوة، وبالتالي فتح المجال أمام تبني الولد. سونيا كانت تعمل في دار للأيتام، وهي محل ثقة. وقت أن تصادف وجودهما في المطبخ على انفراد، تطوعت سونيا وشرحت لها كل شيء من الألف إلى الياء. ربما كانت تخشى أن يدخل أحد عليهما المطبخ ويسترق السمع.

- وللأسف، أضافت أنهم لن يسمحوا لها بالتبني.

لاذت بالصمت، بشكل حمل الكثير من المعاني، ربما، في انتظار أن تواصل سفيتلانا إيفانوفنا الحوار حول الموضوع. ما قالته سونيا ألقى بسفيتلانا إيفانوفنا في الحميم، وفي تلك اللحظة، دخل أحد الأشخاص إلى المطبخ، وهو ما كتب نهاية الحوار بالصمت والعودة سريعًا كل إلى سكنه. بعد ذلك اليوم، مر وقت طويل. ذهبت حيثما تقتضي الضرورة، سألت عن طريقة تقديم طلب التنازل، وكيف يمكن تجنب ذهابه إلى دار الأيتام، ومن ثم منح رعاية الطفل لشخص آخر. تطلعوا إليها بازدراء: قالت إنها تنوي التخلي عن حفيدها، الذي ألقاه ابنها السكير في آخر أيامها، إنها معتلة تمامًا، لها جارة عطوفة، بلا أطفال. شرحوا لها كل التفاصيل دون مزيد من الأسئلة. تبين أن هذا الإجراء صعب بشكل لا يكاد يصدق، ولزامًا أن يمر الأمر بعدد كبير من رجال الدولة الخطرين، من مفتشي الشرطة إلى القضاة، بإمكان كل منهم أن يطلب رشوة، ورغم هذا لم يكن لأي شيء أن يمنعها من المواصلة. فقد كانت على بعد خطوة واحدة من تحقيق مرادها. قرأ فيديا[١] الورقة، طواها كما كانت، ثم أعادها. مط شفتيه على نحو بائس، تنشق، لعن

---

(١) صيغة تدليل لاسم فيودر.

نفسه، لأنه لن يستطيع أن يفعل ما اتفقوا عليه – ولن يكون بمقدوره في أي وقت. باختصار، تعامل مع الأمر بدهاء.

– أنا، يا إيفانوفنا، أشعر بأسف شديد على ابني! من أجله، أنا على استعداد أن أتاجر بجسدي!

الأهم الآن – التشاور مع ميتيا. ولو مرة واحدة في العمر، الأولى والأخيرة، ستتجرأ على الحديث مع ميتيا.

أما مسألة أنها سنربح مبلغ الخمسة والعشرين ألفًا اللازمة، فلا يساورها أدنى شك. أجل، الشك من الحماقة، طالما كل شيء يترتب كما يجب. أولاً، في ما يخص أمر الحظ التعس مع جوازات السفر: عليها أن تنتظر ردًا من القنصلية– وليس من المعلوم متى يصل هذا الرد، وماذا سيكون ردهم. أما ميتيا، عمومًا، هناك غموض يكتنف الكيفية التي سينقذ نفسه بها. حتمًا سيحدث توازنًا ما! ثانيًا، أصعب أدوار لعبة السوليتير تحل في بضع ثوان إحدى عشرة مرة على التوالي.

عدلت كتفيها بشكل أفضل، تنهدت، ثم غرقت في أحلام يقظتها المعتادة الخاصة باليانصيب، وتخيلت، كيف ستصير الأمور، وتحتفل بهذا اليوم المشهود، واستلامها النقود وما سيخبرونها به، وهي تتسلمها – لم تتخيل وجوه الناس العابسة من فرط الحسد، إنما الأوراق التي ستتسلمها، ولزامًا عليها أن توقعها، بصمت، والابتسامات التي ترتسم على الوجوه وابتهاج الجميع، وشغف هذا النجاح الرائع وربما حضور مصورين من الجرائد. شيء وحيد عكر صفو أحلامها: أن يصبح جواز السفر السوفيتي القديم عقبة في طريقها. هل سينكرون عليها حق الفوز بـــ"اللوتو الروسية" لهذا السبب.

لم تنتظر خيرًا في أي وقت من هذه السلطة، بقدر ما لم تعثر على إنسان واحد يتمتع بالنزاهة من بين رجال الدولة، من نجوم التلفاز، يظهرون على الشاشة، وتنطق أفواههم بكلمات متباينة. كلا، ربما، هناك بينهم بعض الشرفاء: هي ببساطة تجهل، الكيفية التي يجب أن تبدو عليها نزاهتهم، لم تتح لها الفرصة أن تضع يدها عليها. على الجانب الآخر من الشاشة، في عالم أنيق، معزول عن النزل الذي تعيش به، على ما يبدو، عاشت سلالة جديدة من البشر، لا تعكس وجوههم أي شيء بإمكانها أن تستوعبه.

طيلة حياة سفيتلانا إيفانوفنا، لم تر سوى وجه واحد لرجل شريف: خروشوف، نعم مثير للسخرية، لكنه نزيه، يرتدي قبعته المعتادة الرائعة أو الكاب المصنوع من الخيش. وها هي قبعات خيش بيضاء أخرى، والتي كانت مرادفًا في أوقات سابقة للثقة والالتزام، حيث تمر مسيرات الأول من مايو المشرقة، وتطفو وجوه شابة بارزة.

بعد أن انتبهت عند السوق المركزي، وقتما انطلق طوفان البشر إلى الممر ليتكدسوا عند الباب الأمامي، زحفت سفيتلانا إيفانوفنا خلف أرباب المعاش محاولة أن تلقي نظرة على الهدف – الكشك، الذي يبيع تذاكر اليانصيب. حال بينها وبين رؤية الكشك، الحشد الذي ينتظر الأتوبيس والأسقف المخططة لخيام السوق. حجبت تلك الخيام الجزيرة المستطيلة التي تتوسط الميدان؛ حيث تمر الأتوبيسات، وهكذا تشكلت دروب ضيقة، تعج بالبشر. بمجرد خروجها، غاصت في واحد من هذه الدروب وقصدت الكشك مباشرة. تتابعت الصور الظلية للمارة بالقرب من الكشك مباشرةً ونحو اليسار، لكن لم يتوقف أحد عنده لشراء تذكرة. في الكوة المستطيلة، التي تعتبر بمثابة الجزء الوحيد الخالي من الملصقات الإعلانية، بالكاد يمكن

اكتشاف الأيدي، التي تحمل كتابًا مفتوحًا، ولا الكوب الذي يتدلى منه مقص.
تسارعت دقات قلب سفيتلانا إيفانوفنا ولمعت عيناها من فرط الانتظار. ما إن لمحتها البائعة في الكشك، من خلال مساحة فارغة بين الملصقات الإعلانية، حتى وضعت الكتاب جانبًا.

- حسنًا! - زفرت سفيتلانا إيفانوفنا، ثم وضعت النقود في صحن مثبت بالمسامير. - خمس.

# الفصل الحادي عشر

استجمع شجاعته يوم السبت واتجه إلى "أبارات". استقبله الموسيقيون كغريب، لكن باحترام، بتلك الطريقة المهذبة التي لا تسمح بمساحة لمزيد من الحوار. جلس هاينريش أمام مفاتيح البيانو؛ فيما شرع ستاس يتحدث إلى الساقي، الذي لم يكن يتبادل التحية معه إلا نادرًا. لوسيا، ألقت التحية بذات الطريقة المهذبة، لكن، أيضًا، كغريب. كلا، لم يخطر على بالها أن تصمت كاظمة غضبها.

– مرحبًا، أين كنت؟

بدا الأمر كأن شيئًا لم يكن؛ بالطبع، كان بإمكانه فيما سبق أن يرد بأن مارينا حصلت على إجازة، وتحتم عليه أن يقضيها بصحبتها، وهذا كان بالطبع ليفُسح مجالاً للشك في صدر لوسيا. بينما يقترب من لوسيا، استعد بكلمات حاسمة، متأهبًا لتقديم تفسير صادق، بحسرة وألم، ويدها النحيلة في يده، جلس قبالتها على الطاولة، ليدرك من فوره، ذلك الفراغ الزلق العصي على العبور، الذي فصل بينهما. هز كتفيه.

- أجل، هأنذا. ها هي نقودك، وأخرجها من جيبه. – شكرًا.

– من أين لك بها، – قالت لوسيا متعجبة، وأخذت الدولارات من اليد الممدودة.

– اقترضتها من رئيسي في العمل، ما فائدة هؤلاء الرؤساء، إن لم يفعلوا؟!

تساءلت، لماذا قرر ميتيا إعادة النقود بهذه السرعة؟

قالت لوسيا: إن فيتكا مريض، أصيب بنزلة برد. ربما أفرط في اللهو في تلك الليلة. اتضح أن الفتاة لا تملك مكانًا للعيش، وقد لحق شقيق فيتيا به ضيفًا. سنعزف اليوم دونه، واليوم ربما سيشهد زحفًا كاملاً. لا نعلم ماذا سنعزف اليوم، تعجز رأسي عن التفكير.

- إنها ليست المرة الأولى.

- فعلاً.

وقفت لوسيا بثبات، بدا معه أمل تقديم تفسير مفصل مستحيلاً. لا شيء. إنما في نظرتها المباشرة، التي تطلعت بها إلى وجه ميتيا بهدوء، رأى ذات التعبير: فراغ، لا شيء على الإطلاق. اختفت عيناها خلف أقنعة حصينة.

نظر هاينريش نحوهما، دون أن يتوقف عن العزف. جلست لوسيا خلف ظهره، لكنها بدت كأنها تتحدث إليه عبر الهاتف: حوار ما غير مسموع دار بين الاثنين. تعجب ميتيا: على الدوام هاينريش ولوسيا بعيدان، كلاهما غريب عن الآخر، لم يجمع بينهما حديث إلا نادرًا. فقط "كيف حالك؟" - "بخير". لا يمتد الحوار تقريبًا إلى أبعد من هذا في الوقت الحالي.

نسي ميتيا كل الكلمات الحاسمة.

لو طرحت بنفسها سؤالاً، فإنها سترغب ببساطة في معرفة أدق التفاصيل. فقط من باب الفضول.

لم تفعل لوسيا.

جلسا، تحدثا على نحو متقطع عن هراء من النوع الرفيع، ثم انصرف.

وبمجرد عودته من منتصف الطريق، كان عازمًا بقوة أن يقول شيئًا، لكنه الأهم على الإطلاق- "سامحيني"؛ إنما لوسيا كانت قد بدأت العمل بالفعل، لم تلحظ وجوده هذه المرة.

- أنا ، كما يقولون، لا أعرف. أظن، أن هذا لا يبدو موسم الربيع، لا يشبهه، - قال توليك. - طقس بارد، لعين!

ركضت شوارع الصباح الباكر الرمادية عبر النوافذ. كما يبدو، عاد الشتاء في منتصف الطريق. في شارع فاروشيلوفسكي، كانت حركة البيع تسير ببطء في الأكشاك. ارتسمت على وجوه البائعين أحاسيسهم نحو مسألة العمل في واحد من صباحات شهر مارس في هذا الجو الجليدي غير المعتاد، يرتدون معاطفهم، تمسك أيديهم السجائر، وأكوابًا بلاستيكية يتصاعد منها البخار، بينما يراقبون الحمالين وهم يدفعون العربات نحو الخيام بالبضائع. وعلى نحو مواز، بسط الحمالون الأسفلت، بالعربات التي يحركونها وهم يزفرون بخارًا رماديًا كثيفًا. اكتست الأرصفة، وحواف الطريق، بصقيع رمادي فاتح، هناك، في الأماكن التي لم تمر بها إطارات السيارات.

ترى أحيانًا تلك النظرة الشاردة في الصباح وقد ارتسمت على وجه أحد المارة الوحيدين، الذي ينحني أمام ريح عاتية. حينئذٍ، بينما يرافقه بعينيه حتى تلك اللحظة، حين يتماهى مع الظلال الرمادية التي تتلاشى بسرعة، حاول ميتيا أن يواصل متابعته حتى النهاية. وبتأمل هذه الملابس المتهرئة، وهذا الوجه الكارتوني التائه تحت القبعة، تمكن من تصور، كيف يمكن للعامل الكادح الذي ينهض من فوق الوسادة أن يتحسس زر إيقاف رنين المنبه، كيف يتناول الإفطار، وينظر إلى الصحن، كيف يعود إلى الورشة القذرة، يتصافح مرات عديدة، يبدل ملابسه المتسخة، ثم يقضي وقتًا طويلاً قبل أن يشرع في العمل. اختفى العابر عن النظر، بينما عاد ميتيا إلى أفكاره.

أحدثت السيارة "اللادا" جلبةً، وهي تمر فوق المطبات، مما أزعج توليك. اقتربا من الوصول إلى المكان المقصود. ما إن توقف عند إشارة

المرور، أدار توليك رأسه وتطلع باهتمام، كأنه أراد التأكد للمرة الأخيرة، أن ميتيا لم يغير رأيه. وبعد أن لفتت حركته نظر ميتيا، صب ميتيا اللعنات بانفعال شديد على الطقس السيئ.

لم يكن الاعتراف لتوليك بكل ما حدث بالأمر اليسير. بداية، لم يكن لدى ميتيا أية نية أن يحكي لأحد، هذا من " المحرمات"، - اتخذ هذا القرار لكنه شعر بالندم مجددًا، أنه عجز أن يلقي بما حمل بداخله حتى ولو مجرد نثرات صغيرة من الذاكرة، مثل سحلية - ذيل. لاحقًا، بينما يجلس وحده بصحبة توليك أمام شاشات المراقبة، التي ظهرت فيها سيارات رمادية وسوداء تذهب وتجيء، وفتيات تمشي دون ضجيج على الدرجات الخرسانية، نطق ميتيا على نحو مفاجئ، وبسرعة كبيرة شرع يبوح بكل شيء. استمع توليك حتى النهاية، ظل صامتًا، على نحو يوحي بمعانٍ كثيرة. أصدرت شاشات المراقبة أزيزًا، مسموعًا، هادئًا، مثل يعسوب. بدا هذا الصوت قريبًا جدًا من ميتيا – رغم أنه حال معتاد، بالنسبة لأي حارس؛ لكنه لم يلاحظه في العادة، مثلما لا ينتبهون إلى أصوات أنفاسهم. على أية حال، لا بد أن يشغل هذا الهدوء شيء ما. تفهم الاثنان، ما هي الكلمة التي لا يمكن تجنبها ولا مفر من طرحها في هذا الهدوء الكئيب. لكن توليك لاذ بالصمت، وهذا يعني أنه لن ينطق هذه الكلمة، لن يوخز ميتيا، لن يضع ملحًا على الجرح، وهو ما قد يفعله أي شخص آخر، لن يصفه أبدًا بالأبله. تذكر ميتيا، أن توليك اعترف له بشيء سيئ ذات مرة. ولهذا السبب ظل مكتئبًا طيلة نوبتي عمل، وأوشك على العراك مع سابير، بدا عمومًا مختلفًا لا يشبه نفسه. بعدها، وفي أجواء مماثلة تمامًا، أمام ذات الشاشات التي تصدر أزيزًا، اعترف له توليك أنه مصاب بالتهاب البروستاتا، ثم شرع في جلسات تدليك علاجية، - ترنح، في

ذات المكان. بدا لميتيا، بعد أن انتهى من حكاية قصته عن جواز السفر، وجلسا في صمت يراقبان تلك الصور الخرساء السوداء والبيضاء التي تعرضها شاشات المراقبة، أن توليك تذكر التهاب البروستاتا الذي أصابه. كان لصمته معنى: أننا الآن متساويان. الآن هناك سران أحكما وثاق الرباط بينهما: لم يفش ميتيا أمر إصابته بالبروستاتا، وتوليك بدوره لن يخبر أحدًا بحكايته العبثية مع جواز السفر.

- كي تسي، هل تريد أن ترهب الفتى؟

- يجب أن نفعل.

رغم ما عاناه، لم يستطع ميتيا أن يتخلص من كم الغضب الذي ملأ نفسه. حاول بشتى الطرق. نعت نفسه بالأبله. أطلق متألمًا تفاصيل متباينة تومض في الذاكرة على نحو متواصل. خاصة تلك النار التي تشتعل داخله بفعل تذكر أن لوسيا هي من منحته مبلغ الأربعمائة دولار. "قالت: ها هو المبلغ، - خذ، ومدت يدها بأوراق البنكنوت المطوية من المنتصف، وقد تسببت طريقتها المعتادة في فعل كل شيء ببساطة في إحراجه. - ماذا أصابك يا ميتيا؟ خذ".

زار لوسيا بالأمس مرة أخرى. لم يكن واضحًا عم يتحدث، ولا سبب زيارته لها، واصل صمته متظاهرًا، بأن ما بينهما لا يزال على حاله. على أية حال، رغب في هذا بشدة، لذا حضر. تزين "أبارات" بالأكاليل، وضعت على كل طاولة شجرة عيد ميلاد بلاستيكية. بينما تتحسس حبات "المطر" الفضية حول الرقبة، تقاسمت لوسيا الأخبار: حلق فيتيا - فارينيك شعره ليصير أصلع، صار للفرقة اسمًا مجددًا - هوت بلاك". ("هل يعجبك؟ هاينريش هو من اختار الاسم").

- آه، المعذرة! سينسى!

هرولت خلف أرسين بعد مغادرته لرغبتها أن تذكره بشيء ما. أمسك ميتيا بقاموس إنجليزي روسي، ألقته لوسيا على الطاولة، قبل انصرافها، - وهو واحد من القواميس، التي كانت لوسيا تتصفحها، عندما تدرس أغنية بلوز جديدة. فتح القاموس على صفحة الحرف "H" وعثر على الكلمة المرادة. "هاوسكيبر، قرأ: - هاوسكيبر؟"

هاوسكيبر... - نكز الصفحة المفتوحة، كأن هناك من يقف إلى جواره. هاوسكيبر.

في العادة، بعد أن يمر بمرحلة جلد الذات، يلعن أليج في كلماته الأخيرة، ولوائح مصلحة جوازات السفر والتأشيرة الهمجية، التي يغلقون فيها المراحيض على الدوام، مما يستدعي الهرولة إلى الجراجات ومقابلة زملاء الدراسة السابقين هناك (حتى لو كانوا سيئين!). لعن ريزينكا البرجوازي لأنه لم يقدم يد العون له، ولعن نفسه على غبائه الاستثنائي البائس، الذي يستحق الميدالية البرونزية عن جدارة، لعن النواب فارغي الرؤوس خاصة أولئك الأوغاد آل بيوريكافيتش؛ ذلك لأنهم أبحروا، هؤلاء الساقطين الفارياجي[1]، على ما آلت إليه الأمور؟ باختصار، لم يكتف بلعنات صغيرة، إنما صب لعنات في كل اتجاه، على نطاق واسع. تخيل ميتيا أحيانًا كيف سيكون لقاؤه بأليج، كيف سيلكمه، يطرحه أرضًا، يسحقه في طين ديسمبر الأسمر. أحيانًا - كيف سيغمره بالبنزين ويشعل النار في بابه. كان لديه بالفعل خطة لحرقه. بل رسم سيناريو في بعض الأوقات لكيفية طعنه بسكين في بطنه الهزيل. كل

---

(١) جماعة تنتمي إلى روسيا القديمة أتت من اسكندنافيا.

هذا ليس سوى عبث: وبفعل البرد الكسول، استقر هذا الغضب العارم في القاع، توقع ميتيا: أنه لن يفعل شيئا من هذا. فهو مسالم. لم يستسلم أبدًا لأوهامه القاسية ويحولها إلى واقع. فهو ليس من هؤلاء، الذين يأتون مثل هذه الأفعال. على الدوام هناك شيء يبقى، وهو أنه غير قادر على التوصل إلى مسمى، لتلك العقبة التعجيزية بين الخيال الجامح والفعل. تخفى هذا الشيء المزعج في مكان ما بين أكوام الكتب، حلق نحوه من بئر السماء الأسود - الذهبي، في زمن غابر، حين رقد، على ظهره، وشرب بعيون جشعة ليلة صيفية، لينصهر في الذاكرة بصحبة قصص الجدة الهادئة. - لكنه أعاقه، أعاقه، أعاقه! كما يعوق اللغد الجمل! أعاقه عجزه عن إيجاد رابط. هنا والآن، لا مجال لأكوام من عوالم الكتب المقدسة، ولا السقوط الحماسي في بئر نجمي، - لا شيء، سوى أسلوب الذئب في النهش. أن تنهش بسرعة وحسم. ويذكر، أنك محاط بقطيع من أولئك، الذين يتمنون التهامك كأبله أخير. هناك حاجة إلى رد فعل مناسب في هذه الحياة الحرة الجديدة، التي يبدو أن ميتيا لم يملكها بعد. عجز ميتيا، عن الاعتراف بنقصه، والتسامح مع دور الإنسان الذي يعيش في الماضي.

إنها القواعد التي عاش بمقتضاها فريق "حراسة" بنك "يوجاينفست"، بل وكل فرق "الحراسة" في رستوف على الدون، الدولة بأكملها توجب ألا نترك الأمر دون عقاب.

تنهد توليك.

- إيبيــخ، كنت لأعرفك على شخص محل ثقة. لكن، كي تسي، أمامه نصف عام آخر في السجن. أما الآخرون فلم أكن لأخاطر. تعلم، كل شيء وارد. يجب أن تكون واثقًا من الشخص مائة بالمائة.

- بالطبع. لكن أين يمكن العثور على مثل هذا الشخص؟

- لا أتفق مع ما تقول! مثل هؤلاء الناس موجودون. ما حدث معك أنك صادفت في جامعتك حفنة من المشوهين. من المخطئ؟

تنهد توليك مجددًا. لا يتذكر ميتيا على الإطلاق أنه سمع توليك يتنهد على هذا النحو الحالم. تشكل شفتاه المشقوقتان قليلاً نصف ابتسامة واهنة.

- ربما كان الأمر على هذا النحو. كسر عظمتين، لتتهشم الجمجمة. ليرقد، ويفكر. ربما مع الشرائح المعدنية في رأسه يصير أكثر ذكاء. ينهض على قدميه، ليقابله مجددًا في وضع هادئٍ أو يصطحبه إلى مكان ما.

- ربما أفعلها بنفسي. الأهم بالنسبة لي أن أفجر غضبي.

- لا يجب أن تفعل، هذا عبث! كل بياناتك عنده. وقد حصل بالفعل على نسخة كاملة من مستنداتك. لن يضطر رجال الشرطة للقيام بالبحث. نعم سيتعرض للضرب، لكنك ستدخل السجن في نفس الليلة. قلت: إن والده رجل مخابرات سابق. سيأتون إليك في كل الأحوال، لو حدث شيء، وقتها سيتحتم العثور على مبرر قوي: كنت في هذا المكان أو ذاك، مع هؤلاء الناس أو آخرين أو أن تنكر حتى النهاية.

- بالطبع.

- إيبيخ، وأنا لا أستطيع. تفهم بالتأكيد. ذلك الشيطان الذي حدثتك عنه، لكنه سيفرج عنه خلال ستة أشهر. لا أضمن أي شخص آخر. وإلا كان الأمر في متناول أيدينا.

تحدث توليك إلى ميتيا بلغة واضحة. لم يكن من الصعب عليه أن يفهمه: بدأ بالعمل في مجال الحراسة، بدا ميتيا كأنه قيد السجن، يثرثر الجميع

من حوله ويتعاملون وفق "الأعراف". ومع ذلك، فخارج نطاق العمل بالحراسة، أينما حل، سيقول شخص ما عاجلاً أو آجلاً، في أي مكان: "لنطلق السهم"، "غش خالص"، "أنت مسؤول عن كلامك". رائحة السجن في كل مكان. كما فاحت في الأتوبيسات والميكروباصات على الدوام روائح اللصوص، رغم أن عددًا قليلاً جدًا من السائقين ربما مر بجانب سور السجن. تدافع المراهقون أمام المداخل، مثل المجرمين المتمرسين، التشخيص المبالغ فيه ليس بالأمر الهين. هذا سجن خفي، كأنه فطر صغير، تسلل إلى الحياة. سينبت الفطر هنا وهناك، إن عاجلاً أو آجلاً. لم يلحظ ميتيا شيئًا من البداية. بعد أن توقف كوليك جوريلوف عن الحضور إلى البنك بمسدس جديد تحت سترته، بعد صفاء عكار الفيضان الهائج ببطء وصار كل شيء جميلاً كاملاً، تساءل ميتيا، في بعض الأحيان، وهو يتطلع حوله: أين ذهب يا ترى؟! "لا يبدو أن كل شيء ميئوس منه إلى هذا الحد، - فكر ميتيا. - سننجو، سننتحسر". نهاية، صار كوليك رائد أعمال شهير، وكف مافرودي عن الظهور في سترة قرمزية ليقدم التهنئة للبلاد بقدوم العام الجديد.

فجأة وجد ميتيا نفسه يتأمل، هل من الممكن أن يستأجر أحدًا لإصابة أليج إصابة تجعله قعيدًا، - لم يشغله إذا ما كان هذا عدلاً أم لا، إنما هل سيوقعه هذا في مأزق كبير أم لا، مأزق يفوق المشكلة التي يحاول حلها. ما لمع يومًا مثل صور في مجلة، أو فيلم سينمائي، صار فجأة قابعًا في الداخل.

الشيء الأكثر أهمية، هو أنه استطاع أن يتعايش. عاد كل شيء إلى ما كان عليه تمامًا، حينما وقف مع حراس آخرين أمام البنك، يحمل مسدسًا لامعًا من نوع جافريلوفسكي، وتمنى من كل قلبه أن يكون ذلك الفتى الشجاع، الذي بدأ يومًا ما بممارسة السطو. (تذكر ماذا قال توليك وقتها: "نعم، هذا الرفيق، يحمل داخله الكثير من المواهب".) حينها، كان مستعدًا

للتخلص من كل ما لا ضرورة له، وادعاء، ولو بشكل مؤقت، أنه ذلك الفتى الأكثر موهبة بين أقرانه؛ ولكن ما أثار دهشته، أن ميتيا بدأ يلاحظ، أن وسط هذا العالم الضبابي الكئيب من أول وهلة، لا يزال هناك قدر أكبر من الوضوح. بساطة ووضوح وثقة. عجز أن يتخيل أن أحدًا من الرفاق في "أبارات" لديه النية للذهاب معه إلى أليج. سواء شاء أو أبى، فقد تبين أن من شعر معهم من الناس بقدر كبير من الألفة والراحة، كانوا عديمي الفائدة في اللحظات العصيبة. شعر وهو بينهم، كأنه في حصن عجز العدو أن يستولي عليه بالقوة، إنما نفذ ما به من طعام وماء.

استدار توليك في اتجاه كيروفسكي، هدأ السرعة وسرعان ما وقف تمامًا، كي ينظر في أنحاء الشارع الفرعي.

- أنت، كي تسي، هل ستذهب للتدريب، - قال توليك، وهو يتحرك. - إذا كنت ترغب أن تتمكن من القطع على شكل حلقة، هيا. لديك مهمة تقوم بها. ربما أحيانًا، لن تصدق، ثم تدعي أنك حمل وديع، إذا افتقرت إلى الخبرة الضرورية للقيام بالمهمة. العقل، - ثم ضرب جبهته بإصبعيه، - عليك أن تجعله يقظًا دائمًا.

أومأ ميتيا بحركة مبتورة. بدت هذه الإيماءة مثل تلك التي قام بها ردًا على تريفونوف حين سأل خلال المحاضرة: "هل هذا واضح؟" - قالوا، عليك بالمواصلة، يا بروفيسور، كل شيء واضح، فهمنا بمنتهى السهولة. لم يكن فهم توليك لهذه الأمور أسوأ، من تريوفونوف - للعراقيل الجيوكيميائية.

قبل أن يعمل في البنك، مارس توليك أعمالاً تجارية شائعة في جميع أنحاء المقاطعة، ضربتها الديون. لم يقع نصيب أحد من رفقة الباحة في البنك، إنما كان من نصيب توليك. حصل على العمل بناء على توصية من

مدربه السابق: بمحض الصدفة، تحدث المدرب مع ريزينكا أثناء حضوره ضيفًا عند أحد المعارف المشتركين - قالوا، شاب قوي، يملك لكمة مثل مدفع، عاقل، وها هو يقف عند منحدر زلق. التحق بالبنك، مع توليك، صديقه المفضل، فوفكا أميلين. أطلقوا عليهما "فريق العمليات". من المؤكد، لم يصبح أي منهما موظفًا بالبنك. تقف سيارة "سوبارو" بلون أبيض ثلجي تحت نوافذ "يوجانفيست"، بصحبة أربعة رجال أشداء، لم يتحدث أي منهم مع مخلوق، أو يرفع عينيه نحو أحد، ظلوا يقظين في حالة تركيز. ولو لم تكن موجودة في مكانها، يعلم عندئذٍ الجميع أن: "فريق العمليات" أرسل في مهمة. أحب توليك العمل، شاعرًا، أن ظهره آمن تمامًا، وهذا كان مثيرًا بشكل كبير. وربما كان من الأفضل، لو لم يمارس صديقه الأفضل فوفكا أميلين، كما قال توليك، أنشطة الهواة في النادي. قرر زيادة دخله. "لدرجة أنه اشترى مسدسًا، ذلك على الرغم من أننا لم نستعمل السلاح قط. كان الأجدر بك، كي تسي، أيها الأبله، أن تلتقط أنفاسك في المنزل. رفض توليك على الفور، ولم يقدم لفوفكا النصح بعزم. وهكذا مر الأمر، كما حذر. ولا يكن للأمر أن ينتهي بشكل مغاير. عندما تصطحب شخصًا إلى الضفة اليسرى من الدون، تربط يديه، تضعه على ركبتيه ثم تدس في فمه "بي إم"[١]، على الأقل ستهتم في وقت مبكر، لن تشعر بالكسل، - من يكون حقًا في هذه الحياة. اتضح أنه شقيق شرطي ذو حيثية كبيرة. حجزوا فوفكا لمدة خمس سنوات، أما الثلاثة الباقون، من بينهم توليك، فقد استدعوهم للعمل كحراس عاديين. لم ينم توليك طيلة الليل، كابد، لكنه وافق في النهاية. قال رفيقه، إنهم لن يصيروا كلاب حراسة، سيرفضون هذا العمل، تركوا البنك، وقاطعوا توليك. لقد أصاب:

---

(١) مسدس مكاروف.

قتلوا واحدًا منهم بعد سنتين، سجنوا الثاني، مثل فوفكا. عانى توليك لفترة طويلة، دمر نفسه. بداية، تماسك بكبرياء، كان محبوسًا خلف مائة باب، تبين فيما بعد أنه إنسان طيب وليس غبيًّا. تقرب منه ميتيا. بقدر احتماله القرب من الناس.

- انظر، دون ضجيج، بلا صخب، واصل توليك إصدار التعليمات. - كي تسي، تصرف بلباقة، كعروس في حفل زفاف.

- حسنًا. هذا إن لم تسقط الألواح.

- ها! لن تسقط! مجنون! - كان على ما يبدو غاضبًا. - أتعتقد، هل سنحصل على المال - هكذا، كي تسي، هواية الأغبياء. أتعلم، هذا العمل، إنه عمل صعب، بالمناسبة. تجلس على مدار أيام في السيارة، تراقب شخصًا ما. لا تأكل، أمر طبيعي، ولا حتى تغتسل. في أي لحظة، هناك احتمال أن يتم القبض عليك وتذهب إلى السجن، تنتصر أم لا، هذا أمر غير معلوم، ثم إنه ليس عملاً يزيله الثلج. فقط في الأفلام، توضع المكواة على البطن، أو أنبوب لحام على المؤخرة. تحصل على المال خالصًا، حيث لا تقع تحت طائلة القانون، وتقوم بمهمتك، فهذا ليس أنبوب لحام في مؤخرتك، كلا. هذا، في الواقع، علم نفس. عليك أن تجعله يشعر بالرعب، ليس بالكلام، إنما بالأفعال. الكلام في مقدور طفل في السادسة، أن يقول ما يخطف الروح. ذات مرة، كان ذاهبًا مع أحد العملاء خارج المدينة في السيارة - والجميع يلزم الصمت، لكنه قال: أيها الرفاق، إلى أين تأخذونني؟ ماذا تنوون فعله، سأعطيكم كل شيء، لم يتلَّق شيئًا سوى الصمت. لا تقتلوني، أرجوكم. لم يكن لدى أحد سلاح في حوزته. انظر أي نوع من العروض، أتفهم؟ فلتسترح هوليوود!

التقط ميتيا في صوته ما لم يكن متوقعًا، لم يكن متوقعًا حتى لتوليك ذاته... الحنين؛ فقد مر ما يكفي من السنين كي يتلاشى كل شيء. كم من المرات كرر لنفسه ولغيره بثقة: "كلا، فهو لا يهتم. الأهم، هو أن تعرف متى تتوقف. تعيش، ربما بشكل جيد. لكن ليس طويلاً". من وقت طويل، اعتدت بالتدريج على العمل السهل. كم من السنوات في العمل بالحراسة - يومًا - يومين، يومًا - يومين، جدول أعمالك الخاص، ماذا يمكن قوله عن الأشياء الأخرى! ربما طبع على الجبهة: "حارس". قالت إحدى العاهرات: "يبدو أنك تعمل حارسًا؟" - "ولم لا!"، - كانت تلك إجابته حينها، في الحقيقة لم تكن إجابته تلك موجهة إليها، إنما إلى نفسه. ساعة عند المدخل، ساعتان - على شاشات المراقبة. يقدم الغداء مجانًا في المطعم المجاور. غادر الرئيس - من الممكن أخذ قسط من الراحة بعد تناول الغداء. استقبل الرئيس، ودع الرئيس. في الليل، أغلق على نفسك، ونم، ما من باتمان مرعب. والآن تورط في هذه المهمة، كأن سنواتٍ طوالاً من العمل الناعس الهادئ لم يكن لها وجود.

لم يتحدث توليك أبدًا فيما سبق بهذا الشكل العاطفي عن عمله في "فرقة العمليات". لم يتحدث، حقيقة، سوى بشكل عابر وباختصار. أما الآن، فهو يقدم وصفًا مفصلاً، تبرز من خلاله التفاصيل حية، غفيرة، ناصعة. حكى بمشاعر خاصة عن رجل، ملاكم سابق عثر عليه توليك نفسه في الصالة، التي بدأ فيها التدريب، كان صبيًا غضًا، أما الرجل، فقد كان ممتلئًا، أصلع الرأس، دخل إلى الصالة لضرب الجوال، ونط الحبل. فجأة، وبعد مرور عدة سنوات، ها هي الحياة تجمعهم حول مسألة دقيقة واحدة، من خلال جوانب متنوعة لتلك المسألة ذاتها. طارده الأربعة عند المساء عبر الشارع، بالقرب من المارة السائرين بمحاذاة الجدران، وفي الحقيقة لم ينالوا سوى الفشل في

محاولة اللحاق به. سقطوا بفعل الهزيمة، استغل الشاب ذلك بشكل شديد الفاعلية: استدار فجأة وأطلق وابلاً من اللكمات الدقيقة للمطاردين. أحياناً، كان يتصرف كالآتي، يركل في القدم، وحتى لو لم يضرب، يقبض بيديه على أية حال. مرة بعد أخرى، التقى به توليك، وفي لحظة، استدار وضرب، أسعف الوقت كليهما للتفكير: "أين رأيته يا ترى؟" تعرف عليه توليك، إنه هذا الشاب من الصالة الرياضية، في كل مرة كان يشعر بالحرج، وقت أن يستدير الشاب. لذا عجز عن طرحه أرضًا، دفعه وانسحب، ثم هرع لملاحقته مجددًا. "أتتخيل، - قال، مبتسمًا - عجزت عن ضربه، هذا محرج! استمع ميتيا بحماس إلى توليك، الذي يروي عما واجهه من ظروف معاكسة للحصول على المال، فكر كيف بدا العمل كحارس مملاً بالنسبة له. مجددًا، انتابه شعور غامض بخيبة الأمل تجاهه – تمامًا مثلما شعر تجاه ستاس، ما إن علم، أن ستاس يعزف على آلة صغيرة. خيبة أمل، بلا مبرر، ظالمة، بلا تفسير، ألقت بظلالها على تلك العقول ذاتها، التي نصحها توليك باستمرار أن تظل متأهبة. ما دخله هو، بمن يلعب ماذا، ومن يمتهن أية مهنة؟!

- حسناً، على أية حال، انتبه، عليك بالهدوء والحذر. لو كان هناك أحد وراءه، سيأتون لتصفية حسابهم معك. عليك أن تكون متأهبًا. سيكون الحوار بسيطًا: أنت، كي تسي، أحمق، ونحن نستحلب الحمقى. سامحني.

-حقًا!

- عليك ببساطة أن تتوخى الحذر.

وصلوا إلى المكان المستهدف. أوقف توليك السيارة في مكان بعيد عن نوافذ أليج، في الزقاق المجاور. ساروا على أقدامهم إلى المدخل المطلوب.

- إذن، سأبقى في الأسفل، - قال. هذا، كي تسي، عمل ملعون، رجاء أن تفهمني. لا يجب أن أذهب إلى مركز الشرطة بأية حال.

- فهمت.

- تعرفني، لن أتخلى عنك، لكنك تفهم.

- نعم، نعم.

- لو حدث أي شيء، كي تسي، أنا واضح وضوح الشمس، لن أتركك وحدك هناك. هذا في أسوأ الأحوال. تحدث معه بهدوء، وصنع إشارة دائرية ناعمة بيده، تلك التي ذكّرت ميتيا بتريفونوف بشكل مذهل. - كي تسي، اجعله يفتح الباب، لكن لا تدخل تحت أي ظرف. ربما في وقت آخر، إذا استلزم الأمر، حين يكون الوضع مختلفاً.

فتح ميتيا باب المدخل بالكود الرمزي، دفع لسان القفل بشفرة سكين صيد. اشترى هذا السكين بعد لقائه بصف الضابط المخمور. لم ينطق توليك، لكنه أخذ منه السكين.

هناك شخص ما يهبط في المصعد، لذا صعد ميتيا على قدمه.

كان باب الرواق قديمًا. أما زر الجرس الأسطواني الأخرق فقد بدا بسيطًا. تلاشى لون الطلاء من فوق الخشب. الخرقة، الراقدة على العتبة، توارت منذ فترة طويلة خلف طبقة من الأوساخ الرمادية. لم يشعر ميتيا بأي قدر من الإصرار. ورد بخاطره رؤى الرجال الكبار في مقر بريوكاف والمدعو كوستيا. رن الجرس.

انفتح باب آخر خلف الباب، وصل مسامعه صوت خطوات. اقتربت الخطوات تمامًا، وبدا لميتيا أنه سمع صوت أنفاس شخص ما، لكن الباب لم

يفتح. ومثلما هدأ صوت الخطوات حتى تلاشى، انغلق بهدوء باب الشقة. رن ميتيا جرس الباب مجددًا، وظل ضاغطًا على الزر لوقت طويل. وقبل أن يرفع إصبعه من على الزر، صرخ صوت نسائي مذعور من خلف الباب:

من؟

- حضرت لرؤية أليج، رد ميتيا، وأنصت إلى صوته للتأكد أنه بدا عدوانيًا بالدرجة المطلوبة.

بدا له أنه ليس عدوانيًا بما يكفي، كما كان يتوقع. قرر إضفاء نبرة تهديد على صوته.

قال ميتيا: رجاء الاتصال بأليج، وسرت في جسده قشعريرة شديدة، وفي ذات اللحظة، لام نفسه سرًا: "قل اتصلي، لا داعي لقول رجاء الاتصال!".

- أليج غير موجود بالبيت، ليس هنا، - قالت السيدة بحسم، يبدو أنها كانت تنظر إليه من خلال العين السحرية.

- في السادسة صباحًا؟ أين ذهب؟ إلى تمرينات الجري الصباحية؟

بدا له أن تلك الملاحظة التي قالها بمثابة فشل ذريع. هكذا بدت.

- الآن سأرتب لك تمرينات الجري الصباحية! - قالت السيدة: سأتصل بالشرطة الآن! - تحدثت دون صخب، ولكن بحزم. كأنه لم يوقظها بجرس مفاجئ في الساعة السادسة صباحًا، ولم تكن مستلقية في سرير دافئ، بل كانت متأهبة طيلة الليل، تغلي على مهل - وها هو انتظارها يشهد النهاية. - من أنت، أيها المغرور، كي ترعب الناس على هذا النحو؟ مع من هم أمثالك من الناس، بإمكاني أن أجد طريقة العقاب المناسبة! ألا تخشى رجال الشرطة، هناك من يمكنني اللجوء إليه، فهمت؟ سيأتي إلى هنا من كل صنوف البشر، للتأديب!

لم يقم ميتيا بأية محاولة للجدال. بدت مقاطعة مثل هذا المونولوج الناري أمرًا مستحيلاً.

- سأتقدم بمذكرة ضدك!

بدت طاقة الهستيريا في هذه السيدة، المختفية وراء الخشب الذي تآكل طلاؤه، هادرة، لدرجة أنها اخترقت الباب، مثل كرة النار. ما إن أدرك ميتيا أنه ليس بإمكانه فعل شيء حيال ذلك، وقف مستندًا على الدرابزين، مستمعًا إلى الباب الناقم.

- هل هو ذنب أليج، أن مرشحكم فشل؟! هل هو ذنبه؟ أجل، دفعتم له، مقابل القيام بهذه المهمة! لكنه لم يعطكم ضمانًا من أي نوع! ومن يستطيع ضمان هذا؟ ما هذا العبث؟

بعد أن استوعب ما تتحدث عنه السيدة، فتح ميتيا فاه مستمتعًا: اختلق أليج عذرًا فريدًا. علاوة على ذلك، تمكن من إقناعها بوجاهته. يملك مهارة لا مثيل لها. هذا الرجل - فرج الأمس، الذي نعس في أحضان المرحاض، - والذي لم يصبح، بعد مرور كل تلك السنوات، نائبًا لمدير فندق "إنتوريست"، إنما صار من الموهوبين في النصب. تذكر ميتيا تجربته الخاصة، طويلة الأمد الصعبة. أدرك على نحو مفاجئ، أن هناك أشياء مشتركة بينه وبين أليج: عجز كلاهما عن التخلي عن النصب. كان بالنسبة لهما بمثابة شيء لا غنى عنه، تعلق به مصير كل شيء، دونه ينهار المعبد. لماذا كان على أليج أن يدمره، كما أدرك ميتيا بدوره، ماهية النصب، بسماعه وابل التوبيخ من خلف الباب المغلق. حدث كل شيء تمامًا وفق ذات القانون، الذي بموجبه تتلاشى بعناد وتتبخر في الغبار لعبة المبتدئ الأكثر موهبة، ليتحتم ظهور العجوز الممكن صاحب الجدارة على خشبة المسرح.

أيًا ما تكون هذه السيدة القابعة خلف الباب من المرجح أن تكون زوجته – استطاع أليج أن يجعلها شريكًا في المسرحية؛ فقد بنى لعبته بعناية فائقة، أكثر مما فعل ميتيا مع لوسيا. بعد أن حدث ذلك التحول المؤسف في الأحداث، فقد بقي هنا على أية حال، من آمن، امتلأ قلبه عطفًا، أشعت عيناه حنانًا.

– أتعتقد، أن كل شيء مباح لك؟! أرأيت هذا في مكان آخر، ها؟! إننا نعيش في بلد حرٍّ، بالمناسبة! تظن أنه أنفق تلك الأموال؟! أنفقها على عملكم! حسنًا، ما العمل الآن، مع خسارة مرشحكم الانتخابات، أتنتظرون أن يعيد إليكم المال؟ أن يعيد المال، ما هذا الهراء؟!

إن المنطق الكامن في عباراتها الأخيرة، السؤال المتكرر، دفعها إلى تخفيف الحدة إلى حد كبير، مما منح ميتيا الفرصة ليتكلم:

– سيدتي المحترمة، ربما اختلط عليك الأمر، حين ظننتِ أني شخص آخر. اسمي ميتيا – ربما، تحدث أليج بشأني من قبل؟ – ديمتري.

– أجل، أعرف من أنت! لماذا تحاول إرهابي! من تظن نفسك، مركز الأرض! كونك نائب بريوكاف، لا يجعل كل شيء مباحًا أمامك! ديمتري! – قالت مستهزئة. – رأينا الكثير من هؤلاء الديميتريين الملاعين! وهذه النوعية من النواب!

ضرب ميتيا كفًا بك، دون ضجيج، انغلق الباب المؤدي للممر، فوقف لبرهة، وقد سيطر عليه الإعجاب بمهارة أليج، ثم هبط الدرج.

قال توليك:

– اللعنة عليك. ما دامت جئت، لا يجب أن ترحل هكذا، خالي الوفاض.

كان وجهه مفعمًا بالإثارة. لم ينطق ميتيا بكلمة.

تركه توليك في حراسة المدخل، وانصرف. سرعان ما عاد حاملاً تورت وزهور قرنفل.

هيا!

تبع ميتيا توليك صامتًا. ربما، أقصى ما يمكنه أن يصل إليه، الأدوار الثانوية تحت الظل النبيل للنجوم.

صعدوا إلى الطابق.

– أمسك.

أعطى توليك ميتيا التورتة وزهور القرنفل، ضغط زر الجرس البارز، ودفعه بكل قوة في اتجاه ثم في اتجاه آخر. انخلع الزر وبقي في يديه. ألقى به على الأرض ثم دق جرس باب الجيران.

- هات الأدوات، – أمر توليك.

أعطاه ميتيا زهور القرنفل والتورتة. تراجع توليك مسافة تسمح لمن ينظر في العين السحرية أن يراه والعلبة المربوطة بشريط مجدول، والبوكيه المرفوع بشكل رائع.

– من تريد؟ – جاءه السؤال بعد فترة انتظار.

– صباح الخير، قال توليك بصوت يشبه هديل الحمام: عذرًا لإزعاجكم، جئنا في زيارة لجاركم. أردنا المباركة لرفيقنا، وأعددنا له مفاجأة. لديهم مناسبة. ولا أدري من الأحمق الذي كسر زر الجرس.

استمع ميتيا بدهشة لطريقته الناعمة، الخالية من تعبير "كي تسي"، المعتاد. دار المفتاح في الباب، ظهرت الجارة، سيدة في حوالي الخمسين من

عمرها. لم تتخط عتبة الباب، متشبثة بإصرار بالرداء عند الجزء الممتد على صدرها الذي تفوح منه رائحة ما، نظرت إلى الجرس المكسور وقالت:

- ما هذا، حقًّا! أيها الملاعين. تحدثت أوليا للتو طويلاً مع شخص ما، ربما يكون من فعل هذا.

- حقًّا؟ - تطلع توليك نحو الدرج وقد فرغ صبره. - هناك الكثير من أولئك المجانين في هذا العالم. هلا طرقت بابهم، بينما ننتظر هنا جانبًا. فهو لا ينتظر حضورنا، نريد أن نصنع له مفاجأة.

- طبعًا، طبعًا. - فتحت الجارة باب الممر على اتساعه وتركتهم بالداخل. كان الممر مظلمًا. مروا ثم وقفوا في الزاوية. - من النادر جدًّا في زمننا أن نعثر على علاقات صداقة مثل هذه.

- نعم، أنت على حق، - قال توليك مؤيدًا، ملوحًا بيده بحماس، ثم أسر بشيء هامسًا: كلٌ على استعداد أن يلتهم رفيقه، يا لها من حياة تعسة.

- واحسرتاه!

ودون أن تترك رداءها، دقت الباب براحة يدها الخالية.

- أولنكا، هذا أنا!

وصل إليهم وقع خطوات ثم صدى طقطقة معدنية قصيرة لدوران المفتاح في الباب.

- وما المناسبة التي يحتفلون بها؟ - سألت الجارة هامسة.

كان الباب قد انفتح بالفعل.

وضع توليك قدمه بطريقة تمنع إغلاق الباب. أعطى التورتة وزهور القرنفل للجارة، التي صدمتها المفاجأة، فالتقطت الأشياء على نحو آلي،

طارت نحو يديها. انفتح الرداء، فسارعت للاختباء وراء علبة التورتة، ثم انسحبت إلى شقتها.

- كل عام وأنتم بخير، نتمنى لكم السعادة، - قال توليك بصوت مقدم برامج تلفزيونية، ودخل إلى شقة عائلة - لاجودين، وتحول على الفور لاستخدام لغته الخشنة المعتادة: أوليا، لا حاجة لنا، كي تسي، بالمشاكل. ولا داعي أن تخلقي المشاكل بدورك. ما نريده الآن أن نتحدث فقط.

برزت من وجهها عينان، بدتا غير حقيقتين، كأنهما نزعتا من صورة فوتوغرافية لأحد الأشخاص. لم تكن وقفتها طبيعية أو مريحة على الإطلاق، هرعت باتجاه الباب الأمامي تارة، وأخرى نحو الهاتف المعلق على الجدار. بدأت في الصراخ، لكنها توقفت، حيث لم تملك مزيدًا من الوقت للالتفات: لكمها توليك في بطنها. أصدرت شهقة عميقة ثم سقطت على يد ميتيا.

- أغلق الباب، - قال توليك، فعل ميتيا، دفعه بركبته.

اتجه توليك بسرعة عابرًا الممر بالقرب من المرآة ثم استدار نحو المطبخ. بينما كان ميتيا يجر أولجا، التي تتلوى، وتئن بصوت مسموع من فرط الألم، فتش توليك في كل أنحاء الشقة. بدت الغرفة، التي جر ميتيا أولجا إليها، بائسة. خلت من الأثاث إلا من كنبة، طاولة، وثلاثة كراسٍ. لكنها كانت ممتلئة بالعبوات الفارغة، ذات الثلاثة لترات، شاشة بلا وحدة تحكم، أصيص به زهور الياسمين على الأرض، وبعض رقائق البطاطس، وأكوام من الصحف، وتلال من الغبار الراكد، الذي ثار بفعل خطوات ميتيا.

من أين جئت أيها المسخ؟ - قالت أولجا بصعوبة.

أجلسها ميتيا على الكنبة، بعدها اتصل به توليك من الغرفة المجاورة:

- تعال إلى هنا!

ذهب ميتيا. كان أليج مستلقيًا على سرير منخفض، بينما ظهره ناحية الحائط. رقدت يداه البيضاوان على الملاءة كحبل مربوط في صرة. بدا وجه أليج تائهًا، صعق هذا المشهد ميتيا بخوف حيواني، لكنه أجبر نفسه على تفرسه. رأى الجلد، الذي يحيط الجمجمة، بظلال ووهج في الأماكن المناسبة، شفاه جافة عليها قشرة بيضاء، جفون غطاها شعر رمش حاد، حتى الشعيرات المجهرية على طرف الأنف. رأى هذا كله، بدا بالفعل كأنه وجه غير بشري. ارتدى أليج قميصًا ذا أكمام طويلة، بلا بنطال. تطلع ميتيا إلى ساقيه الخاليتين من الشعر باشمئزاز، وقد امتدت حتى منتصف الغرفة، تمامًا كما رقد الفرج في حمام النزل في حالة سكر، بينما تمتد ساقيه إلى التواليت المقابل بذات الطريقة. كان الأمر مثيرًا في ذلك الوقت.

كان يتحتم عليه أن يستدير وينصرف، لكن فضولاً غريبًا انتابه، تطفل على الخوف، وثبته بقوة في مكانه. إنه فضول نحو كل شيء بشع مثير للاشمئزاز. نهض ميتيا وتفحص هذا الآدمي بتمعن، هذا الزميل السابق المدعو الفرج، الذي خدعه على نحو بارع هزلي، اخترع ببراعة نوفيلا كاملة نسجها من الأكاذيب. "يا الله، فكر متيبا. - أهذا كان دافعه؟" رمش أليج، دون أن يفتح عينيه، وأفسد الهواء. لم يعد هذا فارقًا. "خدعني، خدعني هنا، اختبأ، الملعون. ربما، حقن نفسه، عندما تحدثت لزوجته".

لم يلحظ ميتيا كيف خرج توليك. حضر الآن من خلفه، ملوحًا بيده أمام أنف ميتيا.

- فوو! هل أخرج ريحًا، أم ماذا؟ لا فائدة من البحث هنا. عديم الفائدة، هأنذا أخبرك صراحة.

- ماذا؟ - سأل ميتيا بهدوء.

ارتعد، خوفًا من أن يسمع أليج، يفتح عينيه، ينهض ويتكلم.

- أوه، يا أخي، - ابتسم توليك ابتسامة عريضة. - بأعصاب كهذه من الأفضل أن تجلس في المنزل. هل ستأخذ التلفاز؟

- ماذا؟

- هل ستأخذ التلفاز؟ ما من شيء آخر يستحق، ثم، - اللعنة، هذا التلفاز لا يساوي الأربعمائة دولار، - مائتي دولار على أقصى تقدير. فهو تلفاز قديم جدًّا. اسمع، ستقضي عليَّ حتمًا، يا ميتيا. كيف تجرأت على الوثوق بمدمن مخدرات؟ هذا ليس سوى خرقة... - أشار توليك بإصبعه إلى أليج. - ربما قبلت مساعدته بصفته نائب بريوكاف.

رن جرس الباب. ببطء وإصرار.

- أولينكا! - جاء صوت الجارة قادمًا من الممر.

تبعه رنة الجرس الثانية:

- افتحوا الباب، الشرطة!

هز توليك رأسه بأسف.

- اللعنة، هذا ما لم أضعه في الحسبان، قال وخيبة الأمل تملأ صوته: غابت عنا الفطنة، كان علينا أن نحتجز الجارة هنا.

ارتجف، ثم هرع على أطراف أصابعه إلى الغرفة التي ترقد فيها أولجا على الكنبة.

- همس - أتعرف الجارة شيئًا. إيه! كفي عن هذا، فات الأوان بالفعل. هل تعلم الجارة؟

- كلا، - أجابت، المنتحبة أولجا.

- الشرطة؟ هل أمسكوا بكم؟

- كلا.

- كي تسي، إذن، ستفتحين الباب وتخبرينهم أننا رفاقه. أصدقاء المدرسة. أجل. لقد أصابه التعب بالأمس، إنه نائم ونحن في انتظار أن يستيقظ اليوم، أي شيء، أتفهمين؟ ذكرى زواجكما. لا داعي لأي شكوى، أفهمت؟

قالت: الخامس من مايو.

ماذا؟

- الخامس من مايو. تزوجنا في الخامس من مايو، كررت أوليا بصوت متحشرج.

- بهدوء، - قال توليك هامسًا. - ستدمريننا جميعًا، أيتها الحمقاء! زوجك الملعون يرقد تحت تأثير حقنة المخدرات. هيا، انهضي واذهبي إلى الباب. هيا!

تعالى صوت صرير الكنبة.

- امسحي وجهك! - أمرها توليك، وهو يصحبها إلى الحمام، ثم قال لميتيا: - فليرقد بشكل لائق، ضع غطاء عليه.

لم تذهب أولجا إلى الحمام. مسحت وجهها بمرفقها المطوي، بكت، ابتلعت دموعها المبتورة والآهات الهاربة من حلقها، ثم توجهت نحو الباب. جلس توليك وميتيا في المطبخ، وهما يتطلعان لما يجري في المرآة، المعلقة في الممر، حيث دخلت جارته المرتعدة إلى الشقة حاملة الزهور والتورتة، وفي أعقابها - شرطيان.

# الخاتمة

تلاحقت الأحداث خلال الفترة الأخيرة، كضربات مزدوجة، عازمة على المضي في طريق الرسو في ثنائيات خلال يوم واحد.

أخيرًا، اليوم، تمكن من سداد دينه ليوسكوف؛ حيث قرر عدم التأجيل.

بمجرد أن استقال من "يوجانفيست"، هبط ميتيا الدرج متجهًا نحو زقاق خالتورينسكي، شاعرًا بالقلق للمرة الأولى من وخز الأعصاب الناجم عن الحرية – حرية العاطلين عن العمل. حمل على كتفه حقيبة رياضية، بها متعلقات بسيطة، موجودة في مكان عمل أي حارس: كوب، طبق، منشفة، صابونة، فرشاة أسنان، والأهم من هذا كله، شبشب، وهذا بمثابة امتياز للجنود القدامى في أي ثكنة، ودليل على أن مالكهم يتمتع بوقت، يستطيع خلاله أن يبدل حذاءه بشكل مريح ليرتدي نعلاً منزليًا، ويقضي وقت الفراغ – بينما سيقوم الشباب بتأدية الخدمة، سينطلقون نحو البوابات، إذا صدر فجأة في وقت غير ملائم أمر من أوامر القيادة العليا. لم يكن يعرف بعد، أي عمل سيسعى للحصول عليه، لكن قرر ميتيا بشكل حاسم ألا يعود إلى العمل بالحراسة.

كان هذا أيضًا شيئًا جديدًا: من الواضح، أنه ليس هناك عمل آخر، باستثناء السير حاملاً مسدسًا في جنبه ليفتح الباب، بينما يستقبل الرئيس.

لوح توليك بيده في وداعه.

– ماذا تنوي أن تفعل؟

– لم أقرر بعد، لكن سأبحث عن شيء ما.

- كي تسي، على متن سفينة كبيرة، عليك أن تقوم بإبحار عظيم. ولم لا، تعليم عالٍ، جامعة! يمكنك العمل بائعًا في متجر كبير، أو ربما، حمالاً في شركة "ريجاتا". فهم لا يعينون أحدًا دون مؤهل عال.

لم يفكر ميتيا في ذلك؛ لكنه حاول التفكير فيما إذا كان السيد ريزينكا شخصًا صالحًا أم لا، بغض النظر عن أنه عمل معه لمدة عشر سنوات، إلا أن ميتيا أدرك فجأة أنه لا يعرف.

صادفه ميتيا، عندما ذهب لاستلام السجل المهني. كانت لاريسا، السكرتير الخاص لريزينكا، على رأس قسم شؤون العاملين في البنك؛ حيث لم يجد غيرها يثق به لتولي هذه المهمة، فهي تتسم بالفاعلية، تدمن العمل، شعرها أحمر جميل. كان مكتبها ملاصقًا لمكتب الرئيس؛ حيث كان ريزنكا يفضل الدخول إلى مكتبه عبر بابها. دخل في تلك اللحظة، التي أعطت فيها ميتيا البطاقة كي يوقعها. شيء ما دفعها أن تقول:

- ميخائيل يوريفيتش، ها هو شخص يستقيل. إنه لأمر مثير للأسى، فقد التحق بالعمل لدينا، منذ العام الأول لتأسيس البنك.

تطلع ريزينكا إلى ميتيا، ودون أن ينطق بكلمة، واصل طريقه، حتى باب مكتبه. أشارت لاريسا بأظافرها المثالية إلى المكان حيث ينبغي على ميتيا أن يضع توقيعه، وقع وانصرف. أمام عينيه، وقف وجه ريزينكا، الذي استدار نحوه، في حين أشاح هو بوجهه عنه دون اكتراث، تمامًا كما في ألعاب اختبار التركيز، عندما يعرضون صورة ثم يقلبونها، مطالبين برصد قائمة العناصر المرسومة فيها، سأل ميتيا نفسه: ما الذي رآه في ذلك الوجه؟ لكنه عجز عن قول شيء. بالتأكيد كان هناك وقت ما، في تلك الأيام، التي تذكرها توليك بشيء من الأسى، كان كل ما يتعلق بريزينكا جليًا: رجل ناجح بسيط، غني

شغوف في أوج قوته. بدا تعبير وجهه مفهومًا، عندما توقف فجأة غمز، بينما يشير إلى مؤخرة رئيس قسم العملات التي طفت أمامه. عليَّ الاعتراف أن تلك المؤخرة المحشورة في تنورة ضيقة، توحي حقًا بشيء من الجلال، مثل مجلد من جلد مكتنز؛ حينئذٍ بدت أشياء كثيرة أوضح مما هي عليه.

"من المرجح – كما يعتقد ميتيا – أنه رجل صالح. ببساطة لكل شيء زمنه، ولكل زمان ناسه. أنا أو ناسي، لا يتحتم عليَّ بالضرورة أن أكون صالحًا أو فاسدًا. إننا نسافر عبر طبقات متباينة، هذا كل ما في الأمر".

وصل ميتيا في هذه التأملات إلى مفترق طرق، توقف عند نهر الطريق، في انتظار الضوء الأخضر. مرت بجانبه شاحنة ذات نوافذ بلاستيكية ضخمة، في أعقابها سيارة بيريوكاف القديمة "فولفو". انفتحت كافة نوافذ السيارة عن آخرها. جلس على عجلة القيادة الرجل – المسدس كوستيا، بتركيز شديد كأنه يتابع هدفًا طائرًا ببندقية. في المقعد الخلفي، بعد أن ألقى برأسه الرخو على المسند، ليتأرجح مثل كرة على الماء، انهار أليج. أُغلقت عيناه – تذكر ميتيا، أنه في المرة الأخيرة حين تطلع إلى أليج، الذي كان مستلقيًا فوق السرير القابل للطي، كانت عيناه مغلقتين بنفس الطريقة. جلس إلى جوار أليج رجل عجوز ذو أذن كبيرة، يتطلع إلى وجهه بنظرة بائسة، وقال شيئًا. وما كان من كوستيا إلا أن هز كتفية بغضب، لتصرخ السيارة "الفولفو" وتنطلق إلى الأمام، وتتجاوز الشاحنة، ويندفع الرجل الجالس بجوار أليج، مرتدًا إلى الخلف.

"هذا أبوه"، خمن ميتيا.

تأمل ميتيا بالتأكيد، المقطع الذي استطاع التقاطه مما جرى، بينما كان واقفًا في المفرق، وما الذي يعنيه ما رآه، لكن حال كسل شديد بينه وبين

الاسترسال في التفكير. في الحقيقة، لا أليج لاجودين، ولا فاديم فاسيليفيتش بيريوكاف – نصيره الذي لم يكن – لا أحد منهم صار يشغله. حتى تلك الدولارات الأربعمائة لم تعد مدعاة للحسرة: مقابل زهيد لعلم قيم. وما دام لم يعثر على الموضوع المناسب، شغل نفسه بتأمل السيارة المنطلقة، كأنه يتابع أليج، لو مر ذلك اليوم أمام قسم الجوازات في فاراشيلوفسكي، متجاوزًا أليج، متظاهرًا بأنه لم يره.

– القضية رقم ٣١٢٠، رجاء التوجه إلى القاعة!

تحرك كل من له علاقة بالقضية رقم "٣١٢٠"، وتجمعوا بهدوء في العمق، باتجاه السلالم. عادت مساند الكراسي التي تحررت من الجالسين إلى وضعها الطبيعي محدثة صوتًا مكتومًا ناعمًا. عبرت الأجساد الردهة، لتحل محلها على الأماكن الشاغرة أجساد أخرى متعجلة. أصدرت الكراسي صوت أزيز وتأوهت تحت مؤخراتهم.

– وها هي، تخيلوا كيف ألقت كرات اللحم عند قدمي: "التهم!" تخيلوا، " التهم!"، قالت صارخة. كرات لحم مطهية بالمنزل!

– حقًّا؟ أنت محظوظ. كيف حال ابنك؟

– ما داعي السؤال؟ ابني؟ ما شأنه هنا؟

في بعض الأحيان، تتحول الحوارات إلى همهمة هادئة مهدهدة، تيار بطيء، تبرز منه كلمات واضحة من حين إلى آخر. "القاضي... قانون – غرامة..." تزحف، تارة من هنا، تارة من هناك، نثرات من أحاديث، هزائم غرباء، انتزعت من الظلام على نحو تعسُّفي، مثل قطعة صخر عند منعطف على طريق جبلي، تطلق شررًا، تومض وتتلاشى قطعة الصخر: يواصل

الضوء التحليق. أما نتوءاته وظلاله المحلقة تبقى حية في الأعين، وترتسم فوق خلايا الشبكية. يهبط الليل، يخفق بأجنحة سوداء أمام الوجه. تدق طبول رتيبة مخبأة تحت غطاء المحرك، لتوقظ سحر الحركة المحموم. يتمتمون، يلقون بتعاويذ على الصخور المحتشدة في الظلام. يعملون، يلتهبون حماسًا، يغيرون مسار رحلة خطرة إلى الطريق الصحيح، نحو الخلاص. إلى هناك، إلى هناك – هناك، حيث يفر الصدى الذي فقد صبره هاربًا. هل تتصدع الأصداغ بفعل الخوف، أم من فرط السعادة. إلى الأمام، إلى الأمام، عبر طريق الهلاك الجبلي! انطلق، عزيزي ميراني، لن نقيد حريتك أو نقمع عنادك! تقرع الطبول، تدقُّ مثل حافر حصان. تتأوه، تصرخ تحت الحوافر الممسوسة لأرض الليل الجليدية. هكذا – وفق قناعاتنا، فقط بهذه الطريقة: على طول المنحدر، على حافة الهاوية، دون طريق – بلا أثر! أما، ما نتركه خلفنا، فليحترق فوق خلايا الشبكية: لا حسرة، فهو عالم جديد، مجهول وغير مسبوق، يسقط على أعين مفتوحة عن آخرها – ولكن لمدة لا تزيد عن لحظة واحدة، كي نموت في لمح البصر! بلا حسرة، بلا حسرة!

– أجل، إنه لأمر مؤسف، ما من شهود لديك.

– كيف؟ هأنذا أخبركم: لقد سمعت الباحة بأكملها كل شيء.

– الباحة بأكملها، ومن كان يقف إلى جوارك؟ كلا. سيقولون: ربما، كان هناك فيلم يُعرض؛ لذا، ما من شهود.

ما إن استيقظ من نومه، حتى استنشق ميتيا الهواء بشراهة، كأنه عاد لتوه من رحلة طار فيها عبر الليل، مبتعدًا عن ريح لاذعة. فتح عينيه، وشرع يتفحص بعناية ردهة المحكمة، ومأمور التنفيذ شديد النحافة، متطلعًا إلى الحشد بكآبة، مارًّا بكل جالس وقائم من الحاضرين، يقرأ مجددًا ذلك

النقش المعلق فوق رأس المأمور: "القاعات ٢، ٣ ". طار النوم من عينيه، وفي لحظة وداعه خدش عينَيه على نحو مؤلم.

هكذا الحال دائمًا: حال احتياجه إلى قسط كاف من النوم، فإن الأرق سيحل عليه ضيفاً لا محالة، وفي مثل هذه اللحظات غير المواتية يغلبه النعاس. وهي لحظة مزعجة كلما حلت: ترى ما الرسالة التي سيتلقاها الليلة؟ وحتى حين يتطلع إلى الآخرين من الناس، فإنه لا يقيد نفسه بتلك الصفات العادية، التي تؤخذ في الاعتبار في رسم صورة الإنسان: الملامح، العقلية، الجاذبية، الشخصية – إنما كان يستهدف على الدوام أن يخمن ما إذا كان هذا الشخص ينام جيدًا أم لا. يسعى طيلة حياته لصيد النوم، ينتظر بصبر في شرك نصبه فوق وسادة تتصبب عرقًا، تفوح منها رائحة حمضية، يستهلك نفسه في مطاردات نهارية طويلة، يؤلف شيئًا ما بمثابة تحدٍّ لعينيه يشغلهما في نشاط أجوف. ما الغرض من هذا كله؟ لأجل أن يذهب في الصباح إلى "يوجانفيست"، لينظر في شاشات المراقبة على سيارات "المرسيدس" السوداء والبيضاء الساكنة، ويمشي حاملاً مسدسًا في جنبه، وهو يعلم أنه لن يضطر يومًا إلى إطلاق النار، حتى لو على هدف؛ لن يضطر حتى ولو من أجل الإمبراطور جوانزي، الذي لم يكلف نفسه يومًا عناء قراءة سطر واحد عنه، أن يطلق النار في الهواء مدفوعًا بمشاعر طاغية، ليدفع إلى السماء سربًا من حمام مذعور. أرق عقيم، النعاس لا معنى له. وكما هو الحال دائمًا، فكل ما يمر به، يحدث بشكل عشوائي.

إن اللحظة الراهنة، في عمومها، ذات أهمية عظيمة، كما أنها شديدة الإثارة بالنسبة له، غير أن التعاطي مع هذه المحنة الآن صار دربًا من المستحيل: تزحف الجفون على نحو لا يقاوم نحو ظلمة عصبية مرتعشة –

احتلت أحلامه كل الأشياء التي يمكن أن نسميها بالحاسمة، على أنغام البطولة. ولا شك أنها مستلهمة من الوضع. ما من تماثيل هنا تحمل السيوف والموازين، ما من شعار أو معبود فيدرالي متجسد في صورة للرئيس، إنما هناك حاجب محكمة صارم، يؤدي كل مهام الحارس. ومن وجهة نظر مهنية، قدم ميتيا تقييمًا: يقوم بعمله بضمير يقظ، يقف بصرامة دون حراك، يخرج للتدخين، يغلق النافذة.

لا تزال هناك فتيات صارمات في الأرشيف. النظر إليهن أمر شديد الإثارة، وهن محشورات في فرجة بين مصراع الباب والحامل؛ حيث توضع الاستمارات المعبأة. هن فتيات زجاجيات، في جوفهن أسلاك وتروس جميعها عارية، وهكذا أضحى متاحًا أن ترضي فضولك في رؤية البنية الداخلية للإنسان الذي صنعته يد الدولة. أدرك ميتيا، أن الصواب قد جانبه: كلا، حتمًا لا تحركهم غلظة فطرية – من أين لهم هذا الكم من السفلة ليجندوه؟ – الأمر هنا دقيق جدًا: من الواضح أن طقوس تواصل الدولة مع الإنسان يجب أن تكون الحاكمة. على أية حال، لا يحمل فراغ اللاوعي كل شيء. سواء كان الشعب غافلاً أو مشتتًا – فإنه لا ينسى الوطن، والوطن بدوره يعلم، الواجب – يعرف الممكن. "ها هي، قوة التقاليد،" فكر ميتيا، وهو يتطلع إلى وصيفات ثيميس[١] الشابات. – ها هو شيء خالد، لن تفشل ثورة. هل هناك طريقة أخرى؟ كيف يمكن التحكم في كل هؤلاء البشر الطنان على مسافة ملائمة؟ وإن لم يحدث فإنهم سيتحولون إلى قوارض. يا للهول، قوارض. يستحلون كل شيء! كيف لهم أن يدركوا طبيعة وضعهم في مواجهة هذا العملاق غير المرئي، المدعو الدولة؟ نهاية، لن يستوعبوا وحدهم أبدًا. إلى أين! سلم

---

(١) إلهة العدالة عند الإغريق.

الجميع جدلاً: آن أوان الديمقراطية. إنهم يتذكرونها فقط، عندما يحدث ما لا يصب في مصلحتهم. كيف يمكن المحافظة على من هم مثلي، من أعاقهم الأدب الروسي المقدس، ها هو القرن الثاني ولا زالوا يطرحون العبد الكامن في أنفسهم قطرة وراء قطرة. ما دام أُطلق العنان – هكذا سنواصل الطرح، بعناء، ببلادة. ربما يمر قرنان من الزمن، ولن نعثر على ما يحل محل هذا العبد الكامن في أنفسنا، ما يخلصنا من هذا العبد الطفيلي. كلا، لن تفلح العشوائية، لن يبقى سوى ما يلطم جبهة كل فرد بالبراز، ويجبره على رفع عيون مذنبة، كي تنظر بإمعان، إلى أي مدى يمكنه النباح ".

لاحظت الفتيات، أن ميتيا يتأمل جمالهن الذي أخفته الأقمشة الربيعية. إحداهن، تلك التي انتظرها ميتيا، تطلعت إليه بازدراء ساخر.

- اخرج من فضلك وانتظر خلف الباب.

- لماذا؟

- إنك تعطِّل الآخرين.

- لا يوجد أحد. سأقف هنا، لا عليك.

ردا عليه، اكتفت بهز كتفيها، وقالت: فلتذهب إلى الجحيم.

تعلمت الفتيات الكثير بالفعل، لكن في الحقيقة، هناك ما فاتهن، فهن لم يصرن بعد موظفات حكوميات بشكل كامل؛ إنهن هنا تحت التمرين. وإذا حكمنا من خلال الخطوط المشوَّشة التي ترسم وجوههن، - هكذا يقوم الرسامون بعمل اسكتشات في العادة أثناء الرسم، مدركين، أنه ربما من الأفضل عمل عدة تغييرات، - لكن لا زال أمامهن وقت على السنة النهائية: ربما في السنة الثانية أو الثالثة. منذ قليل، دقت الأجراس معلنة نهاية حصة

وبداية أخرى؛ أما النزهة مع رفيقها من مدخل إلى آخر تقررها النقاشات مع الصديقات. بالنسبة لهن، لا زالت الحياة في بدايتها. قرأوا الكتب المدرسية أكثر من مرة، كما درسوا التشريعات، آن الأوان لاختبار قدرتهن في عمل حقيقي. من الساعة العاشرة حتى الواحدة ظهرًا، ومن الثانية ظهرًا حتى الساعة الخامسة، لمدة أربعة أيام كل أسبوع. تموج في النافذة أوراق الشجر الناضرة اللامعة، وبينما ترتدي الفتيات ملابس الربيع الخفيفة، تشعرن بسعادة أثناء سيرهن في الشارع، تلاحقهن نظرات الرجال المرتبكة. ها هنا العجائز الحمقاوات اللواتي اكتست وجوههن بشعر كالرجال، الجيران الشرسون، المدعون، والمدعى عليهم، القيظ، هدير الآلات الكاتبة بدلاً من أجهزة الكمبيوتر. يعدون الأحكام التي صدرت من المحكمة، ينسقونها في ملفات، يطبعون نسخًا لكل الأطراف المعنية. يسحب كل واحد نسخة ويعيدها في الوقت المناسب، دون أخطاء، حتى يستمعن بثغر مفتوح لأسئلته البلهاء.

يبدأن في الاعتياد، يتغيرن، - ولكن لا زلن حتى الآن في طور التعرف على كل الأمور. يحافظن على فواصل زمنية طويلة صامتة، متظاهرات، رغم قرب المسافة، بأنهن لا يرين أو يسمعن السائل، بل يقلبن الأوراق؛ بينما ترتجف جفونهن، وأيديهن، التي تقلب المستندات، ببطء وتشتت، تلحظ أنها تتابعك بطرف عينها- تتفحصك، لتعرف هل ثمة وصال وقع. لم يعرفن الغلظة بعد، لم يتجرأن بعد على التحدث بصيغة "أنت"، على نحو يبدو، كأنهن يبصقن عليك. وفي وقت الأزمات، تأتي شابة بهية لتقديم المساعدة، لها نظرة متأملة تحت رموش لاصقة، مجلسها في زاوية بعيدة من المكتب، يكفي التطلع إلى وجهها، كي يجعل لوحًا من الإسمنت يسقط مغشيًا عليه. يستحق الأمر أن يفقد أحد الواقفين في الطابور صبره، ليندفع في حوار

ساخط بشأن ورقة لازمة لم ينتهِ منها بعد أو ربما لسبب آخر، ما إن تظهر في وسط الحجرة، بصوت حكومي هادر توقف هذا المتعجرف من فوره، في انقضاض حاسم يسكته ويعيده من حيث أتى. وبمجرد انتهاء حيلتها في ترويض أحد رعاياها، فإنها لا تنطق بكلمة واحدة. تتوقف لحظة، لتستعيد توازن عواطفها الهائجة. تعود إلى مكانها، أما الفتيات الصغيرات، وكأن شيئًا لم يكن، فيواصلن النقر على الآلات الكاتبة، ربط وفك الملفات – يتغير وجه كل واحدة منهن بنسق واحد: وفي غضون ثانية، تنضج، ويتخشب الوجه ليحمل تعبيرًا جديدًا، ناضجًا.

هذه المرة، قرر ميتيا ألا ينتظر: الآن، لم يعد الأمر فارقًا. وبناء عليه، قرر عدم انتظار أن توليه السيدة الشابة الاهتمام اللازم، شرع يتحدث هادئًا، إنما بوضوح، وهو يعي تمامًا أنها تسمعه بدورها:

– أخبريني، على أية حال، أرغب أن أفهم، في يوم من الأيام، لماذا نتواصل على هذا النحو؟ أي لو كان القانون – هو صوت الدولة، إذن، فوفق كل المؤشرات، فهي تتعامل معنا بشكل غير تقليدي.

لفت انتباهها، لدرجة أنها أدارت رأسها نحوه.

– حسنًا. أتفهمينني؟ نظرت إليَّ للتو كأنني وصمة من أصل مريب. أملك، بالمناسبة، مؤهلاً جامعيًا؛ في حين لم تحصلي عليه بعد؛ أتحدث بلغة روسية صحيحة، في حين كتبت عبارة "لا يستطيع".

أثار كلامه ضحكهم. تعالت ضحكاتهم، تبادلوا النظرات، ثم وجهوا أنظارهم في ذات الوقت إلى المرأة الخرسانية. لكن الأخيرة استدارت نحو النافذة، وفتحت أحد الملفات دون اكتراث. لا يثيرها مثل هذا الهراء.

ندم ميتيا، بينه وبين نفسه، على ثرثرته: "انفجر غاضبًا في وجه طفلة!" إنها حقًا مجرد "طفلة" لم يتوانَ عن الأخذ بثأره: أما الشابة، فقد تظاهرت بأنها منشغلة بأمر لا يحتمل التأجيل، وتباطأت حتى جاء موعد الاستراحة، ليجد نفسه مجبرًا على الانتظار في الباحة، ذلك لأنهم أخرجوا الجميع من الردهة خلال وقت الاستراحة، وبعد انتهاء الاستراحة نهضت حاملة كومة من الملفات قاصدة مكانًا ما. لم يثر كل ما يجري ذلك الشعور المؤلم، الذي دفعه مؤخرًا إلى السقوط ضحية في بئر الاكتئاب.

ظل ميتيا منتظرًا في هدوء، جالسًا باسترخاء على كرسي تحت وردة صينية. لو جرى كل هذا من قبل، حينما كان يحدوه الأمل أن ينتهي في الوقت المناسب، كان لينفعل، وربما، افتعل فضيحة، عبثية، وبلا رحمة، ولأجبره حاجب المحكمة، الحارس ذو الدوام الجزئي، على الخروج مطرودًا. لكنه يتأمل الآن أوراق الوردة، بينما تطرق أكعب أمام باب القسم: "ربما هي"، استمتع رغم هذا بالجلوس هنا، يضيع الوقت في لا شيء؛ فهو الآن ليس في عجلة من أمره. تذكر فانيا عيد ميلاده فقط منذ أيام.

– مرحبًا أبي! كان عليَّ، تعرف، كان عليَّ أن أقول شيئًا... أبي! يجب عليَّ أن أقول "سامحني"، عيد ميلادك، – على ما يبدو، ارتبك فانيا من فرط التوتر فأخطأ في اختيار الكلمات الروسية المناسبة وقرر أن يدخل في لب الموضوع. – تعطل جهاز الكمبيوتر الخاص بي. لديَّ برنامج يذكرني بعيد الميلاد، أعياد الميلاد، – صحح خطأه، – وتعطل البرنامج، توقف لسبب ما.

– مفهوم.

– رجاء، سامحني! هل ستأتي؟

- لا يا بني، لن آتي.

- لماذا؟ هل هذا بسبب عيد ميلادك؟

- كلا، لا أملك من الوقت ما يكفي كي أستخرج جواز سفر، سأكتب لك.

- اشتريت لك هدية. من نقود كسبتها.

- كيف حال خطط برلين؟

- سيحصل كريستوف على عمل هناك لمدة نصف عام، وربما أكثر.

"فكر ميتيا، نعم. - بعد أن حصل على عمل في روستوف على الدون... سرق عائلتي".

إثر كلامه مع فانيا، شعر كأنه أصيب بحمى شديدة لتوه. وللمرة الأولى، سمح لنفسه أن يشعر بالاستياء - علم أن ابنه يتذكر عيد ميلاده بواسطة الكمبيوتر، قطعة الحديد الساحرة، التي عجز هو نفسه عن ترويضها. بدا الشعور بالاستياء شعورًا شديد الإنسانية؛ بل إنه حتى شعور ممتع، ومريح - إلى أبعد حد. وبعد أن نطق بصوت عالٍ عبارة: "لن آتي"، أدرك ميتيا على نحو مفاجئٍ أنه لن يذهب. وبدقة أكبر، لن يطير إلى هناك. لن يقف وسط الفوضى البابلية الصاخبة الضخمة في المطار، يتنهد، ويبحث عن وجه منه وسط طوفان رؤوس غريبة، ولن يضم يد فانيا التي صارت على غير المعتاد يد رجل قوية، ستظل مدينتهم النائية أوسلو بلاد العجائب بعيدة المنال، من حيث تأتي الخطابات التي طال انتظارها، ويطير عبر شبكة من الأسلاك إلى شققه المستأجرة صوت ابنه فانيا.

وصل كل شيء إلى نهايته. ما تلى ذلك، لا يتعدى ما يقولونه عقب الأمور الأكثر أهمية، كل ما هو عرضي وعبثي. بعد عبارة "لن آتي"، صار كل شيء يسيرًا، لم يعد هناك ما يثير في ميتيا أدنى درجات القلق. أما جواز السفر والمواطنة بالتبعية، - التي يمكنه الحصول عليها بقرار من المحكمة، صار أمرًا روتينيًّا معتادًا. أمرًا مزعجًا، ولكنه حتمي.

كان في الإمكان أن ينتهي على نحو مغاير، ولم يقع ميتيا فريسة للملل أسفل وردة صينية، في انتظار تلك الشابة المهمة من القسم، التي توزع باليد قرارات المحاكم على المواطنين. في اليوم الذي ذهب فيه مع توليك في زيارة لا طائل منها إلى أليج، وبمجرد أن أُفرج عنهما من قسم الشرطة، ذهبا للشرب. انتاب ميتيا شعور بالذنب؛ لذا اقترح الشرب "لأغراض علاجية".

- هيا، لنعالج الأعصاب؟

تنهد توليك، على نحو مثير للشفقة، وقال:

- أحتاج، كي تسي، إلى تخدير كلي.

عادا إلى العبودية، دفعا سيارة توليك "اللادا" إلى أقرب موقف للسيارات، ثم شرعا في البحث عن مطعم. أوقعهما الحظ في ذات المطعم الذي التقى فيه ميتيا يومًا مع هياواثا ذي الأذن المشعرة، وتلقى لكمة في فكه من شاب غريب. بدا المكان لعين يقظة، بشعًا ومثيرًا للاشمئزاز بشكل لا يوصف، لكن لم يكن ميتيا ولا توليك على استعداد لإضاعة الوقت في البحث عن مكان آخر. تحتم عليهم نسيان تلك الساعات العصيبة في قسم الشرطة، هبطا الدرج القصير نحو البدروم، وظلت رائحة النفس ذاتها كامنة هنا - كأنها من فم مدمن خمر يشرب دون توقف على مدار أسبوعين.

كان جهاز التسجيل صامتاً. جلس هياواثا وحيدًا على الطاولة يتطلع إلى كوب فارغ. كان يرتدي ذات السترة والقميص عليه نفس العبارة "الأمريكي الحقيقي"، وقد حلق شعر رأسه بعناية، بدا مشذبًا تمامًا، عدا الأذن. وما إن وقعت عيناه على ميتيا، لوح هياواثا بيده مبتهجًا.

- صديقك؟ - قال توليك متعجبًا.

إنه الزعيم هنا، - أسكته ميتيا، الذي اتجه صوب طاولة هياواثا.

وقبل أن يُلقي هياواثا التحية، قال:

- لحظة – ثم لوح ناحية الحانة، ليلفت انتباه النادلة.

بعد أن وقع نظره عليها، رفع سبابته، وأضاف:

- وساندويشات الجبن.

تبادل توليك النظرات مع ميتيا، ثم همس وعلى وجهه كآبة، مائلاً نحو ميتيا:

- قبيلة الهدايا المجانية السريعة. اللعنة، لا أحب هذا.

- رد ميتيا هامسًا، - وما الفارق. - على حسابي. انظر! يا لها من أذن مهيبة!

وصلوا حد السكر بسرعة كسهم طائر نحو الهدف. "هوب!" – ولم يبقَ من العالم سوى أكثر الأشياء بساطة: طاولة مربعة، وتجويفات السدادات. على ما يبدو، كان عليهم البحث عن الزجاجة من جديد في كل مرة، كشكل أكثر تعقيدًا، وسط الطاولة الخالية. امتزج وجها توليك وهياواثا في عين ميتيا في وجه واحد شامل، حلق في دخان السجائر متجهًا إلى أعلى ونحو الزاوية،

ثم سقط فجأة لينقسم مجددًا ويعود الوجهان إلى حالتهما الأصلية: وجه توليك النائم ووجه هياواثا المشرق، الذي يقترب منه بإصرار. شعر ميتيا، في لحظة من اللحظات، أن هياواثا يهز كتفيه بوقاحة. حاول ميتيا، تمامًا كما حدث خلال لقائهم الأول، أن يتكلم بالشعر الحر، لكن الزعيم لم يمهله، فقال مقاطعًا:

- تمهّل أيها الأحمق. أقصد التحدث معك بشأن جواز السفر.

متى أخبره ميتيا بقصته، لا يذكر: في المرة الأولى، أم الآن؟ يبدو أنه شرب حتى الثمالة، والسبب فودكا هياواثا المغشوشة، استعاد بعضًا مما علق بالذاكرة، ونظر إلى الزعيم باهتمام.

- قل؟ ماذا قالوا لك؟ أتسمعني؟ انتبه! لديَّ رفيق بالعمل، أوزبيكي. إنه - في مثل موقفك. بمعنى، يعلم الشيطان منذ متى يعيش هنا. ذهب إلى المحكمة، قرروا، أنه يعيش هنا. يعلم الشيطان منذ متى - وأنه مواطن طبيعي؛ لذا قررت المحكمة أن تمنحه جواز سفر. أفهمت، أم لم تفهم؟ أقسم أني أقول الحقيقة! احتفلنا بهذه المناسبة منذ أسبوع. في النهاية، هو أوزبيكي مثلك! أووه! - فتح هياواثا عينيه بأصابعه، كي يرسم صورة الأوزبيكي المعروفة. - هل تريد أن أعرفك به؟

أطاح الخمر برؤوسهم تمامًا؛ أما أمر الأوزبيكي، فقد علق في ذهن ميتيا بقوة. وقف في الصباح أمام المرآة، مر بأصابعه على عينيه، تفحصها بعناية، رمش، محاولاً أن يستعيد حدة نظرة، برأس متألم - من حسن الحظ أنه يوم عطلة - اتجه إلى محكمة المقاطعة. اتضح، أن موظفي الاستقبال لا يهتمون حقًا بسماع من هم مثله حتى النهاية - صموا آذانهم. أوقفه أحد العاملين في المحكمة، رجل ذو سمرة داكنة، بحركة من أصبعه، وأخبره أن يذهب إلى محامٍ، ليرفع دعوى قضائية، ويبحث عن شهود يؤكدون أنه يعيش بالفعل في روسيا منذ عام ١٩٩٢.

- لكني هنا قبل هذا التاريخ - قال ميتيا محاولاً التدخل، لكن أوقفه الرجل مجددًا بنفس الإشارة المعبرة.

عليك بالعثور على شاهدين، والاستعانة بمحامٍ لإقامة دعوى قضائية وتقديم التماس.

- رجاء دعوة التالي لك في الدور للدخول. أخبر الجميع أنني لن أستقبل أكثر من خمسة قبل استراحة الغداء!

خرج ميتيا إلى الممر تائهًا مرتبكًا. وقف رجل، عند السلالم المؤدية إلى داخل المبنى، حاملاً عمود تليغراف، يرتدي الزي الرسمي، ويحمل في حزامه سلاسل.

- هلا أخبرتني أين يمكنني العثور على محامٍ؟ - سأله ميتيا، أشار الرجل صامتًا إلى شخص بدين مهلهل الهيئة يقف عند المدخل.

ما إن لمح الرجل البدين الإشارة، حتى وقف على قدميه، ثم نظر باهتمام إلى ميتيا. اقترب ميتيا منه، محاولاً بحرص أن يحمل رأسه المعبأ بالشظايا والقنابل التي توشك أن تنفجر. في الرواق، ضربت أشعة الشمس الحادة عينيه، وتناثرت في كل مكان، على الثلج الذائب، على كسرات الجليد، ونوافذ السيارات.

- أنا بحاجة إلى تقديم التماس. للحصول على الجنسية. وفق القانون الجديد. ليس لديَّ مدرج إقامة، و...

- مفهوم. هيا، لنذهب إلى مكتبي، على مقربة من هنا. لن يستغرق الأمر أكثر من خمس دقائق.

هبط درجة واحدة، منتظرًا حتى يتبعه ميتيا.

انتظر! كم يتكلف الأمر؟

- خمسمائة.

ثم هبط درجة أخرى، وقد كست ملامحه ثقة كاملة، أن ميتيا سيتبعه بلا أدنى شك.

- كلا، سأحضر في مرة أخرى. لا أملك هذا المبلغ الآن.

- كم لديك؟ - عاد المحامي ليصعد درجة على السلم.

شعر ميتيا بالقلق لأن هذا الرجل، الذي كان يرتدي بنطالاً دون أزرار، يتفاوض معه في تكلفة أمر ذي أهمية كبيرة بالنسبة له، كأن الحوار يدور حول حفنة من البطاطس. مثلما حدث بالأمس مع الحانة، لم يكن لديه رغبة في إضاعة الوقت في البحث. وعمن يبحث: عن محام أرخص، بسيط، بلون شعر مختلف؟ المحامون، قال ميتيا، قبيلة منعزلة، لا تعرف الشبع - أليس من الأفضل الوثوق بأول من وقع في طريقك؟ بعد أن أحصى ما في جيبه من نقود، قال ميتيا:

- ثلاثمئة وخمسون.

- يبدو هذا مناسبًا! - وهرول الرجل البدين هابطًا درجات السلم حتى نهايته، وهناك أشار إلى ما وراء البوابة، ثم أحنى ذراعه بأناقة، وقال: رجاءً! تفضل ... من هنا.

كانت الدعوى جاهزة بالفعل خلال خمس دقائق. بعد مرور عشر دقائق، كان ميتيا مجددًا داخل أروقة المحكمة، جالسًا في الردهة، في انتظار عودة الموظف، الذي يتلقى الدعوات. على مقربة منه، جلس شخص يحمل

جريدة واسعة الانتشار، مفرودة عن آخرها، تفوح منه رائحة عطر جميل. وبعد أن قلب صفحاتها لبعض الوقت، دس الجريدة في جيب سترته الداخلي. بدت هذه الإيماءة ذات دلالة مهمة للغاية؛ حيث عكست اهتمام هذا الشخص بالأحداث الجارية، بل وتعامل مع المعلومات الواردة في الجريدة دون أي انفعال، وبأناقة خبير: ربما لا يعلم الجميع أن وضع صحيفة مطوية في جيب السترة الداخلي أمر يسير ومريح. بدا أنيقًا في كل شيء، بلحية محكمة صغيرة، حُفت في مسارات مدهشة: كست الخطوط الممتدة على الفك السفلي المساحة أسفل الذقن بعناية. ذكر هذا المشهد ميتيا بشريط الخوذة.

قال الغريب- اللعنة، وضرب على سترته التي انتفخت بفعل الصحيفة.
- "ماذا يحدث! ثم قال موجهًا كلامه إلى ميتيا - ألديك أيضًا دعوى مدنية؟

بعد أن عقد صفقة ناجحة مع المحامي الذي أعد وثيقة تقريبًا مقابل نصف الثمن، كما أكد بنفسه، كان ميتيا كريمًا لأبعد حد، مادام تحت تأثير الخمر. جاهد ميتيا حتى تنعكس نواياه الطيبة على وجهه الباهت وعرض قضيته بإيجاز. بدا المحامي، الثاني في يوم واحد، غريبًا ودودًا. ترك لي بطاقة عمل، مطبوعة على ورق عادي، باللون الأبيض والأسود. سيرجي إيفيموفيتش بانو. تصور ميتيا أن "بانو" مجرد بداية للقبه، وأن هناك خطأً مطبعيًا، لكن منعه الخجل من الاستفسار.

- قال بانو، - أنا هنا لمتابعة قضية موكلي، وتحرك من مسند ذراع للآخر، حتى يكون قريبًا من ميتيا. - أمثله أمام القضاء. إنه عملي، كما تعلم! سيعود إلى بيته مع بداية العام الجديد، الطابق الأول في بيته مأهول بالسكان، أما الثاني فإنه في طور الاستكمال، وأيضًا، كما تعلم، الرعونة، بلا شك، - كُسر قفل أحد الأبواب، ما كان منه إلا أن وضع مزلاجًا من الداخل لإغلاقه،

وتركه على هذا الحال. إذن، بعد عودته إلى المنزل، دخل ليكتشف اختفاء الأثاث ولم يبقَ منه سوى حطام. الباب مفتوح على مصراعيه، والمزلاج ملقى على الأرض. بينما تناثر روث الخيل بطول الطابق الأول. روث خيل عادي، تجمَّد قليلاً، الجو بالداخل شديد البرودة. جيرانه يعملون بالسيرك، احتفظوا بالحصان عندهم، تخيل. وكما ترى، مرض الحصان، وبالطبع لن ينال الدفء في السيرك. حصان ضخم، حصان من أبشيرونسك. هل تعرف هذا النوع؟ ليلة رأس السنة الجديدة، نقلوه إلى مكان ما، شعر الحصان بالملل، قضم الحبل، هرب من الحظيرة، قفز من فوق السياج. كيف أسقط الباب؟ لكن السؤال الأهم هنا، لماذا فعل؟ - يعلم الله وحده. ما من شهود، للأسف، ويصر أهل السيرك على الإنكار، يقولون: إنهم لم يروا أية أحصنة، ولم يكن في الحظيرة سوى الماعز؛ ثم إنهم كانوا في جولة، نعم.

بدت الحكاية ساخرة، لكن ميتيا كان مرهقًا بشدة، لذا قرَّر أن يضحك في وقت لاحق. ثم واصل بانو فجأة، كأنه تذكر شيئًا:

- أما بخصوص قضيتك، فقد توليت مثلها منذ وقت قريب، - ثم صمت شارد الذهن. - أجل. نفس القضية فعلاً، ربحناها. اسمح لي بسؤالك، هل هناك من يمثلك أو أنك تنوي الدفاع عن مصالحك بنفسك؟

هز ميتيا كتفيه، وقال:

- بنفسي.

ابتعد بانو بناظريه عن ميتيا، وبدا محزونًا. شذِّبت حواف لحيته بشكل دقيق، ذكره تمامًا بشريط الخوذة، المربوط أسفل الذقن، حتى إن ميتيا بحث عن هذه الخوذة فوق رأسه.

- لعلي لم أسبِّب لك إزعاجًا، أيها الشاب، لكن احتمالات النجاح بهذا الشكل عندنا تكاد تكون منعدمة.

- لماذا؟

- حسنًا. - خفض عينيه ورفع حاجبيه بشكل متزامن، لكنه فشل في إعطاء انطباع بالمصداقية. - إن لم يتوافر، - وحرك أصابعه لتفرك بعضها بعضًا، في إشارة إلى "المال"، - لن يحدث شيئًا.

فعلاً؟

- هذا مؤسف.

انفعل ميتيا انفعالاً مكتومًا، وقال:

- وكم يتكلَّف الأمر؟

رفع بانو أصابعه الخمسة.

- خمسة آلاف؟ روبل؟ - قال ميتيا محاولاً التأكيد على المبلغ.

- بالتأكيد، روبل! - ابتسم بانو بهدوء- هذا المبلغ للمحكمة. وللمحامي، الذي سيقوم بتسوية الأمر مع المحكمة، وهذه رسوم رسمية يمكن إضافة ألفي روبل.

- هذا مثير للاهتمام!

لم يكن ميتيا لينفق مالاً للحصول على الجنسية، حتى ولو توفر لديه مبلغ السبعة الآف روبل. الآن، لا جدوى من هذا، ولكنه من باب الكياسة، حاول أن يبدو على وجهه الاهتمام. ودون أن ينتظر ردًا من ميتيا، عرض بانو بنفسه:

- إذا كان هذا المبلغ كبيرًا بالنسبة لك، يمكنني إذن تولي الأمر دون أية أتعاب. خمسة آلاف للمحكمة – ولي، قدر ما تجود به.

لكن ميتيا لم يقل شيئًا بشأن العرض الذي قدمه بانو، إنما تحول اهتمامه فجأة نحو شيء آخر:

- هل حدث كل هذا خلال ليلة رأس السنة؟

- ماذا؟ – لم يفهم بانو.

- أتحدث عن الحصان الذي اقتحم منزل موكلك. هل حدث هذا في الليلة بين الحادي والثلاثين والأول من يناير؟

- أجل، في الليلة بين الحادي والثلاثين والأول من يناير.

- أمر عجيب؛ لقد أعد لنفسه احتفالاً!! لو لم يقابله، لظل بانو إلى الآن داخل قاعة المحكمة. تارة يركض في الممر، وأخرى يجلس في الردهة، ممسكًا بجريدة مفتوحة، يفتح حوارًا مع من يجلس إلى جواره: "اسمح لي بسؤالك، ما مشكلتك؟" وربما تبادل ميتيا النظرات معه أحيانًا. ولفهِم المحامي، دون شك؛ حيث من السهل أن يخمن مع مرور الوقت، أن ميتيا حضر لاستلام قرار المحكمة، ومن خلال مظهره الهادئ بالإمكان استنتاج أن قرار المحكمة في صالحه. لم يقترب بانو من ميتا، إنما تطلع بنظرة متهكمة لكنها ودودة: حسنًا، باءت المحاولة بالفشل، إذن. أحسنت. بدا هذا المزيج الناعم بين السخرية والتعاطف في عيني السيد بانو مسليًا لميتيا: أُوررا!![1] لم يعد مغفلاً! نضج. لقد استطاع الفكاك من هذا الصياد الباحث عن مغفل، سالمًا.

---

(١) صيحة باللغة الروسية تعبر عن الفرحة.

إن لم يكن ميتيا يشعر بالتعاطف مع السيد بانو، فإنه على الأقل لم يغضب منه بأي شكل. يبدو أنه توقف عن الغضب من الجميع دفعة واحدة، حتى من واضعي القوانين المخبولين، كما لم يعد ساخطًا على المرتشين في مكاتب مصلحة جوازات السفر والتأشيرة، بل نظر إليهم كما يتطلع من النافذة نحو حشود تتحرك بفعل اندفاع قوى المجتمع: أمر مؤسف، لكن الحركة أمر لا مفر منه. بالنسبة لبانو، فقد تشكّلت في نفس ميتيا ذات المشاعر المحايدة تجاهه. إن وضوح وسذاجة الحيلة التي حاكها حول ميتيا جعلتها أشبه بمحاولة بارعة للغش: استلام المبلغ، انتظار قرار المحاكمة، وحال الحصول على حكم في صالحه، سيقول بشكل يحمل الكثير من المعاني: "أرأيت، وعد بانو، أوفى بانو". وإذا اتخذت المحكمة قرارًا سلبيًّا، في الإمكان على الدوام تقديم الاعتذار عن الحكم المجحف وإعادة المال. يحدث كل هذا، في هدوء، دون إثارة أية ضجة، على مرأى ومسمع من المحضرين، وبلا أية مخاطرة. حسنًا، يبدو أن طبول الغش لا تدق سوى عندما يحين دور المغفل التالي ليضرب عليها بيديه.

"أيها الرب العادل! – قال ميتيا متعجبًا. – كم من البشر يتحلّقون حول هذه العليقة ويمنون أنفسهم بنيل نصيبهم. آلة لا ترحم! إنها تراجيديا ومذلة للبعض. وللبعض الآخر – تجارة منظمة. وفي كل قانون، يُطعِم كل حرف شخصًا ما. تُرى، ماذا لو تغير كل هذا فجأة؟".

– فاكولا! – ناداه صوت من بعيد، من غرفة أخرى.

لم يلحظ ميتيا عودة الموظفة الشابة. نهض مسرعًا، كمن يقفز نحو كابينة التليفونات، حين يسمع الصوت القادم من السقف، محددًا رقم الكابينة، التي يعيش فيها بالفعل من أجريت به اتصالاً، وتطرّق على الزر باحثًا عن مجيب، ثم ما لبث أن اتجه صوب باب القسم المفتوح.

تتأهب وصيفات ثيميس للعودة إلى منازلهن. جمعن مستحضرات التجميل والمشابك، أغلقن أبواب الخزائن والدواليب، محدثات جلبة بالكراسي المتحركة. أعطوه قرارًا مطبوعًا بخط باهت على الآلة الكاتبة، وقع في المكان المشار إليه، لف الورقة، ثم انصرف.

هذا كل شيء.

روى بانو لجاره في الردهة شيئًا مضحكًا. وما إن رآه، حتى استدار باتجاه الجدار، متظاهرًا أن هناك ما يعوقه عن الجلوس. في باحة المحكمة، سقطت بعض العصافير تحت أقدام ميتيا، وهي تصرخ صراخًا حادًا، وتتصارع من أجل كسرة خبز، وبعد أن تحركت من الشرفة حتى السور، حلقت الأجنحة والمناقير المتشابكة عاليًا لتتوارى خلف حافة السقف.

مشى ميتيا أسفل أشجار الزمرد الربيعية، ثم استدار إلى زقاق متعرج لإعجابه بمسطح الرصيف الرمادي، الذي اكتسى بالبلل ليتلألأ عند المنعطف؛ حيث يتساقط الرذاذ فوقه، ثم سار متمهلاً باتجاه البيت. عليه أن يقطع مسافة طويلة سيرًا على قدميه، لكن هذا أدخل على نفسه السعادة.

في نهاية الرصيف، اختار واحدًا من بين زقاقين فصلت بينهما زاوية حادة، ذلك لأنه لاحظ من فوق أسطحه قمة شجرة ضخمة بارزة - سحابة خضراء براقة. أمام منزل قريب استقرت بضع زجاجات فوق كرسي معبأة بالزيت - للبيع - وأثناء عبوره بجوارها، شاهد ميتيا كيف ترصده أشعة الشمس الأسيرة من داخل الزجاجات. شمس كهرمانية؛ لكنه ما لبث أن مرَّ بنقطة حرجة، حين توارت أشعة الشمس في جوف جدران الزجاجات ولم يعد لها أثر. تجاوزه صبي يقود دراجة نارية، بينما ينسحق حذاؤه على الطريق محدثًا صريرًا حادًا. نظر ميتيا في أعقاب الصبي ثم قرر بشكل حاسم أنه

سينتقل للعيش مع والدته. أعاد القرار على نفسه مرة أخرى، وهو يصرخ بصوت عالٍ.

- هذا ما يجب علي فعله، – أضاف ميتيا، كأنه يتشاجر مع شخص ما.

اتضح أن الشجرة لم تكن في ذلك الزقاق، الذي عبره ميتيا. سرعان ما توقف عند سياج تالف يوشك على السقوط. امتد شعاع وراء السور، بينما في الجهة المقابلة منه، جلس ليفان، مستندًا بظهره على جذع كبير، ويداه مستقرتان على عكاز، وهو ينظر أمامه بعيون فاقدة البصر. بدت الجهة الخلفية الممتدة بامتداد الشجرة في الباحة، بائسة كالمعتاد: جدران خرساء، تهبط منحدرًا قذرًا، كل أنواع المخلفات، التي ألقيت ذات يوم خلف المنزل، صار لونها كلون الأرض، بينما نمت الطحالب في بعض الأماكن. استندت على أنبوب للغاز طاولة كي ملابس منتصبة، وقد صارت مرقطة بالفطر بكثافة في كل بقعة منها. جلس ميتيا على أطلال مقعد منهار، بعد أن أزال عنها الغبار. تلطَّخت يده بخشب عفن. وضع ميتيا قرار المحكمة على الأرض وسحقه بحفنة من الحصى حملها من فوق الرصيف. رفع راحة يده إلى أنفه واشتمَّها. تفوح رائحة منتصف الربيع، التي تشبه تلك المرارة المنعشة المختبئة في أوراق الخريف المتساقطة، هناك، خلف الأوراق البنية، – وقتما تلقي تلك الرائحة في الحديقة، تنحني، تلتقط حفنة منها، تمزقها، تفتح بطونها الرطبة البراقة، التي تفوح منها رائحة مرارة الزمن.

– ها! قال ميتيا لراحة يده التي تفوح منها رائحة الخريف.

جلس ربما كان ليفان بطريقة، بدت كأنه جلس منذ زمن بعيد– واضعًا وجهه في مواجهة ضوء الشمس، مستمعًا إلى ضجيج السيارات القادم من وراء المنازل. ارتعشت أوراق الشجر فوقه بفعل نسيم رقيق. تطلع ميتيا في

حيرة، غير قادر على تحديد أي نوع من الأشجار هي. على مدار فترة طويلة لم يكن يمل ميتيا للإعجاب بالأشجار، لكن في لحظة ما، في حياة سابقة، كان في استطاعته أن يجلس طويلاً بذات الطريقة، متأملاً تيجان الأشجار أو الرسوم على لحاء جذوع الشجر. حينئذٍ، انتابته مشاعر، كتلك التي يشعر بها المرء بعد حديث صافٍ مع صديق؛ لكنه ماض قديم. فقد انشغل منذئذٍ بأمور كثيرة. مثل المطاردة التي خاضها لاصطياد الجنسية، تلك الجنسية الروسية الضالة، التي لاحقها كمشرد خطير، ونسي تمامًا حبه للأشجار. غفل عنها كلية، مثلما يغفلون عن رؤية طوفان البشر، الذين يجاهدون لتحاشي كارثة مقبلة.

بدل ليفان وضع يديه على العصا، دون أن تبدر منه أية إشارة بحركة ولو بسيطة. بدا أنه يستطيع الجلوس هكذا لوقت طويل جدًّا.

- هل طال انتظارك للربيع! - هتف ميتيا محدثًا ليفان.

انتفض العجوز بفعل صرخة ميتيا المفاجأة، واستدار ناحيته، واضعًا راحة يده المطوية كأنها مغرفة على أذنه - وما لبث أن استوعب ماذا يقصد ميتيا، وأومأ موافقًا، محركًا جسده بكامله وعصاه. تطلع ميتيا إلى المنحدر المليء بالمخلفات؛ حيث تمشي الغربان كالرجال، في الساحة الخلفية وفوق جدران الجراچات الصدئة؛ لكن يبدو أنه رأى شيئًا آخر.

انتابته رغبة شديدة في التدخين، لأول مرة منذ أن أقلع تمامًا عن التدخين، تنهد ميتيا ودسَّ يده في جيبه بحثًا عن المحفظة، حيث احتفظ بسيجارة وولاعة. بعد أن أشعل السيجارة، لم يشعر بالطعم المألوف للتبغ، إنما طعم ورقة السجائر المشتعلة فقط، لكنه على أية حال، واصل سحب تلك الأنفاس البغيضة.

- ليس هناك مشكلة، - قال ميتيا. - مرة واحدة لا يعول عليها.

تذكر أن أليج، ربما، قال، أو شخص آخر، من قال الشيء ذاته، بينما يمسك في يده حقنه. متى كان هذا؟ لقد حدث وقت أن أنهى دراسته الجامعية، وسقط في حياة جديدة حرة، تلك التي لم تمهله أن يبقى ذلك الفرج المضحك، الذي لم يستطِع التمييز بين التواليت والدولاب. أو ربما، على العكس، حدث مؤخرًا، عندما لاحظ الفرج أن الحياة على الطريقة الجديدة، والتي خلق لنفسه فيها مكانًا رائعًا، كلفته ثمنًا باهظًا - لم تبقَ لديه طاقة للعثور على إجابة للسؤال.

ارتجف ميتيا، حين استبدل فجأة اسم أليج وصار يستخدم لقبه "الفرج". وكأن أفكاره ستجعل هذا الاستبدال أمرًا واقعًا، وأن العالم سيصيبه عطل، كما حدث حينما وضع ثلاثة روبلات في سلة العيش للعمة زينا.

أصابته ورقة السجائر المشتعلة في فمه بالغثيان. كان هذا أسوأ من طعم السيجارة الأولى؛ لكنه شعر باحتياج شديد للتدخين. كان عليه أن يُلهي نفسه بشيء ما.

هذا ما حدث معه بالفعل. في غرفة مظلمة، كستها طبقة متصلة من الأشياء، في نافذة أرمد فيها حلق القرميد الضيق، وفيها - نجوم أربعة. رقدت إلى جوارها مولاتكا، تعرف عليها منذ عشر دقائق.

عشر دقائق.

عشر سنوات.

تطلع ميتيا، ذات شتاء مضجر في تبليسي، من النافذة إلى الأروقة خلف العجوز الكفيف، الذي جلس تحت شجرة التوت في انتظار الربيع.

عجوز غريب الأطوار، عاشت في بيته حيوانات محنطة. قبل أن يفقد بصره، كان بروفيسورًا أو أكاديميًا. وبينما ميتيا لا يزال بعد صبيًا، كان واحدًا من أولئك الفتيان، الذين زاروه لمشاهدة خيالات المآتة، الأسلحة العتيقة، شرب الشاي مع حلويات "كاراكوم". كان هذا هو كل ما جمع بينه وبين هذا العجوز. لم يقل ولو لمرة واحدة شيئًا ذا بال، وربما لم يكن ذلك العجوز يمثل أية أهمية لميتيا. فهما يفكران بلغتين مختلفتين. لم يفعل العجوز لميتيا سوى شيء واحد، وهو ما لم يعلمه قط، – وهو أنه ظل جالسًا أسفل شجرة التوت أمام نافذة ميتيا، في انتظار الربيع. لم يُحدث جلبة. خرج من بيته، يحمل عصًا ممدودة، يضرب الأرض ضربات حذرة، باحثًا عن بداية الباحة، – سائرًا في حلقة. تجولت ضربات العصا من بيت إلى آخر، لتمنحه على الفور، نفوذًا على الباحة بأكملها؛ حتى إن الحمام المستقر فوق السطح الخشبي لمنزل المالاكان بدا كأنه أخرج رأسه من تحت جناحه، فقط كي يسترق السمع. في بعض الأحيان، كان الحمام يهرب غاضبًا ويحلق نحو السماء محدثًا جلبة بعد إطلاق النار من أسلحة المتحف العتيقة. يغتاظ العجوز عندها، ثم يقفز من نفسه. وبعد أن صار كفيفًا هادئًا، تمكن أن يملأ فراغ الباحة بأكملها: بأصوات ضربات العصا، ستوك – ستوك، ستوك – ستوك. دار مرتين ثم شغل مكانه: جسد دون حراك، بينما وضع راحتي يده فوق العصا الطويلة. انتظر. اشتاق إلى الشمس وجلسات الشراب في الباحة – النبيذ، الأحمر كالدم. وبعد أن أمسك بأطراف روح عالمه – مثل الحمام، الذي يهبط جميعًا، كل ممسكًا بجناح أخيه، وأحس أن هذا العالم، الحالك الظلمة، ليس دنسًا، حينئذٍ، قرر ميتيا أنه يتمنى أن يصير مثل هذا العجوز الكفيف. كان رأسه مزدحمًا، لم تشغله الأفكار، إنما التوقعات. سيأتي أوان التفكير فيها مليًا فيما بعد. كان هناك أمر آخر؛ نظرًا إلى الجوع الذي

لا يهجع للحياة، أحس ميتيا بحماس وفرحة، كم هي الحياة شهية، لو كان بمقدوره لالتهمها يومًا بعد يوم، ما دام كان هذا ممكنًا.

- اللعنة! - قال ميتيا، وهو ينظر إلى السيجارة عن قرب ويحسب كم عدد الأنفاس التي لا زالت متاحة.

اعترف لنفسه للتو، أنه - خائن.

- اللعنة! اللعنة!

ربما كان من الأفضل، لو احتقرته لوسيا، واعتُبر هذا بمثابة المخرج، صار الآن من المستحيل أن يدرك، من خان ميتيا، صديقته أم عشيقته. قد تكون عشيقته؛ لقد اتضح أنه من الوضاعة أن تضبطك امرأة، تكذب عليها، في مسرح الجريمة. وما هو أكثر وضاعة أن تدعها تكتشف، أن جسدها كان مجرد وسيلة تسمح له أن يفكر على مهل في امرأة أخرى، كمسبحة أعتقد أن آدم اختبأ في الأدغال، حاملاً ذات الشعور، عندما انكشف كل شيء.

لقد خان صديقته قبل ذلك بكثير، حدث هذا عندما لم يمتلكا من الإصرار ما يكفي لتصبح لوسيا هي المحبوبة التي تجلس إلى جواره في حفل الزفاف.

سعل ميتيا، فأطلق سراح الدخان الذي سحبه لتوه، ولم ينتظر حتى ينتهي سعاله، وسحب نفسًا جديدًا.

ليس بالأمر الغريب، أنه جرؤ على فعل ما فعله بها، فالخيانة بالنسبة له أمر يسير. كانت البداية حين خان ذلك الشاب، الذي قرر أن يحيا، ويتذوق طعم كل يوم جديد، أن يربح البهجة. انشغل، على النقيض من هذا، شرد بشكل عبثي داخل ذاته - هناك، حيث لا مساس. البهجة، التي طفت لتوها

على السطح، وتوجب القتال من أجلها، لم تعد تثير اهتمامه. اختبأ هناك، إلى حيث يلجأ الضعفاء على الدوام، ولا يسعون لتحقيق النصر، بل إلى المواساة.

لو كان الأمر على خلاف ذلك، لو وُجد ما يعيش من أجله، يؤمن به، هل كان ليقبل أن يعيش، بالطريقة التي فرضوها عليه؟

هل كان ليتسامح مع هذا الظلام، الذي صنعوه بأيديهم ليكسو الدولة بأكملها؟

الحقيقة، أن المرة التي خان فيها نفسه بالفعل، هي عندما جلس أمام شاشات المراقبة في "يوجانفيست" في غيبوبة هادئة راضية، خلال تلك السنوات ذاتها التي توجب فيها على الرجال أن يبذلوا قصارى جهدهم، أن يبنوا القصور أو حتى أن يلقوا حتفهم. ليس هناك حاجة إلى سنوات كالحثالة، سنوات يمكن وصفها كاملة، برسم صورة ليوم واحد منها فحسب. أن تعيش، ولا تحاول، ولو كذبًا، أن تتطلَّع نحو الأفضل. لقد خان البلد، التي اعتزم الوقوع في غرامها، وأن يربي ابنه فيها، - لأنه لم يشارك في العراك، ولم يمتلك من الشجاعة ما يكفي كي يحاول، على أقل تقدير، أن يقوم بهذا ولو على طريقته. أن يضع حدًّا، لشيء كريه. وعندما أخبروه: أن الأمر "سيكون على هذا النحو"، طأطأ رأسه، وانزوى في صمت. وعندما اغتصبوا البلد، قال: "أيتها العاهرة!"، خانها عندما سمى المرض بالمصير، عندما لم يلحظ الفارق بين الروسي والمسكين، الذي يتحدث الروسية. خانها، عندما أقر بالاحتيال كقاعدة للعبة.

أتيحت فرصة للفهم، فترة سماح، كي يصير قويًّا.

لم يصر قويًّا. بل خان، فكر وخان مجددًا.

بعد أن خان، أصابه الغم، لشعوره أنه ليس على ما يرام.

أجهز على السيجارة عن آخرها، بل وانطفأ عقبها، ثم سحب ميتيا بعض هواء من الفلتر، محدثًا صفيرًا. بعد أن أطلق عقب السيجارة على أطلال السلك المتهدم، نظر ميتيا إلى الجهة الأخرى من الشجرة. توارى العجوز في خضار الربيع، مشى بحرص شديد، محددًا بالعصا التي تتقدمه النقطة، التي تبعد عنه مسافة خطوتين بالضبط.

- أنا مذنب، أيها العجوز، قال ميتيا. – مذنب أنا.

# معجم الأعلام

**إدوارد ليمونوف**

كاتب وشاعر قومي روسي وناقد اجتماعي. أحد أكثر الكتاب إثارة للجدل في جيله، يلقبه بعض علماء السياسة بالفاشي. إنه المؤسس والقائد الذي لا بديل عنه للحزب القومي البلشفي الراديكالي المحظور، معارض شرس، قائد حركة "روسيا الأخرى". ولد كاتب وسياسي المستقبل في ٢٢ فبراير عام ١٩٤٣ في دزيرجينسك، مدينة صناعية على نهر أكا، بالقرب من نيجني نوفجورود لعائلة ضابط الجيش السوفتي فينيامين إيفانوفيتش سافينكا وزوجته رايسا فيودوروفنا، التي هجرت عملها بعد مولد الطفل وتفرغت تمامًا لبيتها. انتقلت العائلة بينما إدوارد لا زال صغيرًا عام ١٩٤٧ إلى العيش في خراكوف، المدينة الأوكرانية التي شبَّ فيها ليمونوف. يعيش الكاتب اليوم في موسكو ويتمتع بشهر واسعة سواء داخل روسيا أو في الخارج، وتعد أعماله من أكثر الأعمال ذيوعًا بين القراء.

**سفيتلانا أليكسيفيتش**

ولدت الكاتبة سفيتلانا أليكسيفيتش، الحاصلة على جائزة نوبل عام ٢٠١٥، عام ١٩٤٨ في المدينة الأوكرانية إيفانوفراكفيسك، لأم أوكرانية وأب بيلاروسي. انتقلت العائلة للعيش في بيلاروسيا بعد أن أنهى والدها الخدمة العسكرية. عملها الأول "وجه الحرب غير الأنثوي" واحد من مجموعة

كتب لسفيتلانا حملت اسم "أصوات اليوتوبيا"، الـــتي قامت فيها برسم صورة للاتحاد السوفيتي من وجهة نظر الإنسان العادي، ثم طبقت طريقتها التاريخية الثورية، وهي عبارة عن كولاج لمَجموعة من الأصوات البشرية، خاصة بكارثة تشيرنوبل في كتابها "صلاة تشيرنوبل" الـــذي صدر عام ١٩٩٧، ثم الحرب السوفيتية على أفغانستان في كتابها "فتيان الزنك"، الذي صدر عام ١٩٩٠. قضت الكاتبة، التي انتقدت الاتحاد السوفيتي، ثم النظام البيلاروسي بعد ذلك، جزءاً من حياتها في الخارج، من إيطاليا لفرنسا، ومن ألمانيا للسويد. وقد لاقت أعمالها المترجمة للعربية قبولاً واسعًا لدى القارئ العربي...

**فلاديمير لينين**

قائد الثورة البلشفية الذي ولد عام ١٨٧٠، الذي اشتهر باسم أوليانوف، وقد أطلق هذا الاسم على مسقط رأسه مدينة سيمبرسك، حيث صارت الآن تحمل اسم أوليانوفسك. فصل فلاديمير لينين من الجامعة؛ بسبب مشاركته في مظاهرات طلابية حيث كان يدرس القانون في جامعة قازان. نفي إلى سيبيريا بعد اعتقاله جراء نشاطه السياسي المعارض للسلطة، ومشاركة أخوه في محاولة لاغتيال القيصر ألكسندر الثالث. وقد غادر أوليانوف روسيا إلى سويسرا غير مرة وواصل نشاطه ضد السلطة. عاد في عام ١٩٠٥ لفترة ليشارك في الثورة على النظام، لكنه ما لبث أن عاد لسويسرا مجددًا. وقد نجح لينين مع أتباعه في إرساء قواعد الدولة السوفيتية بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧.

**زفياد جامساخورديا**

معارض سياسي، عالم، كاتب جورجي ولد في الحادي والثلاثين من مارس عام ١٩٣٩، وتُوفي في آخر ديسمبر من عام ١٩٩٣. تولى مقاليد السلطة في جورجيا في فترة ما بعد سقوط الاتحاد السوفيتي. أسس زفياد جماعة مستقلة معارضة من الشباب أطلق عليها اسم جورجاسلياني في إشارة إلى سلالة الملوك الجورجيين القديمة هدفها رصد ونشر تقارير عن ممارسات السلطة ضد حقوق الإنسان. وجدير بالذكر أن جورجيا، نظرًا إلى ارتباطها باسم ستالين جورجي الأصل، فقد عانت من تقييد حريات التعبير الثقافي خلال حقبة الخمسينيات. تعرض للاعتقال عام ١٩٥٦ خلال مظاهرات في تبليسي مناهضة للسياسات السوفيتية، ودخل السجن مجددًا عام ١٩٥٨ لتوزيع منشورات ضد الشيوعية. وخلال حكم جارباتشوف للاتحاد السوفيتي، وبعد إعلانه سياسية الجلاسنوست، لعب زفياد دورًا محوريًا في تنظيم مسيرات حاشدة تطالب بالاستقلال في جوجيا بين أعوام ١٩٨٧ و١٩٩٠. وفي مارس من عام ١٩٩١، جرى استفتاء على استعادة استقلال ما قبل الاتحاد السوفيتي، وهو ما حظي بتأييد أكثر من ٩٠% من المشاركين، تبعه إعلان البرلمان الجورجي استقلال جورجيا في أبريل من العام نفسه. وفي السادس والعشرين من مايو تم اختيار زفياد جامساخورديا رئيسًا للبلاد.

**المؤلف فى سطور:**

**دينيس نيكالايفيتش جوتسكو**

ولد عام ١٩٦٩ في تبليسي بجورجيا، الاتحاد السوفيتي. حصل على جائزة البوكر الروسية عام ٢٠٠٥ عن روايته "دون طريق، بلا أثر." خدم في الجيش السوفيتي في القوقاز، وتخرج في كلية الجيولوجيا والجغرافيا، جامعة روستوف، متخصصًا في علوم "البيئة والكيمياء الجيولوجية التطبيقية". عمل على مدار عشر سنوات كحارس أمن في أحد البنوك، حيث انتهك كل التعليمات أثناء العمل، لأنه كان يمارس الكتابة، ونتيجة لهذه الانتهاكات ولدت رواية "متحدث الروسية". هذه قصة رجل شاهد طيلة حياته الانهيار والفوضى: انهيار الدولة، والإيديولوجية، والجيش، والبحرية، والعلم، والحياة، والعائلة والصداقة. الرواية أقرب ما تكون إلى السيرة الذاتية؛ لأنه من الحماقة أن تخترع شيئًا رأيته بنفسك وعايشته بشكل يفوق حد الخيال. جدير بالذكر أن دينيس جوتسكو حصل عن روايته "متحدث الروسية" على جائزة باريس سوكولوف.

يمكن القول بكل ثقة: إن أعمال دينيس جوتسكو تتميز بنثر عفي، تتجسد فيها روح العصر، وتجربة الكاتب الخاصة. ثمة حياة حقيقية تنبض في
تلك الأعمال.

**المترجم فى سطور:**

**أحمد صلاح الدين**

كاتب ومترجم مصري. ولد في القاهرة في الحادي والعشرين من نوفمبر عام 1973. يترجم عن الإنجليزية والروسية. درس اللغة الإنجليزية وآدابها بقسم اللغة الإنجليزية، جامعة عين شمس. بدأ العمل في مجال الترجمة أثناء دراسته الجامعية عام 1992. عمل باحثًا لغويًّا ومترجمًا، مدير مشروعات لعدد من المؤسسات ودور النشر الدولية، العربية، المحلية لسنوات طويلة. سافر عام 2001 إلى موسكو لدراسة اللغة الروسية والأدب الروسي، بجامعة رودين، وأتم دراسته حاصلاً على تقدير امتياز. تقدم لنيل درجة الماجستير في الأدب المقارن، لكنه لم يستكمله. عاد إلى القاهرة عام 2004. أشرف على ترجمة ٢٠ مليون كلمة في كل اللغات، وترجم ما تجاوز ٥ ملايين كلمة، في جميع المجالات، بين الإنجليزية والروسية والعربية. تفرغ للكتابة وترجمة الأدب منذ عام ٢٠١٤. يكتب لعدد من الصحف المحلية والإقليمية باللغة العربية، إضافةً إلى كتاباته باللغة الإنجليزية، التي تنشر في عدد من الصحف والمجلات والمواقع.

**من أعماله...**

١) صلاة تشرنوبل، جائزة نوبل ٢٠١٥.

٢) دولة الحب... مراسلات تالستوي وغاندي.

**يصدر له قريبا...**

١) الشرق الأوروبي في أعمال الإدريسي.

٢) رواية الحذاء، زاخار بريليبين.

٣) مذاكرات فتاة صغيرة، آن فرانك.

٤) ديوان شعر، أولجا خوخلوفا.

٥) الحياة في مصر، ديميتري كارياجين.



"إلى هناك – إلى هناك"، – ردّدت قضبان السكك الحديدية، يعلم، أن هذه النوستالجيا، للوطن - في تبليسي - ما عاد بوسعه التغلُّب عليها أبدًا، لكنه كان يعرف شيئًا آخر: إنه لن يعود أبدًا إلى الوطن. هذه المدينة، تبليسي، تلك التي وُلد وعاش فيها، لم يعد لها وجود، ولن تعود إلى الحياة مرة أخرى، مدينته تبلِيسي ماتت، وكل هذه الجماهير المحتشدة، الهائجة، التي تتدفق من روستافيلي، عبر الجسر الكائن فوق نهر كورو، إلى بليخانوفسكي وما وراءها، في خط ممتد من السوق حتى شاطئِ النهر، – ليست سوى جنازة!

الحقيقة، أن المرة التي خان فيها نفسه بالفعل كانت عندما جلس أمام شاشات المراقبة في "يوجانفيست" في غيبوبة هادئة راضية. خلال تلك السنوات ذاتها التي توجّب فيها على الرجال أن يبذلوا قصارى جهدهم، أن يبنوا القصور أو حتى أن يلقوا حتفهم. ليس هناك حاجة إلى سنوات رديئة، سنوات يمكن وصفها كاملة، برسم صورة ليوم واحد منها فحسب: أن تعيش، ولا تحاول، ولو كذبًا، أن تتطلع نحو الأفضل. لقد خان البلد، التي اعتزم الوقوع في غرامها، وأن يربي ابنه فيها، لأنه لم يشارك في العراك، ولم يمتلك من الشجاعة ما يكفي كي يحاول، على أقل تقدير، أن يقوم بهذا ولو على طريقته. أن يضع حدًا، لشيء كريه، وعندما أخبروه: أن الأمر "سيكون على هذا النحو"، طأطأ رأسه، وانزوى في صمت. وعندما اغتصبوا البلد، قال: "أيتها العاهرة!"، خانها عندما سمّى المرض بالمصير، عندما لم يلحظ الفارق بين الروسي والمسكين الذي يتحدث الروسية. خانها، عندما أقر بالاحتيال باعتباره قاعدة للعبة.